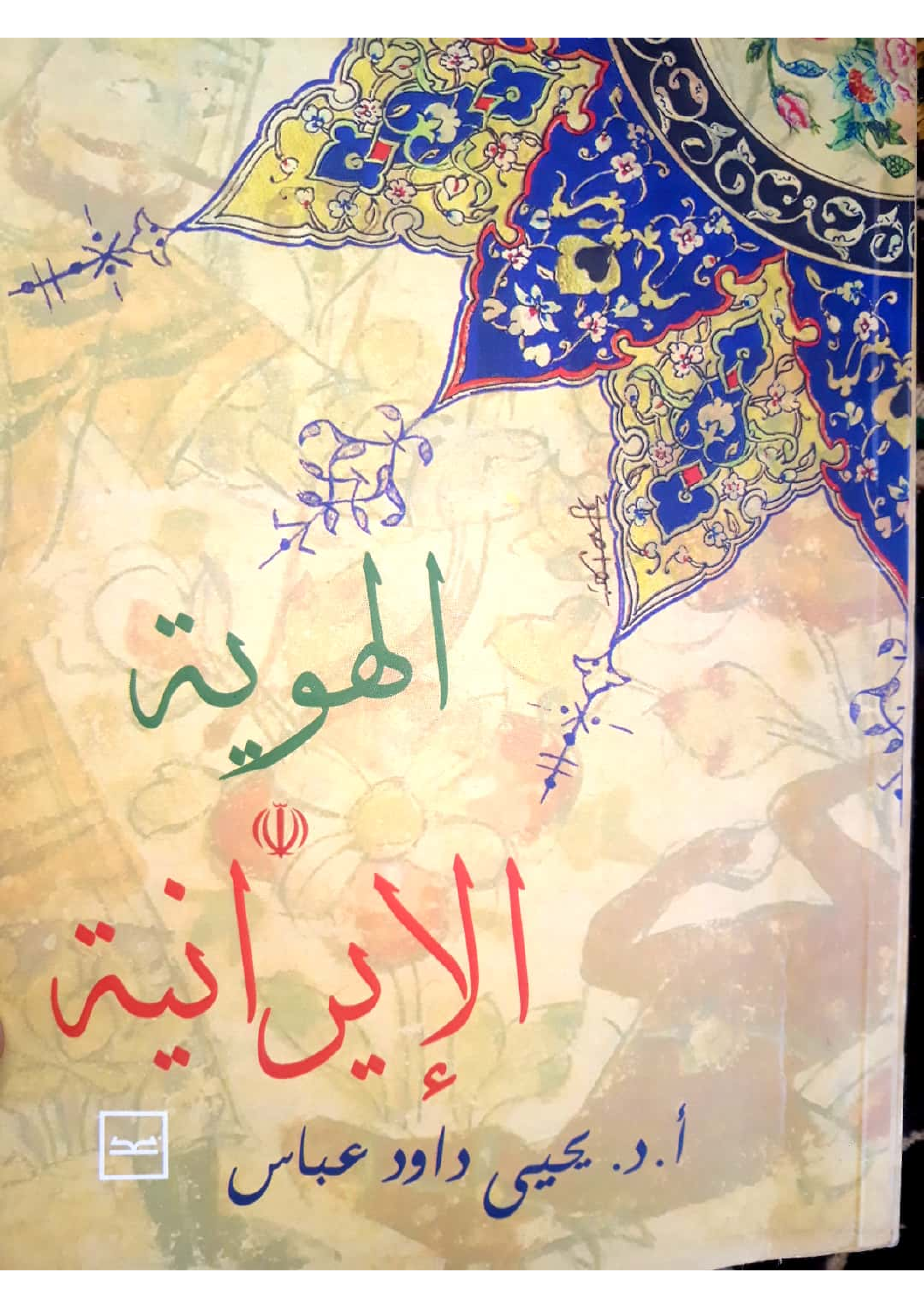


الهوية
الإيرانية
أ.د. يحيى داود عباس

الهُوية الإيرانية

من مؤلفات أستاذ ورئيس قسم اللغة

الفارسية الأسبق

كلية اللغات والترجمة

جامعة الأزهر

أ.د. يحيي داود عباس

تعريف بالمؤلف

أ.د. يحيى داود عباس باحث ومفكر وأديب يعتني بالشئون الإيرانية داخلياً وخارجياً بشكل موضوعي أكاديمي غير متعصب، وفيما يلي سيرته المهنية:

- حاصل على الليسانس من قسم اللغات الشرقية – كلية الآداب – جامعة عين شمس – شعبة اللغة الفارسية وآدابها عام 1972م (بتقدير عام ممتاز مع مرتبة الشرف).
- حاصل على درجة الماجستير في الآداب عام 1977 بتقدير ممتاز، وموضوع الرسالة هو: همام الدين التبريزي – عصره – بيئته – شعره، مع ترجمة منتخبات من ديوانه – كلية الآداب – جامعة عين شمس.
- حاصل على درجة دكتور في الآداب عام 1983م بتقدير: مرتبة الشرف الأولى، وموضوع الرسالة: الغزل في الأدب الفارسي من سعدي إلى حافظ – كلية الآداب – جامعة عين شمس.
- حاصل على درجة أستاذ مساعد في 1992/6/30 م، وعلى درجة أستاذ في 1998/4/1 م.

- عضو بعثة دراسية سافرت إلى إيران في أكتوبر عام 1976م على نفقة الدولة لتعلم اللغة الفارسية وآدابها في جامعة طهران، لمدة عامين (في عصر إيران الملكية).
- قام بتدريس اللغة الفارسية بدولة قطر في المدة من أكتوبر 1986م وحتى ديسمبر 1990م، وفي الفترة من 2001 م إلى2002 م.
- قام بتدريس اللغة الفارسية بدولة الأردن في الفترة من 2004/9/13 م إلى 2005/9/12م، في كلية الآداب – جامعة اليرموك.
- رئيس قسم اللغة الفارسية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر في الفترة من 2002/8/1 م إلى 2004/8/31 م، وفي الفترة من 2007/9/24م وحتى 2009/7/31 م.
- قام بالإشراف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه ومناقشتها في كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر وغيرها من الكليات التابعة للجامعات المصرية.
- شارك في عدد كبير من المؤتمرات والندوات التي تُعقد في الجامعات ومراكز البحوث المصرية وغير المصرية، وألقى فيها كلمات وأبحاثاً.

قائمة ببعض المؤلفات (كتب – بحوث – مقالات)

أولاً: الكتب العربية:

- اللغة الفارسية (القواعد والنصوص) – 1404 هـ / 1984م (بالاشتراك).
- الفارسية الحديثة (القواعد والنصوص) – 1405 هـ / 1985م (بالاشتراك).
- ملامح من التأثير والتأثر بين العرب والفرس 1405 – هـ/1985م (بالاشتراك).
- الفارسية وصلتها بالعربية والتركية والأردية – 1416 هـ/ 1995م.
- سمر قند (تاريخها وحضارتها) مركز بحوث العالم التركي – 1995م.

ثانياً: الكتب الفارسية:

- اقليتهاي مذهبي در جمهوري إسلامي إيران (الأقليات الدينية في الجمهورية الإسلامية الإيرانية) – 1410 هـ / 1990م.

- نماز جمعه در إيران درگذشته وحال (صلاة الجمعة في إيران في الماضي والحاضر) – 1410هـ / 1990م.
- شكار در شاهنامه فردوسي (الصيد في شاهنامة الفردوسي) – 1412هـ / 1991م.
- غلامان وكنيزكان در دوره هاي ساماني وغزنوى وسلجوقي (الغلمان والقيان في العصر: الساماني والغزنوي والسلجوقي) – 1412 هـ / 1991م.

ثالثاً: مقالات نشرت في مجلة كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر

- الغزل عند الأمير خسرو الدهلوي – العدد العاشر 1985 م.
- شيراز في شعر السعدي والحافظ – العدد الثاني عشر 1406 هـ/ 1985م.
- الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً في جمهورية إيران الإسلامية – العدد الثالث عشر 1406 هـ / 1986 م.

رابعاً: مقالات وبحوث متفرقة:

- كتاب الثلاث والسبعون فرقة بين كتب الفرق الإسلامية
  -كتاب: بحوث فارسية الذي أصدره قسم اللغة الفارسية
  - كلية اللغات والترجمة عام 1993م.
- چهار شنبه سوري (ليلة الأربعاء الأخير من السنة الإيرانية الشمسية) - كتاب: مقالات فارسية - 1415هـ / 1994م.
- عشرة الفجر وأهميتها في تاريخ إيران المعاصر: بحث منشور في كتاب (منتخبات فارسية) الذي أصدره قسم اللغة الفارسية بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر في عام 1995م.
- أهم الأعياد والمناسبات الدينية والمذهبية والسياسية والقومية بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران: بحث منشور في مجلة بحوث الشرق الأوسط (الملف الإيراني - العدد الثاني - أكتوبر 1996 م).
- إطلالة على الخط الفارسي ودور الفرس في تطوير الخطوط الإسلامية. بحث ألقي في المؤتمر الدولي (الدراسات

الإسلامية عند غير العرب) الذي عقد في القاهرة في الفترة من 20 إلى 22 مايو 1997م.

- الحوزة الدينية في إيران: بحث منشور في مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط – العدد (205) – (إيران في التسعينات) 1997 م
- الفخر بالذات عند الشعراء الفرس حتى العصر السلجوقي: بحث منشور بمجلة الدراسات الشرقية – العدد (17) – يوليو 1996م – الجزء الأول.
- الدقيقي شاعر غنائي أم شاعر ملحمي؟ (مقالة مترجمة) – كتاب: دراسات فارسية الذي أصدره قسم اللغة الفارسية بكلية اللغات والترجمة عام 1992م.
- دور الترجمة في التعريف بالأدب الفارسي والثقافة الفارسية.
- قراءة في كتب الأدعية والزيارات الإيرانية: الملف الإيراني – العدد (10) – مايو 1998م.
- قراءة في قصيدة للخاقاني الشرواني – عام 2003م.
- شخصيات ونماذج أدبية شرقية انتقلت إلى القصص الغربية – 2003م (ندوة المجلس الأعلى للثقافة – 14: 16 / 6 / 2003م.

- عدد من المقالات السياسية المترجمة من الفارسية إلى العربية عن العولمة وتداعيات أحداث الحادي عشر من سبتمبر.
- موقف إيران من القضية الفلسطينية بعد الثورة الإسلامية، وصدى هذا الموقف في الشعر.

بالإضافة إلى عدد كبير من المقالات المنشورة في مجلة "مختارات إيرانية" التي تصدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية التابع لمؤسسة الأهرام، مثل: هجرة الإيرانيين داخل إيران وخارجها - المكانة الدينية لبعض الشهور في إيران قبل الثورة وبعدها - جهاد سازندگي وجهاد دانشگاهي (جهاد البناء والجهاد الجامعي) - أوضاع المهاجرين الأفغان في إيران - هكذا تكلم سعدي الشيرازي - السفور والحجاب قبل الثورة الإيرانية وبعدها - عدد كبير من المصطلحات الإيرانية (الفارسية) - المؤسسة الدينية في إيران - هوامش على دفتر إيران وثورتها - نماذج من الشعر الإيراني عن فلسطين - من أفكار علي شريعتي وتعبيراته - بلوش إيران - اقتصاد المنتج الواحد (البترول) - انتفاضة الغابة - الآذريون في إيران - إيران وشرق أفريقيا - تاريخ البترول في إيران - تاريخ الجمهورية في إيران - ثقافة الشهادة في الفكر الإيراني - مراحل تطور النشيد الوطني والعلم الإيراني - من عادات الشعب الإيراني

وتقاليده – تيار حزب الله في إيران – الحسينيات والتكايا ودورها في إيران في الماضي والحاضر – تركمان إيران – إيران: تاريخ طويل من الزلازل – الأتراك يحكمون إيران فترات طويلة – أهم ثلاثة أحزاب في تاريخ إيران المعاصر – الهُوية الإيرانية من منظور علم الاجتماع – الدين والمذهب الإيرانية – الأساطير الإيرانية – الأعياد والمناسبات القومية الإيرانية – اللغة الفارسية والهُوية الإيرانية – هوامش على الدستور الإيراني – تجربة الأحزاب في إيران – مُلا نصر الدين.. جحا المصري – مكانة الرقم (7) ودلالاته عند الإيرانيين – البابية والبهائية في إيران بين مطرقة الماضي وسندان الحاضر – من مقارنات على شريعتي ... إلخ.

إهداء

بكل حبٍ وفخرٍ واعتزاز نُهدي إليك يا والدي هذا الكتاب، في سابقة جديدة من نوعها "على حد عِلمنا" وهي أن يُهدى الكتابُ إلى مؤلفِ الكتابَ.

هناء عبد المنعم (الزوجة)

مدحت يحيى (الابن)

سمر يحيى (الابنة)

نرمين يحيى (الابنة)

هشام يحيى (الابن)

نرمين وهبة (زوجة الابن)

أيمن عبد العظيم (زوج الابنة)

محمد صبري (زوج الابنة)

شيماء أشرف (زوجة الابن)

مقدمة الابن

إلى والدي العزيز الذي تعلمت منه حب اللغة العربية وآدابها، تعلمت منه حب العدل والإنصاف، وكان ولا يزال مثالاً يُحتذى به على مر الزمان والعصور "بما أن جيلنا شهد العديد من العصور في فترة زمنية قليلة"، مثالاً في الأمانة والدقة والنزاهة والشفافية والتفاني في إتقان العمل، لم يسعَ إلى أي شهرة ولا مكانة حتى وإن كان يستحقها عن جدارة، ولطالما كنت غيوراً على مكانته التي يستحقها وأقف عاجزاً عن عمل شيء قد يساهم في ذلك الشأن، حتى جاءت إلى هذه الفكرة وهي جمع مقالاته المطولة المنشورة بمجلة مختارات إيرانية، الصادرة عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، تحت عنوان الهُوية الإيرانية، في كتاب يحمل نفس الاسم، وكم كانت تجربة رائعة لغير متخصص مثلي في الشأن الإيراني أن يخرج من عباءة نظرة العداوة الدائمة لإيران والإيرانيين، وهي النظرة الرسمية في مصر ومعظم دول الخليج، وهي ليست من فراغ ولهم مبرراتهم في ذلك، لكنها مبررات سياسية قبل أن تكون دينية، ولا شأن لعلوم الاجتماع بالسياسة، وكما أنه يؤخذ على هذا المنظور أنه منظور ضيق جداً كعادة الاتجاهات السائدة في العالم

العربي، لكنني تعودت من والدي بالأفعال لا بالأقوال أن أنظر إلى الآخر أو إلى الموضوع بإنصاف حتى أرى الجوانب الأخرى من المكعب، وليس الوجه المقابل لي فقط أو الوجه المشهور في عيون الآخرين فقط أو الوجه المراد إظهاره فقط.

ما أسهل الكتابة في أو عن عداوة إيران وضلال الجمهورية الإسلامية الإيرانية، كل المنابر ترحب بك إذا كنت تهاجم إيران، ولكن حتى الأعداء يستحقون أن تراهم على حقيقتهم كبشر أو كمجموعة من البشر ارتبطت مصائرهم بالنظام السياسي الحاكم لهم، الذي قد يتغير ويتغير معه كل العلاقات بالدول المحيطة، وهذا ما قد حدث بالفعل في إيران مع تحول إيران من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري المبني على سلطة رجال الدين.

في عالمنا العربي ما أصعب أن تنقل الواقع كما هو بدون أحكام مسبقة سواء بالسلب أو الإيجاب، "وهذا هو دور المتخصصين وواجبهم"، حتى نفهم الآخر أو نفهم موضوع البحث كما هو، بدءاً من اختيار الموضوع كما في حالة عنوان هذا الكتاب: الهُوية الإيرانية، فكيف تفهم هوية قوم ليس بينك وبينهم أي تواصل؟! مجرد عداء متبادل على الصعيد السياسي والرسمي أو عزلة مفروضة وضرورية للحفاظ على توازن القوى في المنطقة.

الهُوية الإيرانية عنوان براق ينتظر منه الكثير من التأصيل لرمز من رموز الشر في المنطقة العربية، ولذلك ليس سهلاً أن تتحرر من هذا القيد وتأخذ الموضوع من باب علم الاجتماع، ليس سهلاً أن تحاول أن توسع وجهة نظرك لتشمل مختلف الجوانب الإنسانية، بل مختلف مقومات المجتمع الإيراني، ليس سهلاً أن تتخطى الحدود المعنوية للجمهورية الإسلامية الإيرانية التي تعتبر دولة حديثة بل متفردة في شكلها الحالي، وذلك لأن إيران واحدة من أقدم الدول في المنطقة وواحدة من أقدم الحضارات، لذا فمناقشة هُوية بلد كإيران موضوع أعقد وأكبر من شكل دولة إيران الحالي، ناهيك عن صعوبة موضوع الهُوية في العموم، والذي يبدأ من الفرد وينسحب على الجماعة والمجتمع والثقافة وليس العكس، كما جاء في توطئة الدكتور علي وطفة في بداية ترجمته لكتاب الهُوية لأليكس ميكشيللي، وهي مقدمة من روعتها تصلح أن تكون مقدمة لأي كتاب يتحدث عن الهُوية، حيث قال بأن مفهوم الهُوية يُطلق على نسق المعايير التي يعرف بها الفرد ويُعرف وينسحب ذلك على هُوية الجماعة والمجتمع والثقافة، كما أكد أن مفهوم الهُوية من المفاهيم المركزية وأنها من أكثر المفاهيم تغلغلاً في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، وأكثرها شيوعاً. وبالرغم من ذلك فالهُوية أكثر تعقيداً من بساطتها الظاهرية لكثرة تداولها، فالهُوية ليست كياناً يعطى دفعة واحدة وإلى الأبد. إنها حقيقة

تولد وتنمو، وتتكون وتتغاير، وتشيخ وتعاني من الأزمات الوجودية والاستلاب. كل هذا التعقيد في مفهوم الهُوية وتحديات اختيار بلد كإيران في العالم العربي، تعامل معه مؤلف هذا الكتاب بسلاسة وتجرد نادر في عالمنا العربي بدون تجميل أو تقبيح. أعلم أن شهادتي مجروحة في والدي، ولكن متن الكتاب بين أيديكم وأترك لكم الحكم.

هذا الكتاب مقسوم إلى قسمين، قسم يتناول الهُوية بشكل مباشر من وجهة نظر مؤلف الكتاب، أما القسم الثاني وهو لا يعتبر إضافة مباشرة إلى محاور الهُوية عند علماء الاجتماع، ولكنها قد تضيف إلى تكوين صورة واضحة للدولة الإيرانية الحديثة، وهو عبارة عن تجميع لمقالات كانت قد نشرت بمجلة مختارات إيرانية والصادرة عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، وقد يكون لها أثر في شكل الهُوية الإيرانية بشكل غير مباشر في الوقت الحالي أو المستقبل.

مدحت يحيى داود

مقدمة المؤلف

مفهوم الهُوية (بضم الهاء وتشديد الياء) واحد من أعقد مفاهيم العلوم الاجتماعية؛ وللهوية الوطنية عناصر متعددة وأبعاد مختلفة، ومن الصعب اختزال هوية دولة من الدول في عنصر واحد أو بعد واحد، ولكل مجتمع خصائصه المؤثرة في هويته، ولا يمكن دراسة هذه الخصائص إلا عن طريق الدراسات الاجتماعية. وأكثر المجتمعات توفيقاً هي التي تستطيع أن تحقق مبدأ الهُوية الواحدة، والتي تعترف في الوقت نفسه بالفروق الثقافية وبأوجه الاختلاف الخاصة بالهُوية بين الطوائف المختلفة. والهُوية تتكون من طبقات تشبه طبقات الأرض، والانفصال التام عن الهُوية السابقة أو القديمة غير ممكن؛ لأن الحاضر مبني على الماضي، والمستقبل مزيج من الماضي والحاضر. وأبرز خصائص المجتمع الإيراني هي: التنوع الاجتماعي، أي تنوع القوميات والأعراق، حيث يوجد في إيران ثمانية أقوام: الفرس – التركمان – الأكراد – العرب – الآذريون – البلوش – اللر – الطالشيون. والتنوع الثقافي وهو عبارة تنوع لغوي: آري – سامي (عربي، عبري، آشوري) – أورالتائي (تركي، مغولي). وتنوع ديني: إسلامي – زردشتي – يهودي – مسيحي –

مندائي (طائفة تتخذ من الماء الجاري رمزاً لطهارتها وتؤمن بأن آخر الأنبياء هو يحيى بن زكريا في المصادر العربية والإسلامية، وهو يوحنا المعمدان في المصادر اليهودية والمسيحية). ويرجع سبب هذا التنوع إلى الهجرة إلى إيران أو الإغارة عليها أو فتحها في عصور تاريخية مختلفة. وعلى الرغم من أن المجتمع الإيراني متعدد القوميات، فإن هذه القوميات تعيش في إيران بثقافات مختلفة تحت راية واحدة، وتكاد تكون الحدود الاجتماعية والثقافية للأقوام الثمانية متداخلة مع بعضها البعض. وتتجلى الهُوية الإيرانية في أوضح صورها في العصر الصفوي (907 – 1248 هـ.ق)، حيث تم تكوين دولة وطنية في إيران للمرة الأولى، وقامت الهُوية الإيرانية آنذاك على مصدرين رئيسيين هما: الميراث الإيراني والمذهب الشيعي.

ويرى المستشرقون أن إيران المعاصرة تتأرجح مثل بندول الساعة بين ثلاث هويات: الهُوية الدينية الإسلامية التي بدأت بعد الفتح الإسلامي، والهُوية الفارسية التي تتغنى بالماضي وأمجاده، والهُوية التي تتضمن الثقافة الغربية وتتبناها منذ أن انفتحت إيران على الغرب منذ العصر الصفوي. وعلى الرغم من أن الهويات ليست كيانات جامدة، بل هي ظاهرة سيالة ونسبية ومتجددة، إلا أن مقولة الهُوية من المقولات التي تثير الجدل في المؤتمرات والمنتديات السياسية

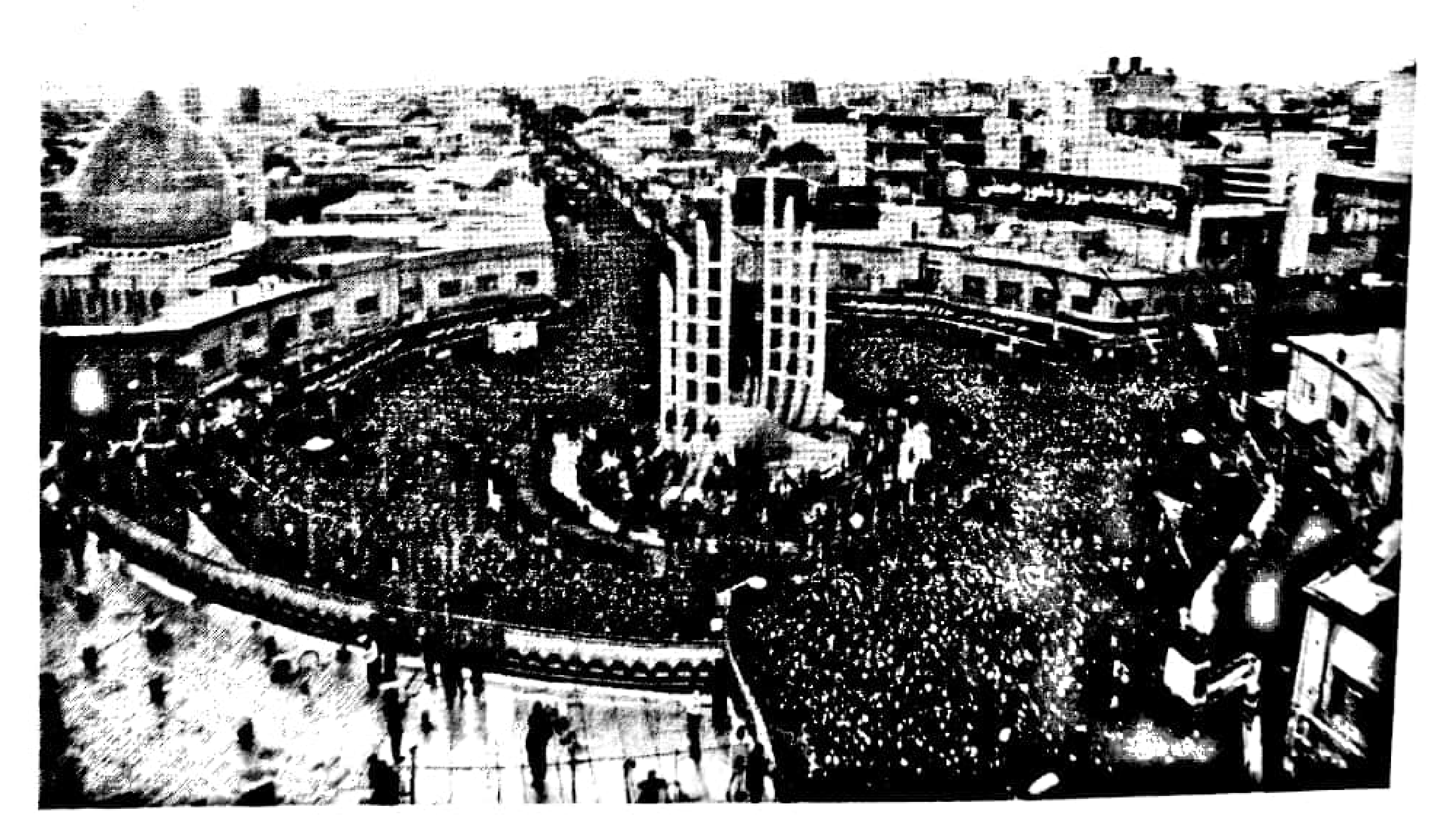
والثقافية التي تعقد في إيران في عصرنا الحاضر. وهم يرون – بعد قيام الثورة الإسلامية في عام 1979 م – أن استرجاع هوية إيران يعد من أهم نتائج انتصار الثورة وأحد مكاسبها.

وجدير بالذكر أن موضوع الهُوية الإيرانية لم يطرح على بساط البحث من قبل في مصر، على الأقل، ربما تحدث البعض عن الشخصية الإيرانية وخصائصها، إلا أن موضوع الهُوية موضوع جديد ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد جالت دراسة هذا الموضوع في خاطري وأنا في إيران أثناء تجولي في معرض الكتاب الدولي الخامس والعشرين الذي عقد في طهران عام 2012، فجمعت ما تيسر من الكتب التي تهتم بموضوع الهُوية، وعلى الرغم من أنني لم أعثر على كل ما كتب حول هذا الموضوع، فإنني أخذت بمبدأ: ما لا يدرك كله لا يترك جله.

أ.د. يحيى داود عباس

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل الأول: الهُوية الإيرانية من منظور علم الاجتماع



إنقلاب، زنجان، إيران. تصوير بهرام بيات

Https://Unsplash.com

الهُوية الإيرانية من منظور علم الاجتماع

يتمتع المجتمع الإيراني - إلى جانب السابقة التاريخية القديمة - بخصائص فريدة أخرى كان لها تأثيرها على هُويته، ولا يمكن دراسة هذه الخصائص إلا عن طريق بحوث علم الاجتماع. والتنوع والتعدد الاجتماعي لهذا المجتمع يعد أحد أبرز هذه الخصائص، ومما لا شك فيه أن هذا التنوع الذي استمر على مر الزمان كان له تأثيره الواضح على الهُوية العامة للمجتمع الإيراني وعلى هُويته القومية. وبناءً على هذا، فإنه من أجل إدراك وفهم الأبعاد المعقدة نسبياً لطبيعة الإيرانيين وهُويتهم القومية، فإنه يكون مفيداً أن تتم دراسة التنوع الثقافي والاجتماعي والعوامل التي كانت سبباً في بقاء هذا المجتمع، وفي استمرار وحدته المثيرة للدهشة في الوقت نفسه على مر الزمن.

وجدير بالذكر أنه يوجد اختلاف في وجهات النظر حول تاريخ ظهور الهُوية القومية والهُوية الوطنية، ففريق قال إنها مولودة مع الإنسان، وإنها ذاتية وأزلية، وفريق آخر قال إنها ظاهرة تاريخية وليست أزلية، وإن التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية، والتنمية غير المتوازنة، والاستعمار وتداعياته كانت كلها أسباب أدت إلى ظهور ودعم الهُويات القومية المعاصرة،

واعتبر البعض التطورات السياسية والاجتماعية والثقافية من عوامل ظهور وتقوية الهُوية بصفة عامة، والهُوية القومية والوطنية بصفة خاصة.

ولدولة إيران خصائص تاريخية وثقافية وسكانية وجغرافية جعلت منها دولة عريقة صاحبة هُوية قومية ووطنية فريدة، وإيران من الدول القليلة (مثل الصين واليابان) التي يتصل تاريخها بعصر الأساطير، فالأساطير الإيرانية تربط مصير الإيرانيين ببداية خلق البشر والمجتمع الإنساني. وعلى الرغم من أن إيران تعرضت على مر الزمن لهزائم على أيدي الغزاة الأجانب مثل: الإسكندر الأكبر- جنكيز خان - تيمورلنك - العرب - الأتراك - التورانيين، لكن الإيرانيين حافظوا على هُويتهم، وهضموا المحاربين الفاتحين في ثقافتهم العريقة القديمة.

أما فيما يتعلق بالسيادة السياسية، فكل الأقوام التي وصلت إلى سدة الحكم حكمت باسم إيران والسلاسل الإيرانية ابتداء من الماديين ومروراً بالبارسيين والبارتيين، وانتهاء بالقبائل والأقوام الحديثة التالية لهم مثل: حكام شبانكاره والأتابكة والصفويين والزنديين والقاجاريين والبهلويين. وتذكر كتب التاريخ أن الأقوام الإيرانية كانت على قلب رجل واحد منذ آلاف السنين، لم يوحدهم

القهر والهزيمة وفتح البلاد وترسيم الحدود الاستعمارية والهجرة أو حتى التهجير الإجباري، ولم يصبحوا أقلية أو أكثرية، وكل هذه الأقوام حكمت باسم إيران غير مرة آلاف السنين التي هي عمر هذه البلاد، ثقافتهم واحدة، ودينهم مشترك، وآدابهم وعاداتهم وأعرافهم مشتركة دون أي إحساس بالكراهية والعداء تجاه بعضهم البعض. اتحدوا وحافظوا على البلاد من شر الحوادث وهجوم الأجانب، لدرجة أنه لا يحق لأي قوم أن يفخروا على القوم الآخرين، لأنهم جميعاً من عائلة واحدة.

وعلى الرغم من هذا الواقع التاريخي الذي لا مراء فيه، فإن إيران دولة متنوعة قومياً ومتعددة ثقافياً، وفيها لغات محلية مثل: الكردية – التركية – البلوشية – اللورية – العربية إلى جانب اللغة الفارسية، ولكل قوم من هذه الأقوام ثقافته الخاصة إلى جانب الثقافة الوطنية العامة. وعلى الرغم من أن سياسة الأسرة البهلوية (1925 – 1979م) قامت على التشابه الثقافي والمركزية، إلا أنها اقترنت في الوقت نفسه بسياسة تغيير الهُويات الثقافية في ظل الحكم البوليسي المخيف، إلا أن السياسة العامة التي مورست بعد قيام الثورة الإسلامية في عام 1979م حطمت هذه المعادلات، وكرست مبدأ الانسجام الوطني القائم على قبول تنوع الهُويات الثقافية إلى جانب

معايير وعناصر الهُوية التي يشارك فيها جميع الإيرانيين مثل: الدين الإسلامي– الأرض المشتركة – الإيرانية والآرية – اللغة الفارسية – الأعراف والآداب والعادات والقيم المشتركة – الأساطير والرموز الوطنية والدينية المشتركة – السابقة التاريخية، وسائر المشتركات الموجودة في البلاد.

أسباب التنوع القومي–الثقافي في إيران:

كانت إيران دائماً مستقراً لأقوام لهم ثقافات متنوعة حتى قبل أن تتوحد وتصبح دولة موحدة على يد كوروش في عام 550 ق.م، وعلى الرغم من أن الفروق الجسمانية (العنصر والعرق) وغير الجسمانية (الثقافة) هي سبب التنوع القومي–الثقافي، إلا أن العنصر والعرق والفروق الجسمانية لا تلعب دوراً مهماً في التنوع القومي–الثقافي في إيران. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الثقافة هي العامل المحدد للتنوع القومي، فالتركمان وبضعة أقوام صغيرة أخرى في إيران يتميزون بخصائص عنصرية وعرقية ملفتة للنظر. فضلاً عن هذا، فإنه مع الأخذ في الاعتبار أن الإسلام لا يعد العنصر ولون الجلد معياراً لعدم المساواة، ولتحديد هُوية مستقلة فيما بين المسلمين، يمكن القول إنه تم التغاضي في إيران عن الفروق الجسمانية. وعلى سبيل المثال، بعد إلقاء نظرة سريعة على أهالي

شيراز، يمكن مشاهدة نماذج عديدة من العنصر الأسود والعنصر المغولي بشكل واضح، وهم يعدون أنفسهم شيرازيي الأصل، فإيران بسبب موقعها الجغرافي، تعرضت منذ ثلاثة آلاف عام على الأقل وحتى الآن لهجمات وغارات من جانب أقوام إيرانية وعربية وتركية ومغولية؛ مما أدى إلى اختلاط جينات هذه الأقوام مع بعضها البعض بشكل من الأشكال. ومن ناحية أخرى، فإن وجود أصحاب البشرة السوداء الذين كانوا يقيمون – في الغالب – في خوزستان وعلى سواحل الخليج (الفارسي) في عهد العيلاميين، وجُلب أصحاب البشرة السوداء من أفريقيا لأسباب مختلفة من بينها الرق، واستقرارهم في إيران في النهاية، كل هذا كان له تأثيره في التركيبة العنصرية والعرقية لسكان إيران.

دور الثقافة في التنوع القومي في إيران:

عرف البعض الثقافة بأنها ظاهرة غير جسمانية أو غير بيلوجية تشتمل على جميع المكاسب التي يحققها الإنسان سواء المادية (السيارة والتليفون والطائرة) أو غير المادية (الدين – اللغة – المعتقدات – العلوم)، وانتقلت إليه عن طريق التعليم، وإلى جانب هذه الخصائص توجد خصائص أخرى للثقافة مثل: الحركة والانتشار والاعتماد على الرمز (اللغة) ومشاركة أفراد المجتمع

جميعهم فيها، وارتباط جميع عناصر الثقافة (النظام السياسي والاقتصادي والديني والاجتماعي والعلوم والقيم والفنون والأدب والموسيقي) مع بعضها البعض، وتبادل التأثير والتأثير فيما بينها، هذا فضلاً عن أن الثقافة ظاهرة نسبية وغير مطلقة، بمعنى أن الشيء المستحسن في إحدى الثقافات من الممكن أن يكون مستقبحاً في ثقافة أخرى.

والثقافة ليست هي العامل المحدد في صياغة الهُوية القومية فقط، بل تعد أيضاً العامل الرئيسي في استمرار أو تغيير أو محو هذه الهُوية. وقد اتضح بعد الدراسات التي أجريت عن القوميات في إيران أن عنصري الثقافة (اللغة والدين) يسهمان أكثر من أي عنصر آخر في تحديد الهُوية القومية. هذا بعد استثناء بعض الحالات مثل: التركمان والهزارة وبعض الجماعات الإفريقية الأصل. واللغة التي هي عنصر من عناصر الوحدة القومية تشكل الركن الأساسي للثقافة، وتعتمد العناصر الرئيسية للثقافة على اللغة. ونظراً لأن اللغة ظاهرة تتغير بتغير الزمان، وأنه من الممكن أن تنشعب عن إحدى اللغات لغات ولهجات مختلفة بالتدريج، فإن انشعاب اللغة واللهجة الجديدة يمهد الأرض لظهور قوم أو أناس بهوية جديدة. وعلى سبيل المثال، وطبقاً لبحوث علم اللغة التاريخي، فإن جميع

اللغات الهندوأوروبية (اللغات الأوروبية باستثناء المجرية والفنلندية)، واللغات واللهجات الرائجة في إيران باستثناء اللغات السامية والأورال التائية (التركية – المغولية)، واللغات واللهجات الرائجة في أفغانستان، باستثناء اللغات العربية والتركية، ولغات ولهجات الهند وباكستان، جميعها من أصل واحد.

كما أن هجرة أحد الأقوام أو هجرة شعبة من هؤلاء القوم إلى أرض قوم آخرين، من الممكن أن تؤدي إلى التنوع القومي. وهكذا يتضح أن اللغة لها دخل كبير في التنوع القومي. وبعد دراسة تاريخ إيران اتضح أن جميع اللغات واللهجات والأديان الحالية في إيران جاءت إلى إيران من أماكن أخرى مع أقوام مختلفين، وأن جميع اللغات واللهجات الحالية تابعةً لثلاث أسر لغوية هي: الآرية والسامية والأورال التائية (التركية والمغولية). فإيران بسبب موقعها الجغرافي كانت تتعرض بصفة دائمة في الماضي لهجمات أقوام لديهم لغات ولهجات مختلفة. ونظراً لأن أغلب هذه الأقوام جاءت من جانب الشرق – أي أسيا الوسطى – إلى إيران، فإن هذه الأقوام جلبت معها مجموعة اللغات الآرية والأورال التائية التي تشعبت عنها معظم اللغات واللهجات الرائجة في إيران في الوقت الراهن.

أما الدين فهو ظاهرة عالمية شأنه شأن اللغة، والدين يمس جميع جوانب الحياة، وهو الحارس للقيم الأساسية في المجتمع، والدين والمعتقدات الدينية من الأمور العامة التي يشترك فيها أفراد المجتمع، ولهذا يمكن أن يكون الدين عامل ترابط بين أعضاء المجتمع من ناحية، ويمكن أن يكون عامل انفصال بين المجتمعات من ناحية أخرى، وبناءً على هذا من الممكن إدراك أن الدين عامل مهم في تشكيل وتقوية واستمرار التنوع القومي. كان الدين سبباً في التنوع القومي، وكان من عوامل الترابط في إيران، فوجود أقليات دينية غير مسلمة، مثل: المسيحيين الأرمن والآشوريين واليهود والزرادشت والمندائيين، وتقسيم المسلمين إلى شيعة وسنة، والتشعب الموجود بين الشيعة أنفسهم، أدى إلى التنوع القومي في النهاية، ومع هذا، كان الدين الإسلامي دائماً عاملاً من عوامل الترابط والتآزر بين الإيرانيين.

وكانت إيران طوال ثلاثة آلاف عام الماضية موطناً للأديان المختلفة التي كان أتباعها يعيشون جنباً إلى جنب، فالدين الزرادشتي كان الدين الرسمي والغالب قبل ظهور الإسلام، وكانت أديان أخرى مثل: اليهودية والمسيحية والمانوية والمندائية والمزدكية موجودة إلى جانب الدين الزرادشتي. وبعد ظهور الإسلام وفتح إيران بعد موقعة

"نهاوند" المصيرية التي أطلق عليها اسم: "فتح الفتوح" والتي وقعت في عام 21 هجرية، حل الإسلام محل الدين الزرادشتي بوصفه الدين الغالب، وانقرضت الديانتان المزدكية والمانوية منذ ذلك الوقت فصاعداً، وانقسم المسلمون بالتدريج إلى شعبتين رئيسيتين هما: السنة والشيعة، وبمرور الزمان حدثت تشعبات في كل شعبة منهما، وكان ذلك مؤثراً في التنوع القومي – الثقافي.

المجال التاريخي للتنوع القومي – الثقافي في إيران:

شهدت إيران طوال ثلاثة آلاف عام مضت هجمات وغارات مختلفة قامت بها أقوام استقروا بعدها في إيران، وكانت أهم تداعيات هذه الهجمات تسلل لغات ولهجات وأديان ومذاهب غير محلية بواسطة أقوام غير محليين إلى إيران، فقد نبعت اللغات السامية (العبرية والمتدائية والعربية والآشورية) من الشرق الأوسط، وبخاصة من شبه الجزيرة العربية وفلسطين والعراق. ووصلت اللغة السامية وغير السامية – باستثناء العبرية والمندائية والآشورية – إلى إيران عن طريق الهجمات والغارات. أما فيما يتعلق بالأديان، فقد دخلت الديانة المزدكية إيران من آسيا الوسطى بواسطة القبائل الآرية التي استوطنت إيران، ودخل الدين الإسلامي عن طريق شبه الجزيرة العربية، واستقر بواسطة القبائل العربية في إيران. أما

الديانات اليهودية والمندائية والمسيحية التي كان أتباعهم أقلية، فهي مستثناة من هذا الوضع.

والواقع أن الفتح الإسلامي العربي لإيران أحدث تغييرات في جميع المجالات، وأدى إلى دمج بعض الآداب والعادات، وساعد على صياغة ثقافة مختلفة عن الثقافة الإيرانية التقليدية. كما أن هجوم السلاجقة والتيموريين على إيران أدى إلى انتشار اللغة التركية فيها. أما المغول فلم يتبق عنهم سوى بعض الألفاظ المغولية وبعض الخصائص العرقية المتناثرة هنا وهناك. وقد لعبت الأقوام المستوطنة دوراً مهماً في التنوع القومي—الثقافي طوال ثلاثة آلاف عام مضت في إيران، وكانت هذه الأقوام سبباً في تعدد وتنوع اللغات واللهجات والأديان، ومعروف أن جميع الهجمات والغارات سالفة الذكر قامت بها أقوام مستوطنة، باستثناء هجمات وغارات اليونانيين.

الهُوية والحدود القومية:

الهُوية (Identity) ظاهرة ثقافية يتخذها الأفراد والجماعات والأقوام أو الأماكن للحصول على كيان، ومن أجل التمايز عن الآخرين، واختيار الاسم والتسمية يعد أحد أشهر أساليب تحديد

الهُوية وأكثرها رواجاً. وقد أثبتت دراسة الأقوام في إيران أن كل قوم لهم مستويات مختلفة ومميزة من الهُوية، وهناك عوامل وعناصر تسببت في تنوع هذه الأقوام وفي وضع حدود بينها، وهي عوامل وعناصر ثقافية (الاسم – اللغة – الآداب والعادات – الموسيقى – الرقص – اللباس – الإحساس بالترابط)، والثقافة والتاريخ بصفة عامة، بالإضافة إلى عناصر طبيعية (الأنهار – البحار – الجبال). وتثبت دراسة الحيز الجغرافي للأقوام في إيران حقيقة أن كل قوم أو جماعة تمتلك جزءاً من هذه البلاد. ولم يتم حتى الآن – مع الأسف – دراسة كيفية التقسيم الثقافي–الجغرافي للشعب الإيراني، أي أنه لا توجد إحصائية دقيقة عن الجماعات والأقوام في إيران، ولا خريطة تفصيلية توضح تبعثر الأقوام بشكل دقيق، وهذا النقص ناتج عن التصور الخاطئ بأن الأقوام في إيران أقليات تشكل نسبة مئوية قليلة من المجتمع.

ومن الناحية السياسية، من الممكن أن يكون بعض هذه الأقوام مسبباً للمشكلات لسبب من الأسباب كالدعوة إلى الانفصال. لكن الحقيقة أنه لا تمتلك أية جماعة أو قوم أرضاً بحجم أرض كل الأقوام الأخرى، وأي شخص على علم صحيح بالتركيبة القومية–الثقافية الإيرانية سوف يدرك بدون أي شك حقيقة أن اللغة

الفارسية تنتشر في جميع أنحاء إيران كلغة وطنية، ولكن هذا ليس معناه أن تمتلك جماعة أو قوم بوصفهم فرساً أرضاً أكثر من غيرهم من أفراد الشعب الإيراني. ومن المعروف أن الإيرانيين والعرب والأتراك دخلوا إيران عن طريق الحرب والغلبة والفتح، فضلاً عن أن حوالي 90% من أفراد الشعب الإيراني مسلمون، وقد قلص عنصر الدين الفروق الثقافية بين المواطنين بشكل واضح، وأصبح الدين سبباً في إيجاد الترابط والتشابه بين المواطنين والأقوام في إيران. وبناءً على هذا، فإنه على الرغم من أن اللغة والعناصر الثقافية الأخرى كانت سبباً في إيجاد حدود بين المسلمين، إلا أن الدين أدى إلى وجود أوجه شبه مشتركة عديدة بين أفراد الشعب الإيراني.

القومية وتطوراتها في إيران المعاصرة:

بعد حروب طويلة مع روسيا، وبعد تدخل البريطانيين، فقدت إيران جزءاً كبيراً من أراضيها، واضطرت إلى الاقتباس من الحضارة الغربية، وقد بدأ النفوذ الثقافي الغربي منذ عهد القاجاريين (1779 – 1925م)، واشتد في العهد البهلوي (1925 – 1979م)، وقد أثر هذا النفوذ تأثيراً شديداً في المجتمع الإيراني التقليدي، وأدى إلى تغييره تغييراً ملموساً، بحيث أصبحت الثقافة الإيرانية الحالية مزيجاً

من ثلاث ثقافات: الثقافة الإيرانية والثقافة الإسلامية والثقافة الغربية، وقد أدت التحولات التي حدثت في إيران طوال ثمانين عاماً مضت إلى تقليل الفروق، وزيادة التشابه الثقافي بين الأقوام الإيرانية.

وعلى الرغم من أن الفروق الثقافية مثل: اللغة والدين والآداب والعادات واللباس وغيره أدت إلى التنوع القومي – الثقافي في إيران، لكن نظراً لأن معظم أفراد الشعب الإيراني مسلمون شيعة، ولأن اللغة الفارسية هي اللغة الوطنية السائدة، فإن هذين العاملين قد لعبا دوراً مهماً في الترابط والتشابه والتجانس بين المواطنين. ولكن اقتباس عناصر الثقافة الغربية طوال ثمانين عاماً مضت أدى إلى إيجاد أوجه شبه مشتركة بين المواطنين في جميع أنحاء إيران، وأدى إلى التجانس الثقافي بين الجماعات والأقوام، ولكن هذا لا يعني أن العناصر الثقافية للتنوع الإيراني قد تم نسيانها، فأسلوب معيشة المواطنين في المحافظات يتشابه تشابهاً كبيراً، فعلى سبيل المثال، الطراز المعماري ووسائل النقل والملابس والأجهزة المنزلية والأدوية والعلاج ووسائل الزينة والتعليم والتربية وغيرها متشابهة في جميع أنحاء إيران.

الخلاصة أن القومية ظاهرة ثقافية على الرغم من أن العرق من الممكن أن يكون عاملاً مؤثراً في بعض الحالات. وبناء على هذا، فإن الثقافة هي سبب التنوع القومي في إيران، وقد أدى الموقع الجغرافي لإيران وهجوم الأقوام المستوطنين بلغاتهم ودياناتهم المختلفة طوال ثلاثة آلاف عام الماضية إلى استمرار ثلاث أسر لغوية هي: الآرية والسامية (اللغة العربية واللغة العبرية واللغة الآشورية) والأورال التائية (اللغة التركية واللغة المغولية)، وإلى انتشار أديان مثل: الزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام في إيران، وكانت هذه العوامل منشأ التنوع القومي – الثقافي في إيران. إلا أن موجة حديثة من العناصر الثقافية الغربية حلت محل العناصر الثقافية للمجتمع الإيراني التقليدي طوال القرن الماضي بالتدريج، وأدت إلى تقليل الفوارغ، وإلى زيادة أوجه التشابه بين الأقوام في إيران، ولعبت هذه الموجة دوراً أساسياً في صياغة ثقافة جديدة مكونة من عناصر الثقافات الإيرانية والإسلامية والغربية، حيث إن عناصر الحضارة الغربية كانت أكثر تقدماً بالمقارنة مع الثقافات والحضارات الأخرى.

وعلى الرغم من الشعب الإيراني مقسم إلى جماعات وأقوام متنوعة بسبب اللغة والدين والعناصر الثقافية الأخرى، إلا أن التركيبة

القومية في إيران تختلف عن دول متعددة القوميات مثل: الهند والولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والصين، فهي لا تقوم على أساس الأكثرية–الأقلية، وبناء على هذا، لا توجد في إيران أغلبية حاكمة تفرض سيطرتها على الأقوام الأخرى بحجة أن هذه الأقوام أقلية ضعيفة. وإذا أخذنا في الاعتبار الوضع السابق والحقيقة التي تقول إن أكثر من 90% من أفراد الشعب الإيراني مسلمون، ولهم تاريخ وطني ولغة وآداب وعادات وتقاليد وطنية مشتركة، سنجد أن هذه العوامل تعد سبباً للترابط والتجانس بين أفراد الشعب والأقوام في إيران. فالأقوام في إيران تربط برباط سلمي، وبقاء أفراد الشعب الإيراني مرهون بهذا الترابط، بصرف النظر عنن هُويتهم القومية. ومما لا شك فيه أنه يوجد عدم مساواة إقليمية في إيران، لكن من الممكن القضاء على عدم المساواة هذا بالتخطيط والتعاطف. ومما لا شك فيه أيضاً أن أفضل طريق لاستمرار التضامن والترابط بين المواطنين في إيران هو اللامركزية ومشاركة هؤلاء المواطنين في جميع الأمور وحسن إدارة التنوع والتعدد، وهذا لن يتم إلا بمنح السلطات للمحافظات.

التقسيمات الاجتماعية للأقوام في إيران:

إيران دولة متنوعة ومتعددة الأعراق، ووحدتها مرهونة بتقارب وتعايش الأقوام المختلفة مع بعضها البعض، وبناءً على هذا، فإن معرفة المشتركات الاجتماعية لهذه الأقوام والخصوصيات التي كانت سبباً في تسهيل هذا التعايش وهذا التقارب، لها أهمية كبيرة دائماً. وقد تم في عام 1998م إجراء بحث اجتماعي واستطلاع رأي مع عدد كبير من المواطنين والمواطنات من الأقوام الإيرانية الثمانية (الآذريون – البلوش– التركمان – الطالشيون– العرب – الفرس – الأكراد – اللور)، على امتداد (30) مدينة إيرانية. وكانت أسئلة استطلاع الرأي تدور حول ثلاثين متغيراً أو خصوصية اجتماعية لهذه الأقوام، وكانت هذه الأسئلة تدور حول: الإحساس بالهُوية القومية – الإحساس بالهُوية الوطنية – الإحساس بالالتزام القومي – الإحساس بالالتزام – الإحساس بالأفضلية على سائر الأقوام – الإحساس بالعدالة الاجتماعية – العلاقات الداخلية القومية – العلاقات بين الأقوام المختلفة – الإحساس بالتقارب والتفاعل مع الآخرين – التعارف بين الأقوام – الثقة المتبادلة بين الأقوام – الثقة في المؤسسات الحكومية – مدى التزام الأفراد

بالقانون – المشكلات الاجتماعية للأقوام المختلفة – معدل قبول الاختلافات العقائدية بين السنة والشيعة... إلخ.

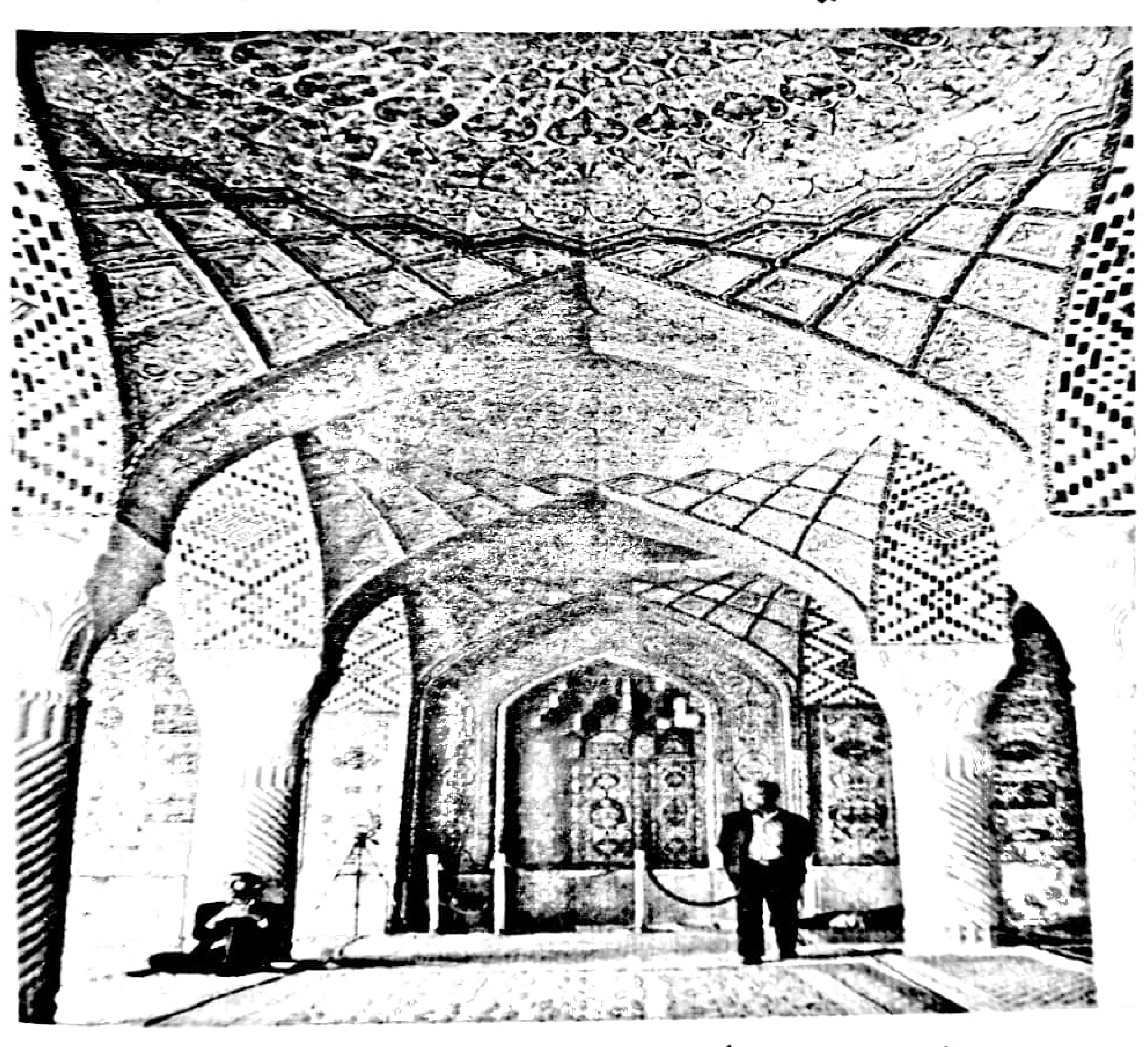
وبعد تحليل معطيات الدراسة التطبيقية اتضح أن الحدود الثقافية والاجتماعية للأقوام في إيران تتداخل مع بعضها البعض تداخلاً كبيراً، وأن معدل أوجه الشبه مع بعضها البعض كبير، وأن أعلى معدل للشبه الاجتماعي موجود بين الآذريين والفرس، وأقل معدل للشبه موجود بين البلوش والعرب. وطبقاً للتحليل سالف الذكر يمكن تقسيم الأقوام الإيرانية الثمانية من حيث المشتركات الاجتماعية إلى قسمين متمايزين: القسم الأول عبارة عن أقوام: البلوش والتركمان والطالشيين، والقسم الثاني عبارة عن: الآذريين والفرس والأكراد واللور والعرب. ويمكن القول إن أقوام كل قسم منهما لهم هُوية قومية مشتركة، وذلك نظراً لقلة الفروق وكثرة أوجه الشبة الاجتماعية فيما بينهم، فأوجه الشبه الاجتماعية بين الأقوام، وتداخل الحدود الثقافية–الاجتماعية فيما بيهم يعد مجالاً إيجابياً يساعد على تقوية التقارب، وعلى تشكيل مجتمع عام أو مجتمع وطني.

وقد أوضح التحليل الخاص بتقسيم الأقوام الإيرانية أنه يختفي وراء التنوع والتعدد القومي التوحد والوحدة أيضاً من منطلق أن الوحدة

في الكثرة والتعدد القائمين على الوحدة الوطنية والتقارب القومي مع الحفاظ على الثقافة والهُويات القومية. ويرى جامع المقالات في مقدمة الكتاب أن تقسيم الأقوام الإيرانية إلى ثماني جماعات تقسيم وضعي لإتمام البحث واستطلاع الرأي فقط، في حين أن الحدود القومية في إيران متداخلة ومتماهية، وليست حدوداً واقعية، باستثناء حالات قليلة جداً، منها أنه يمكن تمييز الفروق الكيفية بين اللور والأكراد والآذريين عن طريق اختلاف اللغة فقط.

القسم الأول (الهوية الإيرانية)

الفصل الثاني: الدين والمذهب والهوية الإيرانية



المسجد العتيق، أصفهان، إيران. للمصور زهران خليل

Https: //Unsplash.com

الدين والمذهب والهُوية الإيرانية

موضوع الهُوية الإيرانية من الموضوعات التي أُلفت فيها مؤلفات عديدة، وعُقدت حولها ندوات كثيرة في إيران في الآونة الأخيرة. ولم تتفق الآراء حول الأسس والعناصر المكونة لهذه الهُوية، فقد ذكر البعض أن الهُوية الإيرانية فيها خمسة آراء: رأي أصحاب النزعة التحررية الوطنية، والرأي الإمبراطوري، ورأي الجماعات اليسارية، ورأي أنصار دمج الهُوية الوطنية بالهُوية الدينية (مرتضى مطهري وعلي شريعتي ومهدي بازرجان) ورأي أنصار الأمة الإسلامية. ويتحدث البعض عن أربعة عناصر أساسية للهُويَّة الوطنية الإيرانية، وهي: التاريخ (الأسطوري – الواقعي) – الميراث السياسي الإيراني – الجغرافيا (الأرض) – الميراث الثقافي والأدبي. وأكد البعض أن أركان الهُوية الإيرانية تتلخص في ثلاث عناصر هي: الدين – اللغة الفارسية – الجغرافيا. أو ثلاثة عناصر أخرى هي: العنصر التاريخي – العنصر الديني (الإسلامي) – العنصر الاقتصادي.

لكن البعض مثل الدكتور"قدير نصرى" تحدث في كتابه: مباني هُويَت ايراني (أسس الهُوية الإيرانية) عن ستة عناصر كونت الهُوية الإيرانية، وهي: الدين والمذهب – اللغة الفارسية – الجغرافيا والتاريخ– الأسطورة – المراسم الوطنية والاحتفالات – الفن.

أولاً: الدين والمذهب والهُوية الإيرانية:

تُعَد التعاليم الدينية أحد المصادر التي تشكل سلوكنا ومعتقداتنا، وتقوم الهُوية في بعض المجتمعات أساساً على الدين، ويُعَد الدين في بعض المجتمعات الأخرى عنصراً من العناصر المكونة للهُويَّة. فالدين الإسلامي – على سبيل المثال – يُعَد عنصر الهُوية الرئيسي والكامل عند الباكستانيين، ويميزهم عن الهنود. لكن الدين الإسلامي يُعَد عنصراً من عناصر الهُوية عند الإيرانيين. ويلعب الدين دوراً بارزاً في معرفة الهُوية القومية والوطنية، ودراسة دور الدين في قوام الهُوية من الممكن أن يساعد كثيراً في دراسة سلوك ومواقف الأقوام والشعوب. وجدير بالملاحظة أن الدين والمذهب في إيران – من هذه الناحية – يُعَدان ملهمين لسائر عناصر الهُوية، لدرجة أنه لا يمكن دراسة الأساطير والعادات والفنون والتراث الأدبي واللغة بمنأى عن المضمون الديني.

ومما لا شك فيه أن الدين والتدين في أي مجتمع يتأثران بأسباب وعوامل اجتماعية ونفسية واقتصادية وسياسية. وعلى الرغم من أن الدين من الأسس والعناصر القديمة والأزلية للهُويَّة، إلا أنه يتأثر بشكل ملفت للنظر بالمجالات الاقتصادية والسياسية. وبمقدور الالتزام الديني أن يؤثر على الإدراك السياسي والسلوك الاجتماعي

والاقتصادي للمواطنين. ودراسة الهُوية الدينية وكيفية الحفاظ عليها تُعَد دراسة استراتيجيات وسياسات، قبل أن تكون دراسة لموضوع علمي، ودراسة الهُوية بدون دراسة الاستراتيجيات والسياسات ومنطق توزيع القوة غير ممكنة.

لقد وجد الإيرانيون ضالتهم في الدين الإسلامي الذي كان يفتح البُلدان، ويقضي على الإمبراطوريات المتداعية باسم الدين وفي سبيل الدين، وكان يدافع عن العدالة والتدين وعبادة الله والعفة. ورأى الإيرانيون الذين كانوا يعانون من ظلم الساسانيين واستبدادهم أن الدين الجديد هو طريق الخلاص من الانحراف والظلم والتمييز والفساد، فلم يقاوموا هذا الدين الحديث الظهور. وقوض الإيرانيون أعرافهم وهُويَّتهم هذه المرة بالإسلام، وباعتناقهم مذهب التشيع وبإعلانهم عن حبهم لآل البيت، أعلنوا عن خصيصتهم الإيرانية في إطار التشيع، حتى لا تصبح بلادهم ولاية من ولايات الإمبراطورية الأموية. وعندما اعتنق الإيرانيون الإسلام عن اقتناع، عقدوا صلة بين التراث الإيراني والتعاليم الإسلامية بحكمة وتعقل وبعد نظر. وفي هذه الظروف تحققت مقولة: الخدمات المتبادلة بين الإسلام وإيران، وملأ الإيرانيون الفراغ الموجود في مجال

المعنويات والحكم والعلاقات الاجتماعية، وأصبحوا من أعلام العلم والأدب والتصوف والفلسفة.

الأركان الإسلامية للهُويَّة الإيرانية:

يتحدث مؤلف الكتاب عن كيفية وحدود تأثير الهُوية الإيرانية بالدين الإسلامي من الناحيتين العملية والنظرية، ويقول: كانت هناك أسباب أضعفت الإمبراطورية الساسانية أمام جيش الإسلام القوي المفعم بالأمل والمتجانس، وهذه الأسباب هي: النظام الطبقي، والفساد والانحطاط الأخلاقي للحكام، وإشاعة الخرافات الدينية، واستبداد السلاطين، وتحجر رجال الدين، وبعبارة أخرى، كان هناك ضعف سياسي وأخلاقي وديني واجتماعي. وبدخول الجيش الإسلامي إيران تغيرت جميع العلاقات المتعارف عليها، وجاء المسلمون بالمساواة والأخوة والعدل، وبثقافة جديدة، فوجد الإيرانيون فيه خلاصاً من الظلم، ومن التفسيرات الدينية لرجال الدين، ومن التمييز الطبقي، وقبلوا الإسلام وجيش الإسلام، وتغيرت جميع معتقدات الإيرانيين ومفاهيمهم وأعرافهم وعاداتهم، ونُسخ الاعتقاد بصراع قوة الخير مع قوة الشر (الثنوية)، وحل التوحيد محل هذا الاعتقاد. كما قبل الإيرانيون النبوة، وأن النبي

(ص) حامل رسالة ومبعوث من قبل الله (سبحانه وتعالى)، وقبلوا القرآن الكريم الذي أنزله الله على النبي الأكرم (ص).

وبقبول الإيرانيين للإسلام والتوحيد والنبوة والقرآن الكريم تغيرت المنظومة الذهنية لديهم بشكل كامل، فتركوا العديد من معتقداتهم وأعراف أجدادهم. وطبقاً للأحكام الإسلامية، حُرِّم أكل لحم الخنزير والميتة وشرب الخمر، ومُنع زواج المحارم، وتغيرت العلاقات الخاصة بالميراث والقضايا والتبادل الاقتصادي والتكاليف، وأحدثت هذه التحولات ثورة في جميع شئون المجتمع. كما أن الإيرانيين قاموا بإحداث تغييرات في معتقداتهم فيما يتعلق بالمعاد، فعلى الرغم من إيمانهم بيوم القيامة، إلا أنهم وجدوا فرقاً هائلاً بين الدين الزرادشتي والدين الإسلامي، فيما يتعلق بمعايير السعادة ومقدماتها.

التعاليم والمبادئ التي جلبها الدين الإسلامي إلى إيران:

جلب الدين الإسلامي إلى الإيرانيين: الإيمان بعالم الغيب، وبأن محمداً (ص) خاتم الأنبياء، وأن الدين الإسلامي خاتم الأديان، وبأن القرآن هو معجزة النبي محمد (ص) الأساسية المصونة من التحريف، والموضحة لماهية الأخلاق الحميدة، الموجهة للبشرية،

المتضمنة للتوضيحات والقصص والأسماء والأحداث التاريخية. كما جاء الإسلام بالإيمان بيوم القيامة، وبأن الدنيا مزرعة الآخرة، وبالعبادات والمناسك الدينية التي تُعَد من العناصر الرئيسية للهُويَّة الوطنية، والتي تميز هُويَّة قوم عن قوم آخرين، فأداء الصلاة خمس مرات في اليوم، والصلوات بأنواعها (الجمعة والجماعة – العيدان – الميت) تختلف اختلافاً جذرياً عن صلاة الإيرانيين قبل الإسلام. وصلاة الجمعة والجماعة تمنح المسلمين شخصية متميزة وهوية جماعية مشتركة، وترسم خطاً فاصلاً بين المسلمين وغير المسلمين. ويرتبط العديد من الآداب والعبادات الإسلامية بالمسجد الذي يُعَد رمز الهُوية الإسلامية منذ بداية ظهور الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد اهتم الإيرانيون منذ اعتناقهم الإسلام ببناء المساجد، وقد استوى في ذلك السلاطين والأغنياء والفقراء. وفي السنوات الأخيرة، تجاوز عدد كبير من المساجد النشاط التعبدي الصرف، وتحولت هذه المساجد إلى مراكز ترتقي بالعلوم الدينية والإغاثات الضرورية، وتعليم الفن والمهارة والمعرفة السياسية. وهكذا أصبحت المساجد تلعب دوراً بوصفها المراكز الأساسية للمعرفة ونشر الهُوية الإسلامية والحفاظ عليها.

العلاقات الاجتماعية الإسلامية:

عندما فتح المسلمون البلاد ونشروا الإسلام فيها، لم ينصهر الإسلام في المراسم والعادات الموجودة في هذه البلاد، بل أصبح مصدراً لتغيير وتصحيح العلاقات الموجودة، فقد نظم الدين الإسلامي الحياة الاجتماعية للمسلمين، وحدد لهم مبادئ التعامل مع أتباع سائر الأديان السماوية، ومنع العديد من السلوكيات الضارة (الفردية والجماعية)، ووضع أحكاماً، وألزم المسلمين برعايتها. وقد خير المسلمون الفاتحون كل الدول التي فتحوها بين اعتناق الإسلام أو البقاء على دينهم ودفع الجزية أو الحرب، فاختار معظم الإيرانيين اعتناق الإسلام، وبقي أتباع بعض الديانات على دينهم، ودفعوا الجزية، وسعد المسيحيون والمانويون والمزدكيون والزرادشتيون الذين كانوا ساخطين بسبب سلوك الساسانيين برسالة المسلمين القائمة على الالتزام بالدين وتعاليمه. وربما سعدوا بانتصارات قوات الإسلام. وبقبول الإيرانيين للإسلام، استسلموا لمجموعة من القواعد والمفاهيم التي تختلف بشكل كامل عن عاداتهم وأعرافهم السابقة، وحارب الإسلام العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت مسيطرة على البلاط الساساني، وتحدث عن وجوب عبادات مثل: الزكاة والخُمس والجهاد، وهي

عبادات لم تكن معروفة تماماً بالنسبة للإيرانيين، ولها مهام اجتماعية وحقوقية وأخلاقية، هذا بالإضافة إلى عبادات مثل: الحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن طقوس الزواج في الإسلام أثرت على طقوس الزواج التي كانت سائدة في إيران قبل دخولها في الإسلام. وذلك بعد أن أضافت بعداً دينياً تعبدياً على هذه الطقوس.

ومع دخول الإسلام إيران ملأ الإيرانيون –بوصفهم أصحاب حضارة عريقة وتجارب عديدة– بعض الفراغات الموجودة لدي المسلمين، وفي المقابل، قبلوا الدين الإسلامي، وتركوا العديد من قواعدهم ومعتقداتهم، وشُكلت الهُوية الإيرانية على أساس العادات والأعراف الإيرانية والدين الإسلامي. وقد حقق المسلمون خلال فترة قصيرة حضارة حديثة متفاعلة شاركت فيها الشعوب المغلوبة بعلومها وحضارتها وتجاربها السياسية والثقافية.

ومن أسباب تسليم الإيرانيين أمام الجيش الإسلامي أملهم في تحقيق مبدأ المساواة بين الضعفاء والأقوياء، من منطلق أنه "لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى"، وقد تعاون عدد كبير من الإيرانيين مع قادة جيش الإسلام أملاً في حسن المعاملة، ولما كان اعتناقهم الإسلام على غير رغبة الحكام، أثر هذا بالسلب على القلاقل

والاضطرابات المتفرقة التي كانت تواجه جيش المسلمين المتحمسين. هذا فضلاً عن أن العديد من الأشراف والأعيان وقفوا إلى جانب الجيش الإسلامي على أمل إنقاذ أرواحهم وممتلكاتهم، بالإضافة إلى نفورهم من الحكام. ومن الأسباب أيضاً: مداراة الفاتحين لسكان المناطق المفتوحة، وحسن معاملتهم لهم، وقضاؤهم على النظام الطبقي، وعلى التمييز بين العائلات.

إلا أنه عندما انتقلت العاصمة من المدينة إلى دمشق، بدأ سوء معاملة الإيرانيين وتحقيرهم، وقد أدى هذا إلى دفع الإيرانيين صوب المقاومة، والتأكيد على الأوجه الإيرانية لهُويَّتهم، وإلى الوقوف للمرة الأولى بعد ظهور الإسلام وفتح إيران في وجه جهاز الخلافة. وفاقمت ممارسات الأمويين من مقاومة الإيرانيين الذين بدأوا في التأكيد على خصائصهم الثقافية وعلى المعايير والأعراف والعادات الإيرانية؛ للتصدي لهجمة التحقير العربية. وأغلب الظن أن جذور الصراع بين الهُوية الإيرانية والهُوية الإسلامية بين الإيرانيين ترجع إلى هذه المسألة، وتوجد وثائق قاطعة ودالة على ذلك.

دوائر وأساليب تواجد الإيرانيين في الحضارة الإسلامية:

انتقلت آداب المعيشة والأساطير والخرافات وكتابة التاريخ وأساليب إدارة البلاد والمؤسسات الإدارية والمالية والآداب والتقاليد المرعية في البلاط الإيراني – في الغالب – عن طريق ترجمة الكُتب الفارسية، وعن طريق النفوذ المباشر للموظفين والعمال الإيرانيين. وتفوق الإيرانيون في العصر العباسي في الحكومة وفي الحياة الثقافية الإسلامية، وقوي نفوذهم مع ازدياد نفوذ أسرة البرامكة (أسرة إيرانية اتخذ منهم العباسيون الوزراء)، حيث استلهمت بلاطات الخلفاء العباسيين ودواوينهم النموذج الساساني الإيراني، ولعب الإيرانيون أدواراً مهمة بالتدريج، سواء في الناحية السياسية أو في الحياة الثقافية. ومنذ وصول العباسيين إلى السلطة بدأ الإيرانيون يؤكدون على هُويَّتهم الوطنية، وبدأوا يدقون طبول الاستقلال، كما أظهروا استياءهم وغضبهم من إطلاق اسم "الموالي" عليهم. وازدهرت اللغة الفارسية وارتقت ونافست اللغة العربية، وانتشرت في الهند وآسيا الوسطى والدولة العثمانية ومصر. والمتأمل لمؤلفات وأعمال العلماء والفنانين والفقهاء سوف يلاحظ فيها امتزاج الهُوية الإيرانية–الإسلامية بوضوح. وقد تجلت علاقة الإيرانيين بالدين في فن المعمار وأعمال القيشاني والرسم والخط

وصناعة الخزف. أما فن المعمار فيتجلى في إنشاء المساجد الفخمة، ويتجلى الخط في كتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فوق الجلد والورق والحجر والفخار.

ومن أسباب تأثير الثقافة الإسلامية على هُويَّة الإيرانيين تواجد الإيرانيين في المجالات السياسية والفنية والفكرية المتعددة، وهي المجالات التي تشكل دعامة الحضارة الإسلامية. ويتجلى دور الإيرانيين وتواجدهم ونفوذ هُويَّتهم الإيرانية في الثقافة والحضارة الإسلامية في: الفكر السياسي؛ تدبير الأمور الإدارية الخاصة بالدولة ولاسيما في مجال القضاء والماليات والضرائب، وكان منهم الوزراء وجباة الضرائب والكتاب ورجال البلاط، وتعلم العرب أسلوب العمل في الديوان من الإيرانيين، وتسللت إلى جهاز الخلافة ألفاظ ومفاهيم وأمثال وحكايات إيرانية عن طريق الوزراء والكُتاب والعُمال الإيرانيين. وتأثر العرب بالفنون العسكرية والمعمارية وضرب السكة والموسيقى وصناعة الأدوية وأعمال ديوان الإنشاء. ولم ينسَ الكُتَّاب والعُمَّال الإيرانيون عناصر هُويَّتهم، وساعدت حماية العباسيين للموالي على اشتداد ساعد الموالي، وقل معدل احتقار الإيرانيين، وتجاوز الإيرانيون فترة صمت العهد الأموي شيئاً فشيئاً، وزاد عدد الكُتاب والشُعراء والموسيقيين الإيرانيين في المجال

الثقافي في العصر العباسي؛ مما ساعد على بروز شأن الهُوية الإيرانية، خاصة بعد تأثير المراسم والملابس والاحتفالات والفنون الإيرانية على بلاط الخلافة.

الخلاصة أنه يمكن القول إنه على الرغم من أن الإيرانيين هُزموا أمام الجيش الإسلامي هزيمة عسكرية، إلا أن هذه الهزيمة حررتهم من ضغط القمع الاجتماعي والديني الذي كان النظام الساساني يمارسه، وأوقف الإيرانيون قدراتهم على الإسلام واللغة العربية بعد فترة صمت وسكون قصيرة، وساهموا في إيجاد وتقوية ورواج حضارة إسلامية عالمية، وكان لوجود شخصيات مثل: ابن المقفع والخوارزمي وأبو بكر الرازي وبديع الزمان الهمداني وأبو الريحان البيروني وابن سينا والغزالي والزمخشري والطبري وإبراهيم وإسحاق الموصلي وغيرهم، دور بارز في نشر وتقوية النصوص الأدبية والعلمية والفلسفية والفنية والتاريخية والدينية في العالم الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية، فقد اختار هؤلاء الإسلام بوصفه مُخَلِّصاً لهم من الظلم والظالمين، ورأوا أنه كافٍ لتدبير أمر المسلمين. ولم يكن معنى بروز الهُوية الإيرانية عدم تأثر الإيرانيين بالدين الإسلامي والثقافة العربية، فقد تسللت ألفاظ ومفاهيم عديدة إلى اللغة الفارسية، وتعلم الإيرانيون اللغة العربية، وحفظوا القرآن، وألف

مشاهيرهم الكُتب في العلم والأدب والشعر والفلسفة باللغة العربية، وترجموا مؤلفات غير إسلامية إلى اللغة العربية.

وكانت الظروف مهيأة في العصر العباسي لنشر التشيع في إيران، وذلك بسبب الدور الذي لعبه الإيرانيون بصفة عامة والخراسانيون بصفة خاصة في وصول العباسيين إلى السلطة وإسقاط الدولة الأموية، وأختار الإيرانيون خراسان مركزاً للدعوة السرية إلى التشيع، مستفيدين من الانفتاح النسبي الذي ساد الفترة الأولى من الحكم العباسي: واستمرت سرية الدعوة عدة قرون، إلى أن ظهر الصفويون في القرن التاسع الهجري (بداية القرن السادس عشر الميلادي) في إيران، وارتقوا بحكومة إيران الإسلامية إلى مرتبة الدولة الوطنية، وأقاموا أول حكومة عُظمى ومُوحدة ومُتسعة الأرجاء في إيران من الانقراض الحتمي على أيدي العثمانيين والأوزبك، وذلك بعد حوالي تسعمائة عام من انقراض دولة الساسانيين الموحدة.

وبتمسك الصفويين بالتشيع وإعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة في عام 906هـ، أقاموا هُويَّة الإيرانيين على أساس المذهب، واعتبروا التهديدات الخارجية مؤامرة لتغيير مذهب الإيرانيين، واستخدموا المصادر والمراجع الشيعية لإيجاد البواعث والدوافع والتحرك لدى الإيرانيين. وعلى الرغم من أن رسمية التشيع في إيران

وضعت الإيرانيين في مواجهة أغلبية العالم الإسلامي، لكنها كانت بالغة الأهمية من حيث الهُوية، لأن الإيرانيين عرفوا مقولة "أنا والآخر" على أساس ضوابط المذهب، وشكلوا شخصيتهم على هذا الأساس، هذا بالإضافة إلى أن الإيرانيين عدوا ميلهم إلى التشيع تكوين جبهة في مواجهة العرب السنة الذين احتقروا الإيرانيين، وتعقبوا الشيعة عدة قرون، كما عقد الملوك الصفويون صلات مع الأوروبيين لمواجهة العرب السنة، والتقليل من مركزية العثمانيين. أي أن الصفويين لجأوا إلى استراتيجية التشيع في الداخل، وإلى العلاقات الاقتصادية والسياسية مع الأوروبيين في الخارج، من أجل البقاء وتوفير الأمن للبلاد، وهو الوضع الذي لم تعرفه حدود البلاد طوال تسعمائة عام.

الأوجه الشيعية والأسس النظرية للهُويَّة الإيرانية:

يشترك السنة والشيعة في التوحيد والنبوة والمعاد، لكن الشيعة معتقدين تميُّزَينهم عن السنة، ويبرزان هُويَّتهم الإيرانية، وهما: العدل والإمامة، ومن الناحية العلمية، نرى أن التشيع والالتزام بالقيم الشيعية متغلغل في طيات الحياة العامة والخاصة للإيرانيين الشيعة، ففي إيران سبعة أيام عطلة رسمية عامة بمناسبة ولادة الأئمة واستشهادهم، وتوجد احتفالات خاصة بمناسبات دينية عديدة،

كما تقام مجالس العزاء والمآتم في ذكرى استشهاد الأئمة، وهي المجالس التي تُعَد الوجه الخارجي للهُويَّة الشيعية. هذا بالإضافة إلى أن أحب الأسماء التي يطلقها الشيعة على أبنائهم وبناتهم هي: مهدي – علي – الحسن – الحسين – فاطمة – زهرا.

أما الأسس النظرية للهُويَّة الشيعية وأغلبية الإيرانيين بوصف الشيعة أغلبية في المجتمع الإيراني، فهي عبارة عن:

1. الإمامة، وهي أصل من أول المعتقدات الشيعية وهي: التوحيد والنبوة والمعاد والعدل والإمامة، فالشيعة يرون أن الإمامة استمرار للنبوة، وأن الإمام يقوم بجميع وظائف النبي ما عدا الوحي.
2. الالتزام بمبدأ الاجتهاد والتقليد، والاجتهاد هو استنباط التكليف من الكتاب والسنة في غياب النص، وفي عصر غيبة الإمام الثاني عشر (المهدي المنتظر) يلجأ الفقهاء ومراجع الشيعة إلى الاجتهاد بسبب الإحساس بالحاجة والضرورة، وفي إطار الأدلة ونيابة عن الإمام الغائب. والمجتهد هو الذي يصدر فتاويه فيما يتعلق بالمسائل المتحدثة مستنداً إلى الكتاب والسنة. والمرجع مجتهد يقلده الآخرون، وللمراجع رسائل علمية يعمل المقلدون طبقاً لما

جاء فيها. وكل شخص في الفقه الشيعي إما مجتهد أو مقلد، والمقلد يستشير إلى كلام المرجع في الشئون الدينية والمالية والسياسية.

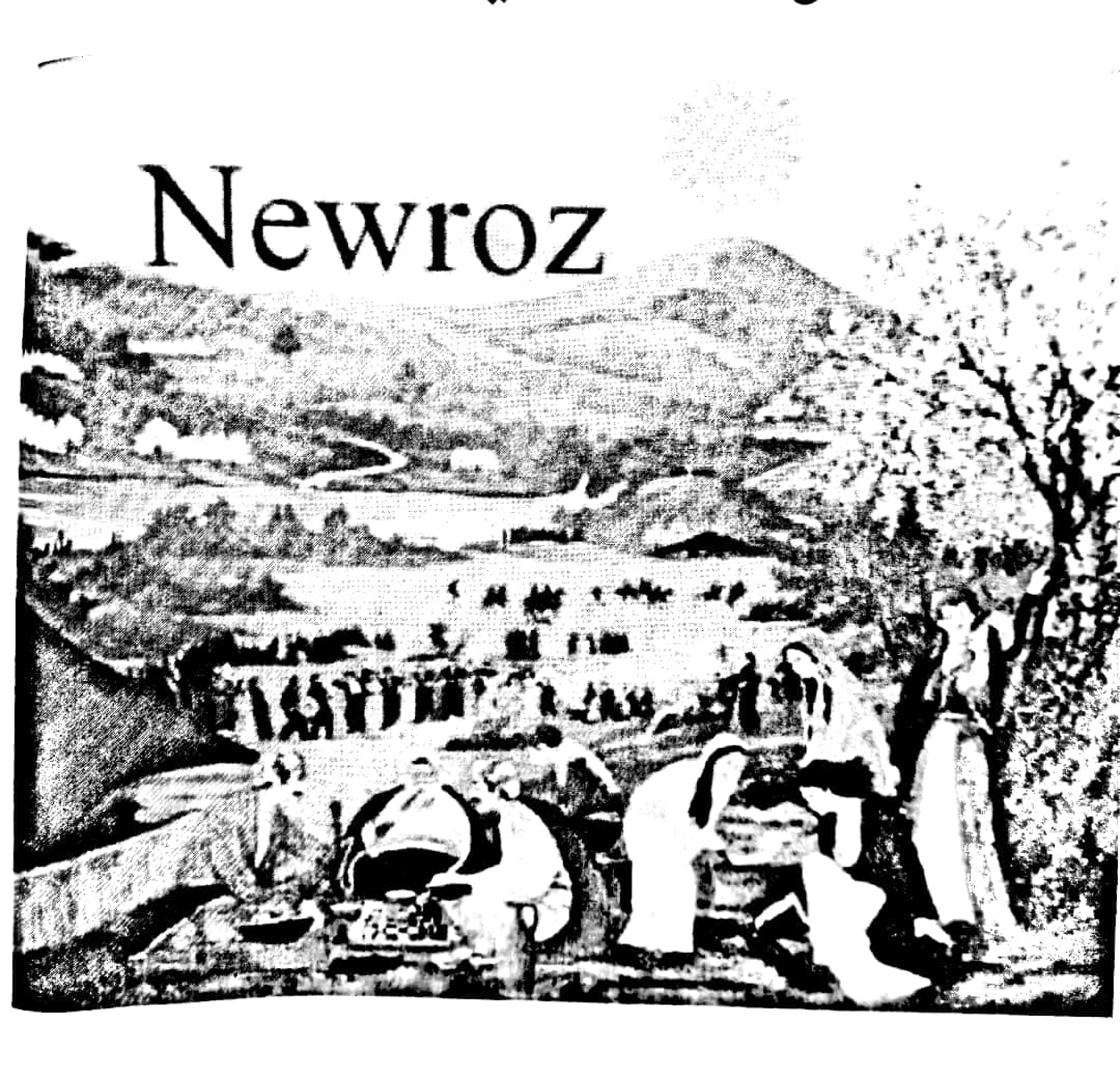
وللهُويَّة وجه ذهني وفكري يتمثل في اعتقاد الشيعة بوجوب الإمامة كأصل من أصول الدين، ولها وجه خارجي عيني يتمثل في أداء الصلاة وأداء مراسم الحج وحتى نوع الملابس.

3. وجوب الإمامة والالتزام بمبدأ الاجتهاد أو المرجعية والتقليد يتجليان بأفضل شكل لهما في الشعائر المذهبية الشيعية، وبهما تتميز الشيعة عن غيرها. وتعظيم الشعائر المذهبية مثل: العزاء الخاص بالإمام الحسين – الإمام الثالث للشيعة – أو السرور والابتهاج في يوم ميلاد المهدي المنتظر الإمام الثاني عشر للشيعة (15 شعبان)، يُكمل تمايز الشيعة عن غيرهم، فالمناسبات المذهبية ومراسم عزاء الأئمة المعصومين بصفة عامة وعزاء الإمام الحسين بصفة خاصة تُعَد من مظاهر إبراز الهُوية المذهبية الشيعية.

ولقد لعب استشهاد الإمام الحسين في شهر المحرم (عام61هـ/680م) دوراً متميزاً في إضفاء الهُوية على الأقلية الشيعية في العالم الإسلامي، ذلك لأن استشهاده له أهمية سياسية فائقة، فهو الإمام الوحيد في المذهب الشيعي الاثني عشري الذي قرن بين إحقاق حق الإمامة – التي هي أصل من أصول الدين في التعاليم الشيعية – بانتفاضة مسلحة، كما أن مواقفه السياسية لا نظير لها ولا مثيل، وانتفاضته مقترنة بالشهادة، وهذا عنصر حماسي وتراجيدي إلى حد ما. وإحياء مراسم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) في المساجد والتكايا يُذَكِّر الشيعة بصفة دائمة بسلوك الإمام الحسين وسلوك أعدائه، ويساعد على رسم حدود الهُوية الشيعية. وفي إحياء هذه المراسم إبراز للوجود السياسي، فهي تُذَكِّر بظلم الحكام الغاصبين، وتؤكد على ضرورة ولاية الإمام الذي تتوافر فيه الشروط. والحديث عن مظلومية الإمام الحسين يثير حفيظة العامة، ويثير تأمل الخاصة، فالعوام يرون في الإمام الحسين رمز التحمل والمظلومية والعطش والأسر والمصيبة والمأتم والحزن، ويرى فيه الخواص من الشيعة أنه رافع راية الإصلاح والحرية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العدل، ومحو الظلم، والتحرك بصفة عامة.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل الثالث: الأعياد والمناسبات



الأعياد والمناسبات القومية والهُوية الإيرانية

الأعياد نشاط بشري لا تخلو منه أمة من الأمم، وهي أنواع، منها: الديني والمذهبي، والاجتماعي الذي يرتبط بالعادات والتقاليد التي ترتبط بدورها بظروف المجتمع الذي يمارسها، والقومي الذي يرتبط بالمناسبات المهمة والبارزة في حياة الأمم. ولكل أمة أعيادها التي تؤلف آدابها ورسومها بين قلوب أفرادها. وتُعد الأعياد والمناسبات القومية والدينية من مظاهر التضامن والتآلف، كما تعد من العناصر الرئيسية التي تحافظ على الهُوية وتُعَرفها، وتحظي هذه الأعياد وهذه المناسبات بأهمية فائقة في إطار القدم (التاريخ) والانتشار (الجغرافيا). والأعياد الوطنية والدينية والمذهبية مرتبطة في الغالب بشخص أو واقعة خاصة، وهي تلعب دوراً بارزاً في الحياة الوطنية والدينية والمذهبية لأي دولة. ويزيد عدد الأعياد المهمة كلما كانت الأمة قديمة وعريقة، وكلما تعرضت لتطورات وأحداث وطنية ودينية ومذهبية كثيرة.

وكان للإيرانيين القدماء أعياد كثيرة، وكانوا يحتفلون طوال العام بعشرات الأيام بمناسبات مختلفة، لكن لم يبقَ من بين أعياد إيران القديمة والكبيرة إلا العدد القليل فقط. والإيرانيون من الشعوب العريقة التي لديها عادات وتقاليد قديمة مقترنة بالسعادة والفرح،

مثل: عيد النوروز الذي أبدعته البيئة الإيرانية وعيد المهرجان وشب يلدا، ولديهم عادات وتقاليد أخرى مرتبطة بالذكريات والأحزان، مثل عيد الأموات الذي يقام للاحتفال بذكرى جماعية أو شخصية. وهذه العادات وهذه التقاليد استمرت فترات طويلة، وأصبحت جزءاً من الهُوية والشخصية الإيرانية. كما أن للإيرانيين أعياد احتفلوا بها بعد اعتناقهم للإسلام، مثل: عيد مبعث النبي محمد (صلي الله عليه وسلم)، ولديهم أعياد مذهبية نابعة من المذهب الشيعي، مثل: ليلة النصف من شعبان ومراسم أيام شهري: رمضان والمحرم، وهي أعياد تميز الشيعة عن غيرهم في الهُوية. والأعياد والمآتم في إيران – بغض النظر عن السرور أو الحزن اللذين يصاحبانهما – فيهما خصائص مشتركة، وهي: إقامة الولائم والمآدب – تجمع الأقارب والمعارف – ذبح الأضاحي – دعوة أعيان ووجهاء الحي والمنطقة – إنشاد الأشعار وترديد الأغاني – الإعراب عن السرور أو الحزن بصوت عالٍ. وتتوازى مجالس العزاء وأهمها مجالس عزاء شهري المحرم وصفر في إيران مع الأعياد والاحتفالات، وذلك نظراً لتأثير الدين الإسلامي – بصفة عامة – والمذهب الشيعي – بصفة خاصة – عليها.

وتنقسم الأعياد الإيرانية – بصفة عامة – إلى خمسة أنواع:

الأعياد والاحتفالات القديمة والأسطورية والفصلية مثل: عيد النوروز وعيد تيرگان وعيد مهرگان (المهرجان) وعيد شب يلدا وعيد سده (السدق) وقد نسجت أساطير عديدة عن فلسفة وجود هذه الأعياد وتطوراتها التاريخية ومراسمها، وهي أعياد ممتزجة بحياة ووفاة الشخصيات الأسطورية وبالأديان والمقدسات. وأهم هذه الأعياد على الإطلاق هو عيد النوروز (اليوم الجديد) الذي لعب دوراً كبيراً في التعريف بالهُوية الإيرانية والحفاظ عليها، وهذا العيد يبدأ مع إطلالة الربيع في 21 مارس من كل عام ويستمر لمدة أسبوعين تقريباً، وهو عيد قديم وعريق أشار إليه عدد كبير من الشعراء العرب في أشعارهم، واشتقوا من اسمه – سواء كان النوروز أو النيروز – فعلاً، فقالوا: نورز القوم ينورزون أي: عيدوا وشهدوا العيد. وكان لأهل المدينة قبل الإسلام عيدان: النيروز والمهرجان، فلما قدم الرسول (صلي الله عليه وسلم) إلى المدينة، وعلم بعيديهم وعاداتهم فيهما، قال لهم: إن الله – تبارك وتعالى – أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الفطر ويوم النحر. وشق النوروز والمهرجان طريقهما إلى الأدب العربي في العصر العباسي (132 – 656 هـ) وتبارى الشعراء والأدباء وتفننوا في تأليف الكتب والرسائل، وفي

نظم القصائد عن هذين العيدين، وصار من الشائع في قصائد الشعراء العرب التعبير عن الربيع بالنيروز، يقول البحتري (206 – 284 هـ):

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النيروز في غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نومًا

ويتفق المؤرخون وخبراء الأساطير الإيرانيون على أن الملك الأسطوري جمشيد (أحد ملوك الدولة البيشدادية) هو أول من احتفل بعيد النوروز، واقتدى به الملوك والمواطنون فيما بعد، وعلى أن النوروز يحمل في طياته جميع العناصر الدينية والمذهبية والطبيعية والتاريخية. فاحتفالات النوروز الآن بها طابع ديني يتمثل في الدعاء أثناء تحويل العام، وهو الدعاء الذي يقول فيه الإيرانيون (يا مقلب القلوب والأبصار، يا مدبر الليل والنهار، يا محول الحول والأحوال، حول حالنا إلى أحسن الحال)، كما يتمثل في وضع نسخة من القرآن الكريم في صدر سفرة السينات السبع، وهي السفرة التي تضم سبعة أصناف يبدأ اسمها بحرف السين الفارسي، وهي: سبزي (خضراوات مثل الخس والريحان) – سيب (تفاح) – سنجد (عناب أو هو نوع من التمر الجاف) – سير (الثوم) – سكة (قطعة نقود

معدنية جديدة) – سركة (خل) – سمنو (نوع من الحلوى المصنوعة من القمح). وبها طابع عرفي واجتماعي ملحوظ، مثل: ترديد الأغاني والأهازيج المفرحة، وعزف الموسيقى المبهجة.

وفي عيد النوروز الذي يحتفل به لكونه مناسبة جامعة للأديان والعادات والتقاليد، تعطل الإدارات الحكومية لمدة أسبوع على الأقل، وتعطل المدارس لمدة أسبوعين، وتعطل الجامعات لمدة ثلاثة أسابيع، لكي يتسنى للمواطنين الاحتفال والاستمتاع بهذا العيد المزدحم بالعادات والتقاليد الاجتماعية الإيرانية. وهذا جعل عيد النوروز لا نظير له بالمقارنة بسائر الأعياد القومية والدينية والمذهبية، فعطلة عيد الفطر وعيد الأضحى وسائر الأعياد تكون يوماً واحداً فقط. وفي عيد النوروز تتبادل العائلات الزيارات والهدايا ويتوجهون إلى المتنزهات والحدائق العامة حيث الأشجار والورود والشمس المشرقة.

ويبدأ عيد النوروز بعيد چهارشنبه سوري الذي يحتفل به أفراد الشعب الإيراني في ليلة الأربعاء الأخير من السنة الإيرانية الشمسية، وهو واحد من الأعياد الاجتماعية القومية القديمة المرتبطة بدورة العام، ويعد الاحتفال في هذه الليلة استعداداً لعيد النوروز، وبشيراً بقرب حلوله، وأصبحت مراسم هذا العيد ضمن

مراسم النوروز. وقد وردت معانٍ كثيرة لاسم هذا العيد، لكننا نرجح معنى: الأربعاء الأحمر، وذلك بسبب إيقاد النيران في هذه الليلة. وبغض النظر عن فلسفة وجود هذا العيد، وعن وجه تسميته، فإنه من الأعياد التي حافظت على الهُوية الإيرانية، وميزت الإيرانيين عن غيرهم من الشعوب، ويحتفل به الإيرانيون في جميع أنحاء إيران بإشعال النيران التي تطهر القذارات وتضيء الظلام، وتقضي على نحس ليلة الأربعاء الأخير من السنة في اعتقادهم، وذلك تمهيداً لاستقبال العام الإيراني الجديد. ومن أدلة ذلك في الشعر أن الشاعر منوچهري الدامغاني (المتوفى عام 432 هـ) وصف يوم الأربعاء في شعره بأنه "يوم البلاء"، حيث قال:

چهارشنبه که روز بلاست باده بخور

بساتگين مي خور تا به عافيت گذرد

الترجمة: احتس الخمر يوم الأربعاء، فهو يوم البلاء، احتس الخمر بالقدح حتى يمر

(هذا اليوم) بعافية وسلام.

وللإيرانيين عادات وتقاليد مرعية في هذه الليلة تختلف باختلاف المدن والقرى في إيران، إلا أنه يمكن القول إن هذه العادات تكاد تكون متشابهة في هذه المدن وهذه القرى. فالجميع يوقدون النيران، ويقفزون من فوقها، ويرددون الأغاني والأشعار والأهازيج الشعبية، ويأخذون الفأل (فأل گيري)، ويتسمعون لمعرفة الفأل (فالگوش)، ويحلون العقد، ويفتحون الحظ، ويكسرون الأواني الخزفية والفخارية القديمة، ويقومون بالطرق بالمعلقة، ويحرقون البخور، ويتناولون النقل. إلا أن الحكومة بعد الثورة الإسلامية التي قامت في 1979/2/11م تنصح المواطنين بعدم استخدام الألعاب النارية والمفرقعات والمواد الحارقة في احتفالاتهم، خشية تعرض الأهالي وبخاصة الأطفال للإصابة أو الموت، كما أن البعض يرى أن إيقاد النيران والقفز من فوقها لتطهير النفوس قبل حلول العام الجديد يفتح مجالاً تنفذ منه العادات والتقاليد المجوسية القديمة.

وإذا كان عيد النوروز يبدأ بعيد چهارشنبه سوري، فإنه ينتهي بعيد سيزده بدر الذي يقام في اليوم الثالث عشر من شهر فروردين (2 إبريل من كل عام). وسيزده بدر معناها: الثالث عشر خارج المنزل أو بعيداً عن باب المنزل، فالإيرانيون يغادرون منازلهم في هذا اليوم إلى المزارع والحدائق والمروج، ذلك لأنهم يتطيرون من الرقم (13)،

وهم يقضون نهارهم في اللهو والمرح والرقص وسماع الموسيقى وترديد الأغاني والأهازيج، وممارسة بعض الألعاب الرياضية. وتخلو المنازل من ساكنيها في هذا اليوم للاعتقاد السائد لديهم بأن البقاء في المنازل في هذا اليوم يجلب النحس طوال العام.

ويستقبل الإيرانيون عيد النوروز بتنظيف منازلهم وشراء أثاث جديد وإصلاح الأجهزة والسجاجيد والملابس والستائر وسائر لوازم المنزل، وذلك إيماناً منهم بأن هذا السلوك يجلب البركة إلى منازلهم ويجلب السعادة لهم في العام الجديد. وهذا يحدث أيضاً في الأجهزة والإدارات الحكومية، وتقوم البلدية باستقبال العام الجديد بتنظيف الشوارع والاهتمام بالأشجار وزرع الورود الربيعية ويسافر البعض إلى مدينتي: "شيراز" وأصفهان ويفضل البعض السفر إلى مدينة "مشهد" لحضور مراسم تحويل العام في كنف حرم الإمام الرضا (الإمام الثامن عند الشيعة الاثني عشرية). ومن عادات الإيرانيين القديمة في النوروز تذكر الموتى وتكريمهم وزيارة المقابر في آخر يوم خميس في العام الهجري الشمسي، ووضع الأغذية (حلوى – خبز – مخبوزات – تمر) على القبور، والإكثار من وجوه البر والإحسان. ويزور البعض مقابر الأئمة وأبناء الأئمة ظناً منهم أن قضاء بداية العام في معية الأئمة أو أبنائهم يحل العقد ويجلب السعادة

والتمكين. ويرى الإيرانيون أن زيارة الموتى وأهل القبور وقبور الأئمة وأبنائهم تثبت صحة الوجه الديني والمذهبي للهوية الإيرانية، حيث يبدأ العام الجديد بفعل الخير والقيام بالأعمال الصالحة.

ومن عادات الإيرانيين أيضاً في هذا العيد: ارتداء ملابس جديدة، وإقامة الاحتفالات الكرنفالية في المدن، حيث يخرج الناس لمشاهدة المهرجين الذين يرتدون ملابس ملونة، ويصبغون وجوههم بالأصباغ، ويؤدون حركات وألعاب وأغنيات فكاهية مضحكة. وقد تغلغلت هذه العادات في نفوس الإيرانيين، وأصبحت جزءاً من هُويَّتهم الوطنية، بغض النظر عن صحتها أو عقلانيتها. وإذا كانت المصادر التاريخية عادت بالنوروز الذي يعد أكبر وأهم الأعياد القومية الإيرانية إلى عصر ما قبل التاريخ الحقيقي الموثق أي العصور الأسطورية فإن له بعداً قومياً، فهو العيد الوحيد الذي يجمع بين الإيرانيين جميعاً على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم الاجتماعية والثقافية، وهو العيد الوحيد الذي يجمع الإيرانيون على الابتهاج بقدومه والاحتفال به. ويكفي للدلالة على أهمية هذا العيد أنه عندما يقول الإيرانيون كلمة العيد، فإنهم يقصدون بها: عيد النوروز، بعكس غيره من الأعياد التي يسمونها بأسمائها.

وقد تمسك الإيرانيون بعيد النوروز كعيد شعبي اجتماعي قومي بعد اعتناقهم الإسلام، وظلوا محتفظين بتقاليده وعاداته في العصر الأموي (40 – 132 هـ) والعصر العباسي (132 – 656 هـ) وفي عهد الدولة الطاهرية (205 – 259 هـ) وفي عهد الدولة الصفارية (261 – 287هـ) وفي عهد الدولة السامانية (261 – 389 هـ) وهي دول فارسية، وفي عهد البويهيين (320 – 448 هـ) وفي عهد الغزنويين (367 – 583 هـ) والسلاجقة (429 – 700 هـ) وهم من أصل تركي، وفي عهد الخوارزميين (521 – 628 هـ)، إلا أن مظاهر الاحتفال بهذا العيد تأثرت سلبياً في العصر المغولي الذي استمر حوالي ثلاثة قرون، وتحسنت الأحوال قليلاً في العهد التيموري (771 – 911 هـ)، إلى أن جاء الصفويون (906 – 1148 هـ) وأقاموا دولة وطنية موحدة، وأسسوا الهُوية الوطنية الإيرانية على قاعدتين: الميراث الإيراني والمذهب الشيعي الذي اختاره الصفويون كمذهب رسمي لهم. وتم إحياء الثقافة الوطنية والشخصية التاريخية الإيرانية، كما تم إحياء الآداب والرسوم القديمة مثل: الاحتفال بعيد النوروز، الذي اهتمت به الدولة بشكل رسمي، فاسترد هذا العيد ما كان له من روعة وبهاء. واحتفل نادرشاه (1148 – 1160هـ) بعد الصفويين بالنوروز، كما احتفل به كريم خان زند (1163 – 1193 هـ).

ثم جاءت الدولة القاجارية (1193 – 1925م) التي تعرضت الهُوية الإيرانية خلال حكمها لتحديات الغرب الحديث. وتنافست كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على إيران، وهذا أدخل إيران في آتون المنازعات الدولية، وانفصلت عن إيران سبع عشرة مدينة في القوقاز خلال الحروب التي دارت بين إيران وروسيا. ويتم الآن الاحتفال بعيد النوروز في هذه المدن التي انضمت إلى روسيا، وهي الآن ضمن جمهورية أذربيجان رسمياً. كما انفصلت "هرات" وجزء من سيستان وبلوشستان عن إيران في العصر القاجاري أيضاً. وفي هذا العصر كان الاحتفال بالنوروز شعبياً ورسمياً، وفي العصر البهلوي (1925 – 1979م) كان الاحتفال بهذا العيد شعبياً ورسمياً أيضاً، واعتبر هذا العيد رمزاً للهوية الإيرانية، ذلك أن البهلويين أولوا تقاليد الإيرانيين القدماء اهتماماً يفوق الوصف، وكانوا يحتفلون أيضاً بالنوروز وبعيد المهرجان وشب يلدا. وبعد قيام الثورة الإسلامية في (1979/2/11م) انقسم زعماء الثورة إلى فريقين: فريق لم تكن نظرته إلى قيم إيران القديمة نظرة إيجابية، والفريق الثاني لم يكن يرى في الاحتفال بالنوروز أي مشكلة. وعندما أعلن الإمام الخميني في بداية الثورة الإسلامية قائلاً: لن نحتفل بالعيد (أي عيد النوروز) هذا العام، انصاع المواطنون لتوجيهاته، وحال الحماس الثوري دون إقامة احتفالات النوروز المتعارف

عليها، لكن المواطنين احتفلوا بالعيد في السنوات التالية، ولم يسلم الأمر من اعتراض بعض الشخصيات المذهبية على طقوس چهار شنبه سوري وسيزده بدر وعلى طول مدة عطلة النوروز، إلا أن هذا لم يترك أثراً ملموساً على أسلوب إقامة احتفالات النوروز.

وهكذا فإن اقتران وامتزاج العناصر الدينية والمذهبية والطبيعية والتاريخية يبرز أهمية الدور الذي يلعبه عيد النوروز في صياغة الهُوية الوطنية وفي تثبيتها بشكل ملفت للنظر ومؤثر. ففي عيد النوروز تقترن السعادة والسرور بالنظافة والنقاء اللذين حض عليهما الإسلام في المنازل في إيران وفي الحيز الثقافي الإيراني (في آسيا الوسطى والقوقاز والبلقان وحوض البحر الأسود والشرق الأوسط)، كما تقترن أعياد النوروز بإحياء الطبيعة وتجددها، حيث يبدأ فصل الربيع والاعتدال الربيعي والشمسي مع بداية عيد النوروز، وبالمسارعة إلى صلة الرحم وفعل الخير والبذل والعطاء، وهي من السلوكيات التي حث عليها الإسلام. وقد اهتم الشعراء الفرس القدامى والمحدثين بعيد النوروز والربيع في أشعارهم.

يقول الرودكي (المتوفى عام 329 هـ):

- أقبل الربيع السعيد بألوانه وروائحه الشذية، ومعه مائة ألف نزهة بديعة وزينة عجيبة.
- يليق بالشيخ أن يصير شاباً في هذا الوقت، ويليق بالدنيا أن تصبح شابة من بعد المشيب.
- ويقول فرخي السيستاني (المتوفى عام 429 هـ):
- ها هو العام الجديد والشهر الجديد وعيد النوروز، قد امتلأت جميعها بالسعادة والسرور والحبور.
- والجبل مليء بشقائق النعمان، والشقائق تعلوها قطرات الندى، والصحراء مليئة بالسنبل، والسنبل مليئة بالسوسن.
- أنا والروض الجميل وماء النهر الصافي، فقد سئم قلبي من المنزل والحي.

ويقول صابر الترمذي (المتوفى عام 538 هـ):

- أقبل النوروز، وخرج كل كنز مدفون في باطن الأرض.

ويقول سعدي الشيرازي (المتوفى عام 691 هـ):

- ما أبهى نزهة عيد النوروز لاسيما في شيراز، فهي تُنسي المسافر الغريب وطنه.

ويقول أيضاً:

- كل من لا يعشق وقت الربيع ليس إنساناً، وكل عشب لا يتحرك في النوروز فهو حطب.

ويقول حافظ الشيرازي (المتوفى عام 792 هـ):

- وصلت البشرى بأن الربيع قد حان وقته، وأن النباتات قد نبتت، فإذا وصل الراتب، فسوف ننفقه في شراء الورود والنبيذ.

ويقول محمد تقي بهار (ملك الشعراء 1866 – 1951م):

- وصل موكب النوروز، وغلب النعاس عين الفتنة، سلام على هذا الموكب المبارك وتحية له.

وللإيرانيين أعياد قومية أخرى بالإضافة إلى النوروز، وعلى الرغم من أن هذه الأعياد ليست لها أهمية ولا انتشار ولا عمومية عيد النوروز، إلا أنها تعد من عناصر الهُوية المؤثرة. ومن هذا الأعياد:

"عيد شب يلدا"، وهو عيد قديم وغير رسمي. و"شب" بمعنى ليلة في الفارسية، ويلدا كلمة سريانية بمعنى: الميلاد، ولما كانت ليلة الميلاد تتزامن مع موعد ميلاد المسيح (عليه وعلى نبينا السلام)، فقد أطلق عليها هذا الاسم. وهي آخر ليلة في فصل الخريف، ويبدأ بعدها فصل الشتاء (21 / 12 من كل عام)، وهي أطول ليلة من ليالي العام. ويؤمن الإيرانيون القدماء بأن الشمس تتحرر في نهاية هذه الليلة من قبضة أهريمن (الشيطان)، ويُهزم الظلام، وينتصر الضياء والنور. وفي هذه الليلة يجتمع معظم الإيرانيين في حجرة التدفئة، ويستمعون إلى قصص وحكايات الكبار المسنين، ويتناولون الفاكهة والنُقل. وقد زاد الاهتمام بهذا العيد في السنوات الأخيرة، ويقوم بعض الإيرانيين بإطلاق اسم: " يلدا" على أبنائهم وعلى بعض الشوارع والميادين. ويكتسب هذا العيد أهميته من اقترانه بأعياد ميلاد المسيح وبداية العام الإيراني الجديد. ويحتفل الأرمن المسيحيون الإيرانيون (عددهم أكثر من 100 ألف شخص) بميلاد المسيح وبداية العام الجديد، ويشاركهم المسلمون في احتفالاتهم.

ومن الأعياد التي فقدت أهميتها رسمياً وشعبياً منذ حوالي قرنين من الزمان "عيد المهرجان" الذي كانوا يحتفلون به في إيران بشكل رسمي

مهيب بعد انتشار الإسلام في ربوعها، لكن لم يكن لهذا العيد أهمية وعمومية وطول مدة أعياد النوروز، إلا أن الزرادشت في يزد وكرمان يذبحون الخراف، ويحتفلون في يوم (8/10) من كل عام بهذا العيد الذي له أبعاد ثلاثة هي: البعد الديني والتاريخي والأسطوري. أي أن هذا العيد يمثل جزءاً من تاريخ إيران فقط، ولم يعد له في العصر الحالي دور يذكر من حيث الحفاظ على الهُوية الإيرانية. وكذلك عيد تيرگان (13 تيرماه – 7/4 من كل عام) الذي أصبح مهجوراً ومتروكاً مثل عيد المهرجان، ولا يحتفل به إلا في مازندران وكرمان في إيران. وأيضاً عيد السدق (جشن سده) الذي كان محصوراً في منطقة خاصة، والذي اندثر منذ مئات السنين، وكانوا يحتفلون به في شهر بهمن (30 / 1) من كل عام.

وهناك أسباب تدعو إلى استمرار أو عدم استمرار الاحتفال بعيد من الأعياد، والاهتمام بأعياد الأجانب.

<u>السبب الأول:</u> هو دور التقنية الحديثة (الإنترنت والقمر الصناعي) والخدمات التي تقدمها الشركات في مجال البريد الإلكتروني، وما تقدمه من تسهيلات وتشجيعات وهدايا في المناسبات الغربية مثل: يوم الحب (فالنتين)، وعيد رأس السنة الميلادية، فهذه التسهيلات وهذه الهدايا تساعد على نسيان

الأعياد المحلية بالتدريج. أما السبب الثاني، فهو يتمثل في دور الحكومات بما لديها من إمكانيات احتكارية في ازدهار أو عدم ازدهار المناسبات والاهتمام بها (سواء الأعياد أو العزاء)، فإحياء أو نسيان المناسبات التاريخية له علاقة وثيقة بسياسة الدولة وتوجهاتها، وعلى هذا الأساس تظل بعض الأعياد باقية على المستوى المحلي، وتحظي بعض التقاليد والمراسم المحلية بشهرة وطنية. فنسيان أعياد مثل: عيد السدق (جشن سده) الذي كان يحتفل به في (1/30) من كل عام يأتي في هذا السياق، فمثل هذه الأعياد لم تستطع فلسفة وجودها أو بسبب شعاع تأثيرها المحدود أن تلفت انتباه الناس واهتمامهم في سائر المناطق، ولم تستطع أن تحظى بعناية الحكومة أيضاً.

السبب الثاني: الأعياد والمناسبات الدينية والمذهبية التي يُحتفل فيها بتكريم وذكرى ميلاد ووفاة الأئمة وأبنائهم. وتعد إيران من الدول التي لديها أيام عزاء عديدة ومتنوعة نشأت عن المعتقدات الدينية والمذهبية، ومن يطلع على التقويم الرسمي لدولة جمهورية إيران الإسلامية يلاحظ أنه تم تخصيص سبعة أيام – على الأقل – من العطلات الرسمية لميلاد أو استشهاد أئمة الشيعة وتقام المآتم ومجالس العزاء في هذه الأيام، ويقوم الأفراد بأعمال مثل: ضرب

الجسد بالسلاسل، الضرب على الصدور بالأيدي – تمثيل المراثي. ويطلق الإيرانيون أسماء أئمة الشيعة بالإضافة إلى: فاطمة – زهرا – معصومة على أبنائهم وبناتهم، وهذا يثبت تغلغل الرموز الشيعية في نفوس الإيرانيين.

والواقع أن إحياء ذكرى العاشر من المحرم (عاشوراء)، وهو اليوم الذي قُتل فيه الإمام الحسين بن علي بالصورة الحالية، يثبت أن عاشوراء من أهم المناسبات المذهبية الشيعية، وأن أهمية هذه المناسبة توازي أهمية الاحتفال بعيد النوروز. لكن الفرق بين النوروز وعاشوراء هو أن عاشوراء يعد أهم عيد من حيث الحزن والحداد، وأن النوروز أهم عيد من حيث السرور والسعادة.

السبب الثالث: الأعياد والاحتفالات الوطنية والقومية والحكومية التي تقام في المناسبات والأحداث السياسية والاجتماعية الكبرى، مثل: عيد تتويج الملوك قبل الإسلام – عيد (14 مرداد = 8/5 من كل عام)، وهو اليوم الذي صدر فيه أمر بدء "الحياة النيابية" في عام 1906م، واليوم الذي اعتبر عيداً وطنياً وقومياً، وتم إلغاء الاحتفال الرسمي بهذا العيد بعد قيام الثورة الإسلامية في عام 1979م نظراً لأن السلطات الرسمية في الجمهورية الإسلامية كانت ترى أن بعض المثقفين والنشطاء السياسيين انحرفوا بالثورة

الدستورية على الرغم من أنها حدت من سلطات الشاه المطلقة، وتم الاكتفاء بالاجتماعات والبرامج الثقافية والأكاديمية التي تتمحور حول الثورة الدستورية. وهذا يعد أفضل مثال على الماهية المتغيرة والقابلة للتعديل للأعياد والمناسبات. ومن هذه الأعياد أيضاً. يوم الجمهورية الإسلامية (12 فروردين / أول إبريل من كل عام) وذكرى انتصار الثورة الإسلامية (22 بهمن = 2/11 من كل عام)، وهما من الأعياد التي تعد عطله رسمية، وتتم إضاءة المدن والإدارات الحكومية خلال أيام عشرة الفجر (الأيام العشرة التي أعقبت وصول الإمام الخميني في 1979/2/1م من باريس إلى طهران، والتي قامت الثورة بعدها في 1979/2/11م، وتحتفل المدارس بهذه المناسبة، ويتم بث برامج خاصة في التليفزيون، وتذاع موسيقى وأفلام وتمثيليات ومسرحيات مرتبطة بهذه المناسبة السعيدة.

ونظراً لأن الأعياد والمناسبات الإسلامية تقام طبقاً للتقويم الهجري القمري الذي يختلف عن التقويم الهجري الشمسي بـ (11 يوماً)، فإن الأعياد الدينية، والوطنية تتزامن في بعض السنوات مع الأعياد السياسية، لكن أفراد الشعب – في الغالب – يرجحون أيام العزاء على الأيام الأخرى من منطلق ترجيح الهُوية الدينية، ويتم أحياناً

تقديم موعد الاحتفال بالأعياد الوطنية، لتلافي مثل هذه المشكلات.

السبب الرابع: الأعياد والاحتفالات والمناسبات العائلية: وهي احتفالات أعياد الميلاد وحفلات الزواج، وإقامة المآتم. والإيرانيون يختارون أسماء إيرانية مثل (كامران – بهمان – أردشير – جهانگير – إسفنديار – رستم – سهراب – كاوه – بهرام) وأسماء إسلامية مثل (مهدي – علي – حسن – حسين – فاطمة – زهرا – معصومة) لأولادهم وبناتهم، كما يفضلون إقامة حفلات الزواج في يوم من أيام الأعياد القومية أو الدينية أو المذهبية مثل: عيد النوروز – عيد المبعث – عيد النصف من شعبان، ويتفاءلون بولادة أبنائهم في هذه الأعياد. ولا يقيم الإيرانيون حفلات الزواج في أيام العزاء، مثل يوم (28 صفر) وهو يوافق ذكرى وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولا في أيام شهري المحرم ورمضان وتكون برامج التليفزيون تراجيدية ومملة في أيام العزاء الديني والمذهبي، وذلك بتوجيهات من الحكومة.

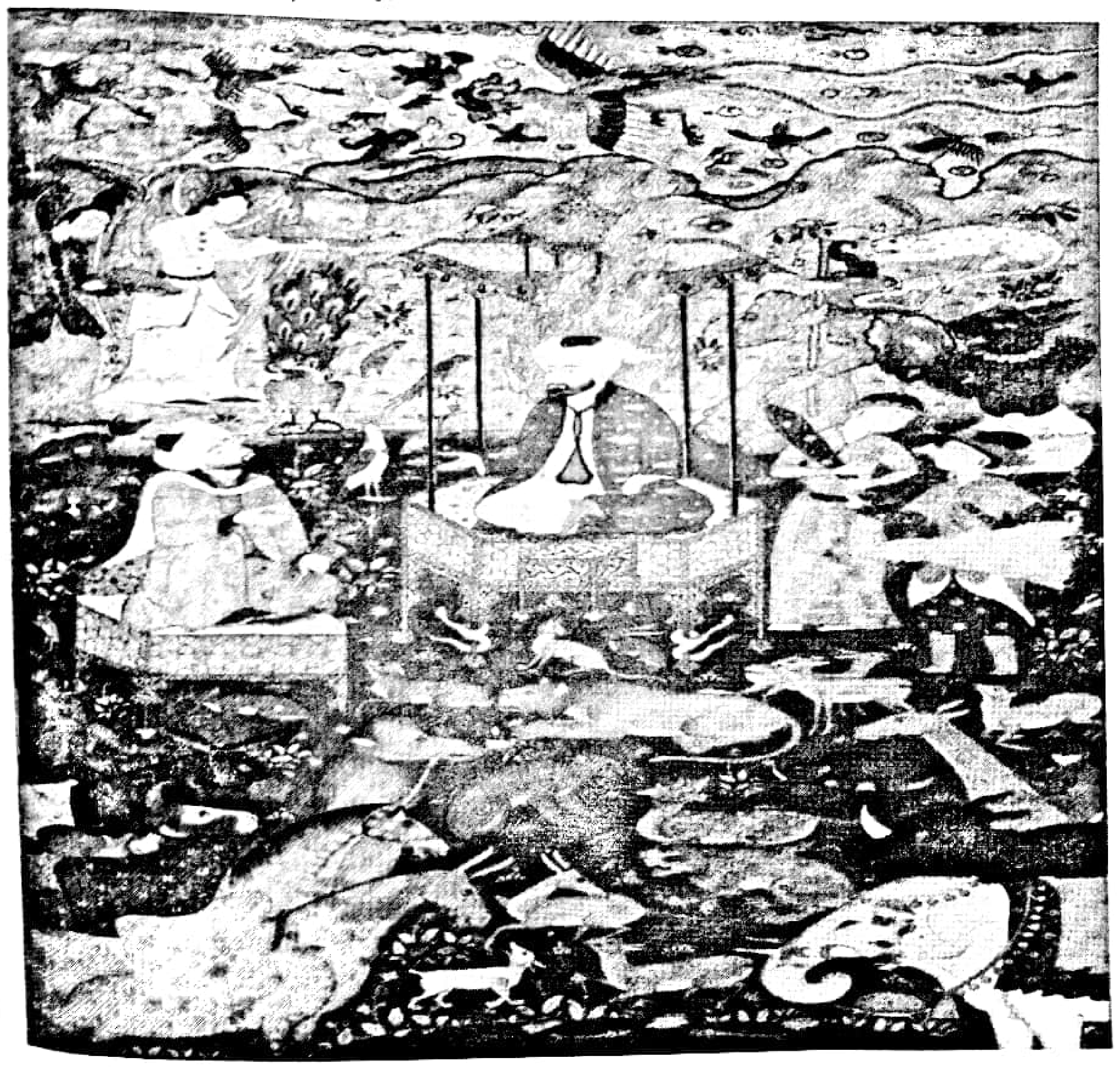
السبب الخامس: الأعياد والاحتفالات والمناسبات المحلية والإقليمية، ويقام هذا النوع من الأعياد في مناسبات وفصول مختلفة في إيران، مثل فصل: صيد الأسماك – جمع القمح والشعير –

قطف العنب – تقسيم المياه – الحصاد، ويهيمن على هذه الاحتفالات الحضور الديني والمعتقدات التقليدية وشكر الله والثناء عليه واستمداد القوة منه. إلا أن هذه الاحتفالات معرضة في الوقت الراهن إلى الانقراض بسبب عدم تحمس الشباب، وقلة عدد المزارعين، ووفرة التكنولوجيا الحديثة.

وفي نهاية الفصل نقول إن الأعياد والمناسبات القومية والدينية تعد من مظاهر الاتحاد والوفاق والتضامن الوطني، كما تُعد إحياءً للتراث القديم وتمسكاً بالآداب والتقاليد القديمة، وإن الإيرانيين لهم خصوصيتهم في التعبير عن أفراحهم وأحزانهم، ولهم عاداتهم وطقوسهم الخاصة بهم.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل الرابع: الأساطير والهُوية الإيرانية



صورة من كتاب الأساطير الفارسية شاهنامة :From https

//commons.wikimedia.org

الأساطير والهُوية الإيرانية

قليلة هي الدول في عالم اليوم التي يرتبط تاريخها بالعصر الأسطوري، وأهم هذه الدول: الهند واليونان والصين واليابان وإيران. ويقال إن الأسطورة هي أول مراحل التاريخ، فهي لا تنطلق من خيال منتحل مطلق، إنما هي غرفة تضم في جوفها أصلاً من الحقيقة، لكن هذا الأصل ضاع فيما غلفه من خيال كثير. والأساطير أحد مكونات التراث الثقافي الإنساني، ولقد لعبت الأساطير – على مر التاريخ الإنساني وحتى اليوم – دوراً كبيراً في تعبئة الوعي الجماعي، فهي تحوي فكر الشعوب وتراثها الحضاري، وتعكسه في صدق. وأساطير أي شعب من الشعوب مرآة للمجتمع الذي كان ذلك الشعب يعيش فيه، وهي تصور عاداته وتقاليده وأمانيه ومثله العليا في الحياة.

وقد تكون الأسطورة أو القصة المأثورة التي تؤمن بها فئة من الناس أعمق أثراً من الوثيقة التاريخية. وإذا افترضنا أن الهُوية الوطنية عبارة عن مزيج من الكينونة والصيرورة، وأن التاريخ والرواية يلعبان دوراً مهماً في تشكيل أو تغيير هذه الهُوية، فإن الأسطورة من الممكن أن تعد إحدى العناصر الرئيسية المكونة للهُويَّة.

وتكمن أهمية الأسطورة في إنه لا يمكن محوها بأيدي المغيرين الأجانب أو الأعاصير الطبيعية، وأنها تظل دائماً محفورة ومحفوظة في ذاكرة البشر، وأنها تظل في الغالب – على عكس الآثار المعمارية والأبنية التاريخية – في أمان من أذى الحوادث. صحيح أن العلم الحديث حل محل الأساطير القديمة، وحذف الأساطير من العلاقات الدنيوية، إلا أنه لا يمكن القول إن جميع علاقات البشر ومعتقداتهم تقام على أساس العلم والمعرفة، وإن الأساطير والمعتقدات غير العلمية لا تلعب دوراً في تنظيم المعرفة والعلاقات. ومن هذا المنطلق، يتضح أن الأساطير تلعب دوراً مهماً، وأن جزءاً مهماً من القوالب المعنوية والحافظة التاريخية للشعوب يتأثر إلى حد كبير بالأساطير.

هذا بالإضافة إلى أنه على الرغم من التدخلات التي تطرأ على الأساطير أثناء روايتها، فإن هذه الأساطير توضح أحداث الماضي، وتكشف عن القواعد التي شكلت التركيبة الاجتماعية والمؤسسات السياسية–الثقافية للمجتمعات. وعلى هذا الأساس فالأسطورة ليست حقيقة مُسلَّم بها (لأنها كانت ممتزجة على مر التاريخ المروي والروايات بالسياسة والدين)، وليست خرافة لا قيمة لها (لأنه يمكن من خلال الأسطورة حل رموز العالم القديم، واستنباط ضوابط

السلوك الصحيحة وغير الصحيحة). ويمكن القول إن الأمم تنظر إلى أساطيرها بنوع من التعصب والارتباط الذهني، ويشتد هذا التعصب عندما يشكك الآخرون في صحة هذه الأساطير وفي وجودها.

وعلى الرغم من وجود عناصر مشتركة في الأساطير، فإن عمق معتقدات الأفراد والشعوب المختلفة ونوع النظرة إلى دور الأساطير وأصالتها يختلف من أمة إلى أمة أخرى، كما يختلف نوع ومعدل هذا الالتزام بهذه المعتقدات من أمة إلى أخرى أيضاً. والهُوية لها شكل طبيعي مادي ملموس، مثل نوع الملابس، كما أن لها عناصر ذهنية وعقائدية، مثل: المعتقدات الوطنية أو الأساطير التاريخية. لكن الوجه الذهني – العقائدي أكثر أهمية من غيره من الوجوه في حالة الحديث عن الهُوية، فمن الممكن أن تبلي المظاهر الملموسة بمرور الزمان ومع تطور الفنون وضرورات الحياة الحديثة، فالوجوه الباطنية والذهنية للهُويَّة تكون دائمة في العادة. وعندما يتكون الوعي الجماعي يزداد الاستناد بوعي إلى الأساطير وإلى سائر العناصر الذهنية للهُويَّة، فالأساطير – في الغالب الأعم – تحرك العواطف والمشاعر، وتصيب البشر بالحيرة، وهي قابلة للتصديق، وليست هناك أدلة متقنة ومجربة لإثباتها. ونظراً لأن الجزء الأعظم

من أنشطة البشر وأفكارهم وأفعالهم ليس بالضرورة أن يكون عقلانياً، بناء على هذا، تكون الأساطير موضع قبول وترحيب من قِبل الأفراد والجماعات، على الرغم من اشتمالها على مضامين غيبية ومفاهيم فوق العقلانية.

والأساطير تضفي قدسية أحياناً على بعض الأماكن أو الأدوات الطبيعية، فعلي سبيل المثال، حيكت أساطير حول سلسلة جبال " ألبرز " التي تقع في شمال إيران، واستخدم الشعراء هذه الجبال وقمة " دماوند " (أعلى قمة في هذه الجبال، وهي تقع في شمال شرق طهران، وارتفاعها حوالي 5671 متراً) في استعاراتهم وتشبيهاتهم، وقد وصف جبل "ألبرز" في الأوستا (الكتاب الديني للزرادشت) بأنه أقدم جبل في العالم، وأن خروجه من الأرض استمر (800) عام، وأن جذوره ضاربة في أعماق الأرض، وأن قمته (دماوند) تطاول السماء، وأن الإيرانيين القدماء كانوا يتصورون أن النجوم والقمر والشمس تدور حول هذا الجبل وهذه القمة. واليوم ومع زيادة المعلومات العلمية اتضح أن جبل "ألبرز" ليس أعلى جبل في العالم، وأنه لا يُعد مركز الأرض. كان جبل "ألبرز" مقدساً لدي الإيرانيين طوال عصور عديدة، وهناك أشياء أخرى لها قداسة خاصة لدى الإيرانيين، كما توجد مفاهيم أخرى صنعتها الأساطير

واستمرت، مثل: حب الوطن – البطولة – الجلال الإلهي – الغفران. لكن نظراً لأن الأساطير لا تقوم على أساس معطيات علمية دقيقة، فإنه يمكن وصف الأساطير بأنها فرضيات تخيلية وكاذبة، لكن لا يمكن الشك في أنها من العناصر المكونة للهُويَّة.

وإلى جانب الأساطير، نجد أن قصص البطولة أو الملاحم والخرافات تؤثر في قناعات الأفراد والجماعات، فالروايات الأسطورية تؤكد باستمرار على الإيمان بوجود الروح في جميع العناصر الموجودة في الطبيعة، وعلى الإيمان بخلود هذه الروح، وعلى الاعتقاد في وجود قوة خفية تحرك كل الموجودات والكائنات. وقد أثبتت الدراسات أن الروايات والأساطير كان لها تأثير ملموس على الهُوية الإيرانية، ويؤكد البعض على أن القصص الأسطورية مثل: "قصة جمشيد" و"قصة أفريدون" وغيرهما من القصص الموجودة في الشاهنامة (كتاب الملوك الذي نظمه الشاعر الإيراني الكبير الفردوسي في (60) ألف بيت) تعد شاهداً على قدم الهُوية الإيرانية. وعلى الرغم من أن وجود جمشيد والأعمال التي نسبها إلى نفسه (مثل: زراعة الأرض واستخراج المعادن وصنع آلات الحرب وصهر الحديد وتسخير الجن في بناء المنازل وصناعة السفن ونسج القماش) لا يتناسبان ولا يتماشيان مع عقل اليوم، إلا أنه لا يمكن القول إن

"جمشيد" ليس له وجود، فقد أصبحت قصة جمشيد في الأدب وفي الروايات الأسطورية الإيرانية واحدة من المقولات المانحة للهُويَّة. والروايات والأساطير الإيرانية التي تدور حول جمشيد أو غيره من الملوك تنسب صفات مثل: تعليم الفنون وحسن التفكير وتطبيق العدل إلى الإيرانيين. ومن الصعوبة بمكان أن يتم اليوم تجاهل دور هذه الروايات وهذه الأساطير في التعريف بتاريخ الإيرانيين وأصلهم، فهذه الروايات انتقلت بوصفها ميراثاً مانحاً للهُويَّة من جيل إلى جيل ومن صدر إلى صدر بواسطة الأفراد والأجهزة والمؤسسات المتعددة، وأصبحت اليوم واحدة من العناصر المكونة للهُويَّة الإيرانية. وبصفة عامة انتقلت المجموعة التراثية إلى الوقت الحاضر في شكل روايات وطنية وأساطير دينية وسير للأبطال ووصف للمعارك والمنازعات وأعمال الملوك والأمراء، ولعبت هذه القصص وهذه الروايات وهذه الأساطير دوراً بارزاً في تمييز الإيرانيين عن غيرهم، بعد أن اختصت لنفسها بالجزء الأكبر من أدب الإيرانيين وثقافتهم وفنهم، فقد نظم عدد كبير من الشعراء من هذه القصص أشعاراً وعظية. وقد أضاف المؤرخون والشراح إضافات عديدة إلى هذا التراث أيضاً، وهكذا تكون تاريخ الإيرانيين، وتكونت معتقداتهم على أساس القصص الأسطورية.

وجدير بالذكر أن مضمون الأساطير يشتمل على الفتوحات ومواقف الشهامة والرجولة والبسالة وعلى البطولات والهزائم والإخفاقات الإيرانية. وقد لعب ذكر الجذور وتداعيات هذه الهزائم وهذه الإخفاقات دوراً بارزاً في استمرار وتثبيت دعائم الهُوية الإيرانية. ولا يجب نسيان أن رواية التاريخ الإيراني لم تتم في قالب الأسطورة فحسب، بل إن الأساطير وصناعتها كانت فقط وجهاً من وجوه تسجيل الوقائع والإبقاء عليها للأجيال اللاحقة، فقد وصل إلينا جزء مهم من الوقائع التاريخية التي تلعب اليوم دوراً بارزاً في تكوين وتثبيت دعائم الهُوية الإيرانية في شكل أناشيد ونصوص

حماسية، وهذه الأناشيد وهذه النصوص ليست تقارير عن الحقائق التاريخية، بل إنها مجموعة من التخيلات الشاعرية الممتزجة بالوقائع الحقيقية، والتي أبدعت الملاحم التي شكلت الماضي والوعي التاريخي للإيرانيين المعاصرين. وعلى الرغم من أن الملاحم متأخرة زمنياً عن الأساطير، إلا أن لها نفس تأثير الأساطير في مجال منح الهُوية. ومعيار الهُوية الإيرانية ومؤشرها في الملاحم عبارة عن: العدل – العقل – الصدق. والمنظومات الحماسية نوعان: المنظومة الحماسية الطبيعية، والمنظومة الحماسية المصنوعة. ويهتم الشاعر في هذه المنظومات بوصف الحروب والبطولات والتضحيات ومظاهر

الفكر والروح لدي الأفراد. وأهم المنظومات (الشاهنامات) الحماسية الطبيعية والوطنية هي: شاهنامة الفردوسي – شاهنامة بهمن نامه للحكيم إيرانشاه – شاهنامة جرشاسب نامه لأسدي الطوسي. وأهم هذه المنظومات على الإطلاق: شاهنامة الفردوسي التي تعد أهم المؤلفات الصانعة للهُويَّة الإيرانية، وعدد أبياتها حوالي (60) ألف بيت على ما هو مشهور، وقد نظمها الفردوسي في ثلاثين عاماً (من عام 370 إلى 400هـ).

ويمكن تقسيم شاهنامة الفردوسي إلى ثلاثة أقسام: القسم الأساطيري – القسم البطولي – القسم التاريخي. ويتحدث القسم الأول عن النزاع بين البشر والشياطين أي بين الخير والشر، وهو النزاع الذي انتهى بانتصار البشر والخير.

والقسم الثاني (البطولي) وهو نتاج التخيل والإبداع الذهني والأدبي للشاعر الفردوسي، شأنه في ذلك شأن القسم الأول، ويبدأ القسم الثاني بمواجهة – أيضاً – بين الخير والشر، أي بين فريدون والضحاك الحاكم الظالم، ثم يتضمن قصصاً طويلة عن مواجهة الإيرانيين للتورانيين (أتراك آسيا الوسطى) والرومان، وعن دور الملوك والأبطال الإيرانيين في هذه المواجهات، وعن أخبار الملوك والأبطال ونوادرهم. هذا ويطلق الإيرانيون على أبنائهم أسماء عدد

كبير من أبطال القسم الثاني من الشاهنامة في الوقت الراهن، وهذه الأسماء هي: كاوه – فريدون – منوچهر – إيرج – نوذر – رستم – خسرو – بيژن – سهراب – اسفنديار – سياوش وغيرها من الأسماء. وهذا يدل على مدى تأثير أبطال الشاهنامة في حياة الإيرانيين العامة. هذا ويعد القسم البطولي واسطة العقد بين القسم الأساطيري والقسم التاريخي، فقد كان الفردوسي يروى بلسان أبطاله الإيرانيين آماله وطموحاته كرمز للهُويَّة الإيرانية، وعندما كان هؤلاء الأبطال يخاطبون المنافسين، كان ذلك إشارة إلى هُويَّة الآخرين. أما القسم الثالث فهو القسم التاريخي، وهو الذي يتحدث فيه الفردوسي عن أشخاص وأفعال لها وجود تاريخي، ويحتوي هذا القسم على قصص تاريخية، وأبطاله لهم وجود تاريخي، ويقومون بأعمال عادية ومتعارف عليها. وهذا القسم يميز بوضوح هُويَّة الإيرانيين وهُويَّة العرب والرومان والأتراك، ويتحدث عن خصائص الإيرانيين وفضائلهم، كما يتحدث عن الحروب وميادين القتال والشئون السياسية وعلاقة السلاطين بالبلاط ومباحثات الأشخاص وترجمة الكتب واختراع وسائل اللعب والمناقشات التي كانت تدور في البلاط والصيد والاحتفالات، كما أشار الفردوسي في هذا القسم إلى مكانة الملوك والأبطال والمعارضين ورجال الدين والعلماء والموسيقيين والمترجمين والمؤلفين. الخلاصة أن الفردوسي

أبرز تفوق الإيرانيين على الشعوب الأخرى، وأن من يقرأ الشاهنامة يشاهد الخصائص المادية والذهنية للإيرانيين. ويلاحظ الفروق بينهم وبين غيرهم من الأمم، كما يتعرف على الجغرافيا وأسماء الأشخاص والأماكن والآداب والرسوم والمناسك والعادات القومية الإيرانية وعلى الأخلاق والأمثال والحكم والمأثورات الشعبية ومراسم الحزن والحداد في إيران.

لعب الفردوسي دوراً بارزاً في صنع وإحياء الهُوية الإيرانية بعد أن أبرز الأسس التاريخية لهذه الهُوية، وساعد في الحفاظ عليها عن طريق عوامل الإثارة والأشعار الحماسية والمضامين الأخلاقية، ففي الشاهنامة حديث عن المروءة والإنصاف والعفو وعظمة الفكر وسمو الروح. وقد حاول الفردوسي إحياء المفاخر الوطنية من أجل الحفاظ على الهُوية الإيرانية، وأحصى امتيازات هذه الهُوية عن هُويّات الآخرين، وأكد على أن أبطال الشاهنامة كانوا يؤمنون بأضلاع المثلث الثلاثة وهي: الله – الملك – الوطن. وإذا كان الأدب الفارسي يعد عنصراً من عناصر الهُوية الإيرانية، فإن الشاهنامة توجد في قلب هذا الأدب، فقد استخدم الفردوسي كلمات فارسية خالصة، وضبط الأسماء الجغرافية والأعلام والآلات الموسيقية والروايات والخرافات والأساطير وأسماء الأبطال والملوك

والأمراء في إيران. والشاهنامة وحدت الإيرانيين، وقضت على الفروق الاجتماعية، وهي مرآه يرى الإيرانيون فيها أنفسهم، وقد اهتم بها الإيرانيون طوال فترات تاريخهم نظراً لخصائصها الأدبية والتاريخية والأخلاقية والحماسية، ويرجع سبب اهتمام الإيرانيين بقصص الشاهنامة إلى الرغبة في الحفاظ على شخصيتهم وهُويّتهم أمام غيرهم من الشعوب. كما يرجع السبب في خلود الشاهنامة إلى ثراء فكر ناظمها، وإلى بساطة أسلوبه وجزالته، وإلى بعده عن التكلف والتصنع الأدبي، وإلى قوة تشبيهاته واستعاراته، وإلى إبداعه في جمع القصص وتحويلها من النثر إلى الشعر. هذا إلى جانب أن الفردوسي تحدث في شاهنامته عن التورانيين والرومان والهنود والصينيين والعرب الذين كانوا جيراناً لإيران. وقد أكد بعض الدراسين على أن معظم الأساطير الإيرانية دفاع عن الحدود الإيرانية ومحاربة الشيطان والتوارنيين والقبائل غير الإيرانية. كما تشتمل الشاهنامة على قصص تتمحور موضوعاتها حول العشق والمعاشقة، مثل قصص: زال ورودابة – بيژن ومنيژه – سياوش وسودابة – سهراب وگردآ فريد – تهمينه ورستم – مالكه وشاپور – خسرو وشيرين – گلنار واردشير – كاوس وسودابة. وهي قصص زاخرة بالفضل والأدب وطهارة الذيل، وتظهر أن الإيرانيين يتصفون باللطف والرقة وسمو الطبع، وأن شخصيتهم تتصف

بالجمال والاعتدال. وللمنجمين ومفسري الأحلام والسحرة شأن كبير في الشاهنامة.

وقد استخدم الشعراء الإيرانيون - على مر العصور - الأساطير الإيرانية في أشعارهم، وتستوي في ذلك الأساطير الوطنية أو الدينية أو الطبيعية أو العشقية أو الصوفية أو المجتمعية وأساطير المدن، وقام هؤلاء الشعراء بتوظيف هذه الأساطير في انتقاد أوضاع المجتمع بشكل رمزي، ومن أهم هؤلاء الشعراء: محمد تقي بهار – نيما يوشيج – أحمد شاملو – مهدي أخوان ثالث – محمد رضا شفيعى كدكنى – فروغ فرخزاد – سهراب سپهرى.

ويدلي المفكر وعالم الاجتماع الإيراني الشهير الدكتور على شريعتي (1933 - 1977م) بدلوه في موضوع الأسطورة الإيرانية، فيقول: الأساطير عبارة عن التاريخ كما يجب أن يكون، وبناء على هذا، فإن نسج الأساطير احتياج إنسان لم يشبعه التاريخ الواقعي، فيقوم هو بصنع الأساطير، وهو يعلم أن الأساطير كذب. والأساطير ليس بها نقائص ولا موت ولا ضعف ولا عيوب، فهي تُصلح كل ذلك، وتصنع تاريخاً باسم الأساطير، التاريخ كما يجب أن يكون، ولا يكون، ولا يمكن أن يكون. والأسطورة

نوعان: النوع الأول: شخصية تاريخية ولها وجود تاريخي، أي شخصية

واقعية: بطل عاش عدداً من السنوات، وقام بعدد من الفتوحات، وحقق العديد من الانتصارات، ثم مرض ومات أو قُتل، فيأتي البعض ويحول هذه الشخصية الإنسانية العادية إلى شخصية غيبية، شخصية إنسانية كما يجب أن تكون. أي أنه يحول بطلاً عادياً في التاريخ إلى بطل أسطوري في ذهنه كما يجب أن يكون البطل، بغض النظر عن سمات هذه الشخصية. ولدينا نموذج من هذه الشخصية وهو: أبو مسلم الخراساني (المقتول في عام 137هـ) الذي كان غلاماً طموحاً في خراسان، وكان يبحث عن فرصة لكي يصل إلى السلطة والنفوذ، فوضع نفسه تحت إمرة بني العباس (132 – 656 هـ) في مواجهة بني أمية (40 – 132 هـ) الذين كانوا يحكمون لكنهم أصبحوا ضعفاء، وكان لديه قدرة عسكرية وقدرة على القيادة، فاستثمروا هذه القدرة وهذه القيادة، واحتفظوا به حتى انتهى دوره، ثم أمر الخليفة أبو جعفر المنصور (136 – 158 هـ) بقتله، وانتهت القضية. وقد أُلفت حول "أبي مسلم الخراساني" كتباً وقصصاً كثيرة تُقرأ – الآن – في المقاهي، لكن شخصية أبي مسلم في هذه القصص وهذه الكتب تختلف عن شخصية أبي مسلم

الحقيقية التاريخية، فشخصيته في القصص لا تموت ولا تُهزم، وهي موجودة في كل مكان: في إيران وفي تركيا، وفي كل المدن. كما أننا نجده في هذه القصص حكيماً عظيماً متخلقاً بأخلاق حميدة ورفيعة، وقوياً جداً. وكذلك نموذج شخصية الإسكندر (336 – 323 ق.م) ذلك الشاب اليوناني الذي جاء من الغرب، وشن هجوماً على إيران، وأسقط حكومتها، وخرب آثارها الموجودة في تخت جمشيد، وقضى على دارايوش الثالث ملك الهخامنشيين، وحكم هو وخلفاؤه إيران فترة طويلة من الزمان. ونظراً لأن الإسكندر وضع حضارة إيران وعظمتها وقدرتها تحت قدم الجيش اليوناني، فإنه كان يجب أن يكون رجلاً ممقوتاً في إيران، وكان يجب أن يذكروه في إيران بوصفه شيطاناً ملعوناً، لكن الأساطير الإيرانية صنعت منه شخصية موحدة حية لا تُهزم، امتشقت السيف منذ نعومة أظفارها لإنقاذ البشرية، بل إنهم في الكتب والمنظومات التي ألفها الشيعة عن الإسكندر، جعلوه يحب علياً (ابن أبي طالب)، وأوجدوه في بلاط سليمان، وجعلوه يشرح حب علي لسليمان في ملكه. أي أنهم صنعوا من الشاب اليوناني المنحرف الفاسد الذي حقق انتصاراته وفتوحاته المبهرة عن طريق الحرق والتخريب والتدمير والمذابح، صنعوا منه شخصية تتحلى بكل الفضائل والصفات التي يجب أن يتحلى بها الإنسان، جعلوه شخصية لا تموت أبداً، لا

تُهزم، ولا يؤثر فيها السيف، وليس لديها أي نقص روحي أو أخلاقي، رسالتها هي إنقاذ الإنسان، ولهذا السبب شن الإسكندر حملته على إيران، لأجل إنقاذ الإنسان والبشرية، ومن أجل نشر فكر التوحيد في جميع القلوب في العالم بأسره. جعلوا من الإسكندر الحقيقي مثل هذا الإله، ومثل هذا البطل الخيالي العظيم. إنه بطل مثل كل أبطال التاريخ الآخرين، ولكن الأساطير شيء آخر، والإسكندر الموجود في الأساطير ليس هذا البطل. أما النوع الثاني من الأساطير فهو الشخصية التي ليس لها وجود واقعي، وهي التي يصنعها الخيال فقط. وأشهر نموذج لهذه الشخصية هو "رستم بن زال" (أشهر وأهم أبطال شاهنامة الفردوسي الأسطوريين)، الذي ظهر في سيستان، وتوجه إلى القتال وعمره ثلاث سنوات، ورستم هذا لا يُهزم أبداً، وحتى إذا اضطر ناظم الشاهنامة إلى هزيمته فإنه يهزمه على يد ابنه، وعندما يقع بجواده في البئر التي حفرها شقيقه "شغاد"، ووضع فيها الحراب والنصال، لا يظهر رستم ضعفه، ولا يموت، بل إنه يعيش في إحدى القرى، وينشغل بزراعة الأرض. لماذا؟ لأن هذا البطل يجب ألا يموت، يجب أن يخلد، يجب ألا يُهزم في أي معركة، يجب ألا يظهر ضعفه في أي مكان، يجب أن يكون مبرأً من العيوب، يجب ألا يقترف فساداً أو خطأً أو عشقاً غير شرعي.

وفى النهاية نقول إن الأساطير الإيرانية تربط مصير الإيرانيين ببدء الخليقة (بداية خلق البشر) وبداية المجتمع الإنساني وإن الفرس مغرمون بالقصص ومشغوفون بالمجاز والرمز والتمثيل والتخييل، وينمازون بتصور الغيبيات تصوراً مجرداً دقيقاً، ومفتونون بالأساطير وإن تاريخ إيران يعتمد في عصوره السحيقة على القصص والأساطير، وإن الفترة الأسطورية تحتل مكانة مرموقة في تاريخ الفرس، كما أن لها أثرها الكبير في تاريخ الأدب الفارسي على وجه الخصوص، وقد ترددت سير ملوك الفرس وأبطالهم على ألسنة الخاصة والعامة، ووظف الشعراء والكتاب أسماء وسير هؤلاء الملوك وهؤلاء الأبطال في مؤلفاتهم، وأشادوا بهم، وتغنوا بشجاعتهم وبطولاتهم، واتخذوهم دليلاً على عظمة أجدادهم وعلو شأنهم. إلا أن الأساطير الإيرانية التي لعبت دوراً في الثقافة الإيرانية تواجه الآن تحديات وهي أنها لم تعد تحظ بالرونق والجاذبية القديمة، وأنه قد حدث تطور في نوع العلوم وأساليب التعليم، وظهر جيل جديد له هواجسه واهتماماته المختلفة عن هواجس الأجيال السابقة واهتماماتها، وكل هذا قلل من أهمية الأساطير ومكانتها بشكل ملموس.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل الخامس: التاريخ والهُوية الإيرانية



جدارية في برسيبوليس و التي كانت العاصمة الاحتفالية للامبراطوريه الاخمينية. وهي تقع علي بعد 60 كم شمال شرق مدينه شيراز في مقاطعه فارس ، إيران. تصوير مصطفى مراجي.

Https: //Unsplash.com

التاريخ والهُوية الإيرانية

يرتبط الإنسان بتاريخه وماضيه بصفة دائمة، ومن الموكد أن التاريخ يُعد من العناصر المهمة لتشخيص الهُوية الوطنية. وقد حرص معظم المؤرخين على أن ينقلوا الافتخارات الوطنية والمحلية والعنصرية والأدبية والثقافية والدينية السابقة إلى الأجيال اللاحقة، حتى لا تضيع ولا تمحى من الذاكرة، وهكذا انتقلت إلى هذه الأجيال تفاصيل الانتصارات والانكسارات والرخاء والشدة والحب والعداء والسعادة والشقاء وسائر التجارب الإنسانية. والمؤرخ الذي يلقي الضوء على الماضي التاريخي، يكون دافعه الأول هو الحفاظ على الميراث السياسي والاجتماعي والثقافي الذي يمثل العناصر الرئيسية للهُويَّة، وهكذا يلعب المؤرخ دوراً مهماً في عملية تطور هذا الميراث واستمراره. والتاريخ لا يكتبه المؤرخون فقط، بل يشارك في كتابته الرحالة والكُتَّاب والفنانون، وهو ليس مجرد سرد لحياة الملوك والحكام، أو سلسلة حروب ومعارك وصراعات، وإنما هو تعريف بحياة الشعوب، وهو أيضاً ذكريات ومذكرات من عاشوا في فترات مختلفة. ومما لا شك فيه أن المجتمعات تُعرف وتميز بهُويَّاتها التاريخية التي يُعرّفِها البعض بأنها المعرفة والوعي المشترك لأفراد المجتمع بالماضي التاريخي، والإحساس بالتعلق والارتباط بهذا الماضي، وهذا

الإحساس يحول دون انفصال أي جيل عن تاريخه، ويربط الأجيال المختلفة ببعضها البعض.

وعلى الرغم من أن الإيرانيين مزهوون بتاريخهم ومغرمون بتميزهم الحضاري والإنساني على مر العصور، إلا أنهم يأسفون لأنهم لم يكتبوا تاريخهم، ولأن الآخرين هم الذين كتبوه. يقول الدكتور پيروز مجتهد زاده (مدير أحد المراكز البحثية في لندن ومستشار جامعة الأمم المتحدة للبحوث) إن القدر الذي نعرفه عن تاريخ إيران كتبه المؤرخون اليونانيون (ومنهم هيرودوت المؤرخ الشهير وجزنفون واسترابون بطليموس) في البداية، وشاركهم في ذلك اليهود، ثم ترجمت الكتب التي ألفها هؤلاء المؤرخون إلى اللغتين: الفرنسية والإنجليزية، ثم ترجمت إلى الفارسية. وفي المراحل التالية قام الرومان ثم العرب بكتابة تاريخ إيران. يقول مهرزاد بروجردي: معظم الذين كتبوا التاريخ في إيران لم يكونوا مؤرخين واقعين، بل كانوا أدباء اهتموا بالنثر الفصيح والجذاب في مؤلفاتهم التي كانت بها نقاط ضعف كثيرة مثل: عدم الاهتمام بالضوابط العلمية المرعية الآن في علم كتابة التاريخ مثل الحواشي والهوامش والتوثيق، بالإضافة إلى وجود شائبة النعرة القومية في كتابة تاريخ إيران.

ويرى الدكتور مجتهد زاده " أن الدراسة الدقيقة لتاريخ القرنين الماضيين تثبت أن الانحرافات الشخصية والحزبية كان لها تأثيرها في كتابة التاريخ ". ومن المعروف أن إيران احتلت أمماً أخرى، واحتلتها أمم أخرى في وقت من الأوقات، فقد كانت إيران في بعض فترات ما قبل الإسلام إحدى قوتين كبيرتين تحكمان العالم تقريباً، كانت إيران تحكم النصف الشرقي، وكانت تنافس الإمبراطورية الرومانية التي تحكم النصف الغربي من العالم، فقد امتد سلطان إيران في بعض الفترات، فشملت أجزاء من الهند وتركستان والقوقاز وأفغانستان وآسيا الصغرى وبلاد الكلدان والآشوريين وسوريا ومصر. وفي عام 614م حارب ملك الفرس "خسرو برويز" (590 – 628م) الروم وانتصر عليهم، واستولى على دمشق وبيت المقدس، وهذا حدث بعد بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ببضع سنوات، ونزلت الآيات الكريمة (غُلِبَتِ الرُّومُ (*) فِي أَدْنَىٰ الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (*) فِي بِضْعِ سِنِينَ) (الروم 2، 3، 4). وانتصر الروم في عام 627م بقيادة الإمبراطور "هرقل" على الفرس في موقعة نينوى، واستعادوا ما كان الفرس قد استولوا عليه، وانحسر المد الإيراني وتعرضت بلاد فارس خلال قرون عديدة لوطأة الاحتلال الأجنبي من أمم أخرى كاليونان والرومان والأتراك والمغول والعرب والإنجليز والروس، ونظراً للموقع الاستراتيجي

الذي تتمتع به، كانت إيران مضماراً لنفوذ وتنافس القوى الكبرى في العالم (بريطانيا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية) في القرن العشرين. ومما لا شك فيه أن هذا الاحتلال وهذا التنافس كان لهما تأثيرهما على الثقافة والهُوية الوطنية الإيرانية، إلا أن الإيرانيين استطاعوا – بوسيلة أو بأخرى – الاحتفاظ بهُويَّتهم القومية. والمواطن الإيراني حتى يومنا هذا يعتقد اعتقاداً جازماً أن جميع المشاكل والمتاعب التي تواجهها إيران هي من صنع قوى أجنبية معادية، وذلك بسبب ما عانوه من تدخل الأجانب في شئونهم الداخلية على مدى قرون عديدة. وقد شاركت جميع الطوائف والأقوام التي تقيم في إيران في مسيرة التكامل التاريخي الإيراني منذ العصور القديمة وحتى الآن، ولعبت دوراً أساسياً في تشكيل قوام الهُوية الإيرانية، كما شاركت هذه الطوائف وهذه الأقوام بصفة مستمرة في الدفاع عن الحدود الوطنية، وعن مصالح إيران الوطنية في القرون الماضية، فالعمود الفقري للقوات النظامية الإيرانية كان من المتطوعين من كل هذه الأقوام.

وإذا أخذنا في الاعتبار تأثير المراحل التاريخية في الهُوية الوطنية الإيرانية، نجد أن أسس الهُوية الإيرانية وقواعدها قد تشكلت على أساس: الحياة القروية والديانة الزرادشتية والنظام السياسي الذي

كان الملوك يرأسونه، وذلك في أعقاب هجرة العنصر الآري واستقراره في الهضبة الإيرانية، وبعد تحديد معالم الجغرافيا السياسية لإيران. وبعد انتشار الأساطير القومية المشتركة، بدأ اهتمام المؤرخين بكتابة تاريخ السلطة أي تاريخ الحكام وفترات حكمهم وشرح انتصاراتهم وفتوحاتهم وذكر أحداث القضاء على المتمردين في الداخل، ودحر المعتدين والمغيرين من الخارج، وتم تسجيل ذلك على لوحات أثرية وألواح حجرية وفي كتب سير الملوك. وبعد الفتح العربي الإسلامي لإيران بدأت أسلمة إيران، واعتمد العنصر الإيراني على تجاربه السياسية والإدارية السابقة وشارك في ازدهار الدولة الإسلامية الوليدة، وساهم في بناء صرح الحضارة الإسلامية، وتكونت الهُوية الإيرانية-الإسلامية، وحاول المؤرخون الإيرانيون ربط التاريخ الوطني الإيراني بالتاريخ الإسلامي، وقام المترجمون بترجمة بعض التقاويم والشاهنامات (كتب سير الملوك) التي ألفت في العصر القديم من الفارسية إلى العربية، بعد أن أتقنوا اللغة العربية التي أصبحت لغة العالم الإسلامي، واكتسبوا المعارف الإسلامية؛ فحافظوا بذلك على تراثهم الحضاري. وتولى الفرس تنظيم الدواوين الخاصة بالخلافة العباسية بعد أن عاونوا العباسيين (132 – 656 هـ) في القضاء على الأمويين (40 – 132 هـ)، واحتكروا منصب الوزير والمناصب الإدارية والسياسية. ولعبت الدويلات والسلاسل

المحلية الفارسية المستقلة دوراً في إحياء اللغة الفارسية من جديد، وفي نشر الخط والكتابة والتأليف باللغة الفارسية. وكان للمؤرخين الفرس منذ بداية القرن الثالث الهجري فصاعداً دور بارز في إحياء اللغة الفارسية، وفي الحفاظ على الأدب والثقافة المحلية والوطنية والتاريخية الإيرانية. واهتم هؤلاء المؤرخون بالحديث عن الخصائص العرقية والقومية المشتركة للإيرانيين. ومن هؤلاء المؤرخين:

"البلعمي" الذي يعد كتابه: تاريخ البلعمي أقدم نص تاريخي باللغة الفارسية، والبيهقي ومؤلف كتاب تاريخ سيستان ومؤلف كتاب تاريخ بخارا.

وألف مؤرخو العصر الإسلامي من الإيرانيين كتباً في تاريخ الإسلام في إيران وفي التاريخ المحلي مثل: تاريخ سيستان وتاريخ بخارا وتاريخ قم وتاريخ بيهق وطبرستان ومازندران وديلمستان، وفي تواريخ الدويلات والسلاسل الإيرانية المستقلة مثل: الطاهريين (205 – 259 هـ) والصفاريين (261 – 287 هـ) والسامانيين (261 – 389هـ) وآل بويه (320 – 440 هـ)، والسلاسل التركية التي حكمت أجزاء من الحيز الجغرافي الإيراني مثل: الغزنويون (555 – 388هـ) والسلاجقة (429 – 511 هـ) والخوارزميين (470 – 617 هـ) والمغول (654 – 736 هـ)

والتيموريين (771 – 903 هـ). وشكل التصوف الإيجابي الذي أصبح في بداية القرن السادس الهجري جزءاً من الهُوية الإيرانية على الساحتين: السياسية والاجتماعية، وحفلت كتب المؤرخين الإيرانيين منذ هذا القرن فصاعداً بذكر لقاءات الملوك والأمراء بكبار شيوخ الصوفية وزيارة الخانقاوات.

ومنذ ظهر الصفويون في بداية القرن العاشر الهجري أصبح التشيع عنصراً قوياً في تحديد الهُوية الإيرانية الجديدة بعد أن أعلن إسماعيل الصفوي (المؤسس الفعلي للدولة الصفوية) المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في إيران، ونشط المؤرخون الإيرانيون في مجال كتابة تاريخ التشيع وذكر أحوال الأئمة وعلماء الدين الشيعة؛ فراجت سوق كتابة التاريخ، وعلت منزلة المؤرخين الذين حاولوا إثبات أن التشيع هو المصدر الذي يضفي المشروعية على الحكومة الصفوية، وبرز دور الصلة بين التشيع كمذهب إسلامي والتصوف كمشرب روحي مشفوع بالقوة في ظهور الدولة الصفوية (906 – 1153 هـ) التي استطاعت في هذه الفترة أن تؤسس حكومة مركزية قوية في إيران، بعد أن ربطت بين التصوف والتشيع، وأصبحت قادرة على مواجهة التحديات الخارجية (الأوزبك والعثمانيين والبرتغاليين والإنجليز والهولنديين والفرنسيين والروس). وكان لمؤرخي العصر

الصفوي رؤية شيعية في مجال كتابة التاريخ الشيعي الذي كان عاملاً مهماً من عوامل الحفاظ على هُويَّتهم القومية والدينية والجغرافية. ومنذ هذا الوقت فصاعداً أصبح هذا العنصر المذهبي (التشيع) من العناصر المهمة والمقوّمة للهُويَّة الوطنية الإيرانية، وقد حافظ هذا العنصر على تأثيره الشديد حتى يومنا هذا. ومن هذا المنطلق، اهتم هؤلاء المؤرخون بشرح حال الفقهاء وعلماء الدين الشيعة، وبصلتهم الوثيقة بالشاه (الحاكم). وتم تأسيس الكتاتيب والمراكز العلمية الشيعية، وأصبح هذا كله جزءاً رئيسياً من الهُوية الدينية للإيرانيين، وهو الجزء الذي برز في مؤلفات المؤرخين الإيرانيين في العصر الصفوي وفي العصر القاجاري (1786 – 1925م) أيضاً، واهتم مؤرخون وعلماء كبار مثل: "المجلسي" "وسپهر" بكتابة تاريخ التشيع وشرح أحوال أئمة الشيعة، وأصبح صنيعهم هذا جزءاً من الهُوية التاريخية والمذهبية.

وفي القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) تأثر المجتمع الإيراني التقليدي بأيديولوجيات الغرب، وأصبحت مسألة التجديد والتحديث بمثابة الهاجس الرئيسي لمثقفي هذا المجتمع، وأصبحت الحداثة التي تركت أثرها في السياسة والاقتصاد والثقافة جزءاً من الهُوية التاريخية للمجتمع الإيراني، ورأي العديد من

المؤرخين الإيرانيين أن التجديد أو الإصلاح هو الطريق الوحيد لخلاص المجتمع الإيراني وتنميته، وبات فكر المطالبة بالتجديد والحرية أحد أهم المباحث المحورية في نسق كتابة التاريخ بالنسبة لهم. وظهر هذا الفكر في كتابات مؤرخين مثل "ميرزا آقاخان الكرماني" "وناظم الإسلام الكرماني" "وأحمد كسروي" "وفريدون آدميت".

وكانت محاولات هؤلاء المؤرخين عبارة عن إيجاد نوع من الوعي التاريخي–الاجتماعي، وذلك بعد أن أبرزوا فوائد التجديد والترقي من جميع الوجوه: الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأكدوا أن هذه الفوائد سوف تُعلي من شأن العنصر الإيراني ومكانته. وميرزا آقاخان الكرماني مثقف وناقد اجتماعي ومؤرخ، وهو من تلاميذ ومريدي جمال الدين الأفغاني (1838 – 1896م)، ومن رواد الثورة الدستورية الإيرانية (1906 – 1910 م). لم يكن راضياً من الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية في زمانه، وكان يؤمن بأنه عن طريق إصلاح الوعي التاريخي الوطني يمكن الوقوف على عوامل الانحطاط والتخلف، وتشخيص عوامل الرقي والتقدم، من أجل إحراز الهُوية الإيرانية وتشخيص القومية الإيرانية، وكان يؤمن بأن تخلف إيران مادياً ومعنوياً في عصره يرجع إلى هجوم

العرب وغارة المغول على إيران. وكان يعد التاريخ وكتابة التاريخ وسيلة من وسائل نيل الهُوية الاجتماعية، ولديه ازدواجية وتناقض في منظومته الفكرية، فهو يعد التجديد والترقي والمطالبة بالحرية والديمقراطية العناصر الأساسية لاكتساب الهُوية في عصره، لكنه أفرط في الميل إلى الماضي.

وكان يرى أن العصر الهخامنشي (559 – 330 ق.م) والعصر الساساني (224 – 652م) الذي كان من أزهى عصور التاريخ الإيراني، ونسب المشكلات التاريخية التي حدثت في عصره إلى الماضي أيضاً (الفتح العربي والغارة المغولية).

هذا وقد فقد ميرزا آقاخان الكرماني حياته وهو ثابت على عقيدته في عام 1896م، ومن مؤلفاته: آئينه إسكندري: المرآة الإسكندرية، وهفتاد ودوملت: الاثنان وسبعون فرقة.

أما أحمد كسروي (1890 – 1945م) فهو مؤرخ مجدد وعالم لغة ومصلح اجتماعي وسياسي ومفكر، وقد سخر كل إمكانياته في مجال كتابة التاريخ وفي المجالات الأخرى مثل: مجالات الأدب والدين والسياسية واللغة، وأثار الجدل في جميع هذه المجالات، وحارب التقاليد والقيم الثقافية والاجتماعية والدينية والتاريخية التي

لا تتماشي – من وجهة نظره – مع العقل، وكان يرى أن هذه القيم مختلطة بالانحرافات الفكرية الناجمة عن الجهل، وأن الإيرانيين إذا ما قاموا بتنحية هذه الانحرافات الضارة جانباً، فإنهم سوف يستطيعون السير في طريق الرقي والتقدم.

وقد وصف كسروي المؤرخين في أحد كتبه قائلاً: هؤلاء المؤرخون انتهجوا منهج المدح والنفاق قبل أي شيء، ولم يميزوا بين أعداء إيران وبين المحافظين عليها، ولم يفرقوا بين الظالم والعادل، وساووا بين تيمورلنك وهولاكو وآباقاخان وبين إسماعيل الساماني ويعقوب بن الليث ومحمود الغزنوي، ونظروا إلى الصديق والعدو وإلى القريب والغريب نظرة واحدة.

ويرى كسروي أن مهمة المؤرخ ورسالته الحقيقية هي العمل على توسيع رقعة الوعي الاجتماعي والتاريخي في المجتمع، والتمييز بين ما هو حقيقي وما هو أسطوري. ويعيب على المؤرخين الإيرانيين جهلهم بالتاريخ الاجتماعي، وإعلاء شأن تاريخ الدين والمذهب بدلاً من إعلاء شأن تاريخ الأمة. ويرى أن اهتمام المؤرخين بكتابة تاريخ الطوائف والفرق الصوفية والدينية والمذهبية هو السبب الرئيسي في تفكك الأمة، وفي جهل أفرادها بالأحداث التاريخية الجماهيرية والوطنية. هاجم التصوف والمتصوفة بشدة، وكان يرى

أن التفسيرات الصوفية والطائفية للتاريخ وأحداثه هي السبب الرئيسي في عدم الوعي بالتاريخ وفي الأحكام الخاطئة وغير المنصفة على التاريخ والأحداث والشخصيات والأبطال الحقيقيين للتاريخ. وكان كسروي صريحاً مبارزاً صلداً، يدافع عما يؤمن به بشدة، وكان يمتدح التجديد والتمدن لكنه أيضاً كان ينتقد الآثار المضرة التي تنجم عن هذا التجديد وهذا التمدن، وكان يبحث في الداخل عن عوامل تخلف إيران وعجزها وضعفها وكان مهتماً بدراسة أسباب تعاسة ومظلومية الشعب الإيراني، وكان يعد الاستعمار وهيمنة الدول الأوروبية على إيران سبباً في مضاعفة هذه التعاسة وهذه المظلومية.

وقد ضمن كسروي آراءه هذه في الصحف التي أصدرها، وفي الكتب التي ألفها. ومن المعروف أن لكسروي أكثر من سبعين كتاباً، وأشهرها تاريخ الثورة الدستورية – تاريخ آذربيجان – تاريخ خوزستان – البابية – البهائية.

وكسروي هو أول مؤرخ إيراني يبرز دور الجماهير البطولي والمهم في حركة المطالبة بالحياة النيابية (عام 1906م). وقد قُتل كسروي على يد أحد أعضاء منظمة فدائيان إسلام (فدائيي الإسلام) عام 1945م.

أما ناظم الإسلام الكرماني (1863 – 1918م)، فهو نموذج آخر من المؤرخين المعاصرين الذين اعتبروا المطالبة بالتجديد وبدولة القانون جزءاً من هوُيَّة الإيرانيين الجديدة. ألف ناظم الإسلام كتاب: تاريخ بيداري ايرانيان (تاريخ يقظة الإيرانيين)، وقال فيه إن الثورة الدستورية لم تقم بها النخبة السياسية، ولم تكن بسبب الفكر الغربي، بل هي نتاج اليقظة والوعي الوطني الإيراني، وقامت من أجل الحصول على مكاسب يستحقها الإيرانيون، ولديهم استعداد للتعامل معها، وأضاف قائلاً: لقد شارك التجار والطلاب والوعاظ والمواطنون وعلماء الدين والنخبة والأشراف في هذه الثورة. وانتقد ناظم الإسلام في هذا الكتاب الجهل وتلون المزاج والنفاق، واعتبر الثورة الدستورية نوعاً من أنواع العودة إلى الذات.

ومن هؤلاء المؤرخين أيضاً " فريدون آدميت "، وهو من المؤرخين المجددين المحدثين الذين يعدون التجديد مقترناً بالهُوية الإيرانية، وكان يستهل حديثه في جميع مؤلفاته بمناقشة وامتداح أفكار وآراء النخبة السياسية والفكرية التي أخذت واقتسبت نصوص المجتمع الغربي في العصر القاجاري الذي كان قرين عصر النهضة الأوروبية الحديثة واختلاط الغرب بالشرق. وعلى الرغم من ميول آدميت القومية في كتابة التاريخ، إلا أنه مفتون بشدة بالحداثة الغربية، وهو مغرم

بدراسة تاريخ مفكري العصر القاجاري الذين نادوا بالتحديث والتجديد، وكانوا رواداً في نشر أفكار التجديد في إيران. ومن هذه الشخصيات المجددة التي درسها آدميت تاريخياً: ميرزا آقاخان الكرماني – آخوندزادة – عبد الرحيم طالبوف – ميرزا تقي خان (أمير كبير)، وغيرهم من الرواد المطالبين بدولة القانون والتجديد، وكانوا ينشدون إحداث تغييرات اجتماعية وسياسية في المجتمع الإيراني. وكان آدميت يرى أن سيادة القانون والتجديد والحرية هي أسمي تجليات المجتمع البشري حتى اليوم، ويقول إن الوصول إلى هذه المرحلة من المدنية، من الممكن أن يساعد في إحراز الهُوية الإيرانية.

وفي نهاية الفصل نقول إن التاريخ المشترك يلعب دوراً رئيسياً في الهُوية والقومية والهُوية الوطنية، فهو يساعد على شعور أفراد المجتمع بالاتحاد والتماسك، على الرغم من اختلاف الدين والعنصر واللغة أحياناً. وأن إيران ليست دولة حديثة التأسيس، فهي دولة تاريخها يتحدث، وسكانها كانوا صناع حضارة عبر التاريخ، ولديهم إدراك مستمر لقيمة تراثهم الحضاري، وهي دولة لديها مقومات حضارية وماضي تليد.

يقول البروفسور شاپور رواساني (المحاضر في الجامعات الألمانية): للهُويَّة الوطنية الإيرانية ثلاث ركائز: الركيزة التاريخية (الإيرانية) التي تعود جذورها إلى العصر القديم، والركيزة الدينية (الإسلامية) التي ترجع إلى تاريخ الإسلام، وركيزة الحراك والعلاقات الطبقية، وإلى جانب هذه الركائز، يمكن ذكر تأثير الثقافة الغربية التي ألقت بظلالها على المجتمع الإيراني منذ العصر الصفوي، وهذا التأثير له بُعد مادي وبُعد معنوي، وللبعد المادي بُعد إيجابي وآخر سلبي. والاتكاء على ركيزة "الإسلامية" يجب أن يكون مصحوباً بالارتكاز على ركيزة "الإيرانية" والماضي التاريخي المشترك، على أساس العدل الاجتماعي وحق الحياة وحرمة الإنسان. وكانت مسألة العنصر والجنس ومسألة العودة إلى العصر القديم قد تم طرحها منذ عهد رضاه شاه پهلوي (1925 – 1941 م) بشكل ممنهج ومنظم، وقد أطلقوا فيما بعد على ابنه محمد رضا (1941 – 1979م) لقب: آريامهر (حبيب الآريين أو شمس الآريين) وقيل إن المستشارين الإنجليز أشاروا على رضا شاه بعد توليه عرش إيران باتخاذ لقب: پهلوي (ملكي – إمبراطوري – إيراني)؛ حتى يتم الربط بين تاريخ إيران المعاصر وتاريخ ما قبل الإسلام، لكي ترسخ في نفوس الإيرانيين فكرة أن رضا شاه وأعقابه هم ورثة السلاطين والحكام القدماء، وأن العصر القديم تم إحياؤه من جديد. وتؤكد بعض

الدراسات التي أجريت بعد الثورة الإسلامية (1979م) على أن العصر البهلوي (1925 – 1979م) اهتم بالماضي الإيراني والفخر به وبعظمته، وأغفل عناصر الهُوية الأخرى، ومنها الدين، ورأى أن الدين والتدين عاملان من عوامل تخلف إيران. وبعد نجاح الانقلاب الإنجليزي–الأمريكي في (1953/8/19م)، الذي كان سبباً في إسقاط مصدق الذي شكل حكومة وطنية، وهيأ المجال لتقوية الهُوية الوطنية، وأمم صناعة النفط في إيران، تم طرح مسألة العنصر والجنس والعودة إلى الماضي؛ لفرض نوع من القومية العنصرية في السنوات التي أعقبت الانقلاب سالف الذكر في إيران.

هذا ولم أجد خاتمة أفضل مما قاله الدكتور أبو طالب مير عابديني (الأستاذ بجامعة الشهيد بهشتي) الذي قال: إيراننا عريقة جداً، وتجربتها التاريخية والثقافية عمرها سبعة آلاف سنة، ومما قاله الدكتور حميد أحمدي (أستاذ العلوم السياسية بجامعة طهران) الذي قال في حوار أُجري معه عن الهُوية: وإذا كان المجتمع الإيراني يحرص اليوم على مراعاة الاعتدال والتوازن بين العنصرين الرئيسيين للهُويَّة وهما: "الإسلامية" و"الإيرانية"، فإن تجاهل عنصر من هذين العنصرين مضر وليس في صالح إيران، فالشعب الإيراني كان

وسيظل مسلماً وإيرانياً في آن واحد، وإذا قلنا إن عنصراً من هذين العنصرين ضد الآخر، فإن هذه المقولة تكون مجافية للحقيقة.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل السادس: الجغرافيا والهُوية الإيرانية



Iran Map from https: //www.rhalaa.comIran

الجغرافيا والهُوية الإيرانية

الجغرافيا من المكونات الصلدة للهُويَّة، وهي رافد من روافد الشخصية الوطنية، ومن أهم أركان الهُوية الوطنية الإيرانية وعناصرها. لكنها لم تحظ بحظ وافر من الدراسات والبحوث في إيران. ويمكن تشبيه الجغرافيا بأنها وعاء الهُوية الإيرانية، وأنها كتاب حوي جميع الصفحات الداخلية والمظاهر الخارجية للإيرانيين. وقد حافظ التاريخ على الإيرانيين داخل الحدود الجغرافية التي يُطلق عليها اسم: إيران، وكان للإسلام والحداثة دور في تغيير جغرافية إيران وتاريخها، ولعب الشعراء والفنانون والمؤرخون دوراً بارزاً في الحفاظ على الهُوية الإيرانية على مر العصور والحقب. وعلى الرغم مما حدث لإيران على يد المغيرين الأجانب والقبائل والأسر المحلية، إلا أن مصباح الهُوية الإيرانية ظل مضاءً، وكانت الجغرافيا (الأرض) والتاريخ ودولة إيران حراساً للهُويَّة الإيرانية.

وبحكم الموقع الجغرافي وتحت تأثيره، كانت إيران مُعرضة دائماً للصراعات والغارات، وكان الإيرانيون يفكرون دوماً في الخلاص من التهديدات والمخاطر الخارجية ومن الفقر والكساد الداخلي، وكانت محاولات الإيرانيين ومكابداتهم من أجل التغلب على قهر الطبيعة وشر الأعداء ملفتة للنظر إلى حد كبير. لدرجة أن بعض

الكتاب الإيرانيين قال إن التوافق والوئام هما أروع إنجازات الإيرانيين، وقال البعض الآخر إن الإيرانيين يرحبون بما جاء به الآخرون أكثر من أي قوم آخرين. وقد لعبت الجغرافيا دوراً محورياً في تشكيل الهُوية الإيرانية شأنها في ذلك شأن دول أخرى، مثل: بولندا والدولة العثمانية وفلسطين، وكان الموقع الجغرافي سبباً في الهجوم الخارجي عليها في بعض الأوقات، وسبباً في تغيير تركيبة المجتمع في هذه الدول. وللجغرافيا والأرض دور إيجابي ودور سلبي في تشكيل الهُوية وفي تغيير شكلها، ومن إيجابيات الموقع الجغرافي الإيراني المتميز: ميل الإيرانيين إلى البحث عن الجديد، والأخذ بأساليب الحداثة والرغبة في الخلق والإبداع في المجالات السياسية والاجتماعية والتجارية.

ووجود دولة مثل: إيران في ملتقى طرق الأقوام والشعوب طوال مراحل التاريخ، يضمن لها تبادل التجارب والخبرات، ويتيح الفرصة لمعرفة نقاط القوة ونقاط الضعف المحلية. وكان لعنصر الجغرافيا تأثير ملموس في اكتساب الإيرانيين المزيد من التجارب والخبرات في الشئون الإدارية، وفي مجال تحصيل الضرائب والعائدات وإدارة الشئون المالية، وشق القنوات والمجاري المائية، وإقامة الحدائق الغنّاء، وصنع المنتجات الفنية من المواد الطبيعية، وصناعة أشياء

من عظام الحيوانات، والتبادل الثقافي مع العابرين من الأراضي الإيرانية. وقد ساعد الموقع الجغرافي والوضع الطبيعي لإيران على انتقال الثقافة واللغة والحضارة والأفكار الإيرانية إلى الشعوب المجاورة، كما استلهم الإيرانيون العناصر الإيجابية والمفيدة من حضارات الدول المجاورة وثقافاتهم.

وإذا كان الموقع الجغرافي لإيران قد ساهم في تأثر دول العالم بالفنون الإيرانية المتعددة، مثل: النسج (السجاجيد والبُسط والحرير) والتعدين والنقش (الرسم)، وساعد على تصدير سلع إيرانية مثل: المنسوجات والفاكهة المجففة والطحين، فإن هذا الموقع كانت له تبعات وتداعيات أثرت بالسلب على الإيرانيين، فعمران إيران جذب انتباه جيرانها المحرومين إليها، وتنطبق هذه الحقيقة على هجوم المغول والأوزبك ابتداءً، وهجوم صدام حسين على إيران انتهاءً. ولمواجهة أطماع الآخرين، اهتم حكام إيران خلال القرن الماضي بالتسلح بالأسلحة الرادعة، وقدموا مبدأ الاستقلال والأمن على سياسة التعمير والبناء. ويمكننا إجمال الأسباب التي جعلت إيران معرضة للخطر بصفة دائمة، وهذه الأسباب هي: الموقع الجغرافي الإيراني الحالي (مجاورة إيران لـ 15 دولة تموج بالأحداث، منها: أفغانستان – باكستان – أرمينيا – أذربيجان – العراق – تركيا –

تركمنستان – روسيا – السعودية – الكويت – البحرين) – التركيبة الجيوسياسية – المجتمع المتنوع – السابقة والأصل العريق – الثراء الطبيعي (النفط – الغاز – المياه – الخشب – النحاس – التراب وما شابه ذلك – الثقافة – الحضارة (ازدهار الفكر الفلسفي – امتلاك طبيعة مدنية وعلاقات تاريخية). وهذا كله كان سبباً في حروب دامية من أجل المحافظة على الحدود والقيم الوطنية. ويضيف البعض أسباباً أخرى لتعرض حدود إيران للجزر والمد، وهي: فتوحات السلاطين الإيرانيين – الضعف السياسي والعسكري – تنافس الإمبراطوريات والقوي العالمية العظمي على النفوذ في إيران.

وتساعد دراسة حالات الجزر والمد الجغرافي الإيرانية على الوقوف على كيفية التغيير الذي طرأ على الحدود وعلى الهُوية الإيرانية. وقد ذكر المؤرخون الإيرانيون أن مساحة إيران امتدت في وقت من الأوقات من مصر إلى الهند، وأن الجغرافيا الطبيعية الإيرانية شهدت أقصى اتساع لها في العصر الهخامنشي (550 - 330 ق.م) وبخاصة في عهد كوروش الكبير وابنه كمبوجيه (قمبيز) اللذين اشتهرا بفتوحاتهما وغزواتهما العديدة.

ثم حكم اليونانيون إيران بعد إسقاط الهخامنشين على يد الإسكندر المقدوني في عام 330 ق.م، ثم حكم السلوقيون أجزاءً مهمة من الأراضي الإيرانية في عام 323 ق.م، إلى أن جاء الأشكانيون وتمكنوا من تحرير الأراضي الإيرانية من قبضة السلوقيين في عام 129 ق.م، وكان الصراع والتنافس محتدمين بين الإمبراطورية الإيرانية والإمبراطورية الرومانية خلال فترة حكم الأشكانيين التي استمرت حوالي (470) عاماً، لكن الرومان لم ينجحوا في أي وقت من الأوقات في ضم أي جزء من الأراضي الإيرانية المتسعة الأرجاء إلى حيزهم الجغرافي، واعتبرت الإمبراطورية الأشكانية – آنذاك – سادس إمبراطورية كبرى في العالم القديم، وأعقب الساسانيون الأشكانيين، واستمر حكمهم لإيران (426) عاماً، وقد شهدت هذه المرحلة عدم وجود قلاقل وتحركات من قبل مناطق الحكم الذاتي، كما شهدت وحدة أرضية ملحوظة كانت مفتقدة أثناء حكم السلوقيين والأشكانيين، كما شهدت ارتباطاً بين الدين والدولة.

وقويت الهُوية الإيرانية في عهد الساسانيين وتجذرت، وتم إحياء الهُوية الإيرانية: (المعمار – الفن – الموسيقى – نسج الأساطير) بسبب عدم وجود تهديدات خارجية حقيقية، وحققت الإمبراطورية

الساسانية اتساعا خارجياً ونفوذاً داخلياً. إلا أن الفساد والتمييز العنصري كانا سائدين في جميع أنحاء الإمبراطورية، إلى أن سيطر الجيش الإسلامي على جميع أنحاء إيران، وقبل الإيرانيون دين الإسلام، وحافظوا على بعض عناصر هويتهم، مثل: العادات القديمة واللغة، وتغيرت معالم بعض المناطق الجغرافية والأماكن التاريخية وأسماء بعض الأشخاص بعد أن اتخذ العديد من الإيرانيين أسماء عربية اختياراً أو خوفاً، وتغيرت جميع عادات الإيرانيين وأعرافهم.

وتولى الإيرانيون الشئون المالية والإدارية في الدولة العباسية (132 – 656هـ)، وزاد نفوذهم الثقافي والاجتماعي والسياسي في العصر العباسي، وكان طاهر (ذو اليمينين) أول حاكم إيراني مستقل في خراسان، وجاء من بعد طاهر وأخلافه الصفاريون الذين رفعوا علم الاستقلال، واستقلوا ببعض المدن الإيرانية، ولعبوا دوراً بارزاً في إحياء الهُوية الإيرانية بصفة عامة، واللغة الفارسية بصفة خاصة، وشجعوا الشعراء على نظم الشعر باللغة الفارسية. وجاء من بعدهم السامانيون (261 –389هـ) وحكموا بعض مناطق إيران، ولعبوا دوراً في المحافظة على الهُوية الإيرانية، وفي تكريس هذه الهُوية، وكانت المناطق التي يحكمها السامانيون تنتشر فيها اللغة الفارسية

"الدرية" ومظاهر الثقافة والحضارة الإيرانية. وقد أعقب الزياريون (315 – 462 هـ) والبويهيون (320 – 440هـ) والغزنويون (388 – 575هـ) السامانيين، واستقل الزياريون بطبرستان والديلم، واستقل البويهيون بمناطق شاسعة، وكانوا أول من سيطر على الخليفة السُني المذهب، وكان عصرهم من الناحية الثقافية واحداً من العصور التاريخية التي ازدهرت فيها الهُوية الإيرانية. وفي هذا العصر كشف الإيرانيون عن اختلافهم عن العرب في المذهب، وهكذا أضافوا البعد المذهبي إلى الاختلافات القومية. أما الغزنويون فقد أقاموا إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف لغتها هي: اللغة الفارسية، ونشروا الإسلام في الهند، وشجعوا على النظم والتأليف باللغة الفارسية. وبعد الغزنويين الذين حكموا قرناً من الزمان، أقام السلاجقة الأتراك أوسع وأقوي دولة إيرانية في عام 429هـ، لكن عدم تمركز الحكومة السلجوقية كان سبباً في ظهور ملوك الطوائف والولايات شبه المستقلة، وعين السلاجقة الأتابكة مندوبين عنهم في إدارة شئون الولايات، إلى أن قام المغول بالقضاء على الأتابكة وعلى الحكام الخوارزميين (470 – 617 هـ)، وأغاروا على المدن الإيرانية الواحدة تلو الأخرى، وقضوا على الحياتين: السياسية والاقتصادية، على الرغم من أن غازان خان الذي اعتنق الدين الإسلامي وخلفاءه قد قاموا ببعض الإصلاحات، ثم قام التيموريون

(771 – 903هـ) بالإغارة على إيران، وتبادلت قبيلتا قراقويونلو (أصحاب الخراف السوداء)، وآق قويونلو (أصحاب الخراف البيضاء) حكم مناطق واسعة من إيران في القرنين التاسع والعاشر الهجريين / الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين.

وظلت أحوال إيران على هذا المنوال إلى أن أقام الصفويون (906 – 1135هـ) أول دولة مركزية عظمى وموحدة في جميع أنحاء إيران بعد الإسلام، وحققوا القدرة السياسية المتمركزة في إيران بعد فقدانها منذ بضعة قرون، وأعادوا الانسجام إلى الهُوية الوطنية الإيرانية.

وهناك عوامل ساعدت على الحفاظ على جغرافية إيران الموحدة في العصر الصفوي، وهي: نبوغ وشجاعة بعض الملوك، مثل: الشاه عباس الكبير – رسمية وتقوية المذهب الشيعي في إيران – تقوية الصلات بين إيران والدول الأوروبية. وهذا كله حافظ على أساس جغرافية الهُوية الإيرانية من الأذى والهجوم والتهديدات المتوالية من جانب الأوزبك والعثمانيين. حكم الصفويون حوالي (222) عاماً، حافظوا خلالها على الهُوية الإيرانية والوحدة الثقافية بالإضافة إلى الوحدة السياسية والاجتماعية والجغرافية في المجتمع الإيراني. ثم دالت دولتهم بسبب ما يسميه الإيرانيون بـ "فتنة الأفغان" التي

هزت أركان المجتمع الإيراني بشدة في الفترة من عام (1135 إلى 1142هـ)، وبسبب ضعف شاه سلطان حسين (آخر ملوك الصفويين)، والاختلافات بين الحكام والقادة بصفة مستمرة، وعدم الاهتمام بأمن الولايات البعيدة، وتعيين حكام ظالمين على المناطق التي يسكنها أتباع المذهب السني.

وعلى الرغم من اتساع حدود إيران وامتدادها إلى الهند في عهد نادر شاه الأفشاري وأن مدة حكمه لم تستمر طويلاً (من 1148 إلى 1160هـ) إلا أنه طرد الأفغان، وكون أول قوة بحرية حديثة، ونجح في فرض سيطرة إيران على جميع أنحاء الخليج. وحكم من بعده كريم خان زند (1163 – 1193هـ) الذي حاول إقامة دولة موحدة، ونجح في إيجاد رفاهية اجتماعية واقتصادية نسبية، لكن بوفاته استولى القاجار على الحكم في إيران، واتسعت جغرافية إيران في عهد القاجار الذين حكموا إيران من عام 1793 حتى عام 1925م، وفي عهدهم أصبحت طهران عاصمة لإيران.

وفي العصر القاجاري انفصل جزء مهم من الأراضي الإيرانية، يقول البعض إن هذا الجزء عبارة عن (17) مدينة غنية بالذهب في منطقة القوقاز، وتم ضم هذه المدن إلى روسيا، وذلك بعد إبرام اتفاقيتي جلستان (عام 1813م) وتركمانتشاي (عام 1828م) بين روسيا

وإيران، وهما اتفاقيتان مُذلتان بسبب توجيهما ضربات ساحقة للعديد من عناصر الهُوية الإيرانية. وقد حصل الروس على حق الحصانة الدبلوماسية (كاپيتولاسيون)، كما استولوا على مناطق أخرى في منطقة آسيا الوسطى، واستولوا على "خيوة" في عام 1873 م، وفصلوا منطقة ما وراء النهر عن إيران تماماً في عام 1881 م، واستولت إنجلترا على أفغانستان (هرات) في شرق إيران، وفصلت عدة مدن تقع شرق بلوشستان الحالية عن إيران.

وعقدت إيران مع الدولة العثمانية عدداً من المعاهدات التي تم فيها ترسيم الحدود. وفي عام 1925م تولى رضا خان عرش إيران، وتولى من بعده ابنه محمد رضا بهلوي لمدة (37) عاماً بدأت عام 1941م وانتهت عام 1979. إلا أن سيادة إيران على أراضيها لم تتغير تغيراً ملموساً في هذه الفترة، على الرغم من نشوب الحربين: الأولى والثانية. فقط اتفق محمد رضا بهلوي مع بريطانيا على اعتراف إيران باستقلال البحرين مقابل الاعتراف رسمياً بسيادة إيران على جزر: أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى الإماراتية وكانت الحروب والاتفاقيات التي تمت في العصرين القاجاري والبهلوي مع إنجلترا وروسيا (القيصرية) والاتحاد السوفيتي (السابق) والتي نتج عنها انفصال بعض المناطق عن إيران، هي آخر ضربات وجهت إلى

جسد إيران، وصارت الجغرافيا السياسية الإيرانية بالشكل الحالي بسببها.

وبقيام الثورة الإسلامية في إيران في عام 1979م سقط الحكم البهلوي، إلا أن حرباً نشبت بين إيران والعراق في عام 1980م، واستمرت هذه الحرب حتى عام 1988م، وكانت الحرب الإيرانية–العراقية أول حرب في تاريخ إيران تحدث في القرنين الأخيرين، ولم تُجبر فيها إيران على التنازل عن جزء من أراضيها.

وقد كان للتنوع الجغرافي في إيران أثر في تعدد وتنوع الثقافة والحضارة على مر العصور. والواقع أن الحيز الجغرافي للثقافة والحضارة الإيرانية أكبر وأوسع من الحدود الجغرافية الرسمية لإيران الحالية، فقد أثرت هذه الثقافة وهذه الحضارة على منطقة تبدأ من آسيا الصغرى (تركيا الحالية) وتمتد إلى منطقة بين النهرين والهند وآسيا الوسطى. وعلى الرغم من أن الحيز الجغرافي للثقافة والحضارة الإيرانية تعرض طوال المراحل التاريخية الإيرانية المليئة بالمد والجزر والانتصارات والانكسارات لتغيرات رئيسية، إلا أن هذه الثقافة الثرية وهذه الحضارة المزدهرة قاومت أمام الهجمات التي شنتها القوميات والدول المختلفة، وقد عوض الشعب الإيراني هزائمه السياسية والمذهبية بالفتح الثقافي والعلمي والأدبي. أي أنه بسبب

الموقع الجغرافي والثقل السكاني والعمق الحضاري، تجاوز الدور الإيراني حدود البلاد الجغرافية. وعلى الرغم من أن الحدود الجغرافية والسياسية الإيرانية قد تعرضت لتغيرات متعددة على مر التاريخ، إلا أنه مما لا شك فيه أن هذه التغيرات كان لها تأثيرها على الهُوية الفردية والجماعية للإيرانيين.

ومما لا شك فيه أن البقاع لها تأثير في الطباع والأفكار والعقائد والفنون، وأن للجغرافيا تأثيراً في السياسة الخارجية للدول، وأن إيران دولة يتحدث تاريخها وتتحدث جغرافيتها، وذلك على الرغم من أن الموقع الجيوبولتيكي لإيران كان سبباً في تعرضها لهجوم أقوام مختلفين على مر التاريخ، وعلى الرغم من أن الهزائم العسكرية التي مُنيت بها إيران الفعَّال في العصور التاريخية المختلفة وهجرة عدد كبير من الأقوام الأخرى إلى إيران أحدثت تأثيراً وتغييراً في الكثير من المعادلات المرتبطة بعناصر الهُوية القومية الإيرانية. وقد كان وقوع إيران في إحدى مناطق العالم الحساسة (سياسياً واستراتيجياً واقتصادياً) سبباً في حضور إيران الفعال والقوي في الساحتين الإقليمية والدولية، وسبباً في منح المزيد من الأهمية لإيران، فإيران تقع في منطقة الشرق الأوسط الاستراتيجية، وهي تمتلك مصادر طاقة غنية، وتهيمن على الحدود الشمالية للخليج وبحر عمان

ومضيق هرمز الذي يعد واحداً من أهم الممرات المائية في العالم، ولديها احتياطي في الطاقة في بحر الخزر في شمال إيران، وتجاور دولاً مهمة، وهي قريبة من منطقة آسيا الوسطى والقوقاز التي تُعد من المناطق البكر للاستثمار الاقتصادي والسياسي والعسكري بعد تفكك الاتحاد السوفيتي في بداية التسعينيات من القرن الماضي، وتُعد أكثر المسارات أمناً لنقل الطاقة من بحر الخزر.

وجدير بالذكر أن تنوع المحيط الجغرافي الإيراني أدى إلى ظهور أساليب معيشة متنوعة سواء في المدينة أو القرية أو أسلوب الترحال القبلي أو العشائري. بالإضافة إلى أن وجود المرتفعات الوعرة والصحراوات الشاسعة والصحارى الملحة الموجودة في وسط الهضبة الإيرانية أدى إلى ظهور تجمعات متفرقة في جميع أنحاء إيران، وهي التجمعات التي أثرت الموانع الطبيعية في ارتباط واتصال بعضها بالبعض الآخر، وخلقت نوعاً من الاكتفاء الذاتي في أساليب الحياة وأنماطها، ولم يكن لهذا الاكتفاء الذاتي أبعاد اقتصادية فقط، بل كانت له أبعاد ثقافية واجتماعية أيضاً، فوجود اللغات واللهجات والعادات والتقاليد والثقافات المتنوعة في المجتمع الإيراني نتج عن هذا الوضع، وبفعل عوامل الاكتفاء الثقافي والاجتماعي. وإذا كانت جغرافية إيران فرضت بعض الصفات

والخصائص على المجتمع الإيراني بسبب ثبات أوضاع الأرض والماء والهواء، فإنها جلبت نوعاً من السيولة والديناميكية لهذا المجتمع. وعلى الرغم من وجود التنوع والتعدد في المجتمع الإيراني، إلا أن هذا المجتمع مال نحو العناصر الموحدة والمؤلفة، ومن أهم هذه العناصر: إجماع المجتمع الإيراني على مقومات الحفاظ على بقاء إيران وازدهارها وتقدمها. وتتمثل سائر العناصر في الجغرافيا (الأرض) – الثقافة – الدين – السياسة. وتوجد بين هذه العناصر رابطة عضوية، على النحو الذي يجعل كل عنصر منها مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالعنصر الآخر.

والإيرانيون يعدون إيران قلب العالم، يقول نظامي الگنجوي المتوفى عام **614** هـ:

همه عالم تن است وايران دل نيست گوينده زين قياس خجل

چون كه ايران دل زمين باشد دل زتن به بود يقين باشد

الترجمة:

العالم كله جسد وإيران قلبه، ولا يخجل القائل من هذا القياس

لما كانت إيران هي قلب الأرض، فمن اليقين أن القلب أفضل من الجسد

كما يراها البعض "أم القرى" بالنسبة للعالم الإسلامي، من حيث إنها تقع في مركز الجغرافيا السياسية والجغرافيا السياسية والجغرافيا الاقتصادية والجغرافيا الثقافية في الدول الإسلامية.

بقي أن نذكر أنه على الرغم من أن إيران سقطت سقوطاً كاملاً في بعض الفترات (مثل فترة الفتح العربي الإسلامي وفترة غارة المغول)، لكن نظراً للقدرات الكامنة والموزعة، وعدم قدرة المهاجمين على السيطرة الدائمة والشاملة على إيران، أطلت الثقافة والجغرافيا الإيرانية برأسها بعد فترة من الزمان. وقد احتلت إيران دولاً أخرى، واحُتلت من جانب دول أخرى في بعض المراحل التاريخية التي مرت بها. وامتدت مساحة إيران في وقت من الأوقات من مصر إلى الهند – كما ذكرنا – ووصلت هذه المساحة في الوقت الراهن إلى 1.648.000 كم2، وهي مساحة كبيرة، ويصل طول حدودها إلى 8865 كم2. وتقع إيران جنوب غرب آسيا، وهي دولة جبلية، وسدس مساحتها – تقريباً – صحراء قاحلة، وأكبر صحراوين تعرفان باسم: دشت لوت (الصحراء الخالية) ودشت كوير (الصحراء المِلحة). وقد خضعت مساحة إيران للظروف السياسية

ما بين اتساع وانكماش حسب مقدرتها السياسية والعسكرية، إلا أن المساحة الحالية تحوز كتلة حيوية متميزة على صعيد الحجم الجغرافي والتعداد السكاني، فضلاً عن موقع إيران المركزي والفريد في الشرق الأوسط، وتراثها النفطي الكبير، ومكانتها الاستراتيجية المميزة في قارة آسيا وفي العالم الإسلامي.

ويطلق البعض مصطلح "الجغرافيا الافتراضية" على المناطق التي تأثرت في بعض المراحل التاريخية بثقافة وحضارة قوم آخرين، لكن هذه المناطق ما زالت تحافظ على آثار حضارتها السابقة، وقد ذكرنا من قبل أن الثقافة والحضارة الإيرانية تجاوزت الحدود الجغرافية الرسمية الإيرانية، وانتشرت وتنوعت خلال بضعة آلاف من السنوات في مساحة شاسعة من دول العالم المتحضر. وقد لعب موقع الهضبة الإيرانية الجغرافي دوراً كبيراً في الماضي وقبل الثورة الصناعية في عولمة الثقافة والحضارة الإيرانية من حيث الجغرافيا الافتراضية، وذلك لأن أهم الطرق العالمية في ذلك العصر، وهو "طريق الحرير" كان يمر من داخل الحدود الإيرانية، وكان هذا الطريق يربط أبعد منطقة متحضرة في العالم (الصين) بأكبر منطقة تقع في أقصي الغرب في العالم المتحضر وهي (روما). وكانت الثقافة والحضارة الإيرانية تتفاعل مع غيرها من الثقافات الفاعلة في ذلك

الزمان بفضل هذا الطريق الحيوي. لكن في العصور التالية تدخلت عوامل مثل: الخلاف الشيعي السُني بين إيران والعثمانيين من ناحية، وإقامة حكومة شيوعية وبناء جدار حديدي في شمال إيران من ناحية أخرى، حصر الثقافة الإيرانية في الهضبة الإيرانية، ثم في الحدود الفعلية الحالية لدولة إيران بعد ذلك.

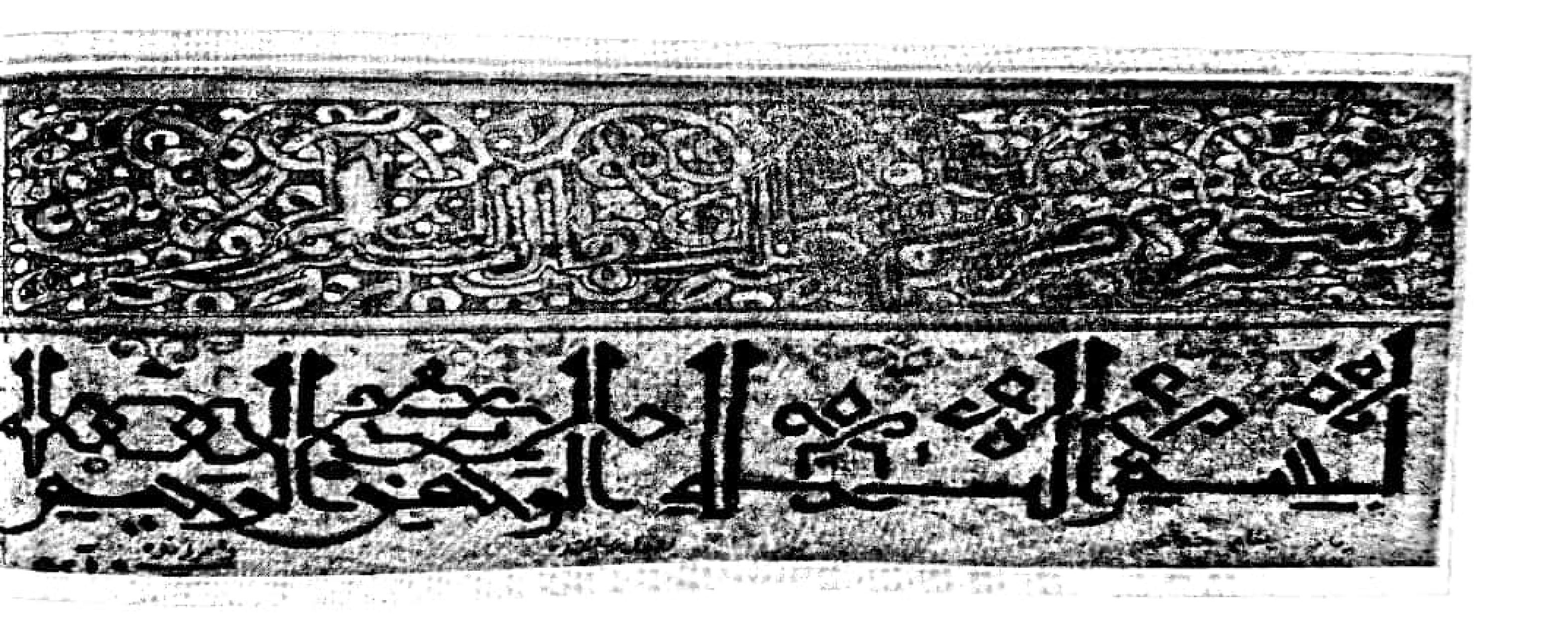
ويؤكد الباحثون الإيرانيون على أن ما حدث لإيران حدث لغيرها من شعوب الشرق، فيقول أحدهم: فرضت علينا جميعاً سلسلة من الخطوط السياسية والحدود السياسية في القرنين الماضين، ولما كانت هذه الخطوط قد فُرضت بوصفها خطوطاً سياسية عسكرية، لم نستطع حتى الآن أن نتخذ أي إجراء ضد هذه الخطوط، وعلى الرغم من أن هذه الخطوط فُرضت علينا نحن سكان المجتمع الشرقي الكبير وأقوام المنطقة، لكن نحن نعلم أن هذه الخطوط ليست ثقافية ولا جغرافية ولا تاريخية ولا دينية.

ويقول باحث آخر قائلاً: في العقود الأخيرة قامت مسائل مثل سيل الهجرة خارج إيران بتقزيم دور الحيز الجغرافي في بحث الهُوية، فبعد قيام الثورة في عام 1979م سافر عدد كبير من الإيرانيين إلى الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية، ويوجد الآن في الولايات المتحدة وحدها بضعة ملايين من الإيرانيين. هذا في

الوقت الذي ترى فيه باحثة ثالثة أن الارتباط وتعلق الخاطر بأرض الآباء والأجداد له مؤشرات متعددة، منها: الاستعداد للدفاع عن هذه الأرض في أوقات الخطر – تفضيل المعيشة في هذه الأرض على سائر بلاد العالم – عدم الرغبة في الهجرة إلى دولة أخرى.

القسم الأول (الهوية الإيرانية)

الفصل السابع: اللغة الفارسية والهوية



الإيرانية

مخطوطة فارسية قديمة حيث كان خط النسخ الفارسي والخط الكوفي الشرقي من بين الخطوط المعهودة التي استخدمت في البلاد الفارسية في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر.



From https: //commons.wikimedia.org

اللغة الفارسية والهُوية الإيرانية

ذكرنا في الفصل السابق أن عناصر الهُوية الإيرانية ومقوماتها ستة، وتحدثنا عن العنصر الأول وهو الدين والمذهب، وعن مدى تأثر الهُوية الإيرانية بالدين الإسلامية بالدين الإسلامي والمذهب الشيعي، ونتناول الآن العنصر الثاني وهو اللغة الفارسية، ومما لا شك فيه أن اللغة والدين يلعبان دوراً أكبر من الدور الذي تلعبه سائر العناصر والمقومات في تحديد الهُوية، واللغة – بصفة عامة – هي أداة الحضارة وهي أداة للتعبير والتأليف والاجتهاد العلمي، وهي عنصر من عناصر الوحدة القومية والوطنية، وهي أحد الرموز الهامة للكرامة الوطنية والتراث المشترك، وهي أهم عناصر الاتصال والتفاهم والترابط والتعبير عن الحاجات اليومية والاجتماعية والعلمية والتربوية، وفي ظل غياب لغة قوية وغنية يتأثر الحوار والتفاهم والترابط سلبياً، واللغة ليست مجرد ألفاظ، بل هي نظام معنوي خاص يلعب دوراً بارزاً في التبادل، وفي تعديل مسار العداوات أو حتى وقف هذه العداوات، وهي وعاء للفكر والإبداع، والفكر هو الذي يثري الهُوية بزاد معرفي متجدد يحفظ لها حيويتها، ويعيد طرح مقولاتها في صيغ متجددة يمكن من خلالها أن تساهم في صنع الحاضر، واللغة هي أهم وسيلة لانتقال الثقافة

والهُوية من جيل إلى جيل آخر، ووجود لغة مشتركة لدي أي مجتمع يُعد واحداً من أهم عناصر تقوية الهُوية الوطنية في هذا المجتمع.

ولقد أجمعت الدراسات الاجتماعية الإيرانية التي تحدثت عن عناصر ومقومات الهُوية الإيرانية على أن عنصر اللغة يعد العمود الفقري للهُويَّة الإيرانية، فالتراث الحضاري الإيراني) الأدب شعره ونثره والفن والعلوم والدين والمذهب والأساطير والذكريات التاريخية والمناسك الدينية والمواقف الوطنية) مكتوب باللغة الفارسية، والخيط الرئيسي الذي يربط الإيرانيين بهذا التراث هو اللغة الفارسية التي تُعد ممثلة وحارسة للهُويَّة الإيرانية، كما تُعد أداة ومؤشرات لهذه الهُوية. وقد قسم علماء اللغة تاريخ تطور اللغات الإيرانية إلى ثلاث مراحل، هي: مرحلة اللغات الفارسية القديمة، ومرحلة اللغات الفارسية الوسطى، ومرحلة اللغات الفارسية الحديثة التي نشأت متأثرة باللغة العربية، وتقسم لغات ولهجات المرحلة الأخيرة إلى مجموعتين رئيسيتين: المجموعة الشرقية والمجموعة الغربية.

ونظراً لأن اللغة العربية انتشرت في إيران بوصفها لغة الدين والدولة، فقد أصبحت اللغة الفارسية وثيقة الصلة بالثقافة العربية، ودخلت ألفاظ ومصطلحات عربية عديدة في اللغة الفارسية الحديثة التي كتبت بخط مأخوذ من اللغة العربية، واستخدمت الأبجدية

العربية مع إضافة أربعة حروف لا نظير لها في اللغة العربية، وهي: پ – چ – ژ – گ، لتؤدي أصواتاً خاصة باللغة الفارسية. وقد أثرت اللغة العربية اللغة الفارسية لدرجة أن نصف المفردات والمصطلحات الفارسية في القرن السادس الهجري كانت عربية. وبعد استيلاء المغول على إيران (أوائل القرن السابع الهجري) تسربت إلى اللغة الفارسية ألفاظ مغولية وتركية وسغدية وپارتية، كما تأثرت الفارسية في العصر الصفوي (907 – 1148هـ) تأثراً شديداً باللغة التركية التي حلت محل اللغة الفارسية في البلاط والدوائر الحكومية الصفوية، وهاجر الأدباء الفرس في هذا العصر إلى الهند، وهناك قاموا بإحياء ونشر اللغة الفارسية وآدابها. وانتشرت الفارسية في الأراضي التابعة للإمبراطورية العثمانية مثل: ألبانيا – يوغوسلافيا – بلغاريا – مصر، ونظم بعضهم دواوين شعر فارسية إلى جانب الدواوين التركية، وأُلفت معاجم وكتب نحو، وتم عمل شروح لنصوص فارسية قيمة بمساعدة من جانب الإيرانيين المهاجرين. وفي العصر القاجاري (1794 – 1925م) الذي ظهرت فيه القيم الحديثة في إيران دخلت كلمات أوروبية وتركية عديدة إلى اللغة الفارسية بسبب كثرة السفر إلى أوروبا وتركيا في هذا العصر، وتمت ترجمة كتب أوروبية حول الأدب السياسي والاجتماعي إلى الفارسية، واستخدم الكُتَّاب الإيرانيون أداة اللغة لإيقاظ المجتمع

الإيراني. وفي هذا العصر برز أدباء وكتاب نظموا أشعاراً وألفوا قصصاً وروايات ومسرحيات عديدة، وكان أغلبهم من المؤمنين بسمو العنصر الإيراني وتميزه، ودفعوا عن خصائص وخصال الإيرانيين وعن هُويَّتهم القديمة. وفي العصر البهلوي الأول رضا شاه (1925 - 1941م) كان المثقفون (الشعراء والصحفيون وكُتَّاب المقالات) والمحامون والعسكريون يرون أن الميول الدينية والمذهبية هي المتسببة في الركود والجمود الفكري - الثقافي، وأكدوا على ضرورة العودة إلى هُوّية إيران القديمة، وعلى ضرورة إحياء القيم التي كانت سائدة قبل الإسلام في إيران.

ولقد حظيت اللغة الفارسية باهتمام شديد في العصر البهلوي الأول بوصفها عنصراً من العناصر الصانعة للهُويَّة، فتمت ترجمة النصوص القديمة، كما تم تفسير وحل رموز النقوش الحجرية القديمة، وتدريس تاريخ إيران القديم في الأوساط العلمية والأدبية، ذلك أن رضا شاه كان يرغب في تثبيت قواعد الهُوية الإيرانية عن طريق العلم والتنمية الوطنية من أجل العودة بإيران إلى سابق عظمتها. ومن هذا المنطلق اهتم الباحثون بالإشادة بالمفاخر الوطنية وبالأدب الإيراني القديم، واستهجنوا - تصريحاً وتلويحاً - الكتابة باللغات غير الفارسية. وساندت الدولة تنمية وتطوير ونشر اللغة

الفارسية في جميع أكناف إيران، وقام المثقفون الوطنيون من أمثال: ميرزا آقاخان الكرماني وميرزا فتحعلي آخوند زاده وعشقي ومحمد تقي بهار وأحمد كسروي وعلي أكبر دهخدا وغيرهم، بتعريف الهُوية الوطنية على أساس التاريخ والثقافة الوطنية، وسخرت الدولة جميع أجهزتها الإدارية والسياسية والثقافية والاقتصادية والعسكرية لهذا الغرض، وهكذا تحولت الأقوام التي تقطن إيران إلى أمة واحدة حديثة لها هُوّية موحدة، وأختفي التنوع في إيران، وافتخر الجميع بماضيهم وتحدثوا وكتبوا باللغة الفارسية، واعتبر التنوع نوعاً من العشوائية والارتجالية، وحاولوا القضاء على هذه العشوائية على أساس: الإيرانية الخالصة (على أساس إيران الساسانية)، وتبني وتقديم دين إيراني يختلف عن الدين الإسلامي، وإقرار فكرة الجنس الإيراني الخالص – بوصفه أصل جميع الإيرانيين – في أذهان جميع سكان إيران.

وكان محمد رضا بهلوي (1941 – 1979م) – شأنه شأن والده – شغوفاً بعظمة إيران قبل الإسلام، وشايعه في ذلك عدد كبير من المفكرين والمثقفين، لكن حكوماته الاستبدادية المتتابعة لم توفق في عقد الصلة بين الدولة والأمة، ولم تتمكن من صنع هُوّية جديدة أو العودة إلى الهُوية الأصلية، وانفصلت هذه الحكومات عن المجتمع

وعن طبقات الشعب، لكن مع انتصار الثورة الإسلامية في 1979/2/11م تغير مفهوم الدولة – الأمة، نظراً لأن ماهية الثورة الإسلامية كانت شيعية – إسلامية، ولا تتفق مع قيم الإيرانيين القدماء، وشدد الدستور الإيراني الإسلامي في المادة الثالثة على مساندة الانتفاضات التحررية في العالم الإسلامي، وقد تعارض هذا مع أيديولوجية النظام في العصر البهلوي الذي كان بصدد صناعة هُوّية وطنية مرتكزة على أساس الوعى التاريخي والثقافة الإيرانية القديمة، وكان يشيد بتفرد العنصر الإيراني بالمقارنة مع العرب والأتراك، بل إن بعض أفراد النخبة الآذرية كان لهم دور بارز في انتصار الثورة الإسلامية، وعُين بعض الآذريين (الأتراك) في بعض المناصب المهمة أثناء وبعد انتصار الثورة الإسلامية، وهذا توجه غير عنصري. وقد كانت العودة إلى الهُوية الإسلامية أمر متوقع بعد قيام الثورة الإسلامية، ومن هذا المنطلق بذلت الحكومات الإسلامية بعد الثورة جهداً خارقاً في تعليم اللغة العربية في الجامعات والمراكز التعليمية المختلفة، وفي تعظيم الشعائر والتعاليم الدينية، من أجل دعم وتقوية هذه الهُوية من منطلق أن عنصر الدين والإسلام متجذر في جميع مظاهر الحياة الفردية والجماعية في إيران، وأن التقاليد الدينية والشعائر والمناسك المذهبية متجذرة في روح أفراد الشعب الإيراني.

وعلى الرغم من أن اللغة الفارسية مرت بمنعطفات متعددة، إلا أنها حافظت على الهُوية الإيرانية في نفس الوقت الذي تعاملت فيه مع اللغات الأخرى، وأصبحت عنصراً من العناصر الرئيسية للهُويَّة الإيرانية. وعلى الرغم كذلك من أن الاستفادة من اللغة الفارسية كعنصر من العناصر صانعة الهُوية ظاهرة جديدة، لكن لا يمكن إنكار حقيقة أن مصادر الهُوية الإيرانية متنوعة، وتشتمل على عناصر من إيران القديمة والإسلام الشيعي والحضارة الغربية الجديدة، وهي عناصر لعبت دوراً في تكوين الهُوية الإيرانية. كما لا يمكن إنكار أن مصادر الفكر في إيران ثلاثة هي: المصدر الديني والمصدر الوطني والمصدر الغربي.

والآداب المكتوبة لها تأثيرها الكبير في تشكيل الهُوية الوطنية، فالأشعار والمؤلفات الأدبية النثرية القديمة والمعاصرة تلعب دوراً رئيسياً في تقوية الهُوية، ولقد لعب الشعر دوراً بارزاً في الحفاظ على الهُوية الوطنية الإيرانية، ففيه قضايا فلسفية وصوفية، وكذلك تم استخدام الأشعار في الأناشيد والأغاني الوطنية والدينية والتابلوهات وأخذ الفأل (فأل حافظ الشيرازي) والمسرح والموسيقي والرسم والخط والمينياتور (المنمنمات أو الصور المصغرة)، كما استخدمت شواهد من هذه الأشعار في الخطابة

والبحوث والحوارات، وكتب الفنانون (الرسامون والخطاطون وفنانو المنمنمات) قطعاً شعرية رصينة ومعبرة، ووضعوها في لوحات ازدانت بها جدران المنازل والإدارات الحكومية. وللدلالة على أهمية الشعر وعلى امتزاجه بحياة الإيرانيين، ذكر البعض أن الإيرانيين كتبوا تاريخهم وسجلوا حياتهم بلغة الشعر منذ الفردوسي (شاعر القرن الرابع الهجري) وحتى يومنا هذا. ويتجلي الحضور الاجتماعي للغة الفارسية في مجالس الوعظ والعزاء وقاعات الدرس والمهرجانات والحفلات والمحافل والجلسات العلمية وفي المراسم المذهبية وفي المظاهرات العامة والمراكز الأدبية وجلسات التكريم والجلسات الإدارية، حيث يتم الفكر والإنتاج وتبادل وجهات النظر في هذه الاجتماعات باللغة الفارسية. وتتمحور أشكال حضور اللغة الفارسية في الميدان الاجتماعي في المستندات والوثائق الرسمية، وفي الأدب القصصي، فقد حافظ كُتاب القصص الإيراني على الهُوية الإيرانية في قصصهم التي تحتوي على الأزمات والمشكلات وأسماء الأشخاص والأماكن الإيرانية، وإذا ما تمت ترجمة هذه القصص المحلية إلى لغات أخرى، سيتضح أن هذه القصص قصص إيرانية أو على الأقل قصص متعلقة بالشرق الأوسط. واللغة وعاء الأدب، فإن اختلت اللغة، أخل ذلك بالأدب. والأدب بشعره ونثره وقصصه تتجلي فيه الهُوية الإيرانية

أولاً، ثم يصبح جزءاً من الثقافة العالمية، ومن يقرأ أشعار جلال الدين الرومي وعمر الخيام والفردوسي وسعدي الشيرازي وحافظ الشيرازي ونظامي الكنجوي التي ترجمت إلى عشرات اللغات الحية في العالم، يدرك أن الشعر هو أهم ظاهرة ثقافية إيرانية، وأنه أرق وألطف ممثل للهُويَّة الإيرانية، وأنه يلعب دوراً ليس له بديل في عملية تعرف الآخرين على الإيرانيين، ولم لا؟ والبعض يؤكد على أن الإيرانيين لا يستطيعون العيش بدون شعر، فالمواطن الإيراني العادي يحفظ عدداً كبيراً من الأمثال ومن أبيات الشعر والحكم التي انتقلت إليه جيلاً بعد جيل. وبالإضافة إلى الأشعار والمؤلفات الأدبية النثرية يمكن ذكر الأغاني والأناشيد والأمثال والحكم والألغاز والأحاجي والحكايات والحواديت.

ومن التحديات التي واجهت اللغة الفارسية بعد قيام الثورة الإسلامية انتشار اللغتين العربية والإنجليزية في المعاهد والحوزات العلمية الرسمية وغير الرسمية، ونظراً لأن انتشار أي لغة مرتبط بالعلم والاقتصاد، فقد هاجر بعد الثورة الإسلامية حوالي مليوني شخص من إيران، واختار عدد كبير من المتعلمين وبخاصة الجيلين الثاني والثالث من هؤلاء المهاجرين لغة دول "المقصد" بدلاً من اللغة الفارسية، واختار عدد كبير من المواطنين وبخاصة في المدن الإيرانية

الكبرى اللغة الفارسية بوصفها اللغة اليومية، ولغة أجنبية بوصفها لغة "الحرفة" وأعدوا ونشروا نصوصهم العلمية باللغة الأخيرة (في مدينة طهران وحدها أكثر من (65) مؤسسة لتعليم اللغات الأجنبية طبقاً لإحصاء تم في يونيو عام 2006م). هذا بالإضافة إلى أنه بسبب الرؤية الإسلامية للثوار بعد قيام الثورة الإسلامية، حدث أمر كان له تأثيره على تكوين الهُوية، وهذا الأمر هو أن الحوزات العلمية الدينية في جميع أنحاء إيران تُدرس معظم نصوصها باللغة العربية، من منطلق أن اللغة العربية هي لغة القرآن، وقد اعتنت المؤسسة الدينية في إيران باللغة العربية في المساجد والحسينيات والحوزات العلمية، ونص الدستور الإيراني بعد الثورة الإسلامية على اعتبار اللغة العربية بمثابة اللغة الثانية في البلاد، وصارت تُدَرَس بشكل ملزم لطلاب المدارس بعد المرحلة الابتدائية وحتى نهاية المرحلة الثانوية (المادة السادسة عشرة من الدستور).

ومعظم مدرسي الحوزات العلمية يجدون سهولة في تأليف الكُتب والرسائل العلمية باللغة العربية عن التأليف بالفارسية، ويرون أن ترجمة هذه الكُتب إلى الفارسية يقلل من قيمتها الأصلية. ومع الأخذ في الاعتبار أن الحوزات العلمية في إيران يدرس بها أكثر من (150) ألف طالب، وأن النصوص التي يُعتمد عليها في هذه

الحوزات باللغة العربية في الغالب، فإنه يمكن الاعتراف بأن الحساسية تجاه اللغة العربية قلت بعد قيام الثورة الإسلامية، بعد أن كانوا يؤكدون بشدة في العصر البهلوي ضرورة استخدام لغة فارسية خالصة ونقية، وعدم استخدام اللغة العربية. وتغيرت الأوضاع الآن، وأصبح جزء كبير من المكاتبات الإدارية والمقالات المنشورة في الدوريات العلمية في إيران يغص بالألفاظ والاصطلاحات العربية، وللمرة الأولى في تاريخ إيران تتحول اللغة – عن قصد – إلى أداة سياسية، وتُصبغ بصبغة أمنية.

وإذا كانت اللغة الفارسية تواجه تحديات داخلية، فهي تواجه تحديات خارجية أيضاً في الوقت الراهن، فجزء كبير من العلوم الإنسانية يُنتج بلغات غير فارسية، وإسهامات الدول الناطقة بالفارسية في إنتاج العلم والمؤلفات المعاصرة قليلة جداً، كما أن التقنية الحديثة تُعرض وتُقدم بلغة غير فارسية، ناهيك عن إنها تتطور بسرعة عجيبة. ومن ناحية أخرى تفرض موجة العولمة لغة أخرى غير الفارسية، وفي هذه الحالة يضطر الإيرانيون إلى استخدام لغة أخرى للتعريف بتراثهم القديم، إلا أن الترجمة إلى اللغات الأخرى لن تنقل النظام المعنوي الخاص المضمر في اللغة الفارسية ولا الجمال ولا الأصالة الموجودة في النص الأصلي، كما أن حوار العولمة

الدولي صبغ اللغة بصبغة اقتصادية بالتدريج أيضاً، وأصبحت أهمية اللغات وأولوياتها تتحدد على أساس اقتصادها، ومن البديهي والحالة هذه، أن تكون اللغة المهمة والتي يُعول عليها هي اللغة الاقتصادية (مثلما يُنظر الآن إلى اللغة الصينية)، وأن يُطلق اصطلاح: اللغة الهامشية على اللغات المحلية قليلة الاستخدام.

واللغة الفارسية في خطر في الوقت الراهن على عكس الحال في القرون الوسطى، وهذا الخطر يؤثر بالسلب على حياتها وازدهارها، فهذه اللغة على الرغم من امتلاكها نصوص قديمة وبديعة مليئة بالذكريات والعبر، إلا أنها ليست هي اللغة العلمية للعالم كله، والإيرانيون مضطرون بعد تعلم اللغة الفارسية إلى استخدامها كلغة حوار ومكاتبات وطنية، وإلى إتقان لغة علمية ومتداولة دولياً، وهي: اللغة الإنجليزية التي تُعد اللغة الأولى في العالم، وتطغي على الأصعدة السياسية والاقتصادية والتكنولوجية والمعلوماتية، ففي عصر العولمة تنتج الفنون والمهارات وتقدم بلغة غير فارسية، ولما كان التعامل يتم بلغة غير الفارسية، فإن هذا يثير مخاوف انحسار اللغة الفارسية في الإطار الوطني والقومي، ذلك أن اللغة الفارسية تعرضت ولا تزال لسيل جارف من الألفاظ والتركيبات الأجنبية، وذلك بسبب التقدم الاقتصادي والسياسي والعسكري الهائل

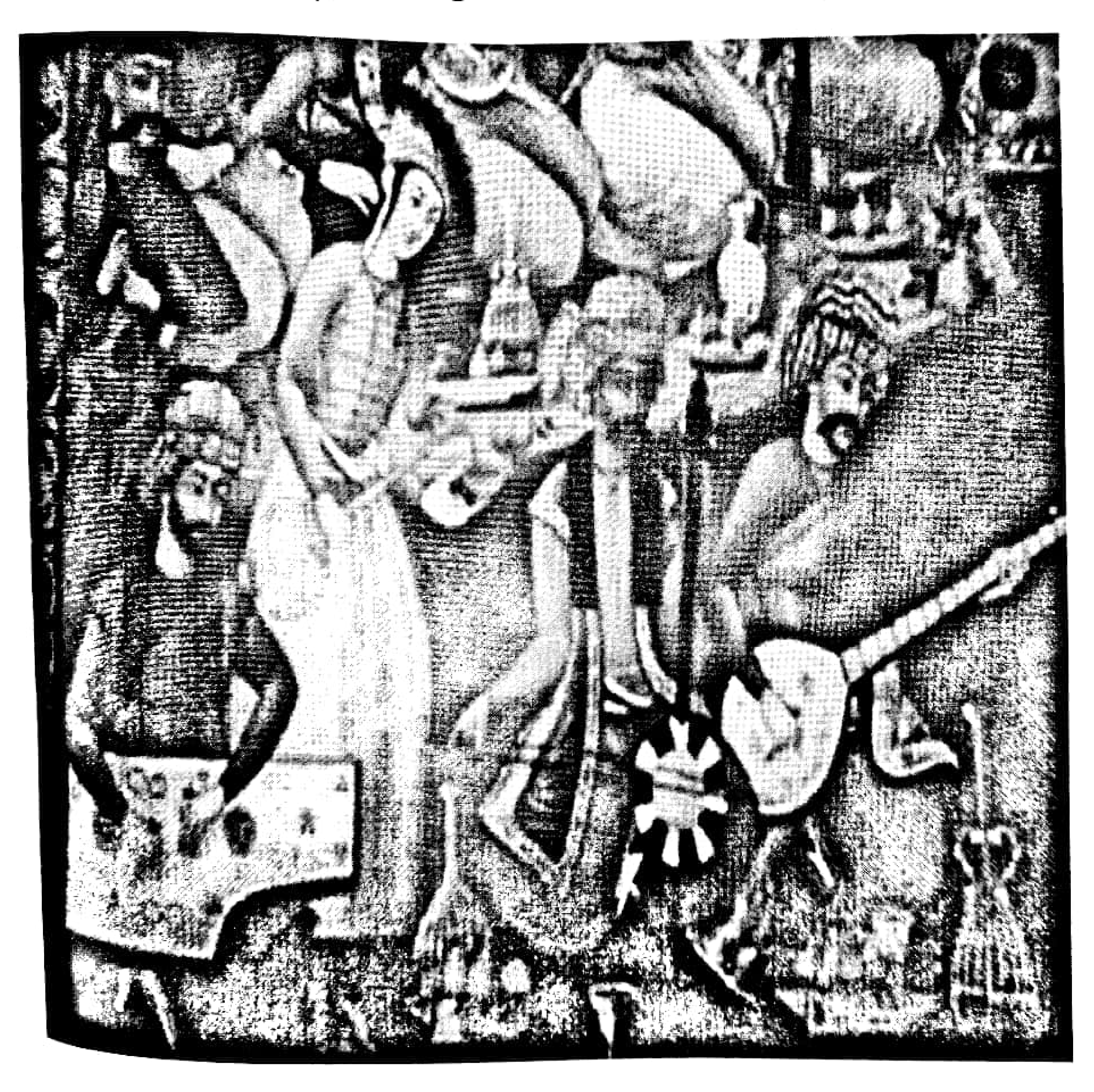
للدول الغربية، وهي مضطرة إلى قبول هذا السيل مع ما يفرضه على علمائها من مجابهة هذا التحدي بما تتمتع به الفارسية من إمكانيات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية. وعلى الرغم من أن مجمع اللغة الفارسية وضع المقابل الفارسي للألفاظ الأجنبية الخاصة بالحاسوب (الكمبيوتر) والهاتف المحمول وسائر الصناعات التي يتم استيرادها من الخارج وترفقها ألفاظها وتعبيراتها أينما ذهبت، إلا أن المستخدمين يفضلون استخدام الألفاظ الأجنبية على الألفاظ التي أقرها المجتمع اللغوي، كما أن الترجمة إلى اللغات الأخرى تساعد على دخول ألفاظ وتعبيرات وجمل واصطلاحات من اللغات الأكثر تقدماً إلى لغات الأمم الأكثر تخلفاً.

إن ثقافة كل أمة كامنة في لغتها وفي معجمها ونحوها ونصوصها، وتتبوأ اللغة قمة الهرم المعرفي، وتنفرد بكونها المجال المعرفي الوحيد الذي يرتبط بعلاقات وثيقة مع جميع الفروع المعرفية الأخرى. وفي ظل العولمة وثورة المعلومات، وبحكم التبعية العلمية والتكنولوجية، وتحت نير الضغوط السياسية والاقتصادية والثقافية، يجب أن تلبي اللغة الفارسية – شأنها شأن أي لغة أخرى – الاحتياجات الحديثة في شتى المجالات، لكي تواكب العصر، مع المحافظة على الهُوية

الثقافية واللغوية، فاللغة هي السياج الذي تتحصن به الثقافة والهُوية، واللغة هي أصل الثقافة، والثقافة هي جوهر الهُوية.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل الثامن: الموسيقى والهُوية الإيرانية



الموسيقى والهُوية الإيرانية

ذكرنا في الفصول السابقة عن الهُوية أنها مركب متعدد العناصر، وأنها نسق مفتوح يؤثر ويتأثر ويتفاعل، ويتكون ويتبلور ويُصقل عبر الزمان. ويُعد الفن أحد هذه العناصر، وهو وسيلة للتعبير عن التراث الذي يحافظ على الذاكرة الوطنية وعلى آثار الأجداد، وهو غذاء للروح، ونجاة من كل مظاهر الضيق والقلق والانكفاء على النفس، ويساهم في الحفاظ على التوازن النفسي، وفى إثراء الروح والوجدان. والفن مرتبط بالخلق والإبداع، كما أن التطور الفني مرتبط بالازدهار السياسي في زمان معين أو مكان معين، وهو الازدهار المتمثل في استتباب الأمن والسلام والرخاء الاقتصادي، ورعاية خاصة من الحكام للفن والفنانين. وقد ترتبط النواحي الفنية والجمالية بالقيمة الاقتصادية والشرائية. ولكل أمة طُرز في الفن تعرف بها للنظرة الأولى، وللفن في إيران روافد متعددة هي: الموسيقى – المعمار – الرسم – التصوير – الخط – التذهيب – صناعة الخزف أو الفخار المزجج – النسج (السجاجيد والبُسط والطنافس) – لصق القيشاني – النقش على الجص – النقوش الكتابية – النحت – التلوين والصباغة – المشغولات المعدنية والخشبية والزجاجية والجلدية – صناعة الدُمى – الترصيع بالجواهر

– التزيين بالمرايا – المينياتور– التطعيم والزخرفة – المقرنصات – صناعة الآلات الموسيقية – أعمال إبرة النسيج (المطرزات) – المنمنمات. ويطلق الإيرانيون على هذه الفنون اسم: الفنون التقليدية التراثية. ولعل عراقة هذه الفنون في إيران هي التي جعلت الفردوسي (330 – 416هـ) يقول بالفارسية: هنر نزد ايرانيان وبس (الفن لا يوجد إلا لدي الإيرانيين).

والموسيقى لغة عالمية، ويرتبط فن الموسيقى بفنون أخرى مثل: الشعر والغناء والرقص ارتباطاً وثيقاً، وهذا يعني الترابط بين الكلمة والنغمة والإيقاع والحركة، ومنزلة الإيقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر، والإيقاع هو الوزن. وُتعد الموسيقى أداة مؤثرة في الحفاظ على مؤشرات هُويَّة الشعوب والأمم، كما أنها كاشفة عن المعاني والثقافات، أي أنه يمكن عن طريق الموسيقى التعريف بالأنا في مقابل الآخر، كما يمكن تمييز وجوه تشابه واختلاف شعب عن شعب آخر، فلكل أمة ذوقها ومقاييسها.

وللموسيقى الإيرانية شكل مميز ومضمون خاص، ونستطيع عن طريقها تمييز الإيراني عن الصينى أو الهندى أو الغربى. وفي الموسيقى الإيرانية سبعة مقامات رئيسية، وهي: مقام الراست (يمين – صدق) مقام شور – مقام سه گاه – مقام بيات ترك – مقام نوا – مقام

همايون – مقام ماهور. وتنفرد الموسيقى الإيرانية بميزة تميزها عن سائر الفنون الحديثة (مثل السينما)، وهي القِدم والعراقة، ففضلاً عن الموسيقى والتسابيح والأناشيد الدينية والجنائزية التي تتمثل في الـ "گاتها" والـ "يشتها"، راجت الموسيقى والأناشيد العسكرية في إيران منذ عهد الملك كوروش (559 – 529 ق.م) مؤسس السلسلة الهخامنشية، وقد تحدث بعض المؤرخين الفرس عن مكانة النفير (البروجي) لدى الجيوش الإيرانية في عهد كوروش. أما النوع الثالث من الموسيقى الإيرانية القديمة، فهو موسيقى المجالس، وهي الموسيقى التي كانت تعزف في حفلات الاستقبال ومجالس العُرس والمآتم والاحتفالات مثل: أعياد: المهرجان (عيد استقبال الخريف)، والسدق (عيد إيراني قديم يسبق عيد النوروز بخمسين يوماً)، والنوروز (عيد استقبال الربيع). وكانت موسيقى الاحتفالات تُعزف– غالباً في مجالس الشراب والقصف والسماع التي كان الملوك والأمراء والأميرات يعقدونها في القصور والخيام في المناسبات المختلفة، وكان المغنون والموسيقيون ينفذون برامجهم بأوامر من المسئولين عن البلاط الملكي. وُيستفاد من شاهنامة الفردوسي أن العازفين الإيرانيين كانوا قبل العصر الهخمانشي (550 – 330 ق.م) يستخدمون آلات وترية مثل: البربط (آله تشبه صدر البط كما تشبه العود(، والصنج، والون، والطنبور والعود. وآلات نفخ

مثل: النفير، الناي، البوق، گاو دم (نوع من البوق) في احتفالات البلاط الملكي.

وُيعد العصر الساساني (244 – 652م) الذي يُعد من أزهي عصور التاريخ الإيراني أكثر المراحل الموسيقية الإيرانية ازدهاراً وتقدماً، ولعبت فيه الموسيقى دوراً بارزاً في الهُوية الإيرانية. فقد علا شأن الموسيقى في هذا العصر، وكانت فناً من الفنون التي اهتم بها البلاط الملكي، وكان المغنون والموسيقيون يعدون من أفراد المجتمع المميزين، وتم تقسيمهم إلى مراتب وطبقات، وكان المغنون يُجلبون إلى البلاط، ويقومون بالغناء والعزف طبقاً لرغبات الملوك، وكان العازفون يعزفون ألحاناً حزينة في موت شبديز (جواد أهدته الملكة شيرين إلى الملك خسرو پرويز)، وفي موت خسروپرويز (590 – 628 م) أيضاً. وتأثرت دول وشعوب أخرى بهذه الموسيقى، فقامت بتقليدها، وانتشرت الموسيقى والآلات الفارسية، مثل: الصنج والبربط والعود والطنبور وغيرها من الآلات الوترية في الدول العربية في عهد الملك أنوشروان (531 – 578م). ووصلت هذه الموسيقى إلى أوج ازدهارها في عهد خسرو پرويز، واشتهرت أسماء مثل: باربُد (الموسيقى الفذ وصاحب الألحان التي بلغ عددها واحداً وثلاثين لحناً) ورامتين وسركيس (سركش) ونگيسا وبامشاد

وآزاد وار، ونقل فن الموسيقى الذي ملأ أوقات فراغ الملوك والحكام الثقافة والعادات الإيرانية إلى الإيرانيين والهنود والعرب واليونانيين. وقد نقل الجاحظ (الأديب والكاتب العربي المعروف المتوفى عام 255هـ) في كتابه: " التاج في أخلاق الملوك " آداب عزف الموسيقى والاستماع إلى الموسيقى التي وضعت في العصر الساساني. وكانت الأناشيد والأشعار التي كانت تُلحن وتُغنى في هذا العصر، عبارة عن: تقديس العنصر الإيراني النقي – اصطفاء وألوهية حكم إيران – الزوال الحتمي والنهائي لأعداء إيران – ضرورة الحفاظ على الشاه وعلى عبادة الشاه كسيد للبلاد. وكان للتكرار الموزون والملحن للأناشيد والأشعار سالفة الذكر أثر كبير على إضفاء منزلة ومكانة على الملوك أعلى من منزلة ومكانة المواطنين العاديين. وقد بلغ من التداخل والترابط بين فني الموسيقى والغناء أن أصبح أحدهما يُطلق على الآخر، فعندما يتكلم الفرس عن موسيقاهم القديمة، فإنما يعنون بذلك الموسيقى والغناء مجتمعين.

وكانت الموسيقى الفارسية قد انتقلت إلى العرب قبل الإسلام عبر قنوات ثلاث هي:

أولاً: الزيارات التي كان العرب يقومون بها لبلاد فارس وللمناطق الموالية للساسانيين من البلاد العربية مثل: إمارة الحيرة.

ثانياً: النصوص الشعرية لبعض الشعراء العرب في الجاهلية.

ثالثاً: القيان والإماء المغنيات اللائي كن يُجلبن من بلاد فارس إلى الجزيرة العربية، وقد اقترن غناؤهم بالعزف والرقص. ومن المعروف أن بعض شعراء الجاهلية العرب كانوا يفدون على المناذرة (ملوك الحيرة) يمدحونهم ويسمعونهم أجود أشعارهم، وكانت القيان تتغنى بهذه الأشعار في حضرة أولئك الملوك. قال الأعشى (توفى عام 8 هـ / 629م) الذي سمى بـ " صنَّاجة العرب "؛ لأنه كان يكثر الغناء والعزف على الآلة المعروفة باسم: الصنج، في وصف مجلس السماع (شراب وغناء):

لنا جلسان عندها وبنفسج وسيسنبر والمرزجوش منمنما

ومستق صينى وون وبربط يجاوبه صنج إذا ما ترنما

والجلسان: مُعرب گلشن بمعنى: روضة. وسيسنبر: نوع من الريحان. والمرزجوش: تعريب: مرزنگوش: نوع من الريحان أيضاً. ومستق صيني

و "ون" و"بربط" و"صنج": آلات موسيقية.

ومن المعروف أيضاً أن طابع الغناء في إمارة الحيرة كان يحمل السمات الفارسية، إن لم يكن فارسياً خالصاً. وكان الأعشى الذي كان يغني شعره بمصاحبة الموسيقى يتردد على بلاط ملوك الحيرة الموالين للساسانيين، وسافر إلى المدائن في عهد كسرى أنوشروان وذكر أسماء الورود والآلات الموسيقية المتداولة في عصره في شعره، وقال في ديوانه:

قد سرت ما بين بانقيا إلى عدن وطال في العجم ترحالي وتسياري

واستمر تأثير الموسيقى الإيرانية في الموسيقى العربية بعد الإسلام، في القرنين: الأول والثاني الهجريين عن طريقين: الأول: عن طريق الأسرى الفرس، والثاني: عن طريق سكان منطقتي خراسان ومازندران، وقد ذاعت شهرة عدد كبير من الموسيقيين والمغنين والمغنيات من الفرس في الدول العربية في العصرين: الأموي (40 - 132هـ) والعباسي (132 – 656 هـ). ومن أشهرهم في العصر

الأموي: نشيط الفارسي ومعبد وسائب خاثر ويونس الكاتب، وكانوا يلحنون الأشعار الفارسية والعربية. أما العصر العباسي فقد اشتهر فيه: إبراهيم الموصلي وابنه اسحق الموصلي اللذين أدخلا الموسيقى الإيرانية بجميع خصائصها وآلاتها وإيقاعاتها وأصواتها في البلاط العباسي، وزلزل منصور وإسماعيل بن جامع. ويذكر أن المكي الأسود سعيد بن مسجح، وهو رائد من رواد الغناء في الدولة الأموية، سمع غناء الفرس ونقل ألحانه إلى العرب، وقيل إنه أول من نقل الموسيقى الفارسية إلى الغناء العربي، وأول من أحدث التجديد في هذا الغناء. ولما انتقلت الألحان الفارسية إلى أغاني العرب، انتقلت رسوم مجالس الغناء إلى بلاط الخلفاء عن الأكاسرة، فكان لذلك تأثيره في الشعر العربي، إذ أخذ الشعراء يصوغون أرق العواطف في أخف الأوزان وأرشق العبارات التي تلائم الألحان الموسيقية الوافدة من بلاد فارس.

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين قلت سيطرة الخلافة على الدول التي فتحها جيش الإسلام، وساعد هذا في قيام الإيرانيين وبخاصة سكان خراسان الكبرى بإبراز هُويَّتهم الإيرانية وتقويتها، وكانت الموسيقى عنصراً من عناصر هذا الإبراز وهذه التقوية، بالإضافة إلى عناصر مهمة أخرى مثل: الشعر والأغاني المحلية.

واستفاد العرب من خبرات الإيرانيين وفنونهم، واهتم علماء وفلاسفة مثل: أبو نصر الفارابي (المتوفى عام 339هـ) وابن سينا (المتوفى عام 428 هـ) بالبعدين: العلمي والنظري للموسيقى، فألف الفارابي كتاب: الموسيقى الكبير، وكتاب: اسطقسات علم الموسيقى، وقيل إنه اخترع آلة القانون. ولابن سينا رسالة في الموسيقى، وقد تحدث في كتابه: دانشنامهء علائى (الموسوعة العلمية العلائية) عن خمسة علوم، منها علم الموسيقى.

وتم إحياء العديد من الآلات التي ظهرت في العصر الساساني مثل: الصنج والعود، كما تم الاهتمام بتدوين وتلحين الأشعار، وازدهرت الموسيقى المذهبية التي تُعزف في مراسم التعزية. وكان للمتصوفة والدراويش الإيرانيين دور بارز في نشر الموسيقى وازدهارها، حيث كانت الموسيقى الإيرانية تُعزف في التكايا والخانقاوات التي كانت منتشرة في جميع أنحاء إيران، وكان الشعراء المتصوفة يعبرون عن مشاعرهم الداخلية شعراً، وكان الموسيقيون يقومون بتلحين هذه الأشعار. وقد تحدث المتصوفة في كتبهم عن السماع الصوفي وفوائده. وكانت المولوية (المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي) تستعين بالرقص والموسيقى في تحريك الشعور الديني في نفوسهم.

وقد حافظت الموسيقى الإيرانية على مكانتها وتطورها في القرون من الخامس إلى العاشر الهجري، وحافظت بالتالي على دورها في تقوية دعائم الهُوية الوطنية الإيرانية خلال هذه القرون. إلى أن حكم الصفويون إيران في بداية القرن العاشر الهجري، ورأوا أن نشر فنون مثل: الموسيقى والغناء والعزف مغاير ومخالف لسياستهم المذهبية، واهتموا بدور الدين والمذهب في تقوية الهُوية الإيرانية، فتمحورت الثقافة الوطنية في هذا العصر حول المذهب الشيعي والدولة الشيعية. وعلى الرغم من ازدهار فنون مثل: المعمار ولصق القيشاني والنقش على الجص والتذهيب وتحسين الخط ونسج السجاجيد والبُسط، إلا أن الموسيقى هُجرت وأُهملت نظراً للرأي السلبي للحكام والفقهاء فيها. وكان الحكام والفقهاء يحتقرون الموسيقيين ويكفرونهم، ويتحدثون دائماً عن آثار الموسيقى المضرة، وكانوا يحاربون الشعراء والأدباء والموسيقيين؛ مما اضطر العديد من المتصوفة والشعراء والموسيقيين إلى الهجرة إلى بلاد الهند، واللجوء إلى بلاط السلاطين الهنود (هما يون وأكبر شاه بصفة خاصة). وأولى الحكام الصفويون قراءة روضة الشهداء (كتاب يشتمل على مصائب آل البيت) والتعزية، وبخاصة في شهر المحرم عناية خاصة واهتماماً زائداً، وانعكس هذا الاهتمام على أفراد الشعب الإيراني،

فأقاموا مجالس التعزية التي تذكر فيها مصائب أئمة الشيعة، وسوء معاملة أعدائهم من أهل السنة لهم.

الخلاصة أن الموسيقى فقدت رونقها واستمرارها التاريخي في العصر الصفوي، ودخل الموسيقيون في دائرة النسيان، ما عدا الفترة التي حكم فيها الشاه عباس الكبير (توفي 1039هـ/ 1629م) الذي كان ينظم الشعر، ويقوم برسم اللوحات الفنية، ويعزف على الآلات الموسيقية، ويؤلف الأغاني والألحان، وكان واقفاً على فن الموسيقى وعلى رموزه وأسراره.

واستمر الحال على هذا المنوال بعد سقوط الدولة الصفوية على يد الأفغان في عام 1135 هـ، وفى عهد نادرشاه (1148–1160هـ) وكريم خان زند وكيل الرعايا (1163 – 1193 هـ) إلى أن حكم القاجاريون في عام 1209 هـ، وتحقق نوع من الهدوء والأمان النسبيين في عهدهم، فعادت الموسيقى إلى سابق عهدها بسبب اهتمامهم الزائد بالمراسم والمظاهر وأسباب اللهو، واهتم البلاط بالموسيقى والموسيقيين والمطربين والعازفين، واشتهر عدد كبير من الموسيقيين والملحنين والعازفين، وازدهرت الموسيقى العسكرية التي كانت تدرس بشكل رسمي وعلمي في شعبة الموسيقى التابعة لدار الفنون التي أُنشئت في عام 1268هـ(على النمط

الأوروبي على يد أساتذة من أوروبا، وكان أشهرهم: "مسيو لومر" الفرنسي. وكانت الموسيقى العسكرية تعزف في أيام الأعياد، وعلى موائد الشاه الصيفية، وفى حفلات البلاط الرسمية، وفى حفلات الزواج الخاصة بالبلاط، وفى المسابقات الرياضية (المصارعة). وفى عهد ناصر الدين شاه (1246– 1313هـ) تم تأليف أول كتاب عن الموسيقى، وأول نشيد وطني إيراني.

وفى عهد مظفر الدين شاه (1313– 1324 هـ) تم تأليف وعزف أناشيد وألحان في وصف الوطن وحبه وفى مبادئ الثورة الدستورية، وقام شعراء مثل بهار (ملك الشعراء المتوفى عام 1951م) وعارف القزويني (الشاعر والموسيقى والمطرب الذي توفى عام 1352هـ) بالإشادة بالأبطال الوطنيين الإيرانيين بدلاً من وصف الشاه وأفراد أسرته، وزاد الاهتمام بالأشعار الوطنية، كما زاد اهتمام الموسيقيين برغبات أفراد الشعب ومشاعرهم. وفى عصر رضا شاه (1925 – 1941م) كان للحداثة تأثير في الموسيقى وبالتالي في الهُوية الوطنية، وذلك لأنه فتح أبواب إيران في وجه الدول الغربية من أجل تحديث البلاد، وابتعث الطلاب إلى أوروبا لتحصيل العلوم والفنون الحديثة، والعمل في المؤسسات الإيرانية الوليدة بعد العودة إلى إيران. واهتم رضا شاه بالموسيقى وخصص لها إدارة عامة، وشاركت

النساء في الكونشرتات العامة، وصدرت في عهده أول مجلة موسيقية، وتم تأسيس مدرسة عليا للموسيقى لتدريس القواعد والمبادئ الموسيقية الأوروبية. وتم حظر الموسيقى المذهبية وموسيقى التعزية بأوامر من رضا شاه. وتم افتتاح الإذاعة في (1940/4/23م) وتم تسجيل الأغاني الوطنية والمحلية والعاطفية المتنوعة على أسطوانات، واهتمت المطبوعات والمؤسسات العلمية بالحديث عن الموسيقى الغربية في الأوساط الموسيقية التقليدية في إيران. وفى عهد محمد رضا بهلوي (1941–1979م) كان للموسيقى الغربية الغلبة على الموسيقى الإيرانية، وانتشرت أفلام الملاهى الليلية، وتم استخدام موسيقى المؤلفين الموسيقيين في الأفلام الهابطة والخليعة، وانتشرت موسيقى " البوب " كما انتشرت مؤسسات إنتاج شرائط الأغاني وطبعها، مما ألحق الضرر بالموسيقى الإيرانية الأصيلة والقديمة. وحاول بعض خريجي كلية الفنون الجميلة بجامعة طهران المحافظة على مكانة الموسيقى الإيرانية الأصيلة ورسالتها، في محاولة منهم لتجديد هُويَّة هذه الموسيقى.

وبعد قيام الثورة الإسلامية في عام (1979م) تغيرت السياسة الثقافية لإيران تماماً، وتم التمييز بين الموسيقى الثورية والموسيقى الذي أُطلق عليها اسم: الرجعية. وفى بداية الفوران الثوري كان

الفريق المحترف الوحيد الذي واصل نشاطه وأنتج أناشيد وألحاناً ثورية هو فريق " شيدا " الذي دارت موضوعاتهم حول: القضاء على الظلم، والمطالبة بالعدل، والشهادة والخلاص. ومن أشهر فناني هذا الفريق: محمد رضا شجريان وشهرام ناظري. كما تغير نشاط الإذاعة والتليفزيون ووزارة الثقافة والفنون تغيراً كاملاً، والمطربون إما هاجروا أو اعتزلوا الفن. وعندما بدأت الحرب العراقية – الإيرانية (عام 1980م) تأثرت الأنشطة الفنية وبخاصة الموسيقى بظروف الحرب لمدة ثماني سنوات، وحلت الأغاني والألحان العسكرية والثورية محل سائر الإنتاج الفني، وهبط مستوى الإنتاج الموسيقى بشكل واضح. وكان مضمون أشعار وموسيقى العقد الأول من عمر الثورة الإسلامية يؤكد على الهُوية الإسلامية والمذهبية للإيرانيين. لكن بعد انتهاء الحرب في عام 1988م عادت الحياة إلى الموسيقى الإيرانية الأصيلة بالتدريج، ويُعقد مهرجان الفجر الموسيقى سنوياً، وتشارك فيه فرق عالمية، كما تشارك فرق موسيقية إيرانية في مهرجانات موسيقية خارج إيران، وتم الاهتمام بالموسيقى، وعقدت ندوات حول الموسيقى المحلية والفولكلور الإيراني. ومن الطبيعي أنه لا يمكن أن نتوقع أن معظم أفراد المجتمع الإيراني من الشباب يميلون إلى الموسيقى التقليدية. كما أنه من الممكن أن تتدخل الموجات الإذاعية المتعددة ومواقع الإنترنت

وقنوات القمر الصناعي التي تبث برامج سهلة ورخيصة ومبهجة، وأن تغير شكل هُويَّة هذا المجتمع الشاب.

وبعد انتهاء العقد الأول من عمر الثورة الإسلامية أُزيلت بعض الموانع والعقبات التي كانت تواجه الموسيقى الإيرانية، لكن واجهت إذاعة أصوات النساء مشكلة، فتم عمل "كونشرتات" تغنى فيها النساء فقط، وتم ترتيب حفلات موسيقية متعددة كانت تعزف فيها الموسيقى التقليدية (الكلاسيكية) إلى جانب موسيقى "البوب"، وذلك طبقاً لرغبات المستمعين. ويمكن القول إن الموسيقى قل تأثيرها في تثبيت دعائم الهُوية الإيرانية بدرجة كبيرة بعد قيام الثورة الإسلامية في (عام 1979م). ويرى كبار المطربين والملحنين الإيرانيين أن الدولة لعبت دوراً في ضعف الموسيقى، وأنها لم توفر القاعات والأجهزة المتطورة من أجل إقامة حفلات فنية جيدة. كما أن الموسيقيين الإيرانيين الكبار ابتعدوا وانزووا بسبب انتشار موسيقى " البوب " الغربية التي تعد وسيلة لقضاء أوقات الفراغ وإثارة المشاعر والأحاسيس، وانتشار الألحان التي تفتقر إلى الأفكار الأصيلة، والتي تبتعد عن تيار الموسيقى الإيرانية الأصيلة التي تواجه صعوبات في طريق تثبيت دعائم الهُوية الإيرانية. وتتمحور هذه الصعوبات حول: ميل الشباب (تحت سن الثلاثين) إلى موسيقى "

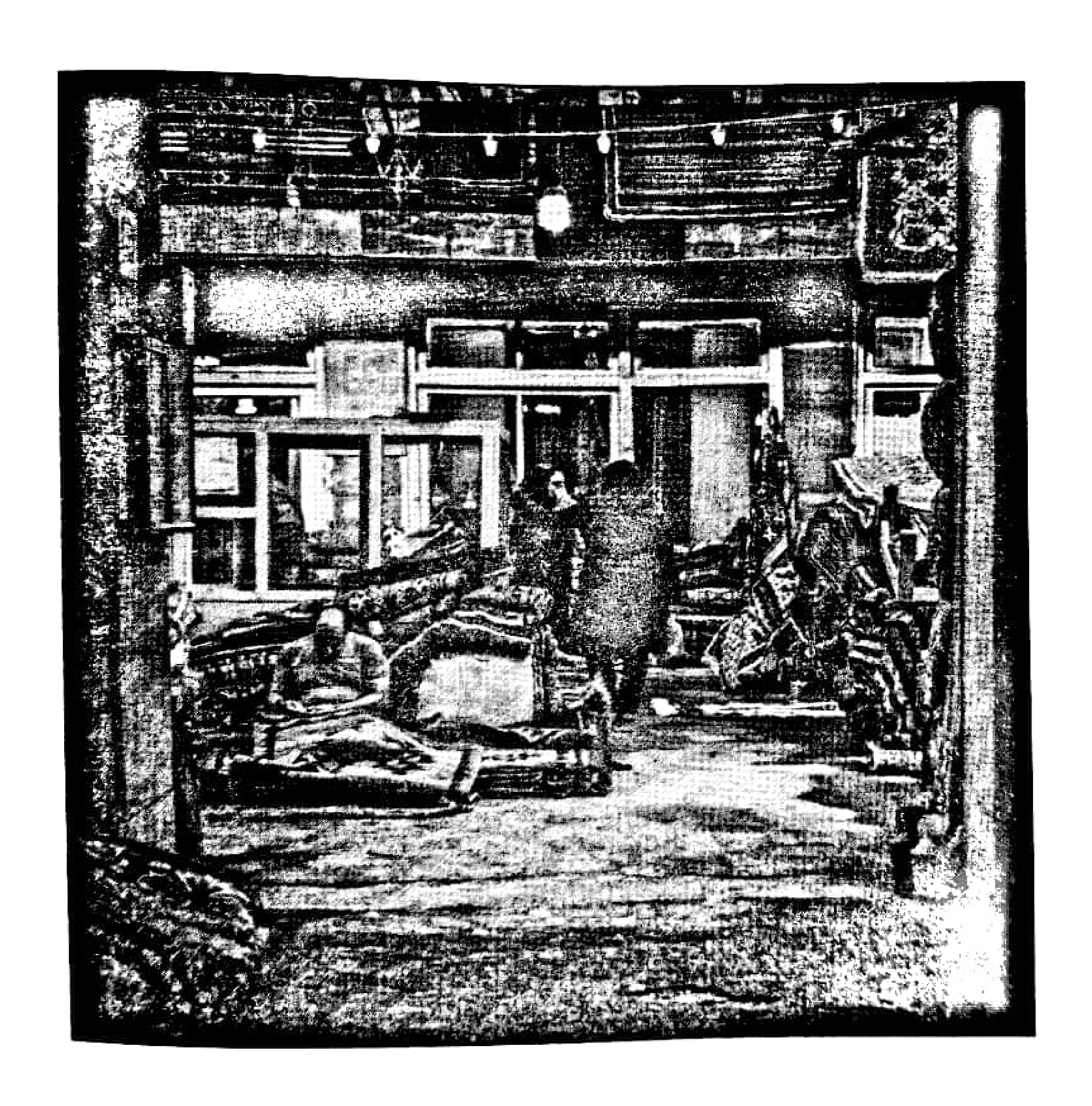
البوب "، نظراً لجنوحهم إلى التنوع والعواطف والإيقاع السريع في الأصوات والألحان. كما أن عشاق الموسيقى التقليدية يسكنون – عادة – في المدن الكبرى مثل: طهران – أصفهان – تبريز، لأن عشاق الموسيقى غالباً من الأغنياء والموسرين. والموسيقى المحلية في حالة تدهور الآن، وعشاقها قليلون، وذلك لأنها تُهزم أمام الموجات وقنوات الأقمار الصناعية المتعددة، بعد أن أصبح العالم قرية كونية، وليس مجموعة من الجزر المنعزلة.

بقي أن نؤكد على أن الإقليم له تأثره في الموسيقى والشعر والأغاني والملابس والفولكلور، وعلى أن الموسيقى جزء لا ينفصل عن حياة القبائل والعشائر، وأن التنوع الثقافي والإقليمي الذي تتصف به القبائل والعشائر الإيرانية، وبخاصة في أذربيجان ولرستان وكردستان، كان سبباً في التنوع الموسيقى، وفى ظهور موسيقى المقامات وموسيقى المناطق. وأفراد القبائل والعشائر يعزفون الموسيقى ويغنون في جلسات الرقص الجماعي وفي محافل العُرس والولادة والأعياد ووقت الترحال والصيد، ولديهم أناشيد في وقت الحرب والقتال، وفي سهراتهم الليلة تحت الخيام السوداء. وتختلف الآلات الموسيقية من قومية إلى قومية.

وفى نهاية الفصل، نشير إلى أن الدكتور قدير نصرى يؤكد في بحثه القيم عن الموسيقى ودورها في الحفاظ على الهُوية الإيرانية على ارتباط الموسيقى الإيرانية بالدين والمذهب الرسمي في إيران، وعلى أنه بات مقبولاً – في بعض الحالات – عزف الموسيقى والألحان في المراسم المذهبية، وأنه تسللت بعض الآلات والألحان الموسيقية إلى مراسم التعزية والنواح والمراثي، وإلى مجالس المتصوفة أيضاً. كما يؤكد على أنه على الرغم من أن الموسيقى الحالية في الدول العربية أصبح لها طابعها الخاص بها بمرور الزمان بفضل العوامل المحلية والاجتماعية، إلا أنه يوجد من بين الـ (52) مقاماً المعمول بها حالياً في مصر وسوريا ولبنان، (30) مقاماً فارسياً على الأقل، ومنها على سبيل المثال مقامات: الراست – الصبا – الحجاز – البيات – النهاوند.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل التاسع: السجاد والهُوية الإيرانية



جراند بازار، طهران، إيران. تصوير أوميد أرمين.

Https: //Unsplash.com

السجاد والهُوية الإيرانية

يرى الباحثون (الإيرانيون والأجانب) أن الإيرانيين أقدم من مارس حياكة السجاد، ويشيرون في كتاباتهم إلى قِدم وعراقة فن نسج السجاجيد الذي تحول فيما بعد إلى صناعة. ويؤكد المؤرخون على أنه يوجد نموذج من فن نسج السجاجيد في إيران في العصر الهخامنشي (550 – 330 ق.م) في متحف أرميتاج ببطرسبورج، وعلى أن إيران كانت تصدر السجاد بأحجام مختلفة إلى روما في العصر الأشكاني (256 – 224ق.م)، وعلى أن هذا الفن بدأ في إيران في المناطق الباردة والجبلية مثل: تبريز بأذربيجان الحالية، وأن قطع السجاد المنسوجة في شمال شرق إيران أو في أذربيجان إيران، والتي ذكرت مراراً في النصوص التاريخية، مازالت موجودة في متاحف أمريكا وروسيا وأوروبا. وقد وصلت صناعة السجاد الإيراني في العصر الصفوي (906 – 1135 هـ) إلى أوجها، وأصبحت إيران المركز الرئيس لهذا الفن الجميل الخالد بسبب الفنانين وحجم السجاجيد وشكلها وعددها. وتطور فن نسج السجاجيد تطوراً هائلاً، وبخاصة ذلك النوع الذي يطلق عليه اسم: اسليمي، والنوع الذي ترسم أو تنقش عليه حدائق الزهور الغناء والورود والنباتات والأشجار والطيور والبشر والحيوانات والأسماك،

وذلك الذي يستخدم في نسيجه أجمل نماذج المينياتور (المنمنمات). وقد قيل إنه نُسجت من الأنواع سالفة الذكر (1500) سجادة طبقت شهرة ست منها الآفاق في هذا العصر، وهي طبقاً لأهميتها، على هذا النحو:

أولاً: السجادة الأردبيلية، وهي من أجود السجاد في العالم، وتتميز بتوقيع ناسجها وهو: مقصود الكاشاني وتاريخ نسجها وهو (946هـ/1539م)، وبأن سداها ولحمتها من الحرير، وعقدتها تسمي " صحنه "، وهي عقدة فارسية معروفة، وتُنسج في: أراك وضواحيها – شيراز – كاشان – مشهد – بيرجند – كرمان – أصفهان – نائين – قم، وهي تختلف عن العقدة التركية التي تسمي " قيورد "، وتُنسج في :

گنجه – قره باغ – تبريز – هريس – همدان – مرو – بخارا – كاشغر، وسائر المناطق التي يقطنها الأتراك. وتوجد هذه السجادة في متحف فيكتوريا في لندن الآن.

ثانياً: سجادة الصيد، وتشى الرسومات الموجودة فيها بشخصية إيران وتاريخها، وهي من الحرير ومن أدق السجاجيد التي نُسجت في العصر الصفوي نظراً لعدد العقد الموجودة في كل سم مكعب.

ومنسوج في منتصف السجادة منظر صيد وقنص، والصيادون في هذا المنظر مجهزون بحراب وسيوف وأقواس، ويمتطون جياداً سريعة العدو، ويطاردون حيوانات مختلفة مثل: الأسد – النمر – الذئب – الغزال – الدب – الحمار الوحشي – ابن آوى – الأرنب. هذا بالإضافة إلى استخدام الفنان الإيراني للورود والطيور والسحب. وتوجد هذه السجادة في متحف الفن في فينا بالنمسا.

ثالثاً: سجادة تشلسي الموجودة في متحف فيكتوريا وآلبرت.

رابعاً: سجادة الورود والحيوانات الموجودة في النمسا.

خامساً: سجادة المزهرية (گلداني) حيث يُرسم في متن السجادة مزهرية تخرج منها الأغصان والأوراق المتشابكة والأزهار، وهي موجودة في متحف فيكتوريا وآلبرت.

سادساً: سجادة ذات صرة (ترنجى)، وهي موجودة في متحف ميلان.

وكل هذه الأنواع من السجاجيد تدل على النبوغ والاستعداد الذاتي للإيرانيين لتقديم وتنفيذ أفضل أشكال نسيج السجاجيد. وقد ازدهر فن نسج السجاجيد في إيران في العصر الصفوي لدرجة

أن ملوك الدول الأخرى وسلاطينهم أوصوا الفنانين الإيرانيين بنسج السجاجيد لهم. وعلى سبيل المثال: طلب السلطان سليمان القانوني (926 – 974هـ) عن طريق الشاه طهماسب الأول الصفوي (930 – 984هـ) سجادة عريضة للمسجد الجامع في استانبول. وقد اشترى بطرس الكبير (1672 – 1725م) وإمبراطور النمسا وحاكم بولندا عدداً من السجاجيد الكاشانية، واشتهرت مدن مثل: تبريز وكاشان دولياً بتجهيز وفرش الأماكن المقدسة وبلاطات الملوك والسلاطين بالسجاجيد، وأصبحت مدن: أصفهان وهرات وقزوين وقرة باغ وكاشان وهمدان مراكز تنسج فيها السجاجيد الصوفية والحريرية والمموهة بالذهب. وبعض السجاجيد التي يحتفظ بها في متاحف النجف بالعراق وكتب عليها: كلب أعتاب عليّ، والعباس، نُسجت في العصر الصفوي. وقد أولي الملوك الصفويون وبخاصة الشاه عباس الكبير (996 – 1038هـ) نسج السجاجيد رعاية كبيرة، وجعلوا منها حرفة صانعة للهُويَّة ومربحة في إيران. إلا أن الأفغان الذين شنوا هجوماً على إيران في عام 1135هـ، دمروا المؤسسات الفنية، وقضوا على صناعة وفن نسج السجاجيد، ذلك لأن عدم الإحساس بالأمن والأمان يؤثر بالسلب على الفن، كما أن الداعمين الرئيسيين والمشترين للسجاد النفيس، وهم الحكام الصفويون، انقرضوا، وقام

الأفغان بسلب ونهب السجاجيد النفيسة من المنازل والبلاط الصفوي والأماكن المقدسة.

ولم تقم لصناعة السجاجيد قائمة من جديد إلا في العصر القاجاري (1210 - 1345هـ) الطويل من حيث السنوات والهادئ نسبياً من حيث الأحداث. لكن رعاية الملوك القاجاريين لم تكن على نفس درجة وكفاءة الملوك الصفويين في توفير الأمن والأمان وتهيئة المجالين: التجاري والدولي اللازمين لازدهار صناعة السجاجيد. وعلى الرغم من هذا، فقد تحسنت وسائل النقل، وتوفر الأمن بالنسبة للطرق نسبياً، وازدهرت الزراعة والتجارة وصناعة السجاد، ولعبت صناعة السجاد دوراً في حياة الإيرانيين واقتصادهم، وذلك نظراً لأن الملوك القاجاريين كانوا مغرمين بإقامة القصور الفخمة في جميع أنحاء إيران، وكان من الضروري توافر سجاجيد كبيرة ونفيسة لهذه القصور ولقصور الأمراء أيضاً. وقد تم نسج سجادة كبيرة (396 متراً مكعباً) في العصر القاجاري، نسجها ثمانون ناسجاً كرمانياً خلال ست سنوات. وقيل إن هذه السجادة ظلت فترة طويلة مفروشة في قاعة قصر الكونجرس الأمريكي، ثم انتقلت من هناك إلى متحف المنسوجات في واشنطن.

وقد لعبت تجارة السجاد الدولية دوراً في إبراز الهُوية الإيرانية، ففي أواخر العصر القاجاري توسعت القوي العظمي (بريطانيا، روسيا، فرنسا) في المستعمرات، وكانت دول العالم الثالث أو المستعمرات مركزاً لتوفير المواد الأولية التي يحتاج إليها المستعمرون، وجذبت دول مثل إيران، التي كانت تحكمها حكومة ضعيفة، وتتمتع بموقع استراتيجي وقدرات متعددة، اهتمام هذه الدول الاستعمارية، ونزلت إيران ميدان التجارة العالمية كقوة لا يستهان بها. وفي هذا الوقت، كان السجاد أحد السلع التي تصدرها إيران، وهو من السلع التي كان الأوروبيون يعرفون قدرها منذ قرون، وكان هذا سبباً في تسهيل مهمة التجار القاجاريين في تصدير السجاد إلى أوروبا. وبرز في هذا المجال التجار التبريزيون الذين كان لهم مندوبون في جميع مدن إيران يشترون السجاجيد القديمة والأثرية من المنازل. وكان نسج وتخزين السجاجيد في هذه الأيام نوعاً من الادخار، وكان الأثرياء يخصصون جزءاً كبيراً من مدخراتهم لشراء السجاجيد التي يرتفع ثمنها وتزداد قيمتها ويزداد رونقها بمرور الأيام والسنوات. وهكذا قام هؤلاء التجار بنقل السجاد الإيراني بوصفه سلعة مربحة وبوصفه مؤشراً كاشفاً عن الفن والهُوية الإيرانية إلى الأسواق والمنازل الأوروبية والأمريكية.

وهكذا وبعد أن كسدت تجارة السجاد أثناء فتنة الأفغان التي بدأت عام (1135هـ) واستمرت سبع سنوات، أصبحت ضمن الأنشطة الاقتصادية والتجارية. وتخطت حدود إيران، واشتهرت كسلعة تجارية إيرانية. ولم يكتفِ التجار التبريزيون بمصانع السجاد التي كانت موجودة في القرى الإيرانية، فأنشأوا مصانع في المدن التي رأوا أنه من اليسير الإشراف على العمل في هذه المصانع فيها. وبدأوا بتبريز ثم مشهد وكرمان وسلطان آباد وكاشان.

وأقيمت معارض مشهورة في دول أوروبا، وشاهد فنانو وتجار العالم كله السجاد الإيراني، وزاد الإقبال على شراء هذا السجاد من جانب الدول الأوروبية وتركيا والدول العربية. وتحقق صادرات السجاد أكثر من (600) مليون دولار في السنة من دخل العملة الأجنبية الإيرانية. ويُعد السجاد أهم المنتجات غير النفطية التي تُصدر إلى خارج إيران. والفرق كبير بين تصدير السجاد وتصدير الفستق والكافيار مثلاً، فكل سجادة تحمل شكلاً وروحاً ومعني من إيران، وتشغل مناطق واسعة من الأماكن التجارية وأماكن الزيارات (المتاحف) والأماكن الإدارية وساحات الاستقبال والمنازل، في حين أن الفستق والكافيار يُستهلكان بسهولة ويختفيان بسرعة.

ويتميز السجاد الإيراني بتنوع رسومه وتماسك عقده وتناسق ألوانه وحسن توزيعها، والمهارة في نسجه وجمال الزخرفة ومتانة الصناعة وثبات الألوان. ويمكن الاستفادة منه في فرشه على الأرض، أو تعليقه على الجدران. ونسج السجاد الإيراني يحتاج إلى صبر وحلم وتحمل وذوق فن، كما يحتاج إلى وقت يصل إلى عدد من السنوات، حتى يتم نسج سجادة جميلة. وقد توارثت الأجيال قواعد صناعته وأصولها جيلاً بعد جيل، ويشبه البعض السجادة الإيرانية الجميلة بقصيدة الشعر التي تتضمن فكرة جميلة وأسلوباً رشيقاً، ومصمم السجادة كالشاعر الملهم الذي يعبر عن جمال الطبيعة ويجسده في قصيدته. وقد تحولت صناعة السجاد إلى مرآة تنعكس عليها ثقافة الأقوام الإيرانية وتراثها، وما يتناقلونه من حكايات وأساطير يجسد في لوحات فنية رائعة. والسجاد منتج فني-صناعي، وللمعتقدات الدينية والمذهبية التي يؤمن بها مصمم السجادة دخل في الرسم الذي يُرسم على هذا المنتج. ويوجد في إيران متحف للسجاد، تعرض في قاعاته نماذج قديمة وحديثة من السجاد الإيراني، وقد تم تأسيس هذا المتحف في طهران في عام 1977م من أجل جمع النماذج الموجودة من هذا الفن الراقي والمحافظة عليها. وقام خبراء السجاد بالسفر إلى مختلف أرجاء البلاد والدول الأجنبية للعثور على السجاجيد المختلفة ومحاولة شرائها. كما تم الاحتفاظ

بالسجاجيد التي كانت موجودة في قصر "گلستان"، وعددها (275) قطعة سجاد وبساط. والمتحف يضم أثمن وأنفس السجاجيد الإيرانية منذ القرن العاشر الهجري وحتى الوقت الراهن. وتمت بعد الثورة الإسلامية (1979م) إضافة العديد من السجاجيد التي كانت موجودة في قصر "سعد آباد" والمؤسسات الحكومية الأخرى. ومساحة المتحف (340 متراً مربعاً)، ويتكون من قاعتين لعرض مختلف أنواع السجاجيد، ويضم المتحف سجاجيد من أذربيجان وأصفهان وكاشان وأراك وخراسان وفارس وكرمان والسجاد الكردي، بالإضافة إلى السجاجيد التي تقوم العشائر المختلفة بحياكتها.

ونظراً لأهمية صناعة السجاد في إيران صدرت كتب عديدة عن هذه الصناعة العريضة، كما صدر مؤخراً معجم لمصطلحات السجاد، ويصدر اتحاد مصدري السجاد الإيراني مجلة فصلية تسمي: فرش دستباف إيران: السجاد اليدوي الإيراني. كما يصدر نادي محبي السجاد مجلة فصلية تصدر بالفارسية والإيطالية والإنجليزية تسمي "گره "، العقدة. ويعمل في هذه الصناعة الكثير من الحائكين من الرجال والنساء، ويحيك نساء القبائل الرحل نوعاً بسيطاً من السجاد يسمي: جاجيم، ونوعاً آخر يسمي: گليم. وتعد

صناعة السجاد من أفضل وأغلي الصناعات اليدوية، ويعمل حائكو السجاد كسائر أصحاب الصناعات اليدوية في إيران في القطاع الحكومي (العام) والقطاع الخاص، كما يُحاك السجاد في القرى والأرياف والمناطق العشائرية، ولكل منطقة مدرستها الخاصة في حياكة السجاد، حيث تنفرد عن غيرها برسومها ونقوشها وطريقة حياكتها. ومن أهم المناطق العشائرية في حياكة السجاد والبسط المتنوعة في إيران: المناطق التركمانية والبلوشية والقشقائية والأفشارية والكردية واللرية. ويوجد في إيران سجاد مصنوع من الصوف وسجاد مصنوع من الحرير، وسجاد مموه بالذهب، والسجاد الحريري من أثمن وأنفس أنواع السجاجيد في إيران. وأنواع السجاجيد كثيرة، ولكل نوع اسم وفقاً للتصميم والنقوش ونوع الخيوط المستخدمة، ولكل مدينة أنواعها الخاصة، ففي أصفهان يوجد أكثر من عشرة أنواع منها: الأسليمي والختائي وبيد مجنون (شجرة الصفصاف المجنون).

ومن أسماء السجاد في الفارسية: فرش، قالي (السجادة الكبيرة)، قاليچه (السجادة الصغيرة)، كناره (المشاية): قطع السجاد الجانبية التي تفرش في الممرات والمساحات الخالية التي تحيط بالسجادة الكبيرة أو فوق الدرج (السلم). والسجاد يُستخدم لتغطية الأرض

وتوفير الدفء وللزينة. وكلما زاد عدد العقد في كل بوصة مربعة، تزداد قيمة السجادة. وتوجد في إيران تابلوهات سجاجيد (تابلو فرش)، وهي عبارة عن سجادة داخل لوحة تعلق على الجدران، وهذا النوع من السجاجيد الصغيرة تكتب عليه آيات قرآنية أو تصور فيها شخصيات أو مناظر طبيعية أو مينياتور (المنمنمات). والسجادة تعد من المنتجات الثقافية في إيران، ولها قيمة معنوية إلى جانب القيمة المادية، ويُعِد البعض السجاد أكثر قيمة من الجواهر، ومازال الكثيرون يدفعون مبالغ طائلة ثمناً لسجادة يدوية، بدلاً من الحصول على سجادة صناعية آلية جميلة ورخيصة الثمن. وتقوم مراكز صناعة السجاد في إيران بصناعة سجاد لأشخاص أو دول أو شركات أو تجار. وتعد الولايات المتحدة الأمريكية – منذ زمن بعيد – أكثر الدول شراءً للسجاد الإيراني، وتليها إنجلترا ثم تركيا. وتقام معارض السجاجيد في دول أخرى مثل: تركيا، لمدة أسبوع، تعرض فيها السجاجيد الإيرانية بأنواعها وتابلوهات السجاجيد، ويتعرف فيها الهواة على التصميمات الجديدة للفنانين الإيرانيين، وتعقد في هذه المعارض الثقافية – الفنية صفقات شراء السجاد الإيراني بشكل مباشر مع مراكز صناعة هذا السجاد. وتركيا من الدول التي يتم عن طريقها تصدير السجاد الإيراني إلى أوروبا وسائر

دول العالم، حيث يقوم التجار الإيرانيون والأتراك بشراء السجاجيد من إيران، ويقومون بتصديرها إلى أوروبا.

وتقتني معظم متاحف الفن الإسلامي في كل بلاد العالم نماذج من السجاجيد الإيرانية القديمة، ومن هذه المتاحف: متحف الفن الإسلامي بالقاهرة الذي يضم نماذج قيمة من قطع السجاد الإيراني معروضة في قاعات المتحف. وقد قدمت حركة المقاومة الوطنية الإيرانية عام 1956م هدية إلى جماهير مدينة بورسعيد احتفاءً بمقاومتهم الباسلة ضد العدوان الثلاثي، والهدية كانت صورة للدكتور محمد مصدق (رائد تأميم البترول الإيراني) موقعة من قبله مع بعض كلماته المكتوبة عليها. كما أهدت حركة المقاومة سجادة إيرانية نفيسة إلى مدينة بورسعيد عن طريق القائم بالأعمال المصري في طهران آنذاك، والسجادة موجودة في متحف بورسعيد. وقد نشرت جريدة الأهرام المصرية في (2010/11/21م) صورة لسجادة عرضتها إيران في مصلي طهران، وقالت إنها أكبر سجادة مصنوعة يدوياً في العالم، وتبلغ مساحة هذه السجادة ستة آلاف متر مربع، وإن طائرة روسية سوف تنقلها إلى أبو ظبي، لتأخذ مكانها الذي حيكت من أجله في مسجد الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان. وقد شارك في نسج هذه السجادة ألف ومائتا عامل،

واستغرق العمل فيها (18 شهراً)، واحتوت على (2.2) مليار عقدة، وانضمت إلى موسوعة جينيس للأرقام العالمية كأكبر سجادة في العالم، وبلغت قيمتها حوالي (8.5) مليون دولار.

والسجاد يعد أحد المظاهر القديمة للهُويَّة الإيرانية، فالسجاد الإيراني الذي توجد نماذج منه في بعض المتاحف العالمية يعد نموذجاً لفن الإيرانيين الذين نسجوا سجاجيد قيمة وفاخرة لاستخدامها في منازلهم وفي التكايا والمساجد وفي مراقد أئمتهم وقصور ملوكهم. وفن نسج السجاجيد يعكس، بالإضافة إلى ذوق الإيرانيين وفنهم، نوعاً من الحرف والعلاقات الاجتماعية، ويمكن عن طريق الرسم الموجود فوق السجاجيد معرفة جانب من تاريخ الإيرانيين ومعتقداتهم. ففي منتصف هذه السجاجيد تم نقش حروب أبطال إيران القدماء أو الحدائق الإيرانية القديمة والجميلة أو مناظر للسماء والجنة والطبيعة. وهكذا يمكن أن تُعد السجاجيد الإيرانية كاشفة وموضحة للهُوية الإيرانية، وذلك بسبب القدم والعراقة والجمال والنقوش والرسومات التاريخية الموجودة وسط وعلى جوانب السجادة.

وعلى الرغم من أن صناعة السجاد اليدوي الإيراني وصلت إلى مرتبة لم تدرك قط في أية دولة أخرى، وأن هذه الصناعة تحظي

بسمعة لا مثيل لها في العالم، وأن لديها قدرة تنافسية عالية، إلا أن فن وصناعة نسج السجاد في إيران يواجهان الآن صعوبات في مجال التنافس الاقتصادي وإبراز الهُوية الإيرانية، وتنحصر هذه الصعوبات في أن ثقافة الاستهلاك قد تغيرت، وزاد الميل إلى المباني المكشوفة، وتغيرت ديكورات المنازل والأماكن العامة، وانتقل السجاد من فوق سطح الأرض إلى الجدران، واستخدم كتابلوهات جدارية أصغر – في الغالب – من السجاد المفروش فوق الأرض، وتستخدم في أماكن محدودة. وبعد أن كان أغلب السجاجيد الإيرانية القديمة منقوشة عليها صور من قصص الشاهنامة (كتاب الملوك) والحدائق الإيرانية أو الورود والمناظر الطبيعية، تغيرت ذائقة المشترين وقيمهم، فهم يطلبون الآن نقش أعلام الدول الأجنبية وصور الرياضيين العالميين والقيم المسيحية وكلمات وعبارات إنجليزية، أو صور شخصيات أدبية وثقافية وتاريخية أوروبية على السجاد الإيراني، وهذا كله يتم في إطار ضغوطات السوق والربح. هذا وقد كُسر احتكار إيران في مجال بيع السجاد النفيس، وبعد أن كانت إيران بلا منافس – تقريباً – منذ حوالي (450) عاماً في إنتاج السجاد وتصديره، وبعد أن كان الملوك والحكام يشترون السجاد النفيس من إيران لتزيين قصورهم به، فقدت إيران احتكارها لهذه الصناعة، وذلك بعد ميكنة عدد كبير من الفنون،

وبعد امتلاك عدد كبير من الدول مثل: الصين وتركيا وباكستان والهند لهذه الماكينات، وأصبح الجزء الأكبر من سوق السجاجيد والبسط تُعرض فيه السجاجيد والبُسط التي صنعتها الآلات التي تعد رخيصة بالمقارنة بالسجاجيد اليدوية الإيرانية. وقد صرح المسئولون عن صناعة السجاد وفن نسج السجاد في إيران بأن افتقاد وجود استراتيجية للإنتاج والتصدير، ودخول سلع مقلدة على إنها من صنع وإنتاج إيران، والمساندة الضعيفة وغير الدائمة من جانب الدولة لنساجي السجاد، وعدم اقتصادية صناعة نسج السجاد والبسط، كل هذا أدى إلى تراجع إيران منذ ما يزيد عن عشر سنوات أمام المنافسين، وتُركت سوق السجاد الرائجة والمبشرة للمنافسين الآسيويين، من أمثال: الصين والهند وباكستان.

كما أن العقوبات الدولية التي فرضت على إيران، أثرت بالسلب على هذه الصناعة اليدوية الإيرانية، وذلك لأن ضغوط العقوبات أدت إلى ارتفاع أسعار السجاد الإيراني إلى ما يوازي الضعف، فانخفض حجم المبيعات بنسبة تتراوح بين 50% و80% في الشارقة، حيث كان تجار الشارقة يجلبون السجاد الإيراني، ويبيعونه للأجانب الذين يفدون على الشارقة للسياحة، وبخاصة الأمريكيين، إلا أن هؤلاء السياح امتنعوا عن شراء هذا السجاد

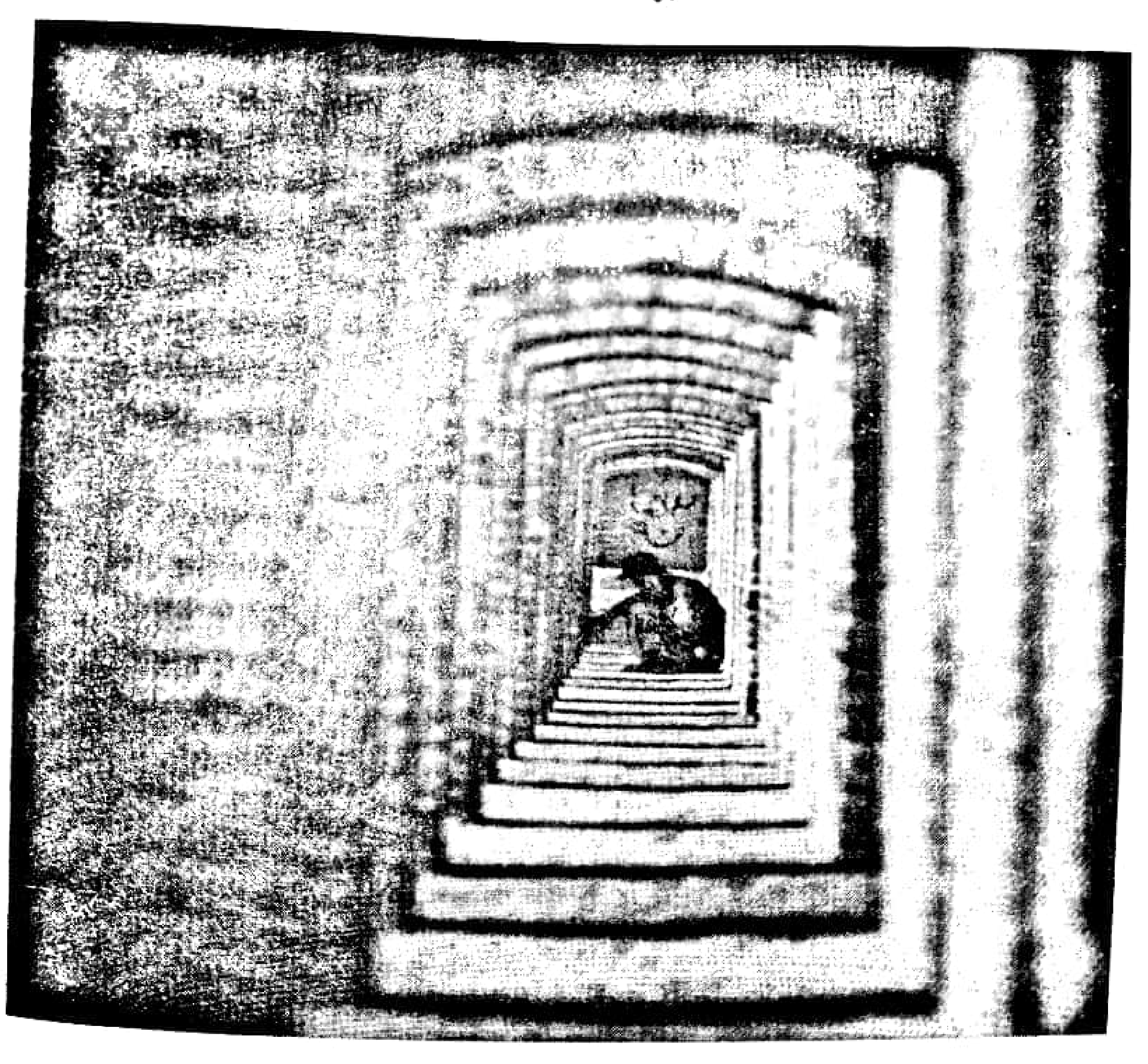
نظراً للحظر الذي فُرض عليه. وإذا كان هذا حال بيع السجاد في الخارج، فإن صناعة السجاد تواجه بعض المشكلات في الداخل وهي: انخفاض عدد العمال الذين يعملون في مجال نسج السجاد، مما كان سبباً في طول فترة نسج السجاجيد، وفي ارتفاع أسعار السجاد، وانخفاض معدل الإنتاج في هذا المجال، وزيادة الضغط على الاقتصاد الإيراني.

وعلى الرغم من هذه الصعوبات وهذه العقوبات، ما زالت صناعة السجاد في إيران صناعة وطنية محلية منذ قرون عديدة، ومازالت "الأنوال" اليدوية التي تستعمل في صنع السجاد الفاخر توجد في إيران على نطاق واسع، ومازالت الخيوط تغلي في أحواض تحتوي على مواد التلوين لمدة معينة، لكي تكون ألوانها ثابتة، ومازال الصانع الإيراني يرسم الوحدات الزخرفية بخطوط تلتقي وتنحني في ألوان مختلفة الظلال، وما زالت السجادة الإيرانية توحي بمفاهيم تتجاوز حجم السجادة، ومازال السجاد يستخدم لتغطية الأرض وتوفير الدفء وللزينة، ولم يفقد النساجون الإيرانيون براعتهم في صنع السجاد، وما زالت صناعة السجاد من أفضل وأغلي الصناعات اليدوية والحرف الفنية في إيران، ومازالت تتردد في إيران

مقولة: الدين أفضله دين محمد، والفرش أفضله السجاد، والوعاء أفضله النحاس، والخبز أفضله خبز القمح.

القسم الأول (الهُوية الإيرانية)

الفصل العاشر: إشكاليات الهُوية الوطنية في إيران



أصفهان، إيران. تصوير ماهر أوزال

Https: //Unsplash.com

إشكاليات الهُوية الوطنية في إيران

مفهوم الهُوية (بضم الهاء وتشديد الياء) واحد من أهم وأعقد مفاهيم العلوم الاجتماعية، وهو مفهوم جديد ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين كظاهرة سياسية واجتماعية، وحل محل مفهوم: الشخصية الاجتماعية، ولكل مجتمع خصائصه المؤثرة في هُويَّته، ويختلف معدل انسجام عناصر الهُوية ومكوناتها مع بعضها البعض من مجتمع إلى آخر، وإذا لم يحدث تناسب وانسجام بين هذه العناصر وهذه المكونات، سيحدث خلل في الهُوية؛ مما يؤدي إلى حدوث أزمة في الهُوية، سواء على المستوى الفردي أو المستوى الجماعي. وأكثر المجتمعات توفيقاً هي المجتمعات التي تستطيع أن تحقق مبدأ الهُوية الواحدة، والتي تعترف في الوقت نفسه بالفروق الثقافية وأوجه الاختلاف الخاصة بالهُوية بين الطوائف المختلفة. ولا يمكن اختزال هُويَّة دولة من الدول في عنصر واحد أو بُعد واحد، فالهُوية تتكون من طبقات تشبه طبقات الأرض، والانفصال التام عن الهُوية السابقة أو القديمة غير ممكن، لأن الحاضر مبنى على الماضي، والمستقبل مزيج من الماضي والحاضر. وعند دراسة مفهوم الهُوية الوطنية والقضايا والمشكلات التي تتعلق بالأقوام بصفة خاصة، ينبغي الاهتمام بالأبعاد الاجتماعية والتاريخية

والجغرافية والسياسية والدينية والثقافية واللغوية والأدبية، فإهمال أي بُعد من هذه الأبعاد يمكن أن يكون له آثار سلبية على الهُوية الوطنية، وأن يحدث خللاً بنيوياً في النسيج القومي.

وأزمات الهُوية تحدث عندما يتعرض أحد عناصر الهُوية ومكوناتها للخطر، أو عند تغليب مكون على مكونات أخرى، أو عندما تختل هذه الهُوية في أعقاب الأحداث والتطورات، وأهم مؤشرات المجتمعات التي تعاني من أزمة هُويَّة وطنية هي:

- فقدان الثقة السياسية والاجتماعية في المجتمع.
- تعدد شخصيات الأفراد.
- انخفاض مستوي الأهداف والمعنويات.
- الانحطاط الأخلاقي في المجتمع.
- انعدام العدالة الاجتماعية في المجتمع.
- عدم توافر المساواة الاقتصادية.
- وجود فجوة بين الأجيال.
- ضعف الحاكمية ونقص مشروعية الحكومات.
- وجود مشكلات في التنمية الشاملة.
- وجود تعارضات نفسية وشخصية في المجتمع.

وجميع الهُويَّات، حتى أكثرها انسجاماً، لها تهديداتها وفرصها الخاصة بها، وإذا درسنا الهُويَّات في المجتمعات المختلفة بهدف التعرف على أعراض المرض وأسبابه، سوف نلاحظ أنه ليست هناك هُويَّة تتشكل بدون أضرار وتهديدات تنبع من داخلها، فقبول الضرر وقبول الفرصة هما وجها الهُوية، وبناء على هذا، يمكن القول إن الهُويَّات الاجتماعية والثقافية لديها استعداد دائماً لخلق الضرر وقبوله، وخلق الفرصة وانعدامها. ويجب تحصين الهُوية في ظل التحديات المعاصرة، والأمم التي تريد المحافظة على هُويَّتها تحمي أتباعها من غزو الثقافات الأخرى لثقافتهم، ومن لم ينتبه، سيذوب في ثقافة غيره. وتمثل التهديدات الخارجية خطورة بالغة على الهُوية الوطنية، والتعارض بين القديم والجديد يؤدى إلى بروز أزمة في الهُوية الثقافية. وعدم توافر العدالة الاجتماعية في المجتمع يسبب أزمة للهُويَّة الوطنية، ويحدث خللاً فيها، وإذا أراد أي مجتمع أن يستعيد هُويّته، فإن ذلك يتطلب تغيير إدارة المجتمع وتحسينها، وردم الفجوة التي من الممكن أن تكون موجودة بين الهيكل السياسي الحكومي وبين الهيكل الاجتماعي الشعبي، فهذه الفجوة تفضي إلى بروز أزمة الهُوية، وتخلق أزمة في المشروعية الحكومية.

فيما يتعلق بإيران، فأبرز خصائص المجتمع الإيراني هي: التنوع الاجتماعي أي تنوع القوميات والأعراق، حيث يوجد في إيران ثمانية أقوام هي: الفرس – التركمان – الأكراد – العرب – الآذريين – البلوش – اللر – الطالشيون. والتنوع الثقافي، وهو عبارة عن تنوع لغوي: آري–سامي (عربي – عبري – آشوري) – أورلتائي (تركي، مغولي)، وتنوع ديني: إسلامي – زرادشتي – يهودي – مسيحي – مندائي (فرقة المندائية أو الصابئة هم أتباع النبي يحيي بن زكريا، وهم أقلية دينية في إيران والعراق وسوريا وفلسطين). ويرجع سبب هذا التنوع إلى الهجرة الطوعية أو القسرية إلى إيران أو الإغارة عليها أو فتحها في عصور تاريخية مختلفة على أيدي العرب والأتراك والتركمان والمغول واليونانيين. وعلى الرغم من أن المجتمع الإيراني متعدد القوميات، إلا أن هذه القوميات تعيش في إيران بثقافات مختلفة تحت راية واحدة، وتكاد تكون الحدود الاجتماعية والثقافية للأقوام الثمانية متداخلة مع بعضها البعض. وقد تجلت الهُوية الإيرانية، في أوضح صورها، في العصر الصفوي (907 – 1248هـ)، حيث تم تكوين دولة وطنية في إيران للمرة الأولى، وقامت الهُوية الوطنية الإيرانية – آنذاك – على مصدرين رئيسيين هما: الميراث الإيراني والمذهب الشيعي. ويرى المستشرقون أن إيران المعاصرة تتأرجح مثل بندول الساعة بين ثلاث هُويّات:

الهُوية الدينية الإسلامية التي بدأت بعد الفتح الإسلامي، والهُوية الفارسية التي تتغنى بالماضي وأمجاده، والهُوية التي تتضمن الثقافة الغربية وتتبناها منذ أن انفتحت إيران على الغرب في العصر الصفوي. وهم يرون في إيران، بعد قيام الثورة الإسلامية في عام (1979م)، أن استرجاع هُويَّة إيران يُعد من أهم نتائج انتصار الثورة الإسلامية وأحد مكاسبها. وعلى الرغم من أن الهُويّات ليست كيانات جامدة، بل هي ظاهرة سيّالة ونسبية ومتجددة، إلا أن مقولة الهُوية من المقولات التي تثير الجدل في المؤتمرات والمنتديات السياسية والثقافية التي تُعقد في إيران من وقت إلى آخر في عصرنا الحاضر. وتدور المناقشات وتُلقى الكلمات في هذه المؤتمرات وهذه الندوات حول مفهوم الهُوية الوطنية الإيرانية وعناصرها ومكوناتها وأبعادها، وحول تأثير الغزو الثقافي الغربي على الهُوية الإيرانية في ظل العولمة وتقنيات المعلومات ووسائل الاتصالات الحديثة، وحول ضرورة الحفاظ على هذه الهُوية، وكيفية مواجهة التحديات والمخاطر التي تواجه الهُوية الإيرانية. وكثيراً ما يُطرح سؤال: هل توجد إشكالية هُويَّة في إيران، أم توجد أزمة هُويَّة؟

وقد أجاب الباحث "إبراهيم حاجياني" على هذا السؤال بعد إعداد دراسة ضافية أشار فيها إلى أنه اطلع على بعض الدراسات

التجريبية والاستقصائية والإحصائية، وأنه توصل إلى نتائج ومعطيات أكد أنه لا يقصد تعميمها، وأنه يطرح فقط فرضيات واضحة في مسألة الهُوية الوطنية الإيرانية، خاصة أنه لم يطلع على جميع الدراسات التجريبية المعنية بهذه المسألة. ويشير الباحث في بداية الدراسة على أن هذه الدراسة تؤكد على وجود إشكاليات حول الهُوية الوطنية، لا على وجود أزمات، وعلى أن الهُوية الوطنية الغالبة والمسيطرة في إيران بها أضرار وتحديات وإشكاليات. ذلك لإن الهُوية الإيرانية – شأنها شأن أي ظاهرة اجتماعية – تمرض وتصاب ببعض الاختلالات أحياناً. لكن الباحث استطرد قائلاً: إلا أن التحديات القائمة تفتقد الخصائص المُهدِّدة، وعدم الاطمئنان، والاضطرار، وزيادة الضغط والتوتر بين أفراد المجتمع، وغيرها من خصائص الظواهر المتأزمة. ويؤكد الباحث على وجود فروق بين مفهوم الأزمة ومفهوم الإشكالية، ويقول: إن البعض عد وقوع الأحداث بشكل مفاجئ وغير متوقع أزمة، وإنه يجب الاهتمام بهذه الأحداث من أجل اتخاذ القرار السريع بشأنها. وإن البعض قال إن الأزمة تحدث عندما تكون سرعة حدوث التطورات الداخلية في مجتمع من المجتمعات أقل من سرعة التطورات الخارجية. أما الإشكالية، فتحدث عندما يكون هناك اختلاف جذري بين ما

هو قائم وبين ما يجب أن يكون، أو في حالة عدم وجود معايير دقيقة ومشتركة لتحديد الإشكاليات ومدي تأثيرها.

ويستطرد الباحث قائلاً: إن الهُوية الإيرانية واجهت تحديات ومخاطر تحتاج إلى دراسة ضافية ومتعمقة، لأنها لديها استعداد للتحول إلى أزمات شديدة، ولذلك فإنها تحتاج إلى بحث ودراسة عاجلة. وأهم الإشكاليات والمخاطر المحيقة بالهُوية الوطنية الإيرانية على البعد الاجتماعي هي:

- ضعف الهُوية الجماعية في المجتمع الإيراني وبخاصة في المجتمعات القبلية والقروية، أي أن الأفراد يرجحون مصالحهم الخاصة ومصالح عائلاتهم وقومهم على المصالح والمنافع العامة.
- ضعف الثقة الاجتماعية، فعدم الثقة المتبادل بين أفراد المجتمع يُعد نموذجاً ومظهراً لانفصال الفرد عن النظام الاجتماعي، ويضعف العلاقات الاجتماعية.
- زيادة معدل السخط العام بسبب المسكن والدخل والعمل والزواج... إلخ، هذا إلى جانب ضعف مشاركة الفرد في المجتمع، والخلل الموجود في العلاقات الاجتماعية، وعدم التعاون والتعامل الاجتماعي، والغربة وفقدان الهُوية

الاجتماعية، وخاصة بالنسبة للشباب، والميل نحو الثقافة والحضارة الغربية بصفة عامة والحضارة الأمريكية بصفة خاصة، وهذه العوامل جميعها أصبحت سبباً مهماً في تقوية الإحساس بفقدان الهُوية وعدم التعلق بالنظام الاجتماعي في إيران، ويُلاحظ هذا في قطاع كبير من الشباب.

وعن إشكاليات البعد التاريخي للهُويَّة الوطنية الإيرانية يقول الباحث: إن الجدل الدائر حول تاريخ إيران قبل الإسلام وبعده، وتجاهل تاريخ وما بعد الإسلام وتفضيل التاريخ القديم عليه، يؤدى إلى بروز أزمة هُويَّة، ويجعل أفراد المجتمع يشعرون بفقدان الهُوية. هذا فضلاً عن أن الهُوية الإيرانية واجهت – منذ هجرة الأقوام الإيرانية (الآرية) إلى الهضبة الإيرانية وتشكيل الدولة الإيرانية وحتى الآن – أربع أزمات رئيسية، وهي: هجوم الإسكندر على إيران – سيطرة بني أمية على العالم الإسلامي، ومن بين دوله: إيران – هجوم أصحاب الوجوه الصفراء وهجوم المغول والتتار– هجوم المستعمرين الأوروبيين، وفرض الثقافة الغربية على إيران. ويؤكد الباحث على أن معدل الإحساس بالهُوية التاريخية لدي 60% من الأفراد الذين أجريت عليهم الدراسات التجريبية والإحصائية ضعيف جداً، وأن الشباب واليافعين ينظرون إلى درس التاريخ على

أنه درس خشن وجاف ومتعلق بالماضي، وليس له فائدة اليوم، وغير قابل للفهم، وأن 45% من الشباب ينظرون إلى تاريخ إيران المعاصر نظرة سلبية، ويَعدون هذه الفترة فترة مقترنة بالهزائم والتعاسة والفشل.

أما إشكاليات البعد الجغرافي، فقد أثبتت البحوث التجريبية أن معدل حب الأقوام الإيرانية لإيران فوق المتوسط، وأن أصحاب هذه الشريحة من المواطنين يرددون عبارة: ولدنا في إيران، ونود أن نعيش فيها حتى نهاية عمرنا. لكن الإشكالية تكمن في أن معدل الرغبة في الهجرة زائد عن الحد، حيث يردد أصحاب هذه الشريحة من المواطنين عبارة: لو كان الأمر بأيدينا، لهاجرنا من إيران، لكن – في الوقت نفسه – يعارض 33% فقط من التلاميذ مسألة اللجوء إلى الخارج، وهذه المعطيات تسبب قلقاً شديداً.

وتشير الدراسة التي أعدها الباحث إلى إشكاليات البعد السياسي للهُويَّة الوطنية الإيرانية، ويقول: إن أحد البحوث التجريبية الوطنية أشارت إلى أن متوسط سخط أفراد المجتمع على أسلوب عمل الهيئات السياسية أعلى من المتوسط، وإلى أنه بصرف النظر عن بعض السخط بسبب الأوضاع الاقتصادية، فإن رأى المواطنين في الثورة الإسلامية إيجابي، وأن أكثر من 50% من المواطنين نظرتهم

إلى ماهية الثورة ومكاسبها إيجابية، وإلى أنه بصرف النظر عن الفروق الموجودة في نموذج المشروعية الدينية، فإن معطيات الدراسة أثبتت أن مُعدل مقبولية المشروعية الدينية لدى الطبقة المتوسطة في مدينة طهران متوسط. أما عن إشكالية البعد الديني للهُويَّة الوطنية، فتؤكد الدراسة على أن الدين الإسلامي والمذهب الشيعي يعدان العنصر البارز في الهُوية الوطنية الإيرانية، وأن مُعدل الميول الدينية – طبقاً للبحوث التجريبية – 90%، وأن 80% من المواطنين يؤمنون بأهمية تنفيذ القوانين الدينية، وأن حوالي 66% من المواطنين يعدون إسلامهم مقدماً على إيرانيتهم، وأن 82% من التلاميذ يميلون إلى الصلاة بوصفها أحد أركان الدين الإسلامي المهمة، وأن 55% من المواطنين يلتزمون التزاماً كاملاً بالصلاة، أما بالنسبة للإشكاليات المتعلقة بالبُعد الثقافي، فقد أثبتت الدراسات التجريبية ارتفاع مُعدل الإحساس بالكبرياء الوطني وسط المواطنين وأن 81% يحترمون الكبار كتقليد إيراني إسلامي. كما أثبتت الدراسة ارتفاع مستوى الالتزام بالاحتفالات الوطنية والمحلية مثل: عيد النوروز – عيد سيزده بدر – مراسم الزواج وعيد چهارشنبه سوری. وعن آخر الإشكاليات، وهي إشكالية البُعد اللغوي، فطبقاً للبحوث العلمية التي أجريت، فإن أكثر من 56% من الإيرانيين

يبدون حباً زائداً للغة الفارسية، وأكثر من 33% يحبون اللغة الفارسية إلى حد ما، و4.5% يحبون الفارسية بنسبة أقل.

ويختتم الباحث دراسته قائلاً: اتضح من الدراسة أن الهُوية الوطنية الإيرانية تواجه تحديات وإشكاليات وصعوبات في الوقت الراهن، لكن هذا الذي تواجهه ليس بالقوة والحدة التي تجعلها معرضة للاضمحلال والتفكك، وذلك لأن هذه التحديات وهذه الإشكاليات توجد بشكل غير متساوٍ في أبعاد الهُوية الوطنية، وفي المناطق الحدودية والضواحي، وفي الأقوام المختلفة. وهذا لا يعني وجود أزمة في هذا المجال، وذلك لأن المعطيات التجريبية لم تثبت هذا، ولأن علل وأسباب ظهور هذه الإشكاليات تختلف من بُعد إلى آخر. ويرى الباحث أنه يمكن افتراض متغيرات أساسية في دراسة إشكاليات أو أزمات الهُوية الوطنية الإيرانية، وهذه المتغيرات هي: عدم وجود سياسة محددة للهُويَّة من جانب المسئولين عن النظام الاجتماعي – ضعف الأنظمة والتشكيلات القائمة.

وتوجد في إيران دراسات عديدة تتناول التحديات والإشكاليات، وتتحدث عن الحلول، وتحذر من الوقوع في بعض الأخطاء. وأهم هذه التحديات وهذه الإشكاليات: الغزو الثقافي الذي يستتر في غالب أمره تحت بريق التقدم المادي بمظاهره المختلفة ومباهجه

الفاتنة التي تتمثل في وسائل الاتصال الحديثة كالفضائيات ومواقع شبكات الاتصال الدولية والتواصل الاجتماعي، وما يصدر من مطبوعات وصحف تحمل ذات الفكر، وتأخذ على عاتقها أداء الرسالة نفسها. ويحذر البعض من غزو الأذهان الذي يسمي: الهجمة أو الهيمنة الحضارية والذي يسهم في إحلال ثقافة الغير وفكره محل الإسلام وحضارته. ويتحدث البعض عن خطورة هذا الوافد من الخارج الغازي للعقول والمجتمعات. ويشير البعض إلى بزوغ ظاهرة الكوكبية (نسبة إلى كوكب الأرض) مع بداية التسعينيات من القرن الماضي، وهي الظاهرة التي تعني موت المسافة زمانياً ومكانياً وسقوط الحدود الجغرافية بسبب الإنترنت. فظهور ظاهرة مثل ظاهرة الإنترنت المشوبة بالفردية، يُمكن أن يؤدي إلى المزيد من التفكك والتشظي وبخاصة في الدول النامية. وتشير بعض الدراسات أيضاً إلى أن الوضع الديمغرافي الإيراني معقد، فمركزه فارسي شيعي، وأطرافه متعددة العرقيات والمذاهب، وامتداد هذه العرقيات القومية إلى خارج الحدود الإيرانية وارتباطها مع أقرانها في دول الجوار بعلاقات عائلية وعقائدية تشكل في غالبها تهديداً لوحدة المجتمع الإيراني، وبصفة خاصة "البلوش" الذين يتصلون بأفغانستان وباكستان، ويقيمون في إقليم سيستان وبلوشستان جنوب شرق إيران. هذا فضلا عن مسالة: اتحاد أكراد

تركيا والعراق وإيران، ومحاولة تشكيل دولة واحدة مستقلة. وتؤكد هذه الدراسات على أن التهديدات الخارجية أكثر خطورة على الهُوية الوطنية الإيرانية، فالرسائل التي تُرسل عن طريق مصادر المعلومات وأجهزة الإعلام داخل إيران تؤثر – بالقطع – بالسلب على الهُوية الإيرانية، فهذه الرسائل والضغوط الموجودة خلف الحدود لها تأثيرها السريع، فالأجهزة الإلكترونية لديها قدرة فائقة على نقل الخبر والصورة على مستوى واسع وبسرعة، ومن هنا يأتي مصدر خطورتها، ويتضح تأثيرها السلبي ودورها المخرب في عصر انفجار المعلومات والثورة المعلوماتية. ويرى البعض أن المشكلة التي مازالت تمسك بتلابيب الهُوية الإيرانية حتى الآن هي أن إحدى قدمي إيران في القديم والقدم الأخرى في الحديث، وأن هذه المشكلة معقدة لدرجة أنها تقض مضجع واضعي سياسات الفكر والعلم والثقافة في إيران.

وتطرح الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع الإيرانيون تحذيرات وحلولاً. ويحذر البعض من إنكار حقوق القوميات، ومن تعزيز الهُوية الفارسية على حساب الهُوية الإسلامية، ومن إهمال بُعد من أبعاد الهُوية أو إهمال عنصر من عناصرها، ومن عدم توافر العدالة الاجتماعية، ومن وجود تعارض بين القديم والجديد، ومن سيطرة

الثقافات الغالبة على الثقافات الضعيفة، ومن التأثير السلبي لثورة الاتصالات والعولمة والحداثة وما بعد الحداثة على الهُوية الوطنية، ومن المخاطر التي من الممكن أن تتعرض لها الدول المتعددة القوميات، ويقول إن أكثر دولة كانت متعددة القوميات وهي الاتحاد السوفيتي (السابق) أصيبت بالتفكك. ويقدم البعض حلولاً مثل: تقوية وتعزيز العلاقات مع الإيرانيين المقيمين في الخارج عن طريق الإنترنت، والعمل على عدم تحول عوامل الضعف إلى أزمات من شأنها تفجير الوضع الداخلي، والاستفادة المثلى من الظواهر الافتراضية في التحديث، خاصة أن الهُوية الحداثية انفتاحية وتتطور من داخلها، ومن تفاعلها مع تغيرات المجتمع وتحولاته. فالاستفادة الصحيحة من هذه الإمكانيات سوف تساعد على تجنب أضرارها ومخاطرها، وهذا يرجع إلى السياسات الثقافية وكيفية تطبيقها في ظل كوكب تربطه شبكة معلومات لا سقف لها؛ من أجل تحقيق الأهداف المرجوة.

ويلخص دواد مير محمدي الحلول، فيقول: "ومن أجل الحفاظ على الهُوية الوطنية من الأضرار والأزمات والتحديات التي تواجهها، ومن أجل تقوية الشخصية الوطنية، يجب تطبيق سياسات، ووضع خطط تؤدي هذه المهام. ويجب الاهتمام بالمجال الثقافي -

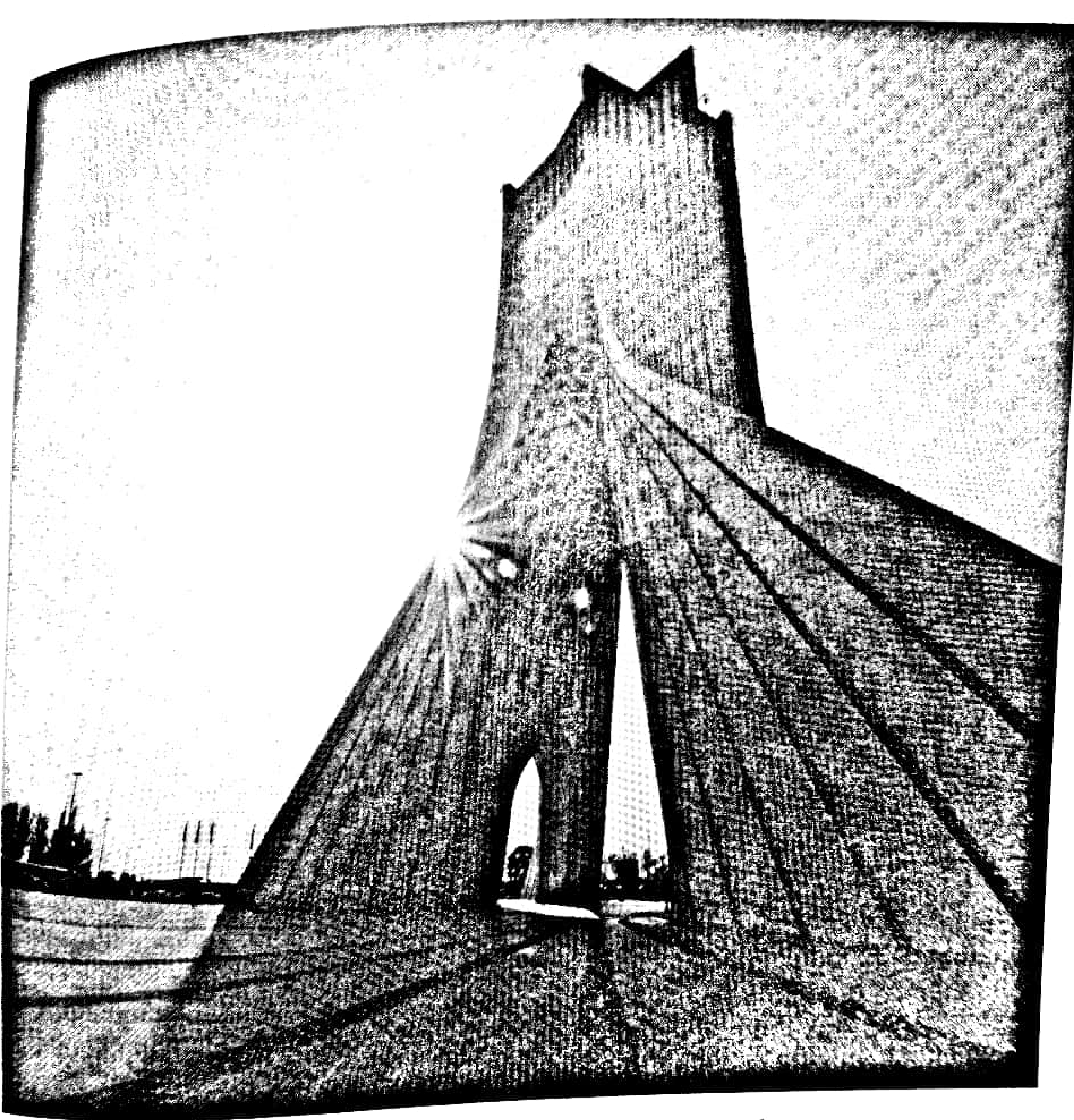
الاجتماعي وبالسوابق التاريخية والأوضاع القائمة في إيران، واتخاذ سياسة الوحدة في الكثرة، خاصة وأن المجتمع الإيراني مجتمع متعدد الأقوام، وهُويّته الوطنية متجذرة ومجدولة في الهُويّات القومية، لذا يجب أن نُعيد بناء هُويَّتنا الوطنية بالمحافظة على الهُويّات القومية في إيران، بحيث تكون الهُوية الوطنية كالخيمة أو المظلة الكبيرة التي تغطي وتحمي سائر الهُويّات القومية والصغيرة، فالتعددية إثراء وقوة للمجتمع. وفي مجال العلاقات الاجتماعية، يجب أن يَحل نهج "الولاء الوطني" محل "الولاء القومي"، ويجب أن يحل "العام" محل "الخاص" و"الجماعية" محل "الفردية"، وتغليب المصالح الوطنية على المصالح القومية، فقيم المواطنة تعلو على الانتماءات الطائفية والمذهبية والقبلية والعرقية، كما أن الدولة مكلفة بتطبيق العدالة الاجتماعية في المجتمع، وتطبيق روح القانون العام واحترامه، وتعميم التعليم من أجل الارتقاء بالوعى العام والوطني، والقضاء على الفقر والحرمان، وتوفير المجالات اللازمة لمشاركة جميع القوميات والجماعات في إدارة المجتمع. وتنفيذ هذه السياسات واتخاذ هذه الإجراءات سوف يدعم ويقوى التعلقات والالتزامات الوطنية وفوق القومية وفوق الجماعية في المجتمع، وسيجعل جميع القوميات والجماعات مكلفة بالتحرك في إطار التكتل الوطني والقيم العامة،

وبهذا الأسلوب سوف يزداد ترابط الأفراد والتزامهم بالتكتل المجتمعي والهُوية والثقافة "الوطنية ."

وفي النهاية تؤكد بعض الدراسات الخاصة بالهُوية الوطنية في الدول المتعددة القوميات والأعراق، على أن أكثر المجتمعات نجاحاً وتوفيقاً هي المجتمعات التي توصلت إلى بلورة هُويَّة وطنية واحدة جامعة، وفى الوقت نفسه تعترف بالفروق والخصائص الثقافية بين الأقوام والطوائف المختلفة، وذلك لكي تتمكن هذه المجتمعات من تحقيق التوازن المنشود. وتُعد إيران من بين هذه المجتمعات، وذلك لأنه بسبب تنوع البيئة الجغرافية فيها، ظهرت أساليب حياة متنوعة ومختلفة سواء في المدن أو القرى أو في الأماكن التي تقيم فيها القبائل والعشائر، وأن مصادر الفكر في إيران ثلاثة هي: المصدر الديني - المصدر الوطني - المصدر الغربي، وأن العولمة كان لها تأثيرها على الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، كما أن لها تأثيرها في تشكيل الهُويّات الجماعية. وإذا لم يتم التوصل إلى وجه مشترك أو محددات مشتركة لأنواع الهُويّات، ستحدث في هذه الحالة، مشكلة هُويَّة.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

تاريخ الجمهورية في إيران



برج أزدي، طهران، إيران. تصوير أليريزا هيدا ريفارد.

Https: //Unsplash.com

تاريخ الجمهورية في إيران

الدارس لتاريخ الجمهورية في إيران يلاحظ أنه مر بأربع مراحل، فشلت ثلاث منها، واستعادت الحكومة المركزية في طهران سيطرتها على الموقف، ونجحت واحدة وهي المرحلة الأخيرة. ويبدأ هذا التاريخ بمحاولات إقامة نظام جمهوري في إيران مع المحافظة على وحدة أراضيها، ويمر بمرحلة الحركات الانفصالية ومحاولات إقامة حكم ذاتي، ثم مرحلة تحقيق أهداف شخصية أو الصراع بين الجمهورية والملكية، وينتهي بمرحلة جمهرة إيران أي التحول من النظام الملكي إلى النظام الجمهورية.

أما المرحلة الأولى، فخير من يمثلها هو: ميرز اكوتشك خان (1921/1880م) في جيلان وهو مناضل وطني وثائر معروف ومجاهد مخلص وزعيم إسلامي مستنير قاد حركة فدائيين "مشهد" ضد الاستعمال والاستبداد الداخلي وكانت حركته وطنية قومية دينية محلية.

والمرحلة الثانية، هي مرحلة الحركات الانفصالية والمطالبة بالحكم الذاتي، حيث راح الروس والبريطانيون . كل في منطقة نفوذه . يشجعون الاتجاهات الانفصالية والسياسية المناهضة للحكومة

المركزية في طهران، وذلك في أذربيجان وجيلان وكردستان ومازندران وخراسان وطبرستان وخوزستان.

المرحلة الثالثة، هي مرحلة ما يسمى بالرغبة في تحقيق أهداف شخصية أو الصراع بين الجمهورية والملكية في إيران، وهي المرحلة التي يمثلها "رضا خان" (1941/1925م).

وتبدأ صلة رضا خان بالجمهورية أثناء المرحلة الأخيرة من طموحاته، وهي: الجلوس على عرش إيران، وأراد التمهيد وتهيئة الرأي العام لذلك، فتبنى فكرة إقامة نظام جمهوري في إيران على غرار ما حدث في تركيا، من منطلق الاتخاذ من أتاتورك واتجاهاته الأوروبية مثلاً يحتذى. يقول محمد رضا بهلوي (1979/1942م) في مذكراته التي كتبها في المنفى في سبتمبر عام 1979م: كان والدي "رضا خان" يحترم مصطفى كمال أتاتورك ويقدره، وربما كان هذا الاحترام وهذا المدح سبباً في التفكير في إقامة النظام الجمهورية في إيران. لكن البعض يرى أن "رضا خان" تبنى فكرة إقامة نظام جمهورية في إيران، لكي يتمكن من إزاحة الدولة القاجارية (1925/1794م) التي كانت تحكم إيران آنذاك، وذلك تقليداً لأتاتورك الذي أقام حكماً جمهورياً، وقضى على الحكم العثماني في تركيا. وقيل إن "رضا خان" التقى في تركيا بكمال أتاتورك الذي نصحه بأن يحذو حذوه في

إقامة نظام جمهوري في البلاد، وأن يسقط الملكية من اعتباره، إذا كان يريد تحقيق التقدم لبلاده وإلحاقه بركب الدول الحديثة.

يقول "حسين مكي" مؤلف كتاب "تاريخ بين سالة إيران" في الجزء الثاني الخاص بمقدمات تغيير السلطنة: "إن القضايا المتعلقة بحركة الجمهورية كانت امتحاناً تجريبيّاً أراد الجهاز الدعائي والإعلامي الخاص بسياسة النفوذ غير المرئي أن يعرف عن طريقه: هل المجال مهيأ لتغيير السلطنة (الملكية) أم لا؟ وأي دور سوف يلعبه الجار الشمالي (الاتحاد السوفيتي) في مقابل تغيير النظام؟". ويقول موريس برنو ـ السائح الفرنسي ـ في كتابه "تحت سماء إيران" الذي ترجم إلى اللغة الفارسية: "في بداية الأمر، أعدوا له خطة الإطاحة بالسلطنة وإعلان الجمهورية. أي أن الحزب الذي كان عملاء إحدى الدول الأجنبية الكبرى يساندونه سرّاً كان يدفعه إلى الأمام."

وبدأ رضا خان في تنفيذ خطته، وبدأت بعض الصحف تنتقد الملك القاجاري أحمد شاه (1909/1925م)، وقامت الصحف الموالية لرضا خان في طهران وعلى رأسها صحيفة: الشفق الأحمر بطرح فكرة الجمهورية كضرورة عصرية، وشنت حملة واسعة النطاق دعت فيها إلى تغيير نظام الحكم في إيران، وإعلان الجمهورية برئاسة رضا خان، وذلك في الفترة التي سبقت موعد انعقاد المجلس النيابي. وأمر

رضا خان بالتعجيل بإجراء انتخابات مجلس النواب، لكي يتم انعقادا لدورة الخامسة للنظر في مسألة نظام الحكم: إما النظام الجمهوري أو النظام الملكي. وانقسمت إيران إلى معسكرين: معسكر مؤيد ومعسكر معارض. أما المعسكر المؤيد، فتتزعمه كتلة التجدد برئاسة "سيد محمد تدين"، وأقام هذه الكتلة حوالي أربعين عضواً من أعضاء مجلس النواب وعددهم (75 عضواً) بالإضافة إلى أنصارهم، كتلة الاشتراكيين بزعامة سليمان ميرزا، وميرزا محمد صادق طباطبائي، ومعهما حوالي (15 عضواً) أنصارهم، هذا بالإضافة إلى بعض الرؤساء ومدراء العموم في الوزارات، والشاعر الموسيقى المعروف عارف القزويني (1300 – 1352هـ) عدد من الجماهير.

وكانت وسائل فرض الجمهورية والنظام الجمهوري هي: الأوامر المباشرة . تقديم الرشوة . الضرب والسب والاعتقال. وأخذ كل معسكر يستعد للمعركة التي ستدور رحاها يوم 1925/3/21م في مجلس النواب، وعقد المجلس سبع جلسات في حوالي أربعين يوماً دار خلالها صراع شديد بين مؤيدي النظام الجمهوري وبين معارضيه، أي بين كتلة الأغلبية (التجدد والاشتراكيون) وبين كتلة الأقلية، (سيد حسن مدرس ورفاقه من علماء الدين). وكانت

المظاهرات التي كانت تقام خلال انعقاد الجلسات السبع لصالح الجمهورية وضدها على أشدها وبعد الجلسة الخامسة التي اشتد فيها النزاع واحتدمت المناقشات ولم تستكمل، قام الدكتور حسين بهرامي (إحياء السلطنة) بإيعاز من سيد محمد تدين زعيم كتلة التجدد بتوجيه صفعة قوية إلى أذن سيد محمد مدرس، وكان لهذه الصفعة مدى كبير عندما انتشر خبرها على مستوى طهران، فقد أثارت غضب الجماهير، وكانت سبباً في سخطهم وكراهيتهم للجمهورية، مما كان سبباً في فشل حركة الجمهورية، هذا إلى جانب تأثير ضرب وإهانة الشيخ محمد خالص زاده الذي كان يعارض النظام الجمهوري، وكان يلقي الخطب المناوئة للجمهورية ولسيد محمد تدين نائب رئيس مجلس النواب، والتي كانت تدعو المواطنين إلى رفض النظام الجمهوري وإبلاغ المجلس النيابي بهذا الرفض.

وعندما أدت فكرة قيام الجمهورية في البلاد إلى حالة الثورة وحدوث سلسلة من الاحتجاجات بقيادة علماء الدين، توجه رضا خان إلى مدينة قم واجتمع بعلماء الدين، وناقض معهم الموقف السياسي وأحوال البلاد، واستمع إلى آرائهم في هذا الصدد، ثم عاد وأصدر بياناً نصح فيه الرأي العام بالعدول عن المناقشات والأخذ والرد في مسألة الجمهورية، وأن يبذلوا - في المقابل كل

جهدهم من أجل رفع موانع إصلاح ورقي البلاد، كما نصحهم بأن يوحدوا المساعي معه. ولما وجد رضا خان أن بيانه لم يأت بالتأثير المطلوب، وأن بعض أعضاء مجلس النواب أساءوا الظن به، وأنه من الممكن أن يقوم أحمد شاه القاجاري بعزله من منصب رئيس الوزراء، استقال من منصبه، وغادر طهران متوجهاً إلى قرية رودهن في مناورة سياسية محسوبة. وشنت الصحف الموالية لرضا خان حملات شديدة على المناوئين للجمهورية والمعارضين لرضا خان، وعلى الأسرة القاجارية الحاكمة، وأخذت هذه الصحف وعلى رأسها صحيفة الشفق الأحمر تؤكد على أهمية وجود رضا خان، لتوفير الأمن والأمان ورواج التجارة، والحيلولة دون انتشار الفحشاء والمنكر، كما أخذت تحذر من ذهاب رضا خان، ومن تسلط الأجانب، ومن الاضطرابات الداخلية، ومن محو خريطة الإصلاحات، وأخذت تمتدح رضا خان وشهامته ورجولته وتصفه بأنه الحريص على مصالح إيران، وأخذت تطالب برجوعه من "رودهن" لأنه روح الأمة وضميرها الحي، وذكرت أن أي شخص يعتقد خلاف ذلك فهو خائن للوطن، ولكل من ينكر العواقب الوخيمة لاستقالة رضا خان، فهو يرغب في إثارة القلاقل وتأجيج نار الفتنة والفساد، وهو معارض للإصلاحات ولعظمة إيران وعزتها، ومؤيد لفقدان الاستقلال ولتجزئة الولايات كما نشرت

هذه الجرائد أخباراً غير صحيحة أقلقت الرأي العام. وكان مخططاً أن تندلع المظاهرات، ويختل من الأمن في البلاد وفي المجلس النيابي، ويتسع نطاق القتل والسلب والنهب بمجرد استقالة رضا خان، كما وصلت إلى المجلس النيابي برقيات مزودة من أمراء الجيش من معظم الولايات تم فيها تهديد المجلس والأمن في البلاد.

وأجبرت كل هذه المناورات السياسية والبرقيات التي تحمل تهديداً للمجلس وللأمن في البلاد المجلس على الموافقة على رئاسة رضا خان للوزارة بعد عقد جلسة خاصة تعمدوا ألا يحضرها "مدرس"، ورفض رضا خان منصب رئاسة الوزراء في البداية، لكنه وافق بعد إلحاح وإصرار من جانب أنصاره، وعاد إلى طهران، وشكل الوزارة، وانتهت أزمة الجمهورية وانتهى حديثها. لكن هذه الأزمة زلزلت قواعد عرش أحمد شاه وأضعفته، وتم خلعه من السلطنة بشكل غير قانوني بعد هذه الواقعة بوقت قصير في عام 1344 هـ.ق.

موقف علماء الدين من جمهورية رضا خان:

السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا رفض علماء الدين جمهورية رضا خان وبادروا بإعلان الجمهورية بعد نجاح الثورة الإسلامية في 1979/2/11؟

الإجابة على الشق الأول من السؤال ليست واحدة، فالبعض يقول إن علماء الدين خافوا على نفوذهم، بعد أن ضاعت هيبة المؤسسة الدينية في تركيا الحديثة نتيجة لإلغاء السلطنة (الملكية) وإعلان الجمهورية، واتخاذ العلمانية أيديولوجية سياسية لحكمها. والبعض الآخر يقول إن الجمعية الوطنية الكبرى في تركيا قد أصدرت قراراً في اجتماعها الذي عقد في أنقره في الثالث من مارس 1924م أعلنت فيه إلغاء الخلافة، وفصل الدين عن الدولة، والقضاء على هيمنة المشايخ وعلماء الدين على القضاء والتعليم. وقد ألم علماء الدين الشيعة في إيران بتلك التصرفات، وأحيطوا بها علماً، لذا كان قيام التحقيق، إن لم يكن مستحيلاً، إذ أن تقاليد الشيعة في إيران ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ إيران القديم والحديث: مما يؤدي التفكير في إلغائها أو سلب السلطة من مشايخها إلى عواقب لا تحمد عقباها.

يقول "محمد رضا بهلوي" في مذكراته التي كتبها في منفاه: "عارض علماء الشيعة الكبار ومعظم الوزراء والمستشارين لوالدي رضا خان فكرة إقامة الجمهورية في إيران، وقالوا إن النظام الملكي في إيران هو العامل الرئيسي في الوحدة الوطنية، وفي تضامن الأقوام المختلفة

التي تعتنق أديان مختلفة، وتتحدث لغات مختلفة، وإن الإمبراطور هو الوحيد الذي يستطيع تحقيق وحدة هذه الأقوام."

وقد قاد "مدرس" ورفاقه في المجلس النيابي الحملة المناوئة لمسألة فرض النظام الجمهوري على إيران من جانب رضا خان وأعوانه، وعندما سئل مدرس عن سبب مخالفته للنظام الجمهوري قال: "أنا لست مخالفاً للجمهورية الحقيقية، فحكومة صدر الإسلام كانت ـ تقريباً بل تحقيقاً ـ حكومة جمهورية، لكن هذه الجمهورية التي يريدون فرضها علينا، ليست مبنية على إرادة الشعب الإيراني، بل الإنجليز هم الذين يريدون فرضها على الشعب الإيراني، كما أنهم يريدون إقامة نظام حكومي في إيران يكون عميلاً لهم يأتمر بأمرهم. وأهم من هذا كله أنهم يريدون الانتقام من أحمد شاه (1909/1925) بسبب مخالفته لاتفاقية (أغسطس 1919) ولرغبات الإنجليز. وإذا كان المرشح لرئاسة الجمهورية من الأحرار والوطنيين لكنت قد اتفقت معه وساندته بكل ما أملك من قوة.

ووصل الأمر في المجلس النيابي إلى صفع "سيد حسن مدرسي" زعيم الأقلية في المجلس، وكان لهذه الصفعة ـ كما ذكرنا ـ أثر سلبي على بعض أعضاء المجلس. فتركوا حزب الأغلبية وانضموا إلى حزب الأقلية أو المستقلين، كما جعلت بهار ـ ملك الشعراء ـ يستقل من

المجلس كتابة، لكن رئيس المجلس رفض استقالته. ويعتبر البعض هذه الصفعة سبباً في إلحاق هزيمة سياسية بالأغلبية وأنصار الجمهورية (كتلة التجدد والاشتراكيين) هذا إلى جانب الدور الذي لعبه الشيخ "محمد خالص زاده" ورفاقه ومنهم الشيخ حسين لنكراني في الوعظ والخطابة ضد الجمهورية أمام الجماهير ورجال السوق. وقد تعرض الشيخ "محمد خالص زاده" للضرب والإهانة أيضاً عندما توجه إلى المجلس النيابي لإجراء مباحثات مع بعض النواب في حجرة رئيس المجلس حول معارضة الجماهير للجمهورية، وقيل إن تدين النائب الأول لرئيس المجلس شارك في ضربه وإهانته. ومن المعروف أن الشيخ "محمد خالص زاده" هو عدو الإنجليز اللدود، وإذا كان سيد محمد مدرس يؤكد على أن الإنجليز هم الذين يريدون فرض الجمهورية على الشعب الإيراني، فإن حسين مكي صاحب كتاب "تاريخ بيست سالردر إيران" يقول في الجزء الثاني من كتابه: "قيل إن السفارة الإنجليزية في إيران كانت عبارة عن فريقين: فريق يؤيد الانقلاب وفريق كان معارضاً للجمهورية."

والملاحظ أنه عندما طالب رضا خان المواطنين في بيانه بصرف النظر عن موضوع الجمهورية، أكد في البيان نفسه على أن العمل على رفعة الإسلام ورقيه من أكبر مهامه واهتماماته، وعلى أنه

يحافظ على احترام علماء الدين، وعلى أنه تشاور معهم في "قم"، وكانت نتيجة هذا التشاور صرف النظر عن موضوع الجمهورية، والتعاون معه من أجل تدعيم أساس الدين الإسلامي واستقلال إيران والحكومة الوطنية.

أما الإجابة على الشق الثاني من السؤال وهو: لماذا بادر علماء الدين بإعلان الجمهورية بعد نجاح الثورة الإسلامية في 11/2/1979م؟ هي أن الأمر يختلف هذه المرة، فعلماء الدين هم أصحاب الثورة، وجاء نجاح الثورة الإسلامية نتيجة لتكاتف وتلاحم عناصر المؤسسة الدينية بكل درجاتها مع زعامة الثورة في جميع أرجاء إيران، وكان لهذا التلاحم أثره الإيجابي في القضاء على الحكم الإمبراطوري والأسرة البهلوية، وإدارة دفة الحكم في البلاد في مطلع عام 1979م.

كما نجحت الثورة الإيرانية بفضل المشاركة الشعبية الضخمة من طوائف عديدة داخل إيران، وبسبب التضحيات التي قدمها المعارضون لسياسات الشاه (محمد رضا بهلوي) في سبيل تحقيق هدفهم. وكان عام 1978م قد شاهد تمهيداً عنيفاً للثورة، حيث تفاقم التوتر وتزايد التذمر وتفجرت الاضطرابات على أوسع نطاق، واندلعت المظاهرات واجتاحت الإضرابات جميع القطاعات

الحيوية في البلاد وعلى رأسها قطاع البترول وقطاع الصناعة وقطاع البنوك والبازار.

كما لعب الإمام الخميني دوراً بارزاً في نجاح الثورة عندما دعا إلى إنهاء عصر الانتظار السلبي، وإلى الانتقال إلى عصر الانتظار الإيجابي الذي يتطلب إقامة حكومة إسلامية في ظل ولاية الفقيه، وعندما دعا إلى تحريم التقية، وأصدر بياناً قال فيه: إن التقية حرام، وإن إظهار الحقائق واجب مهما كانت النتيجة، وأن التقية تتعلق بالفروع، لكن حينما تكون كرامة الإسلام وأصول الدين في خطر، فلا مجال للتقية والمداراة.

ولا نستطيع أن ننكر دور البازار (السوق) . وكان له دائماً دوره الفاعل في الحياة السياسية في إيران . المؤيد والداعم للمؤسسة الدينية، والذي كان أحد أسباب تقوية معسكر الثورة، وزلزلة النظام الملكي ونجاح الثورة. وكذلك دور المخابرات المركزية الأمريكية ودور المخابرات البريطانية الضالع في قلب نظام حكم الشاه، وهو الدور الذي بدأ منذ إلغاء "اتفاق الكونسرتيوم" الخاص بالبترول، ودور الإذاعة البريطانية الموجهة باللغة الفارسية في توصيل صوت الخميني إلى الشعب، وتوصيل محاضراته وتوجيهاته لعلماء الدين خاصة وللشعب الإيراني عامة، ودور فرنسا وتسليطها الضوء على

الخميني في الصحافة والتليفزيون الفرنسي في فترة وجوده في فرنسا، وكان سفر الخميني إلى فرنسا قد مكنه من أن يستفيد من المناخ العام ووسائل الإعلام المختلفة في إدارة دفة الثورة.

هذا بالإضافة إلى دور الولايات المتحدة في تأليب الطلبة الإيرانيين في أوروبا والولايات المتحدة ضد الشاه، وإلى غضب الجماهير الإيرانية على أفراد الأسرة الحاكمة وعلى مفاسد النظام الحاكم، وإلى أن الشاه أصبح في نظر الولايات المتحدة وبريطانيا ورقة قد استهلكت وأدت الغرض منها لصالح الغرب، وإلى الدور الذي لعبه الجنرال هويزر (نائب القائد العام لقوات حلف الأطلنطي في أوروبا آنذاك) والذي انحصر في تحييد الجيش الإيراني عند اندلاع الثورة الإسلامية، وإقناع جنرالات الجيش بالتخلي عن شاهبور بختيار (آخر رئيس وزراء عينه الشاه) وهو الدور الذي ذكره الشاه في مذكراته التي كتبها في منفاه بعد رحيله عن إيران في 1979/1/16م.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل تاريخ الجمهورية في إيران، فينبغي التمهيد لها بالحديث عن الجمهورية في عهد الشاه محمد رضا بهلوي (1942/1979م) الذي أسقطته الثورة الإسلامية، وتم إعلان الجمهورية بعد رحيله عن إيران، فقد امتلأت الساحة

السياسية في إيران في عهده باليساريين الذين كانوا يحاولون إقامة نظام جمهوري، كما كانت في إيران منظمات فدائية عديدة كانت تعمل على الإطاحة بالنظام الحاكم، وإقامة نظام جمهوري في إيران. وكان الشاه قد صرح في حديث له نشر في عام 1964م بأن بلاده تضم شعوباً وقوميات مختلفة تخيم فكرة الانفصال على نفوسهم جميعاً، وأن هذه القوميات جمعها ووحدها التاج الإيراني، وهي لا تتحمل النظام الجمهوري قط. وكان قد تردد حديث أثناء الحركة الوطنية المتعلقة بتأميم البترول (من 1950 إلى 1953م) عن معارضة البلاط للدكتور محمد مصدق ـ رئيس الوزراء الأسبق ـ بسبب محاولته جمهرة النظام ونظراً لقلق الشاه الزائد إزاء هذا الأمر، اضطر مصدق إلى كتابة رسالة أقسم فيها أنه لم ولن يحاول تغيير النظام الملكي في إيران واستبداله بالنظام الجمهوري، وأنه إذا ما تمكن الشعب الإيراني من تغيير النظام الملكي إلى نظام جمهوري بأي شكل من الأشكال، وقام ـ هذا الشعب ـ بترشيحه لرئاسة الجمهورية، فإنه لن يقبل هذا المنصب. وقال الدكتور مصدق في مذكراته: "الجميع يعلم أنني في عصر يوم (27 تير) أصدرت أوامري بتعقب أي شخص يتحدث عن الجمهورية. وأنا لم أكن موافقاً على إقامة جمهورية ديمقراطية فحسب، بل على إقامة أي نوع من أنواع الجمهوريات، لأن تغيير النظام لا يستتبعه رقي الأمة، وكثيرة هي

الدول التي يطبق فيها النظام الجمهوري، لكن شعبها لا يتمتع بأي حريات، وكثيرة هي الدول التي يطبق فيها النظام الملكي، لكن شعبها يتمتع بحرية واستقلال كاملين."كما يقول الشاه محمد رضا بهلوي في مذكراته: "أظهرت المحاكمات التي تمت بعد سقوط حكومة مصدق أن خطة "حزب توده الشيوعي"كانت مبنية على الاستفادة من مصدق للإطاحة بي، وعلى الإطاحة به بعد أسبوعين من إزاحتي، وكان الشيوعيون يستعدون لطبع وتوزيع طوابع تحمل اسم: "جمهورية إيران الشعبية" التي كان الإعلان عنها يتم بعد الإطاحة بمصدق، ولقد شاهدت هذه الطوابع بعيني". كما قال في الفصل الثامن من هذه المذكرات: "الجمهورية الإسلامية التي أعلن عنها رسمياً في (1979/4/1) أعادت إيران ـ في الحقيقة ـ ثلاث عشر قرناً من الزمان إلى الوراء. وبعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران في 1979/2/11 بدأ الحديث عن قيام الجمهورية في إيران، وحدثت مناقشات ومجادلات حول إضافة وصف: الديمقراطية أو الإسلامية إلى الجمهورية الإيرانية. وقد حسن الخميني هذه المناقشات في حواراته مع الصحفيين الإيرانيين والأجانب وفي خطبة أمام الوفود التي كان يستقبلها، وقال: إن المتآمرين يرون إقامة جمهورية هنا لا صلة لها بالإسلام، أو جمهورية ديمقراطية لا تمت أيضاً إلى الإسلام بصلة، أو جمهورية إسلامية ديمقراطية ذات صبغة غربية. لا تصوتوا

إلا للجمهورية الإسلامية. إن الذين يصرون على إزاحة الإسلام عن الجمهورية خونة يريدون نثر بذور الخلاف بين أفراد الأمة، وأولئك الذين يريدون إضافة كلمة: الديمقراطية إلى: الجمهورية الإسلامية من المستغربين الذين لا يفهمون ماذا يقولون، وأولئك الذين يتحدثون في كتاباتهم عن الديمقراطية إما جهلة أو لا يفهمون ماذا يصنعون، وخونة. إن الجمهورية الإسلامية هي التي تحقق فيها أحكام الإسلام، وتعتمد على دستور قائم على أحكام الإسلام. لكن الاختيار للشعب، والشعب هو الذي يجب أن ينتخب الأفراد الأكفاء الذين يثق فيهم، ويترك لهم مسئولية إدارة دفة الأمور، وسوف يكون لعلماء الدين دور إشرافي وتوجيهي، وأنا لا أستطيع أن أقبل في هذه التنظيمات أية مسئولية خاصة، لكن في نفس الوقت، سأكون دائماً بجوار أفراد الشعب مراقباً للأوضاع وأؤدي وظيفة إرشادية.

وكان الإمام الخميني قد كلف المهندس مهدي بازرجان في 1979/2/5 بتشكيل حكومة مؤقتة وكان برنامج هذه الحكومة هو: إجراء استفتاء حول تغيير النظام إلى نظام جمهوري إسلامي، وعقد مجلس المؤسسين لإقرار دستور النظام الجديد، وإجراء انتخابات مجلس الشورى الإسلامي الجديد. وصوت أفراد الشعب الإيراني

لصالح الجمهورية الإسلامية في استفتاء شعبي حاز فيه النظام الوليد 98.2٪ من الأصوات في يومي 30، 31 من شهر مارس 1979م، وتم إعلان الجمهورية في 1979/4/1م. وتم وضع الدستور، وصوت المواطنون عليه مرتين.

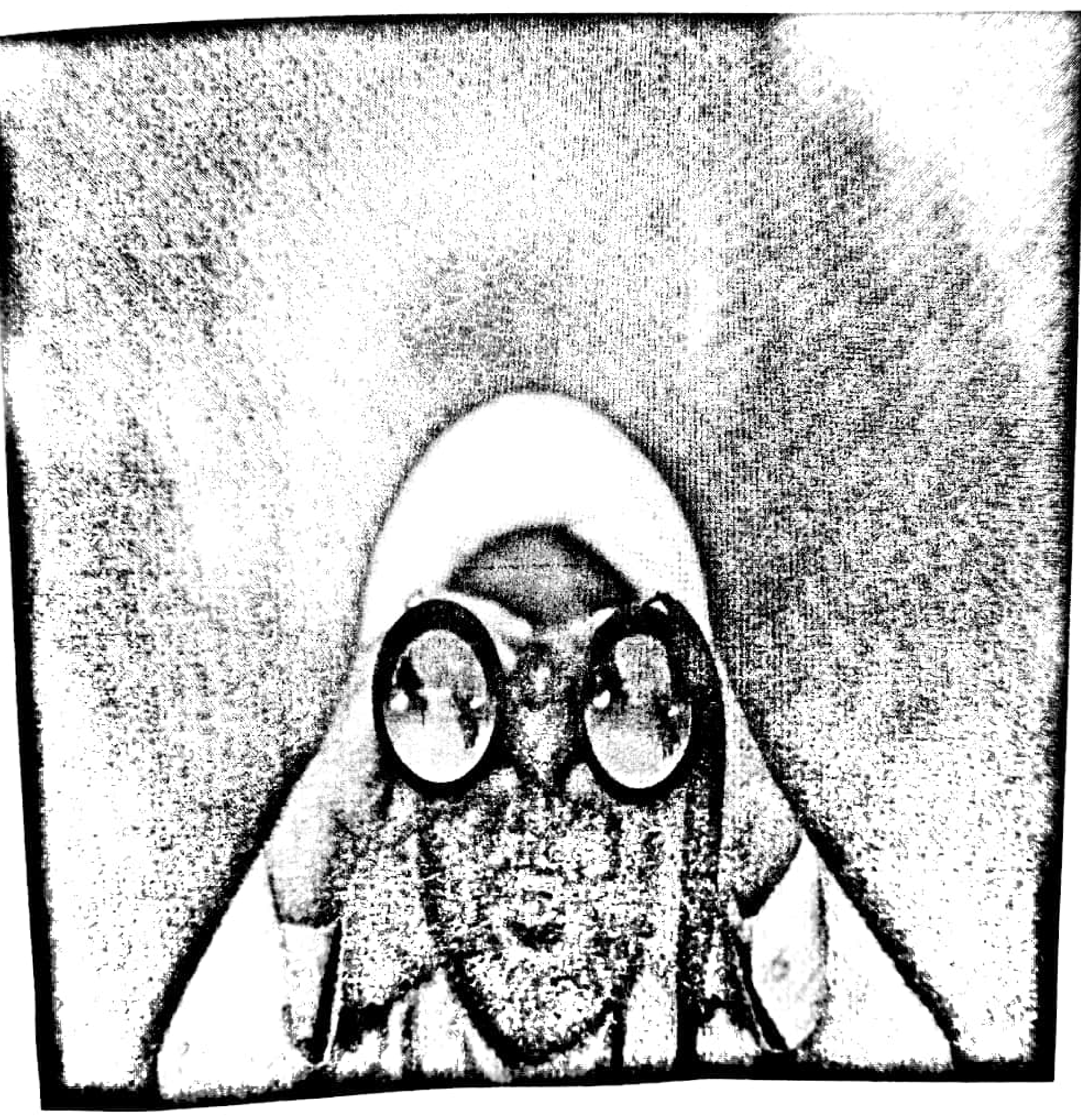
وتوجد في الدستور (الذي أقر في يومي 3.2 من شهر ديسمبر 1979م وتعديل بعض بنوده ومواده في 28 يوليو 1989م) مبادئ وأسس الحكومة في الجمهورية الإسلامية، كما أن الدستور يحدد أسلوب إدارة البلاد، ووظيفة كل هيئة ومؤسسة حكومية، والقوانين المنظمة للعمل في هذه المؤسسات. كما تنص مادته الأولى على أن نظام إيران هو الجمهورية الإسلامية، وتوضح المادة الثانية منه خصائص هذا النظام. ولا يتنافى نظام الجمهورية الإسلامية مع نظرية الولي الفقيه الذي يمارس دوره بصفته منظراً ومشرفاً ومراقباً للتجربة الإسلامية. وتنص المادة الخامسة على الشروط التي يجب أن تتوافر في ولي الأمر. وطبقاً لمواد الدستور، فإن أعلى منصب هو منصب القائد أو الزعيم أو المرشد الأعلى الذي يشرف على السلطات الثلاث: التشريعية والتنفيذية والقضائية، وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة، وهو الذي يعين رؤساء السلطة القضائية. ويلي المرشد الأعلى منصب رئيس الجمهورية، ورئيس الجمهورية

وهو رئيس السلطة التنفيذية، والرابط بين السلطات الثلاث. والسلطة التنفيذية هي السلطة التي تنفذ قوانين البلاد، وهي عبارة عن: رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء (ألغي منصب رئيس الوزراء في الدستور المعدل الجديد الذي تمت الموافقة عليه في 28 يوليو 1989م) ومجلس الوزراء. والسلطة التشريعية هي التي تتولى تنظيم وتصويب القوانين التي يجب أن يصادق عليها أعضاء البرلمان، ثم يتم إرسالها إلى مجلس صيانة الدستور (مكون من ستة من الفقهاء العدول وستة من الحقوقيين المسلمين) لبحثها ودراستها للتأكد من مطابقتها لأحكام الإسلام والدستور. كما يراقب المرشد العام جميع أنشطة مجلس الشورى الإسلامي (البرلمان) والحكومة والقضاء.

وانتخب أبو الحسن بني صدر رئيساً للجمهورية الأولى في إيران في يناير عام 1980م، وعزله الخميني في يونيو 1981م، وتعاقب رؤساء الجمهوريات حتى الدورة التاسعة من دورات رئاسة الجمهورية، وهي التي نجح فيها الدكتور محمود أحمدي نجاد الرئيس الحالي لجمهورية إيران الإسلامية.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

المؤسسة الدينية في إيران



بستان علوي، مدينة قم، إيران. تصوير مصطفى مراجي.

Https: Unsplash.com

المؤسسة الدينية في إيران

لم تكن اصطلاحات (المؤسسة الدينية) والهيئة الدينية و(الحوزات العلمية) و(الحزوة) وليدة الثورة الإسلامية التي قامت في إيران في 1979/2/11م، بل إن هذه الاصطلاحات ظهرت قبل الثورة، وفرضت نفسها على الساحة الإيرانية، بعد أن تبلور مفهوم التقليد، وأصبحت مرجعية التقليد قوة سياسية واجتماعية واقتصادية ذات حضور ملموس، وبعد أن توحد علماء الدين في صورة ظاهرة التقليد بعد وقوع غيبة الإمام (المهدي المنتظر) حتى أصبح كل فرد من عوام الشيعة مقلداً لأحد الفقهاء الكبار (المراجع)، وساد اعتقاد بين العوام أن تدين الفرد لا قيمة له ما لم يكن مقلداً لمرجع ما، وبذلك تمكن الفقهاء من إيجاد رباط قوي بين القيادة الدينية وجمهور الشيعة، واتضحت هذه الرابطة من خلال قيام جمهور الشيعة ـ عن طواعية ـ بدفع الزكاة والخمس للفقهاء باعتبارهم وكلاء الإمام خلال غيبته.

لقد كان علماء الدين طبقة مميزة في العصر الصفوي، وكانت أقوى طبقات المجتمع وأكثرها ثراء، وشهد العصر القاجاري (1795 – 1925م) ميلاد الدور السياسي الفعال للمؤسسة الدينية، حيث أظهر الشيخ مرتضى الأنصاري (1800 – 1791م) ـ الحوزة

كمؤسسة باجتهاده وباعه الطويل في الفقه، وبعقليته التنظيمية المتفتحة، وكان له الفضل في التكثيف الفعلي للحوزة الدينية فكرياً وتنظيمياً، ولهذا فإنه يعتبر المرجع الأول للحوزة العلمية بصورتها الحالية، وهو الذي أفتى بعد أن أصبح مرجعاً أعظم بأن يوجه سهم الإمام في الزكاة وهو الخمس إلى إنشاء مراكز علمية محلية تتبع المركز الرئيسي في النجف، واهتم في مؤلفاته ودروسه بتأصيل مفهوم التقليد أو العلاقة بين الناس والمجتهد، والربط بين العلماء والجماهير على أساس ديني.

وبعد وفاة الشيخ الأنصاري خلفه الميرزا محمد حسن الشيرازي عام 1864م، والشيرازي يعد المرجع السياسي الأول في الحوزة، وهو صاحب أول انتصار سياسي للفقهاء، وهو الانتصار الذي تحقق بعد أن أصدر فتوى تحريم الدخان، وبأن امتياز الدخان في إيران الذي منحه ناصر الدين شاه لشركة بريطانية عام 1890م يخالف الشريعة، فألغى الشاه الامتياز في 1890/5/15م.

أما الانتصار الثاني للفقهاء فكان وجود مادة في دستور عام (1906م) كانت تنص على وجوب حضور خمسة من كبار علماء المذهب الشيعي. على الأقل. في البرلمان الملكي لبحث مدى تطابق القوانين الصادرة من البرلمان مع الشريعة الإسلامية أو عدم

تطابقها. ثم يأتي تحالف آية الله الكاشاني مع مصدق، ودوره في تأميم صناعة البترول في إيران في 1951/3/20م.

إلى أن ظهر الخميني في بداية الستينيات. وبدأ مواجهته الصريحة للشاه محمد رضا بهلوي من داخل حوزة قم العلمية التي أحالها الخميني إلى خلية ثورية ملتهبة. ولما وجد الشاه أن الخميني نجح في تفجير سخط الجماهير على نظامه، سجنه ثم أفرج عنه ونفاه إلى تركيا في نوفمبر عام 1964م. وفي أكتوبر عام 1965م غادر الخميني تركيا وتوجه إلى العراق، وفي العراق طرح قضية ولاية الفقيه من خلال محاضراته في حوزة النجف الأشرف في الفترة من 13 ذي القعدة إلى أول ذي الحجة عام 1389هـ. ق (1965م)، وكان حديثه يدور حول اضطلاع الفقهاء بتشكيل الحكومة الإسلامية، وفي أكتوبر عام 1978م غادر العراق وتوجه إلى فرنسا.

وكانت البيانات التي يرسلها الخميني من منفاه تشتمل على موضوعات يدعو فيها إلى إسقاط نظام الشاه. وكان يؤكد في بياناته دائماً على أن حوزة قم العلمية هي التي ستحيي الإسلامي وإيران. وكان طلاب الحوزة يستمعون طوال خمسة عشر عاماً إلى خطبه وتعليماته التي كانت تصل إليهم تباعاً خلال شرائط (الكاسيت).

وكان للمؤسسة الدينية في إيران قبل الثورة الإسلامية وجود متميز ومستقل، وكانت لها سمات حافظت عليها منذ نشأتها، مما جعلها قادرة على إفراز قيادات سياسية تستقطب الجماهير خارجها من ناحية، وتربي قيادات جديدة تدفع إلى الساحة عندما يجد الجد من ناحية أخرى. واستغلال المؤسسة الدينية حولها إلى قوة لها وزنها، فالمرجع الذي صار تقليده وجوبياً عند الشيعة الاثني عشرية، أصبح دولة داخل الدولة، فعنده تصب أموال الزكاة والخمس التي يخرجها المقلد عن ماله كل عام، مما جعله يشكل كياناً مادياً ومعنوياً مستقلا، بل يسميه البعض مركزية أو سلطة روحية ومالية. وهذا الاستقلال هو الذي ساعد على قيام الثورة الإسلامية في إيران، وقد حافظت الحوزات على استقلالها سنوات طويلة، وكانت أشبه بقلاع حصينة قاومت العديد من الضغوط التي مارستها الحكومات المتعاقبة عليها. ودافعت عن هذا الاستقلال.

وهذا الاستقلال نوعان: استقلال ثقافي، بمعنى أن الحوزات العلمية في إيران حافظت في العهد البهلوي على حياتها المستقلة ونظامها التعليمي المستقل وبرامجها الدراسية المستقلة. كما حافظت على شكلها الظاهري، وحافظ الطلاب والأساتذة على زيهم المستقل.

واستقلال اقتصادي، حيث لم يكن للحوزات العلمية أية صلة اقتصادية بالحكومات قبل الثورة، مما جعلها بعيدة عن سيطرة الحكومات وهيمنتها، وأدى إلى إطلاق يدها وتحريرها من قيود هذه الحكومات، على الرغم من أن هذه الحكومات حاولت مد هذه الحوزات بالأموال لربطها بها، لكنها فشلت، وأن رضا شاه قلص عدد المدارس الدينية إلى حد كبير، واتخذ إجراءات قلصت نفوذ علماء الدين في مجال التعليم والقضاء وأن ابنه محمد رضا شاه فرض سيطرة أقوى للدولة على أراضي الوقف وموارد المؤسسة الدينية بإنشاء مؤسسة خاصة للأوقاف.

وبالإمكانيات الاقتصادية الضخمة، وبالأموال الطائلة التي كانت تقدم إلى مراجع التقليد في شكل خمس أو زكاة، استطاع علماء الدين في إيران إدارة الحوزات التي كانت وما زالت تضم عشرات الآلاف من الطلبة والوعاظ والخطباء وأئمة الجماعة والمدرسين والفقهاء، وكان طلاب هذه الحوزات يحصلون على رواتب شهرية من الأموال التي تقدم للمراجع. وكانت المساجد في إيران مرتبطة ارتباطاً مباشراً بقمة المؤسسة الدينية مادياً ومعنوياً.

هذا فضلاً عن العلاقة الوثيقة بين التجار وبين المؤسسة الدينية. إذ ظل هذا القطاع العريض من التجار الكبار والصغار والحرفيين هو

الممول الأساسي للمؤسسة الدينية. أي أن البازار (السوق) ألقى بثقله في كفة المؤسسة الدينية: مما كان أحد الأسباب التي أدت إلى تقوية معسكر الثورة، وزلزلة النظام الملكي، ثم، إلى نجاح الثورة.

ويضيف البعض عاملاً آخر وهو أن رجال الدين كانوا ينتمون طوال القرون الأخيرة إلى الطبقة الإقطاعية وكبار ملاك الأراضي، وكان معظمهم على اتصال وثيق بالسوق وبالرأسماليين الفرس، منذ ظهورهم.

والمؤسسة الدينية تضم إلى جانب الحوزات العلمية الدينية المراكز الدينية مثل: العتبات المقدسة والأضرحة والمزارات والمساجد ودور النشر التابعة للحوزات العلمية، بالإضافة إلى مراجع التقليد والقضاء والتكايا والحسينيات والأوقاف والخمس والتعليم الديني. وكما هو معلوم فإن الأضرحة والمزارات الدينية الخاصة بالأئمة وأبنائهم تحظى بمكانة روحية مهمة عند الشيعة بصفة عامة وفي إيران بصفة خاصة، وأهم هذه الأضرحة والمزارات في إيران: ضريح الإمام على الرضا (الإمام الثامن للشيعة الاثنا عشرية) في مشهد، وضريح السيدة فاطمة المعصومة (فاطمة بنت موسى ابن جعفر الصادق ـ أخت الإمام الرضا) وضريح شاه جراغ (أحمد ابن الإمام موسى بن جعفر) في شيراز.

ولهذه الأضرحة دور اجتماعي بارز في إيرانٍ، وهي من القواعد التقليدية للمؤسسة الدينية وتلعب دوراً مهما في تعميق التلاحم بين علماء الدين والجماهير، هذا فضلاً عن المؤسسات الخيرية التابعة لهذه الأضرحة، والتي تؤدي خدمات جليلة للمواطنين في مجالات متعددة. وكان أبناء الشعب يلتحقون بالمكتب الديني (يسمى الكُتّاب في مصر) لحفظ القرآن والتعليم والإلمام بأحكام الشريعة الإسلامية، كما كان المسجد من المراكز الهامة للتعليم وحفظ القرآن الكريم والأحاديث، ولهذا كان قطاع التعليم أحد العوامل التي شكلت قوة المؤسسة الدينية، إلا أن رضا شاه (1925 – 1941 م)، قلص نفوذ علماء الدين في التعليم لاهتمامه بفرنجة التعليم. وكانت التكايا والحسينيات من المراكز التي لعبت دوراً اجتماعياً بارزاً، حيث كانت تلقى فيها المحاضرات الدينية، ويتم فيها إحياء المراسم الدينية المختلفة، كما هيمنت المؤسسة الدينية على القضاء، حيث كان القضاة في المحاكم من علماء الدين الذين يتم تعيينهم كقضاة شرعيين، وقلص رضا شاه هذه الهيمنة أيضاً، كما قلص ظاهرة الاحتماء بالأضرحة ومنازل علماء الدين، حيث كان المظلومون يلجأون إلى الأضرحة ومنازل علماء الدين لما لها من حرمة تحول دون وصول يد السلطة إليهم، وذلك حتى يتضح موقفهم ويرفع الظلم عنهم.

والحوزة في اللغة العربية هي: الناحية والجانب، وحاوزه أي خالطه، والمحاوزة المخالطة، وحوزة الملك: بيضته، وحوزة الإسلام: حدوده ونواحيه. وإذا كانت الحوزة - وهي تسمية عربية كما رأينا - يمكن أن تخصص لمختلف أوجه النشاط الإنساني، إلا أن الكلمة ارتبطت في لغة الخطاب الشيعي بتلقي العلم، حتى بات مفهوماً - تلقائياً - أن الحوزة لابد أن تكون علمية، بل أن كلمة الحوزة ذاتها باتت محملة في التداول بذلك المعنى دون غيره، حتى شاع استخدامها وحدها، دون تخصيص، وصارت الكلمة تغني عن الاثنين، وتؤدي وظيفتهما معاً.

وإذا كانت الحوزات العلمية منتشرة في جميع أنحاء إيران فإن حوزة قم العلمية هي المركز الأم لجميع الحوزات العلمية الدينية في إيران. واصطلاح (الحوزة العلمية) أو (الحوزة) ينصرف إلى: معهد علمي ديني واحد أو إلى مدينة قم بأسرها لكونها ساحة لتلقي العلم في العديد من المدارس الدينية، أو إلى الحوزات العلمية المتناثرة في جميع أنحاء إيران.

والحوزة عبارة عن مؤسسة اجتماعية قائمة على مجموعة من النظم والروابط والضوابط الاجتماعية الخاصة التي تحكم علماء الدين في

كل عصر، وتساعدهم على أداء دورهم في المجتمع، ولكل فرد في هذه الهيئة لقب مخصوص ومهمة محددة، على هذا النحو:

- الطالب: وهو الشاب الذي يلتحق بالحوزات العلمية لتحصيل العلوم الدينية والمعارف الإسلامية، ومن أجل التهذيب النفسي.
- الخطيب والواعظ: ووظيفته تعريف الناس بالأحكام الدينية، والقضايا الاجتماعية، ومناقب ومصائب عظماء الدين الإسلامي، وذلك عن طريق الخطابة والوعظ.
- إمام الجماعة: وهو الذي يقيم صلاة الجماعة في المساجد، وبعد المرجع في حل المشكلات الدينية والاجتماعية لأهل منطقته.
- مدرس العلوم الدينية: وهوا لذي يقوم بتدريس اللغة العربية والمنطق والفلسفة والمنطق والفقه والأصول والتفسير وغيرها من المواد الدراسية في الحوزات العلمية.
- الفقيه والمجتهد: وهو الشخص الذي يصل إلى مرحلة الاجتهاد بعد انتهاء سنوات الدراسة وتحصيل العلم والبحث والتدقيق في المسائل الدينية، ويستطيع استنباط

أحكام الإسلام في القضايا الحديثة طبقاً للمبادئ والأصول الإسلامية.

- مرجع التقليد: وهو الفقيه الذي يصل إلى أعلى درجات العلم والعدالة، فيصبح قادراً على إصدار الفتاوى، ويتبعه الناس ويقلدونه. ومما يذكر أن قائد المجتمع ومرشده في الجمهورية الإسلامية الإيرانية يعين من بين مراجع التقليد.

مراحل التعليم في الحوزات العلمية:

من يرغب في الالتحاق بالحوزة العلمية والانخراط في سلك طلاب العلوم الدينية، ينبغي أن يكون مجيداً للقراءة والكتابة باللغة الفارسية، وأن يكون قد حصل على الشهادة الابتدائية على الأقل. وإن كان هذا لا يمنع من أن يلتحق بهذه الحوزات من يحمل شهادة الدبلوم أو الليسانس. وينبغي أن يمر طالب العلوم الدينية بثلاث مراحل دراسية رئيسية، حتى يمكنه الوصول إلى درجة الاجتهاد، وهذه المراحل هي:

أولا: المرحلة التمهيدية (دوره مقدماتي):

وتبدأ هذه المرحلة بدراسة كتاب (جامع المقدمات)، وهو عبارة عن أربعة عشر كتاباً باللغتين: الفارسية والعربية عن الصرف والنحو

والمنطق وأسلوب القراءة والتدريب على الصيغ الصرفية الصعبة.
ثم يدرس الطلاب بعد ذلك كتباً أكثر تفصيلاً في النحو والصرف، حتى يتمكنوا في المستقبل من دراسة الأدب العربي، وفهم واستيعاب نصوص الأخبار والأحاديث وكتب الفقه والأصول والتفسير، وحتى تكون لديهم القدرة على الاستنباط، ومن هذه الكتب: شرح ألفية ابن مالك لجلال الدين السيوطي الذي يحفظون أشعارها في العادة، وشرح ابن عقيل، وغيرها من الكتب، مثل مغني اللبيب هشام. وفي نهاية هذه المرحلة يدرس الطلاب كتباً مبسطة في علم أصول الفقه.

ثانياً: مرحلة المستوى (دوره سطح):

بعد أن يجتاز طالب العلوم الدينية الإسلامية المرحلة التمهيدية بنجاح، ينتقل إلى مرحلة المستوى، والمقصود من المستوى: القراءة والتعلم من الكتب. ويدرس الطالب في هذه المرحلة: الفقه وأصول الفلسفة من المتون الأصولية والفقهية والفلسفية. ومن كتب الفقه والأصول التي تدرس منذ سنوات طويلة في هذه المرحلة: شرح اللمعة للشهيد الثاني (جزآن)، وكتاب القوانين لميرزا القمي، وكتاب المكاسب، وكتاب الرسائل والفرائد للشيخ مرتضى الأنصاري.

وكفاية الأصول لملا محمد كاظم الخراساني في أصول الفقه الاستدلالي.

ثالثاً: مرحلة الدراسات الحرة (دوره خارج):

الهدف من هذه المرحلة النهائية هو البحث في المسائل المتعلقة بالفقه والأصول خارج نصوص الكتب وبعيداً عن متونها. بمعنى أن الطالب بعد أن يفرغ من مرحلتي التلقي (التمهيدية والمستوى)، وبعد تبحره في الفقه والأصول والفلسفة والأخبار والأحاديث، يمكنه حضور جلسات الدرس التي يعقدها الأساتذة الكبار المتمرسين، ويسمح له أستاذه بأن يشارك في مناقشة الموضوع المطروح، وأن يدلي برأيه فيه بحرية تامة. كما يسمح الأستاذ بأن يناقش الطالب زميله في موضوع البحث. والهدف من هذه المحاولات وهذه المناقشات هو تقوية الأسس الفكرية والاستدلال، وتنمية القدرة على استنباط الأحكام بالأسلوب الصحيح. وهذه المرحلة تؤهل الطالب لكي يضع قدمه على أبواب مرحلة الاجتهاد. وهو شيء أشبه بمرحلة الدراسات العليا في الجامعات العادية، وتعقد جلسات هذا الدرس في صحف المسجد الأعظم.

أما درجة الاجتهاد، فهي مسألة مرهونة بمدى استعداد الدارس، وبرأي أستاذه فيه، وبتاريخ سماح هذا الأستاذ له بالتدريس والتوجيه والإرشاد. وبالجديد الذي أضافه في الرسالة العلمية التي أعدها.

وجدير بالذكر أن الطالب له مطلق الحرية في اختيار أستاذه، وأن طالب الحوزة يعفى من أداء الخدمة العسكرية، وأن الطلاب في الحوزات العلمية يولون علم الاجتماع وعلم النفس واللغات الأجنبية والإعلام اهتماماً كبيراً في أيامنا هذه.

والدارس في كل مرحلة يعطى لقباً علمياً، يرفع كلما تدرج في السلم التعليمي، حتى يبلغ ذروته. فطالب المرحلة الأولى يطلق عليه لقب طالب أو مبتدئ، فإذا ما انتقل إلى المرحلة الثانية، يمنح لقب (ثقة الإسلام)، وإذا اجتاز المرحلة الثالثة، يصبح (حجة الإسلام). وإذا أجيز للاجتهاد، فإنه يحمل لقب (آية الله)، وإذا بدأ يمارس عملية الاجتهاد في حلقات الدرس، ويؤسس قاعدة شعبية له في الحوزة، أي قبل أن يقبل عليه المقلدون. فإنه يصبح (آية الله العظمى). أما إذا اتسعت دائرة مقلديه، وثبت قواعده، بسلوكه وعلمه، بين جماهير الشيعة، فإنه يصبح (مرجعاً للتقليد)، وإن ظل محتفظاً بلقب آية الله العظمى.

وكان الخميني ربيب هذه الحوزات العلمية الدينية، فبعد أن تعلم القراءة والكتابة والخط والنحو والصرف في مسقط رأسه: (خمين) . نزح إلى مدينة (أراك) التي كانت تضم حوزة علمية اشتهرت بأساتذتها وشيوخها الأجلاء، وعلى رأسهم الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي، الذي انتقل معه الخميني إلى مدينة (قم). والذي أسس حوزة قم العلمية. ولما مات أخذ الخميني مكانه ضمن مدرسي الحوزة. وكان الخميني يدرس الفلسفة والأخلاق لطلاب المدرسة الفيضية ـ أشهر وأبرز مدارس حوزة قم العلمية ـ ثم وسع من نطاق دروسه حتى شملت الفقه والأصول، وتدرج في السلك التدريسي حتى أصبح يلقي دروس (الخارج).

والخميني رأى قديم ذكره في كتابه: (كشف الأسرار) الذي ألفه في الأربعينيات، يرى فيه أن المهمة الرئيسية لعلماء الدين هي تشكيل الحوزات العلمية وإنشاء مدارس وكليات العلوم الدينية، وأن أهم فئة من فئات هؤلاء العلماء هي: مدرسو العلوم الدينية النهائية، الذين يشكلون حوزات العلوم العليا، ويقومون بتدريس (الخارج) أو العلم النهائي. ولديهم الاستعداد الذاتي والذوق الفطري وقوة البيان والقدرة على توصيل الموضوعات الدقيقة إلى الطلاب، وهم

قلة، لأن الوصول إلى هذه المكانة ليس في استطاعة أي شخص، فالفقه ـ الذي يعد أحد علوم الاجتهاد ـ بحر لا نهاية له.

حوزة قم العلمية:

أسس حوزة قم العلمية آية الله الحاج الشيخ عبد الكريم الحائري اليزدي (1276 – 1355هـ) الذي نزح من مدينة يزد إلى مدينة أراك في عام 1316هـ وأقام في هذه المدينة عدة سنوات. انتقل بعدها إلى مدينة قم التي وضع فيها حجر أساس الحائري انتقلوا معه من أراك، وكان الخميني من بين هؤلاء التلاميذ.

والحوزة هي المكان الذي تتجمع فيه مجموعة من المدارس، ومن أشهر مدارس حوزة قم العلمية: المدرسة الفيضية، التي كان الخميني يلقي فيها دروسه، وبدأت فيها مواجهته للشاه في عام 1962م، ومدرسة دار الشفاء، التي أقام فيها الخميني بعد نزوحه من أراك مع أستاذه الشيخ الحائري، وتتركز مدارس الحوزة العلمية في قم القديمة، حيث تتوزع على العديد من الأبنية العريقة ذات السقوف العالية والجدران السميكة التي تحتوي على خزانات الثياب والكتب. ووصل عدد تلك المدارس إلى (60). بزيادة (20) مدرسة أقيمت على الطراز الحديث بعد الثورة. وكانت الدراسة في

الحوزة العلمية مقصورة على الشباب دون الفتيات. وفي السنوات الأخيرة دخلت الفتيات الميدان وصارت لهن عشر مدارس. كما أنشئت جامعة الزهراء في مدينة قم، وقبلت الجامعة أول دفعة من الفتيات في عام 1986م، وهكذا وضعت اللبنة لحوزة النساء والمساجد هي مقر الدراسة، والمدارس هي مقر الإقامة والمذاكرة. والمدارس مفتوحة لأي طالب علم من الشيعة، والسنة ليسوا ممنوعين من الالتحاق بها. وقد أنشئ في قم مركز دولي للعلوم الإسلامية، ومراحل الدراسة في هذا المركز هي: المقدمات ـ الخارج ـ السطح العالية.

وبعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران بات للحوزة من خلال علماء الدين موقع ودور في الإدارة وفي مؤسسات الدولة والجيش والأجهزة الأمنية المختلفة.

وقد ارتبط اسم "قم" تاريخياً ـ ولا يزال كذلك ـ لعلماء الدين وبحوزتها الدينية العلمية الشهيرة التي هي الآن حوزة الشيعة الأولى في العالم من حيث أهميتها وكثافة علماء الدين والمجتهدين والطلاب، وذلك بعد أن كانت حوزة النجف في العالم من حيث أهميتها وكثافة علماء الدين والمجتهدين والطلاب، وذلك بعد أن كانت حوزة النجف في العراق هي الحوزة المحورية. ولعل تراجع أهمية حوزة النجف، وانتقال

مركز الثقل في قيادة المذهب الشيعي من النجف إلى قم راجع إلى قيام حزب البعث في العراق بتقليص دور المؤسسة الدينية الشيعية بصفة عام ودور حوزة النجف صفة خاصة، فضلاً عن أن نجاح الثورة الإسلامية في إيران في 1979/2/11م صب في مصلحة حوزة قم. وإذا كانت مدينة قم فد اكتسبت مكانة رفيعة ومتميزة بسبب موقعها الجغرافي الفريد على مفترق الطرق الرئيسية التي تربط شمال إيران بجنوبها وبسبب كثرة المدارس الدينية (يود في قم 30% من عدد المدارس والحوزات العلمية في إيران) وبسبب توافد الزائرين من الشيعة لزيارة ضريح السيدة فاطمة المعصومة وبسبب توافق الدارسين من داخل إيران وخارجها هذا التوافد الذي كان سبباً في انتعاش المدينة وإنشاء عدد كبير من المطاعم والفنادق والمكتبات والأسواق لخدمة الزوار والطلاب وتلبية احتياجاتهم فإنها تعيش الآن عصرها الذهبي، بعد قيام الثورة الإسلامية.

وتصدر في حوزة قم العلمية أكثر من (60) جريدة ومجلة، مثل:

انتخاب (الاختيار) بكاه حوزة (فجحر الحوزة) . باسدار إسلام (حارس الإسلام) . سلام بجه ها السلام عليكم يا أطفال . بيام زن (رسالة المرأة) بيام حوزه (رسالة الحوزة) . الفقه . البينات . البشرى . وغيرها.

كما يتداول في الحوزة ما تصدره دار نشر مؤسسة: (في طريق الحق) التي يرأسها آية الله مصباح يزدي من كتب ومجلات، وما تصدره دار القرآن الكريم. ودور النشر التابعة لمكتب آية الله السيستاني. ومكتب المنشورات الإسلامية.

ومن الكتب التي تناولت تطورات حوزة قم العلمية بعد نجاح الثورة الإسلامية في إيران الكتاب الذي شارك في تأليفه السيد عباس زارع والسيد الدكتور علي شيرخاني بتكليف من مركز وثائق الثورة الإسلامية، وعنوان الكتاب هو: "تحولات حوزة علمية قم بس إز بيروزي انقلاب إسلامي"، أي (تطورات حوزة قم العلمية بعد انتصار الثورة الإسلامية)، وهو عبارة عن مقدمة وخمسة فصول، أما المقدمة التي كتبها مركز وثائق الثورة الإسلامية فهي تطرح سؤالين:

الأول: إلى أي حد كيفت حوزة قم العلمية نفسها مع الوضع الحالي؟

والثاني: هل حسنت التطورات التي طرأت على الحوزة العلمية بعد نجاح الثورة الإسلامية والنشاط والأداء في الحوزة؟

وقد خصص المؤلفان الفصل الأول للإطار النظري للبحث، والفصل الثاني عبارة عن نظرة عابرة على تاريخ حوزة قم العلمية، والتطورات التي طرأت على الحوزة منذ آية الله الحائري اليزدي حتى مرحلة ما بعد وفاة آية الله البروجردي". أما الفصل الثالث فيستعرض التنظيمات الهيكلية والإدارية للحوزة، ويقدم معلومات إضافية عن مجلس الإدارة . البرامج الدارسية . الميزانية . مراجع التقليد . العلماء والمدرسون والطلاب . الدعاية والإعلام . الأمور الصحية والعلاجية . مركز الخدمات . صندوق الإمام الخميني للقرض الحسن . مدارس الحوزة . مدارس الفتيات . جامعة الزهراء . المركز العالمي للعلوم الإسلامية. ويتحدث الفصل الرابع عن التطورات التعليمية والبحثية في الحوزة . أساليب التعليم . المراحل الدراسية . أسلوب التعليم والتحصيل في مستوى المقدمات والسطح من حيث الشكل والمضمون. ثم يعدد الكتاب منشورات الحوزة والمؤسسات البحثية الحديثة.

ويشير الكتاب إلى أن محور السياسة الثقافية للحوزة قائم على ثلاثة مبادئ:

أولاً: أسلمة المراكز الثقافية وبخاصة الجامعات.

ثانياً: السيطرة على الإنتاج الثقافي: الأفلام ـ الكتب ـ الصحف والمجلات ـ بمساندة إقرار قانون منع الأقمار الصناعية ، وقانون منع استخدام الكلمات الأجنبية، فلترة (تنقية وتحجيم) مواقع الإنترنت، وقانون محاكمة الصحفيين ورؤساء التحرير، بالإضافة إلى اختيار ممثل الحوزة في الإشراف على الصحف وعضوية مؤسسة نيابة الولي الفقيه في الجامعات.

ثم ثالثاً: يشير الكتاب إلى الأنشطة الثقافية للحوزة، وهي: العودة إلى الإسلام الأصيل، التأكيد على هوية المسلم الإيراني، توفير جزء من الأنشطة الحديثة، مثل: التربية والتعليم وقطاع القضاء وبخاصة في مجال الحقوق المدنية والجزائية وقطاع الإعلام والاتصالات. أما الأنشطة الاجتماعية للحوزة فهي تخريج مجتهدين ومقلدين جدد، وتعليم عموم الدين عن طريق التبليغ والوعظ والخطابة، وتأدية المناسب الدينية، إقامة صلاة الجماعة وإقامة مراسم الموتى ومجالس الدعاء، وحث المواطنين على القيام بالأعمال الخيرية وعلى التضامن والوفاق الاجتماعي. أما التواجد الجاد على مستوى الجماعات السياسية والدفاع عن النظام الديني من الداخل ومساندة مطالب الجماهير والتعبئة الاجتماعية ومراقبة النخبة السياسية، وعن الأنشطة الاقتصادية ذكر الكتاب أنها:

جذب المصادر المالية ومنها: الخمس والزكاة وغيرها من الأموال الشرعية وتوزيعها ـ بالطبع ـ داخل الحوزة العلمية وداخل طبقات المجتمع التقليدية.

وفي نهاية الفصل الرابع يذكر المؤلفان أن المشكلات الموجودة في نظام الحوزات حثت مديري الحوزة وبخاصة بعد انتهاء الحرب العراقية الإيرانية على السير في طريق الربط بين النظام التعليمي واحتياجات النظام الإسلامي عن طريق إصلاح النظام التعليمي والبحثي وإحلال نصوص جديدة بدلاً من النصوص القديمة وإنشاء فروع ومراكز متخصصة جديدة.

أما الفصل الخامس فهو عبارة عن ملاحق: وثائق وقوائم خاصة بمجلس إدارية الحوزة ولائحة الحوزة وضوابط منح الرواتب الشهرية والمدرسين وموضوعات التدريس وعدد الطلاب في الفصول المختلفة في علوم الفقه والتفسير والأصول والمكاسب، وغيرها من العلوم. ثم إحصائية بعدد المدارس والحوزات العلمية في إيران، وتشير هذه الإحصائية إلى وجود أكثر من 30% من هذه المدارس في مدينة قم، ووجود (40) مدرسة في خراسان، ووجود (40) مدرسة خارج غطاء إدارة الحوزة العلمية، ثم قوائم بالبرامج الدراسية

للطلاب والطالبات، وقائمة بالمؤسسات والمراكز التعليمية والبحثية في قم.

الحوزة والجامعة:

أدرك الخميني أهمية وحدة طلاب الحوزة والجامعة، وأهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه الوحدة في خدمة المجتمع، فنادى منذ عام (1977م) بضرورة الاتحاد بين هذين الطبقتين، ودعاهما إلى التعاون فيما بينهما، وكان يحذر دائماً من التفريق بين طلبة العلوم الدينية وطلاب المدارس والجامعات، لدرجة أن شعار: وحدة عالم الدين والطالب وشعار: وحدة الفيضية والجامعة أصبحا من الشعارات الرئيسية للثورة. وتم اختيار يوم (27 آذار)، وأطلق عليه اسم: يوم الحوزة والجامعة أو يوم علماء الدين والطلاب.

ويعقد في إيران مؤتمر يستغرق يومين في كل عام بهذه المناسبة لمناقشة واقتراح الحلول للمشاكل التي تطرأ على ساحة التعاون بين الحوزة والجامعة وفي المؤتمر الذي عقد في (18.17 ديسمبر عام 1994م)، وهو المؤتمر السابع، دعا رئيس الجمهورية (هاشمي رفسنجاني) إلى المزيد من التعاون بين الحوزة والجامعة من أجل التنمية الوطنية. كما أن المؤتمر طالب في بيانه الختامي بضرورة

إنشاء أمانة علمية دائمة للوحدة بين الحوزة والجامعة، كما تم إنشاء مكتب باسم: مكتب تنسيق التعاون بين الحوزة والجامعة، وهو المكتب الذي أنشأه ويديره آية الله مصباح يزدي.

ويشير آية الله خامنئي . مرشد الثورة . إلى كيفية التعاون بين الحوزة والجامعة، ويقول: إن هذا التعاون يتم عن طريق: تبادل الطلاب بين الحوزة والجامعة، وتواجد علماء الدين في الجامعات، وعقد جلسات فكرية مشتركة لتحقيق أهداف الوحدة بين الحوزة والجامعة. وبعد أن أشار إلى دور هاتين المؤسستين العلميتين في المجتمع أضاف قائلاً: إن هاتين المؤسستين يكمل أحدهما الآخر عن طريق تبادل الأساليب.

الدور المنوط بالحوزة بعد قيام الثورة الإسلامية:

مما لا شك فيه أن الحوزات العلمية بوجه عام وحوزة قم العلمية بوجه خاص تمر الآن بأزهى عصورها، خاصة وأنها لعبت دوراً بارزاً في نجاح الثورة الإسلامية في إيران، ومن يقرأ ما قاله آلة الله خامنئي . مرشد الثورة . في بداية درس الخارد في الفقه، يستشعر الدور المنوط بهذه الحوزات، وهو الدور الذي يجب أن تؤديه هذه الحوزات في المجتمع الإيراني، يقول: (يجب أن تستفيد هذه الحوزات من

إمكاناتها على أفضل وجه، من أجل تلبية احتياجات الإسلام والحكومة الإسلامية الضرورية على المستويات المختلفة. إن مجتمعنا اليوم مجتمع ديني ومتدين. وهو في حاجة إلى وجود علماء مسلمين يدرسون الأخلاق والمعارف. وبناء على هذا فإن مجتمعنا يحتاج. في ظل الظروف الحالية . إلى علماء يستطيعون درء شبهات المثقفين وشباب أهل الفكر في الأبواب المختلفة، ويجيبون على أسئلة المواطنين الدينية، ومسئولية الحوزات العلمية لها أهميتها البالغة في هذا المجال).

وخامنئي يطالب بزيادة عدد العلماء المجتهدين والمدرسين والباحثين في الحوزات، كما يطالب بعدم بقاء طالب الحوزة العلمية أكثر من خمس سنوات دراسية في الحوزة، طالما أنه قادر على أداء دوره المنوط به في المجتمع بعد انقضاء هذه المدة. وهو يوجه عناية الحوزات العلمية إلى ضرورة تلبية حاجة المجتمع إلى عملاء الدين وأئمة الجماعات في المساجد.

وعما يجب أن تتميز به الحوزات العلمية في عصرنا الحالي، لكي تكون قادرة على أداء دورها الإنساني والإسلامي، يقول خامنئي: (نظراً لأن الفقه هو المحور الرئيسي لنشاط الحوزات العلمية، لهذا يجب أن يتسع نطاق هذا الفقه ليشمل المجالات الحديثة الظهور

(المستحدثة)، كما أن نظام الحوزة يجب أن يدرأ الشبهات بالإبداع والخلق في المباحث الكلامية والفلسفية، وكذلك يجب أن تتجلى في الحوزة شجاعة طرح هذه المباحثات).

وقال هاشمي رفسنجاني ـ رئيس الجمهورية الأسبق ـ موجهاً حديثه إلى طلاب وأساتذة الحوزات العلمية في الاحتفال بذكرى مرور قرنين على مولد الشيخ مرتضى الأنصاري: (يجب أن تكون حوزتنا مركزاً لحرية الطبع وسعة الصدر والرؤية المتفتحة في التعامل مع الأفكار والمعتقدات. إن الصدور الضيقة والأفكار المحدودة والوقوف في وجه إبداعات القوى الجديدة المتنامية هي أسوأ آفة تواجه تقدم علم المجتمع وحضارته ونموه ورقيه).

وعن الكتب الدراسية المقررة في الحوزة يقول هاشمي رفسنجاني: (ينبغي تغيير أسلوب تأليف الكتب الدراسية في الحوزة، كما ينبغي أخذ التغييرات والتطورات التي طرأت على الأدب العربي في الاعتبار).

هذا وقد صدر في صيف عام 1995م العدد الأول من مجلة: انديشه حوزه (فكر الحوزة)، وهي مجلة فصلية سياسية اجتماعية ثقافية، تصدرها جامعة العلوم الرضوية بجامعة مشهد. وقد اشتمل

هذا العدد على مقالات في الفقه والسياسة والعلوم القرآنية والثقافة والأدب والأديان والفلسفة، وتقارير عن بعض الكتب، كما أن جريدة (جمهري إسلامي) تهتم بنشر تاريخ الحوزة في باب خاص يحمل عنوان: تاريخ الحوزة.

ومما لا شك فيه أن قيام الثورة الإسلامية في إيران كان له أثره الكبير في تطوير الحوزات الدينية، وتطوير المقررات والمناهج الدراسية فيها، وتنظيم المراحل الدراسية لطلاب الحوزات، وتنويع الموضوعات والقضايا، وإدخال تعديلات إدارية في نظام هذه الحوزات، والربط بين الحوزات الدينية والجامعات، وتحسين الظروف المعيشية للطلاب.

كما لا ننسى أن الثورة أضافت الفكر الثوري إلى هذه الحوزات، وهذا كله منح الحوزات الدينية وضعاً متميزاً.

وكان للخميني الفضل في حدوث هذا التطوير الملحوظ، وأكمل خاضعة آي مسيرة التطوير من بعده، وفي المقابل، كان للحوزات تأثيرها في نجاح الثورة الإسلامية، وإدارة مراحلها المختلفة، فقد أدى تطوير الحوزة الدينية إلى تواجد علماء الدين في الحياة العامة للبلاد وفي أجهزة الدولة المختلفة بشكل مكثف. فضلاً عن

تواجدهم في المدارس وقاعات الدرس وحلقات الوعظ ومنابر الخطابة والمحافل العامة.

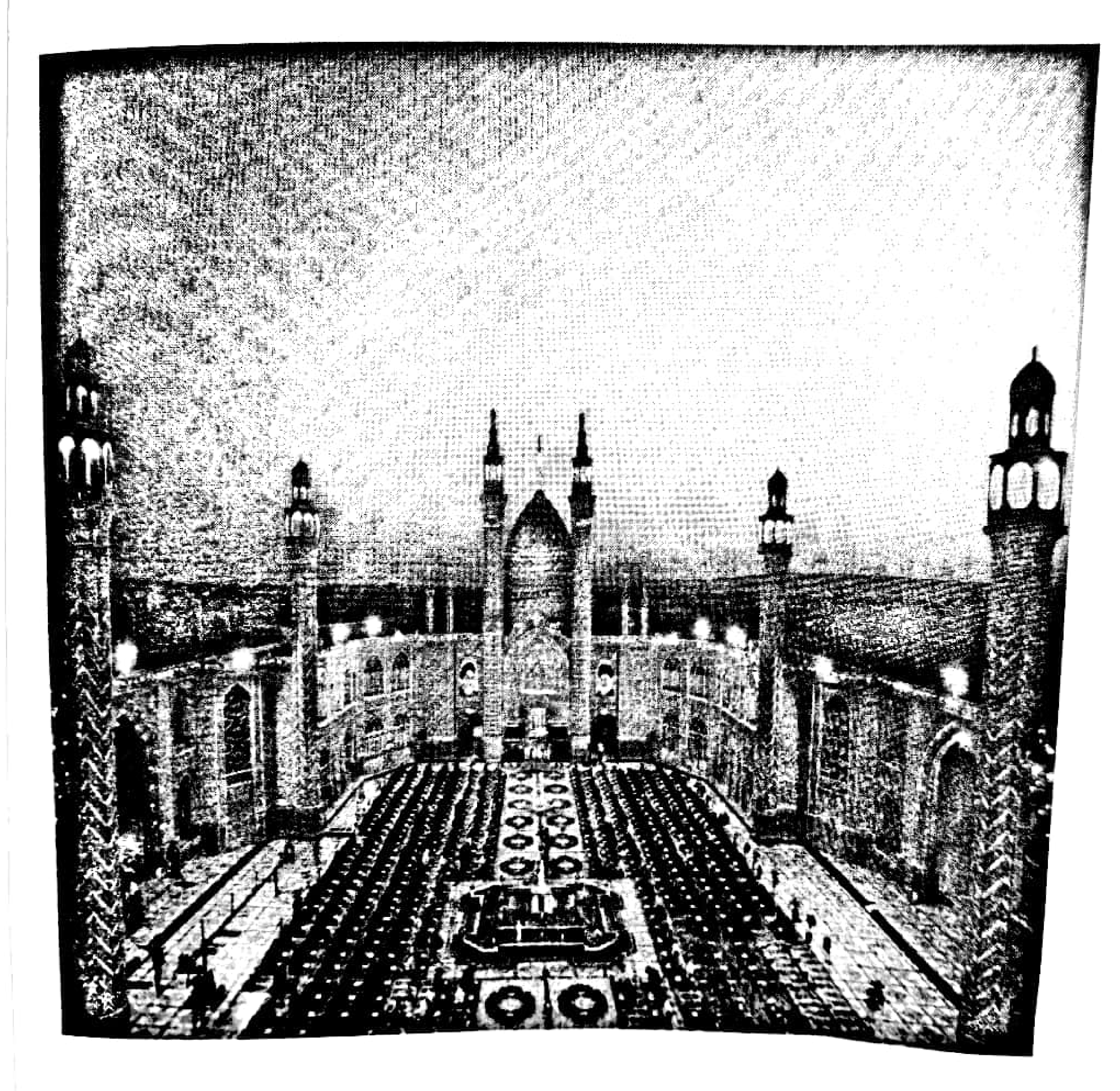
وقام هؤلاء العلماء بإبداء رأيهم في القضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وحدث تعاون وتنسيق فيما بين المدارس التابعة للحوزات المنتشرة داخل إيران وخارجها. ونظم طلاب الحوزة قوافل شاركت في الحرب العراقية الإيرانية. وشارك هؤلاء الطلاب في العمل العام، كما شاركوا في التصدي للغزو الثقافي الغربي، وفي الدعوة إلى التخلي عن البذخ والإسراف.

والواقع أن قيام الثورة الإسلامية في إيران كان له أثره الكبير في إقامة مؤسسة دينية قوية ومتطورة تدعم النظام الحاكم الذي يمثل علماء الدين أهم رموزه. وقد أدرك الرئيس أحمدي نجاد الدور الذي تلعبه المؤسسة في تدعيم النظام، فعين مستشاراً لشئون علماء الدين والحوزة العلمية وهو حجة الإسلام والمسلمين مصلحي، وذلك من أجل إيجاد علاقة قوية ومتبادلة مع الحوزات الدينية. وليس الهدف من هذه المسألة إطلاع علماء الدين على مجريات الأمور السياسية أو الإنجازات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإنما الهدف منها هو دعم التوجه الديني للنظام والمجتمع الإيراني، وخاصة المؤسسات التنفيذية. كما أن اختيار حجة الإسلام مصلحي لهذا المنصب

الجديد وهو أحد علماء الحوزة وأحد المقربين من كبار المراجع الدينيين والمحيطين بتفاصيل الأمور في الحوزات الدينية يشير إلى رغبة الرئيس أحمدي نجاد في أن يكون للحوزات الدينية ممثل في رئاسة الجمهورية. وقد لقي هذا التوجه من جانب الرئيس الإيراني ترحيباً كبيراً بين علماء الدين والمراجع، لأنه يحقق نوعاً من الانسجام بين القطاع الديني والقطاع التنفيذي في النظام، ويحقق مفهوم الجمهورية والإسلامية في نظام ولاية الفقيه. كما أن الرئيس الإيراني عين حجة الإسلام والمسلمين سيد أحمد موسوي مستشاراً له للشئون القانونية والبرلمانية، وجعل اثنين من علماء الدين في أهم وزاراته، وهما: حجة الإسلام والمسلمين غلا محسين محسني ايجيه وزيراً للمعلومات، وحجة الإسلام والمسلمين الدكتور مصطفى بور محمدي، وزيراً للداخلية.

والواقع أن نجاح الثورة الإسلامية الذي أدى إلى قيام دولة ثيوقراطية لأول مرة في تاريخ إيران والعالم الإسلامي الحديث، هو نجاح شاركت فيه المؤسسة الدينية . التي يهيمن عليها المحافظون . بالنصيب الأوفر.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)



ضريح محمد بن علي، أصفهان، إيران. تصوير مصطفى مراجي.

Https: //Unsplash.com

الجمهورية الإسلامية الإيرانية والمهدوية

تحدث المؤلف الإيراني أصغر طاهر زاده في كتابه: بصيرت وانتظار فرج (البصيرة وانتظار الفرج) عن ارتباط الثورة الإسلامية التي قامت في إيران في (1979/2/11م) والجمهورية الإسلامية الإيرانية بثقافة المهدوية منذ البداية، وقال: ظهر نور صاحب الزمان (المهدى المنتظر) نسبياً في بداية الثورة الإسلامية، واستوعب أكثر أفراد المجتمع ذلك الظهور النسبي وهذا الحماس وهذا الشوق السماوي المصحوب بالأهداف الإنسانية السامية، لكننا اقترفنا المعاصي مرة أخرى، عندما ارتكبت بعض الحكومات التي تشكلت بعد قيام الثورة بعض الأخطاء مثل: الميل إلى الغرب وتقوية روح التغريب، وقد أدى هذا إلى احتجاب نور الثورة الإسلامية التي كانت شعاعاً من أشعة نور المهدى، واختفى نور الإمام المهدى في المزيد من الغيبة. إلى أن عدنا واتجهنا – بحمد الله – إلى شعارات وأهداف الثورة الإسلامية، على أمل تهيؤ ظروف الظهور التام والنهائي للمهدى. وعندما أدرك أغلب أفراد الشعب الإيراني ظلمات حاكمية الشاه محمد رضا بهلوي (1941 – 1979م)، وتوجهوا صوب الإمام الخميني (1979 – 1989م) كنائب لإمام الزمان (المهدى المنتظر)، ظهر نور المهدى (صاحب الأمر). وإذا

وجه أفراد الشعب أنظارهم الآن – بشكل من الأشكال – إلى أي أفكار مغايرة لأفكار الإمام الخميني (مفجر الثورة الإسلامية ومؤسس الجمهورية الإسلامية الإيرانية)، سيؤدى هذا إلى إضعاف نور المهدى. ذلك لأن الغيبة والظهور والفرج واختفاء المهدى يشتد ويضعف إلى أن يأتي الفرج النهائي. ويُفهم من آخر بيان رسمي صدر عن الإمام الخميني في (1989/3/22م) أن الظُلمة النهائية التي يجب الاشتباك معها ومواجهتها في آخر الزمان، كشفت عن وجهها في ثقافة الغرب الاستكباري، وجلبت إلى المشهد جميع الظلمات الممكنة. وهذه الظلمات تختلف عن الظلمات التي تسبب فيها محمد على شاه (سادس ملوك الدولة القاجارية (1324 – 1327هـ) أو مظفر الدين شاه (1324–1313هـ)، فلم تكن هذه الظلمات ظلمات آخر الزمان، ولم تكن مواجهة هذه الظلمات تتم بثقافة الانتظار وهمة وعزم حاكمية المهدى المنتظر. ولهذا السبب، لوحظ أن السلسلة البهلوية (1925 – 1979م) ظهرت بعد رفع ظلم القاجار – 1779) 1925م)، ولم تستطع الثقافة العامة للمجتمع في بداية الأمر أن تعي أين تكمن الظلمات، لأنها لم تنشغل بمواجهة القاجار، وهي مسلحة بثقافة الانتظار وأدبياته.

وأضاف المؤلف قائلاً: إن الإمام الخميني دلنا على ضرورة التصدي للثقافة الغربية بكل وجودنا ونحن مسلحين بنور المهدى الذي لديه القدرة على الصراع مع الظلمات، وقال الإمام في هذا الصدد: إن ثورة الشعب الإيراني التي قامت في عام (1979م) هي بداية ثورة العالم الإسلامي الكبرى بقيادة المهدى. ونظراً لأن الثورة الإسلامية الإيرانية هي نقطة بداية ثورة المهدى، فإنه يجب مواجهة الثقافة الغربية الاستكبارية بنفس أسلوب المهدي، وهو عبارة عن رفض ثقافة الكفر وليس مداراته، لأنه بناءً على توجيهات الإمام الخميني، يجب التفكير في إقامة حكومة الإسلام العالمية، وهذا لا يتأتى بالمداراة مع ثقافة الكفر، وقد صرح الإمام الخميني في بيان (1989/3/22م) بأنه يجب أن تبذل الجمهورية الإسلامية كل جهدها وقدراتها في إدارة شئون الناس على أتم وجه، لكن ليس معنى هذا أن تنصرف عن أهداف الثورة الكبرى، وهي إقامة حكومة الإسلام العالمية. وتحت عنوان: الخيانة العظمى، يقول المؤلف: قبل الثورة الإسلامية كنا نريد أن ننتظر حتى يظهر الإمام الغائب (المهدى)، وكنا نعتقد أن هذا هو حد الإسلام. وجاء الإمام الخميني، وأوضح لنا أنه يجب أن نرفض الثقافة الاستكبارية تماماً، ويجب ألا يتسلل إلى أنفسنا أي خوف من الاستشهاد، وذلك حتى يكون لنا مكان في معسكر الإمام المهدى بعد ظهوره. ويؤمن الإمام

الخميني بوصفه " نائب الإمام المهدى " بإقامة الحكومة العالمية، ودلنا على الطريق الصحيح المؤدى إلى ثقافة الانتظار، ذلك لأن الفرج يكمن في طي هذا الطريق. والغفلة عن مواجهة عالم المستكبرين خطر عظيم على روح المجتمع وحماسه، وتعد خيانة عظمى، لأنها ضد الهدف الرئيسي للثورة الإسلامية. وعلى الشعب الإيراني، بوصفه منتظراً للإمام المهدى، أن يسعى من أجل بزوغ نور المهدى. وإذا قصرنا ستستمر المشكلات التي نعانى منها، وسنُعد خائنين، ذلك لأنه مع قيام الثورة الإسلامية توفرت شروط ترقيق الحجاب الموجود بيننا وبين الإمام المهدى المنتظر، ويجب علينا البدء في القضاء على ظلمات الروح الاستكبارية، وإقامة حكومة الإسلام العالمية. وكلما اقتربنا من الإمام الخميني ومبادئه وتوجيهاته زادت رقة الحجاب سالف الذكر وشفافيته، وعاش المجتمع في أنوار صاحب الأمر (المهدى)، وتهيأت مجالات الظهور أكثر فأكثر، وكلما ابتعدنا عن الطريق الذي مهده الإمام الخميني أمامنا، زاد سُمك هذا الحجاب. وقد لاحظنا أن نور ظهور الإمام المهدى كان متواجداً طوال سنوات الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات، لكن كلما كنا نقترب من ظلمات ثقافة الغرب، باسم البناء والإصلاحات، كانت غيبة المهدى تشتد وتقوى، ذلك لأن تجليات نور المهدى على المجتمع والأفراد تشتد

وتضعف، إلى أن يحدث الظهور التام في آخر الزمان، فالظهور يتقدم ويتأخر، ويقل ويزيد.

ويتحدث المؤلف عن الثقافة التي حجبت نور المهدي في المجتمع الإيراني، ويطالب بضرورة التصدي لهذه الثقافة، ويقول إن هذه الثقافة تجلت في "الماركسية" بقيادة الاتحاد السوفيتي السابق أو في "الليبرالية" بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية. وهذه الثقافات تخفى نور الحقيقة، فالثقافة الغربية أخفت نور المهدى، ومن الصعب أن يرى أي شخص أن روح المسلم المصلى هي نفسها روح الثقافة الغربية، فمثل هذه الروح تحول دون ظهور نور المهدى. وفي مثل هذه الظروف يمكن أن ندرك أن أي مسلم تنسجم مبادئه مع مبادئ الغرب، ليس له مكان في ثقافة الانتظار، وليست له علاقة بالثورة الإسلامية، لأن الإمام الخميني حدد مؤشر تلك الثورة في عبارة: مواجهة الثقافة الغربية، فالمدارة مع الكفر بمثابة اعتراف بالكفر. وتجلى نور المهدى لن يتحقق إلا برفض الغرب، وإزاحة حجب ظلمات عالم اليوم.

ويتحدث المؤلف عن الانتظار وثقافته، ويقول: لن تتحرر الثورة الإسلامية من التغريب الداخلي بتقوية ثقافة الانتظار فقط، بل سيظهر صدى روح تجاوز الغرب في جميع أنحاء العالم، شريطة أن

يظل طريق الإمام الخميني (المعنى الحقيقي للانتظار) مفتوحاً، وفي هذه الحالة ستنجح أمتنا في تجاوز الحرب الناعمة التي فرضها العدو عليها، وسيدب اليأس في نفوس الأعداء. يجب تجاهل الغرب والالتزام بخط الإمام الخميني وبأهداف الثورة الإسلامية، حتى ننفذ ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم): أفضل العبادة انتظار الفرج (الشيخ الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة – الجزء الأول). وفي نفس المعنى قال الإمام الخميني: تحطيم ثقافة الشرق والغرب لا يتيسر إلا بالشهادة. وقد نصح الإمام الخميني المسئولين عن النظام الجمهوري الإسلامي غير مرة بعدم الخوف من أي شخص أو أي شيء، وألا يخشوا سوى الله (تعالى)، وألا يكفوا عن محاربة فساد "الرأسمالية" في الغرب، وعن محاربة خواء وعبثية " الشيوعية" وتجاوزاتها في الشرق. ويشير المؤلف إلى ما حدث في الحاضر، وكيف أن المسئولين المستغربين خرجوا عن خط الإمام الخميني، وكفوا عن محاربة الشرق والغرب، وأن صنيعهم هذا انحرف بهم عن الثورة، وأخرجهم عن نطاق ثقافة الانتظار، وجعلهم أسرى لظلمات الغرب، لدرجة أنهم أداروا ظهورهم للثورة الإسلامية، وأعطوا الفرصة لأعداء الإسلام في أحداث تيار الفتنة التي تمت عام 2009م، وهي الأحداث التي أعقبت الانتخابات الرئاسية احتجاجاً على نتيجة الانتخابات النهائية لصالح المرشح محمود

أحمدي نجاد ويذكر الكاتب أن الإمام الخميني ذكَّر الإيرانيين كثيراً بأن الله جعلهم مسئولين عن فتح طريق ظهور المهدى، وبأن الله مَن عليهم، وبدأ ثورة المهدى العالمية بثورة الإمام الخميني (1979م)، حتى يكون توجههم هو توجه المنتظرين. ويقول إن الإمام الخميني أكد في "صحيفة الإمام" على أنه يجب اليوم محاربة الجمود والسكون والسكوت، كما يجب التحرك والحماس والقيام بثورة، وقال إن هذا هو معنى انتظار ثورة المهدى العالمية. وينصح المؤلف الإيرانيين ويقول: ليس أمامنا في الوقت الحاضر سوى طريق الإمام الخميني، من أجل استمرار الانتظار في معسكر المنتظرين للمهدى، فهذا الطريق هو طريقنا إلى ثقافة الانتظار، وإلى الوصول إلى الهدف المنشود وهو: ظهور المهدى. فإن الشعب الإيراني استطاع بقيادة الإمام الخميني وثقافة الانتظار طي طريق المائة عام في ليلة واحدة. ويعود المؤلف إلى الحديث عن الثقافة الغربية والحداثة، ويقول: يوجد فرق شاسع بين ثقافة الحداثة الغربية وبين ثقافة الانتظار، وطالما لم نهتم بالإيمان بالمهدى، فلن نتحرر من الثقافة الغربية، ولقد جربنا هذا في الثورة الإسلامية التي قامت في بلادنا، واتضح أنه يجب تغيير الحاكمية، وذلك حتى يبدأ الشروع في تغيير وجهات النظر والقناعات. وقد تعرضت الثورة الإسلامية لإخفاقات وانكسارات في بعض الفترات بسبب بعض الجهات

والمتدينين الذين لم يفهموا روح الحداثة الغربية التي هي روح محاربة المهدى، فهؤلاء على الرغم من إيمانهم بالثورة الإسلامية، إلا أنهم عرضوا الثورة للإخفاقات بسبب تبنيهم للنظرة الغربية إلى العالم.

ويحمل المؤلف على الشخص الذي يلجأ إلى الثقافة الغربية، ويقع في قبضة العلمانية والحداثة، وهي الأشياء التي حجبت نور الإمام المهدى، ويقول: كيف يقبل شخص القيم والمبادئ الغربية، بوصفها الهدف المنشود، ويدخل وادي الانتظار في الوقت نفسه؟! على الرغم من أن الإمام الخميني، الذي كان خبيراً بالروح الغربية، صرح كثيراً بأن روح التشيع لا تتفق مع الثقافة الغربية، ولهذا السبب وجه الأنظار إلى ظروف حاكمية الإمام المهدى. إن ثورة الإمام الخميني بكل خصائصها الروحية والثورية، هي بداية طريق ظهور نور المهدى، وسيبدأ السير في طريق المهدى بظهور المهدى، بشرط أن نتسلح بروح الانتظار، ولا نستسلم لظلمات آخر الزمان، وأن نعبر الطريق، ونحن على علم بالتأثير السلبي لتلك الظلمات. وإذا درسنا أسلوب نجاح الثورة الإسلامية في سياق ثقافة الانتظار والفرج، سنجد أن هذا الأسلوب نموذج جيد، لأن قيام الثورة الإسلامية عام (1979م) دل على أنه من الممكن استدعاء الثقافة الإسلامية في سياق انتظار الفرج، في الوقت الذي كانت معظم الآراء والمعتقدات قد اقتنعت بأن مرحلة حاكمية الدين قد مضى

عهدها. إن انتصار الثورة الإسلامية في مثل هذا الوقت أدى إلى عدم وجود أي إنكار لحقيقة قيام ثورة المهدى العالمية، فهذا الانتصار أثبت أن عقيدة انتظار الفرج عقيدة واقعية ومنطقية، فالإمام الخميني كان يؤمن، في إطار عقيدة انتظار الفرج، بأنه مكلف بمهمة يجب القيام بها تحت راية المهدى، وبأنه يجب أن يقدم الثورة الإسلامية في إطار ثقافة الانتظار. لأنه عندما تظهر الثورة الإسلامية بهذه الهُوية في ثقافة الانتظار، سيكون وجودها وبقاؤها إشارة إلى الفرج النهائي والغاية النهائية. وبانتصار الثورة الإسلامية وبغلبة الفكر الديني، أدرك الناس أن الله يحفظ دينه، ويربي أولياءه في الدنيا، لكي يحافظوا على الناس من السقوط في ظلمات آخر الزمان، ولكيلا يتركوا ظلام الكفر واليأس يخيم على الدنيا. ثم يتحدث المؤلف عن أهمية وضرورة انتظار الظهور والفرج النهائي على يد المهدى، وعن أضرار الغفلة عن انتظار هذا الفرج، ويقول: تصرف الإمام الخميني مع روح انتظار الفرج في العالم الجديد، دون أن يخشى الثقافة الغربية، ودون أن تؤثر عليه ثقافة الحداثة، فيغض الطرف عن الشروط التي يجب أن تتوفر بظهور الإمام الغائب، وما فعله الإمام الخميني يختلف عما فعله بعض علماء الدين المستغربين الذين تجاهلوا ظلمات آخر الزمان، وجعلوا من أنفسهم حراساً للظلمات التي تؤدى إلى استمرار غيبة الإمام المهدى. وقد صرح

الإمام الخميني غير مرة وقال: ثورتنا هي بداية ثورة المهدى العالمية، ونحن لا نتقاعس عن مبادئنا لحظة واحدة، وهي تنحصر في مواجهة المستكبرين في العالم، والدفاع عن المستضعفين. والمنتظر الحقيقي هو الذي يتصرف في عالم "الناسوت" (العالم المادي والطبيعة البشرية) دون التخلي عن عالم " الملكوت " (العالم العلوي) بعون من نور المهدى، ويفكر في هدم ثقافة ظلمات آخر الزمان تماماً، ولا ينصرف لحظة واحدة عن إقامة حكومة الإسلام العالمية. إن روح المنتظر هي روح الإنسان البصير الذي يعرف زمانه من جميع الجهات، ولا يخدعه بريق الوضع القائم، ولا يغفل عن هدفه الرئيسي، ويدرك أين تكمن جذور الانحراف، وما هو طريق العلاج والخلاص. إن السر الذي أبقى على روح التفكير الغيبي متقدة بصفة دائمة في نفوس الشيعة، هو جوهر الانتظار، فثقافة المهدوية والانتظار مرتبطان بالفكر بصفة عامة، والفكر الصحيح بصفة خاصة، وإذا لم يتم إحياء هذه الثقافة بجهود المسلمين، سينمحي الفكر الإسلامي الأصيل. وانتظار الفرج يخلق تغييراً في شخصية الإنسان المنتظر، ويحول نحاس وجوده إلى ذهب. والإيمان بحاكمية الله في زمن الغيبة عن طريق الولي الفقيه تعد من ضروريات عصر اجتياز ظلمات آخر الزمان وصولاً إلى ظهور الإمام المهدى، فمحال أن يؤمن شخص – من الناحية العلمية – بالمهدوية

وبتحقق دور المهدى في مستقبل التاريخ، ويجهل المنزلة التاريخية لولاية الفقيه. ثقافة الانتظار لها صلة روحية بالماضي والمستقبل، وهذا ليس موجوداً في سائر المذاهب والأيديولوجيات في جميع الأمم. والانتظار أفضل الأعمال، فعبادة الصوم عمل طيب، والصلاة عمل طيب، لكن انتظار الفرج أسمى من هذه العبادات جميعها، فانتظار ظهور المهدى يُدخل الإنسان الموحد في عالم ما بعد الصلاة والصوم. عالم القدس، فتصبح بنية هُويَّة هذا الإنسان قدسية.

ويشير المؤلف في كتابه إلى أن مناخ ظهور اسم "الله" الجامع توفر بقيام الثورة الإسلامية التي قامت في عام 1979م، ويقول إن ثورة المشروطية التي قامت في عام 1906م لم تكن المناخ المناسب لظهور اسم " الله " الجامع، وذلك لأن منزلة الشاه (القاجارى) ومكانته كانت تؤخذ في الاعتبار في ثورة المشروطية. ويرى أيضاً أن مؤسسي وأنصار "جمعية الحجتية" "وحركة الحرية" تمسكوا بالثقافة الغربية، وبحثوا عن الفرج في التغريب، وليس في العودة إلى " الحق " الذي هو: الوجود المطلق. وكانت جمعية الحجتية قد كرست نشاطها في التصدي للبهائيين وفي عقيدة المهدى المنتظر وظهوره ورجعته، وأُجبرت على وقف نشاطها في عام 1983م، إلا أنهم مارسوا

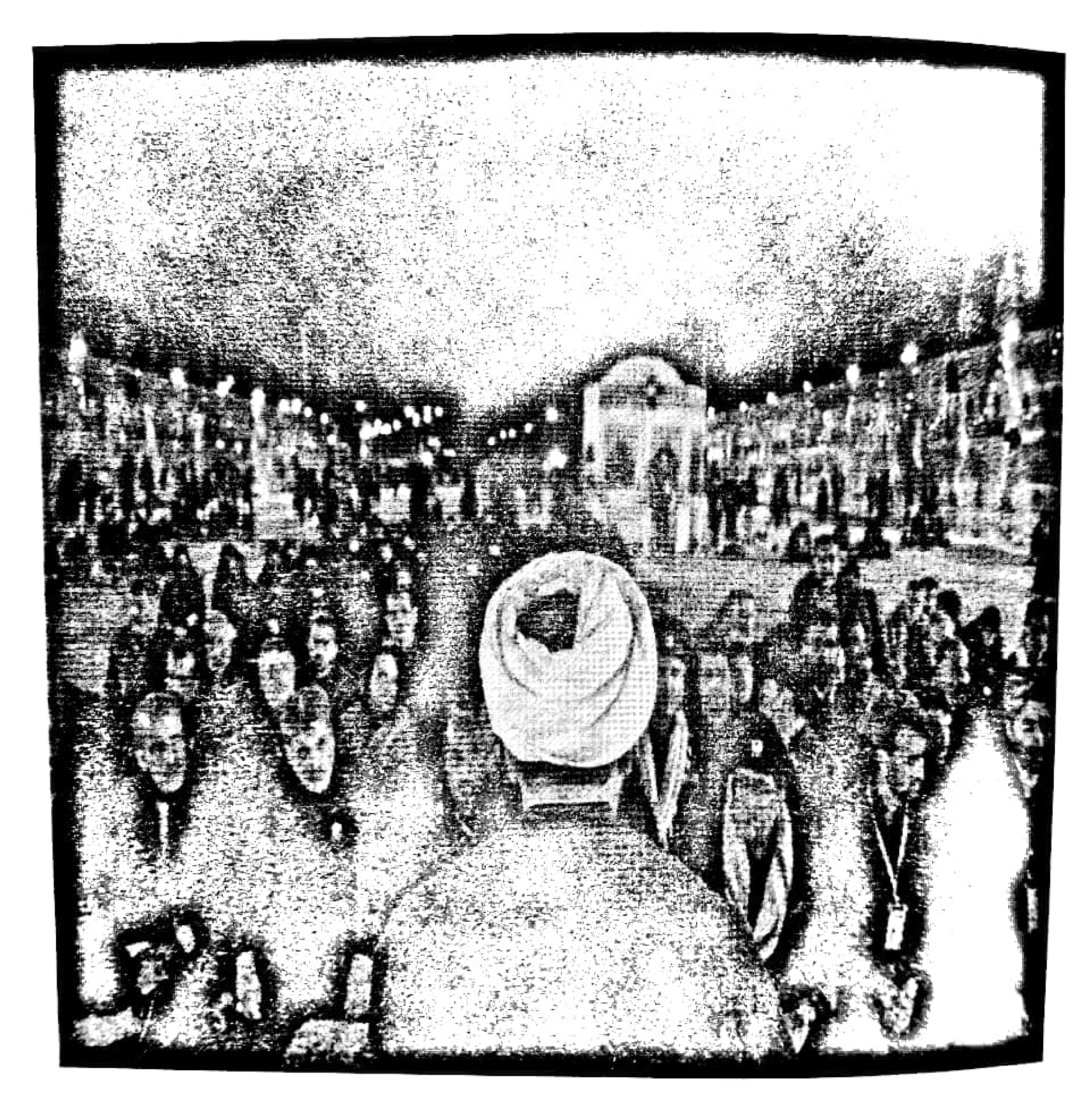
نشاطهم أثناء الحرب الإيرانية – العراقية (1980 – 1988م) بين الجنود على جبهات القتال وبعد انتهاء الحرب، والجمعية تحمل اسم: جمعية الحجتية المهدوية الخيرية، والاتهامات الموجهة إليها هي: فصل الدين عن السياسة، وموقفها السلبي من نظرية ولاية الفقيه. أما حركة الحرية، فكانت قد تأسست عام (1961م) على يد مهدى بازرجان وآخرين، واستمر نشاطها بعد قيام الثورة الإسلامية، على الرغم من حظر النظام الجديد لها قانونياً. ويرى المؤلف أن إنكار المهدى ورفضه بوصفة " الإنسان الكامل "، ليس إلا تحميقاً للعقل الإنساني، وسيؤدى إلى تدمير الروح والقلب، ذلك لأن إنكار المهدى وعقيدته، من وجهة نظره، إنكار لجوهر الإنسانية.

وفي نهاية الفصل نقول إن الرئيس الإيراني السابق محمد أحمدي نجاد كان يكثر في خطبه وكلماته وفي المؤتمرات التي كانت تُعقد في الجمهورية الإسلامية الإيرانية في فترة ولايته عن المهدوية من الحديث عن المهدي المنتظر وعن عودته وظهوره، وكان يصرح بأن المهمة الرئيسية للثورة الإسلامية هي تمهيد الطريق لظهور الإمام المهدي، ولذلك يجب أن تكون إيران مجتمعاً إسلامياً قوياً ومتطوراً، حتى تستحق في النهاية أن تكون ميداناً لظهور الإمام الغائب،

ويقال إن الرئيس أحمدي نجاد سيس عقيدة المهدوية، وإن مستشاره الروحي: آية الله مصباح يزدى كان يدعم هذه الفكرة. وقيل إن الرئيس نجاد خصص مبالغ طائلة لترميم وتوسيع مسجد جَمْكران (مسجد الإمام المهدى الموجود في مدينة قم) وملحقاته من منطلق القفزة التي حدثت في الثقافة المهدوية بعد قيام الثورة الإسلامية عام (1979م). وتحت عنوان: نظام الملالي رهن سياساته بالمهدى المنتظر، نشرت صحيفة الأهرام المصرية في (2010/7/30م) أن زعيم المعارضة الإصلاحي الإيراني مير حسين موسوي اتهم النظام الحاكم في إيران بأنه وضع السياسات الخارجية والداخلية للبلاد في إطار خرافي، وأوقف تنفيذ مشروعات صناعية ونفطية ومشروعات أخرى متعلقة بالطاقة والمياه بحجة الانتظار، وندد موسوي بهذه الإجراءات، مشيراً إلى رواج الخرافة في النظام خصوصاً لدى السلطة الحاكمة في شأن انتظار المهدى المنتظر، حيث تحدث البعض عن قرب ظهوره، وحدد البعض موعداً لهذا الظهور.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

تأثير ثقافة المهدوية على القوات المسلحة



أحد المحاضرات التي يلقيها رجل دين في مناسبة دينية تصوير

مصطفى مراجي

Https: //Unsplash.com

تأثير ثقافة المهدوية على القوات المسلحة

في الكتاب الذي طبعه جيش حرس الثورة الإسلامية بعنوان: قيام مهدينا المنتظر، ونشرته دار نشر الجامعة العليا للدفاع الوطني الإيراني، وقام بتأليفه الدكتور سيد حسن فيروزآبادي رئيس القيادة العامة للقوات المسلحة ورئيس هيئة أمناء الجامعة العليا للدفاع الوطني، وكتب مقدمته رئيس الجامعة سالفة الذكر، تحدث المؤلف تحت عنوان: القدرة في النضال الثوري المُنجى، عن أن مسألة المهدوية أصبحت موضع اهتمام في العصر الحاضر، نظراً لأنها مسألة عالمية وتوحيدية، ونظراً لإقامة حكومة نائب إمام الزمان في إيران بعد قيام الثورة الإسلامية، ولأن الهدف هو إقامة مجتمع يمكنه أن يكون نموذجاً من ذلك الشيء الذي سيقيمه الإمام المهدي في آخر الزمان. ونظراً لأن نظرية ولاية الفقيه – التي تحد نقطة تحول في الفكر الشيعي – ترتكز على ولاية صاحب الزمان، وأن الإمام الخميني (1979 – 1989م) أقام الجمهورية الإسلامية على أساس هذه النظرية من منطلق أنها استمرار لحركة الأنبياء، وأنه هو الولي الفقيه أو ولي الفقيه ونائب إمام الزمان، وهو في هذا الزمان "ولي الله" و"حجة الله"، وعطية الإمام المهدي للإيرانيين؛ حتى يرجعوا إليه في زمن الغيبة. ويضيف المؤلف قائلاً: هو قائد ثورتنا الذي

انتخبه علماؤنا وفقهاؤنا من بينهم، وآراؤه هي آراء المهدي الذي يعد وجوده المبارك مرجع جميع مظاهر الجمال والحسن في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وهذا هو السبب في استطاعة الإمام الخميني إيجاد الجاذبية والمقبولية المعنوية في الجمهورية الإسلامية، وفي ميل قلوب الناس إليه، وفي تواجد معارف آل البيت في الساحة؛ مما ساعد على قيام الجمهورية الإسلامية ونجاح نموذجها. وبناءً على هذا، فإن المهدوية هي أصل الثورة والحكومة الإسلامية، وهي أهم وأسمي شيء في الجمهورية الإسلامية. أما عالمية المهدوية، فتتمثل في أن أتباع جميع الأديان ينتظرون المُنجى والمُخلص الذي سينشر العدل فيهم، ويقيم حكومة عالمية في آخر الزمان، ولسنا في حاجة إلى أن نقول لأتباع الأديان الأخرى: تعالوا، واقبلوا مهدينا.

ويواصل المؤلف حديثه عن المهدوية، ويقول: لقد تم تكريس مسألة المهدوية بعد قيام الثورة الإسلامية في عام 1979م، حتى أصبحت أكثر قوة وأصلب عوداً وأعمق جذوراً، لدرجة أنهم أنشأوا مراكز جامعية وهابية، لمواجهة مسألة المهدوية، ولما كانوا غير قادرين على إنكار هذه المسألة، ألفوا عشرات الكتب لمواجهتها، على الرغم من أن أهل السنة يؤمنون بالمهدوية أيضاً، وأن مهديهم له الخصائص نفسها. ويجب علينا أن نسعى من أجل الارتقاء بثقافة

المهدوية وتكريسها، بدون النظر إلى الاختلاف الموجود بين الأديان، فالبشرية جميعها تنتظر ظهور المهدي، كل بطريقته. فهو موضوع لا يخص الشيعة وحدهم، ولا المسلمين وحدهم، بل يخص البشرية كلها، والأمم جميعها. ويتحدث المؤلف عن الانتظار الشيعي، ويقول إن للشيعي المنتظر خصيصتين جميلتين: الأولى: المجاهدة، والثانية: التبليغ، ولو ثُقف الشيعي المنتظر جيداً، سيتحول إلى إنسان عارف بالمهدي ومُبلغ ومحارب للاستكبار، وهذه المسألة قابلة للتطبيق على المؤمنين بالموعود المُصلح الناشر للعدل في سائر الأديان. والانتظار ليس معناه الجلوس وسكب العبرات، لكن معناه: بناء النفس، والتسلح بالوعي، ومحاربة الظلم والفساد، ونشر العدل والقسط. ونشر ثقافة انتظار المُنجي المُصلح الموعود الناشر للعدل، لن يُسكن آلام البشر فقط، بل سيخرجهم من الحالة الانفعالية ومن حالة المعاناة من الظلم والشدة والحيرة، وسوف يمنحهم النشاط والشعور الروحي الإيجابي. إن ثقافة المهدوية تُعد أفضل نموذج للسياسة والعلاقات الدولية والاقتصاد والتربية والحياة الأسرية، ودولة المنتظر هي دولة المشتاق النشط الصادق في التمهيد لظهور المهدي، وخدم الإمام المهدي يحاولون وهم مشتاقون جذب السياسة والاجتماع والاقتصاد والثقافة صوب الفضائل الأخلاقية والخيرات، ويسعون إلى الوصول إلى

التكامل الأخلاقي عن طريق الربط بين السياسة والأخلاق، ويرغبون الناس في تسخير العلم والصناعة والتكنولوجيا في مجال الاستعداد لظهور المهدي، وفي السير بعلاقتهم مع الله وفيما بينهم ومع الآخرين ومع الطبيعة صوب التصحيح. ويؤكد المؤلف على ضرورة الترغيب المهدوي، أي القيام بترغيب الجيل المنتظر دينياً، ويقول إن أدبيات الترغيب المهدوي ترتكز على ثلاث ركائز: المعرفة – العاطفة – العمل. وقد تحول الترغيب والترويج الديني مع بداية الثورة الإسلامية من القالب التقليدي إلى الأساليب والاستراتيجيات الجديدة، وحظي الترغيب المهدوي باهتمام خاص، حيث تمت مراعاة الاختلافات الروحية والنفسية والفكرية للمخاطبين، كما تمت مراعاة تطابق تعاليم الترغيب مع احتياجات المجتمع، ومع الاعتماد على العقل والاستدلال، وعلى القمر الصناعي والإنترنت، والاستفادة منه الفضاء الثقافي الافتراضي في الحديث عن الظهور والولاية والانتظار وكيفيته وثقافته ونظريته. ثم يتحدث المؤلف عن ضرورة اهتمام النظام السياسي بالترغيب البّناء والتشويق المثمر، وبتنمية ذلك في نفوس المنتظرين. كما يتحدث عن الاشتياق الفعال والمسئول لظهور المهدي، ويقول: إن هذا الاشتياق يجب أن يتجسد في قالب محاربة مظاهر الفساد الأخلاقي والاجتماعي، فالمشتاق يسعي دائماً إلى التخلص من التلوث

الأخلاقي (الرياء والاحتيال والطمع والفسق والفجور)، ويطبق مبدأ: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع المناحي الاجتماعية، وفي جميع معاملاته. ويجب توفر الاشتياق والرغبة والحافز في الشيعي المنتظر في عصر الغيبة، والتمهيد للظهور هو الطريق الوحيد للوقاية الأساسية من الغزو الثقافي، ويجب إزالة أي عقبات من شأنها أن توفر عودة المهدي. وعن علماء الدين، يقول المؤلف: علماء الدين هم جنود الإمام المهدي ومعلمو مدرسته، وهم ينابيع زلال ثقافة الثورة الصافية.

وعن تأثير ثقافة المهدوية على القوات المسلحة، يقول المؤلف: كانت ثقافة المهدوية موجودة قبل الثورة الإسلامية، وكانت اللافتات التي تحمل شعار "يا صاحب الزمان العالم في انتظارك" موجودة في جميع أنحاء البلاد. أما بعد الثورة التي قامت في عام 1979م، كان الجنود الذين توجهوا إلى جبهات القتال في الحرب الإيرانية-العراقية من الذين تربوا في مدرسة انتظار الإمام المهدي، وكنا نرى أن جيش صدام حسين جيش كلاسيكي مزود بأحدث الأجهزة والمعدات وأكثرها تطوراً، وفي المقابل، كنا نعد الجيش الإيراني بعد قيام الثورة جيشاً وليداً وشعبياً، وأن أبناء الشعب الإيراني ليس لديهم التجربة والتخصص اللازمين، لكنهم توجهوا

إلى جبهات القتال مسلحين بثقافة المهدوية، واصطفوا وقاوموا ذلك الجيش المدرب والمستعد جيداً للقتال. الحكاية بعد قيام الثورة الإسلامية، مختلفة، فالبسيجي (الفرد في جيش التعبئة)، أصبح معناه: منتظر إمام الزمان، والبسيجي يعشق ولاية الفقيه بسبب عشقه لإمام الزمان، فعشق إمام الزمان كان سبباً في الإقبال على ولاية الفقيه. وسبب طاعة المواطنين لأوامر الإمام الخميني، هو عشقهم للوجود المبارك لإمام الزمان (المهدي)، وهذا العشق له علامات محددة، ومن بينها: مسجد جَمْكران، وهذا المسجد كان موجوداً قبل الثورة، لكن اتساع المسجد وعدد زوّاره بعد الثورة غير قابلين للمقارنة بالماضي، بعد أن تحول المسجد من مسجد صغير متواضع إلى أحد الأضرحة المقدسة، وقد خصص له الرئيس السابق نجاد (2005 – 2013م) مبالغ طائلة لترميم هذا المسجد وملحقاته، والحضور المليوني في هذا المسجد الموجود في مدينة " قم " نتج عن أن الثورة الإسلامية أحيت العشق الدفين في كيان المواطنين لصاحب هذا المسجد (المهدى)، وهذا العشق ساقهم ووجههم أيضاً إلى الثورة. وقد وصف البعض هذا المسجد بأنه: مسجد الاستغفار ومعبد الانتظار، ووصف التوسع الهائل الذي تم في محيطه بأنه يُعد نموذجاً بارزاً للقفزة التي حدثت في الثقافة المهدوية.

وأضاف المؤلف قائلاً: بعد قيام الثورة الإسلامية، لم تكن الثقافة السائدة في القوات المسلحة ناتجة عن العمل الثقافي فقط، بل كان لعشق آل البيت وإمام الزمان دور مهم في تشكيل ثقافة الجندي أو البسيجي قبل أن يلتحقا بالقوات المسلحة. وكان لمحبة وجاذبية المهدي دور مهم في التحاق عدد كبير من الطلاب الذين أتموا دراستهم بالقوات المسلحة أو جيش البسيج (التعبئة). ويؤكد المؤلف على أهمية تدريس المعارف الإسلامية للشبان، وعلى أهمية مشاركتهم في رحلات يزورون فيها الأماكن المقدسة، مثل: حرم الإمام الرضا (الإمام الثامن للشيعة، وهو موجود في خراسان)، وحرم السيدة المعصومة في قم (شقيقة الإمام الرضا)، ومسجد جَمْكران، ومناطق عمليات الدفاع المقدس، وبيت الإمام الراحل (الخميني)، وغيرها من الأماكن الزاخرة بمعارف الإمام المهدي وآل البيت.

كما يؤكد المؤلف على الجمع بين العلم والعسكرية في معسكرات البسيج (التعبئة) التي يلتحق بها الشاب المؤمن بالمهدي وبالأفكار الثورية. ويستشهد المؤلف بما كان يحدث في جبهات القتال أثناء الحرب العراقية الإيرانية (1980 – 1988م) في الليل، حيث كان الجنود يتضرعون إلى الله، ويتحدثون بحب عن المهدي. ويضيف

قائلاً: لم يكن أي مقاتل على الخطوط الأمامية يتحرك بدون أن يرفع شعار "يا مهدي" أو شعار "يا حسين" أو شعار "الله أكبر" أو شعار "يا صاحب الزمان". يجب إحياء هذه الثقافة ونشرها اليوم. إن اسم المهدي وانتظار ظهوره والإيمان بوجوده حياً واطلاعه على أعمالنا، يُعد من العوامل التي شجعت المقاتلين الإيرانيين في الحرب العراقية الإيرانية على الصمود في الحرب والقيام بعمليات جسورة، والقوات المسلحة التي تؤمن بالمهدي لا تقارن بالقوات التي لا تؤمن به. كان التوكل على الله والاعتماد على رجال الله، وعلى رأسهم المهدي، سبباً في ارتفاع الروح المعنوية وزيادة الكفاءة والقدرة القتالية في القوات المسلحة الإيرانية. نحن لا نحتاج إلى القنبلة الذرية، ونعدها حراماً، لأنها تفني حياة البشر، إلا أن الارتباط المعنوي بالمهدي منحنا قوة أكبر وأكثر. هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى، أهمها: حرص المسلم الشيعي على الشهادة، حيث إنه لا فرق عنده بين أن يقتل أو يُقتل، وهو يطيع أوامر قائد جيش الإسلام، ويتبع أوامر الولي الفقيه نائب إمام الزمان وأوامر رسول الله. وإذا كان ناشر الكتاب يرجو في المقدمة أن يكون الكتاب بارقة أمل للمنتظرين الصادقين للمهدي، وأن يثلج الكتاب صدورهم، وأن يكون هذا الكتاب طريقاً مضيئاً لعشاق المهدي في طريق التمهيد لظهوره، فإن الكاتب يقرر أنه أقدم على تأليف هذا

الكتاب بوصفه شخصاً يعد الإمام المهدي حياً وحاضراً، وبوصفه شخصاً يحب الإمام المهدي ويعشقه، وكان دائماً في خدمته، وبتشجيع من بعض علماء الدين المُخلصين في مؤسسة المهدي الموعود ومؤسسة: آينده روشن (المستقبل المضيء)، وبمساعدة من جانب بعض أصدقائه في الجامعة العليا للدفاع الوطني. ويسأل الكاتب الله – تعالى – رفعة ودوام نظام الجمهورية الإسلامية الإيرانية المقدس تحت زعامة نائب إمام العصر: آية الله خامنئي الذي ستكون دولته – إن شاء الله – هي الدولة الممهدة لظهور المهدي، كما يسأل الله أن يجعل الوجود الكريم لآية الله خامنئي واسطة هداية وخدمة الوجود المقدس لبقية الله الأعظم: الحجة بن الحسن العسكري. ويقول: نحن نؤمن بأن إمام الزمان موجود في كل مكان، والبعد الزماني والمكاني غير مطروح بالنسبة له، فهو يرانا، ويستمع إلى كلامنا، وينظر إلينا نظرة عطف.

وتعقيباً على ما جاء في هذا المقال، نقول إن الانتظار جزء لا يتجزأ من موضوع المهدوية، ومعناه في اللغة: الترقب والتوقع والتربص، وهو في الاصطلاح الشيعي ضرورة من ضرورات الاعتقاد بالإمام المنتظر، وهم يرون أن وفاة المنتظر الحقيقي الطبيعية في عصر الغيبة تُعد شهادة، وأن الشيعي المؤمن بثقافة الانتظار، لا تتحكم فيه

ظلمات زمانه ولا تسيطر عليه. وأن هذه هي أولى بركات الانتظار، كما يؤمنون بأن الشيعي المنتظر يؤدي مهمته في المجتمع، ولا يعتكف في غار، ويحذر من أن تصيبه ظلمات آخر الزمان، ويعي تماماً كيف أصبح الناس أسرى ظلمات الزمان، وكيفية الخروج من هذه الظلمات، وأنه يجب على المنتظر الحقيقي أن ينشر ثقافة الانتظار الصحيحة مستخدماً أحدث أساليب العصر، واللغة التي تتناسب مع احتياجات الجيل الجديد، لهذا فإنهم يرون أن الانتظار في إيران المعاصرة تدريب عملي وفكري، ويؤمنون بأن الثورة الإسلامية تُعد من العوامل الأساسية التي تمهد لعودة المهدي، ولذلك يعدون تمهيد الطريق لظهور المهدي المهمة الرئيسية للثورة الإيرانية. ويتضح من المقال أن الثورة الإسلامية في إيران تسعى سعياً حثيثاً لترسيخ شرعية الولي الفقيه، وذلك لأن البعض مثل: جمعية الحجتية، حرموا النشاط السياسي في زمن الغيبة، وأن الانتظار السلبي سيطر على أسلوب الفكر الشيعي قرون عديدة، على الرغم من أن البعض كان يؤمن بالانتظار الإيجابي المقترن بالنشاط والحركة والسعي والاستعداد من أجل التمهيد لثورة المهدي العالمية في زمن الغيبة، ومن هؤلاء المفكر والفيلسوف وعالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي (1933–1977م) الذي رفض الاكتفاء بالدعاء في زمن الغيبة، ورأي أن الانتظار هو مذهب

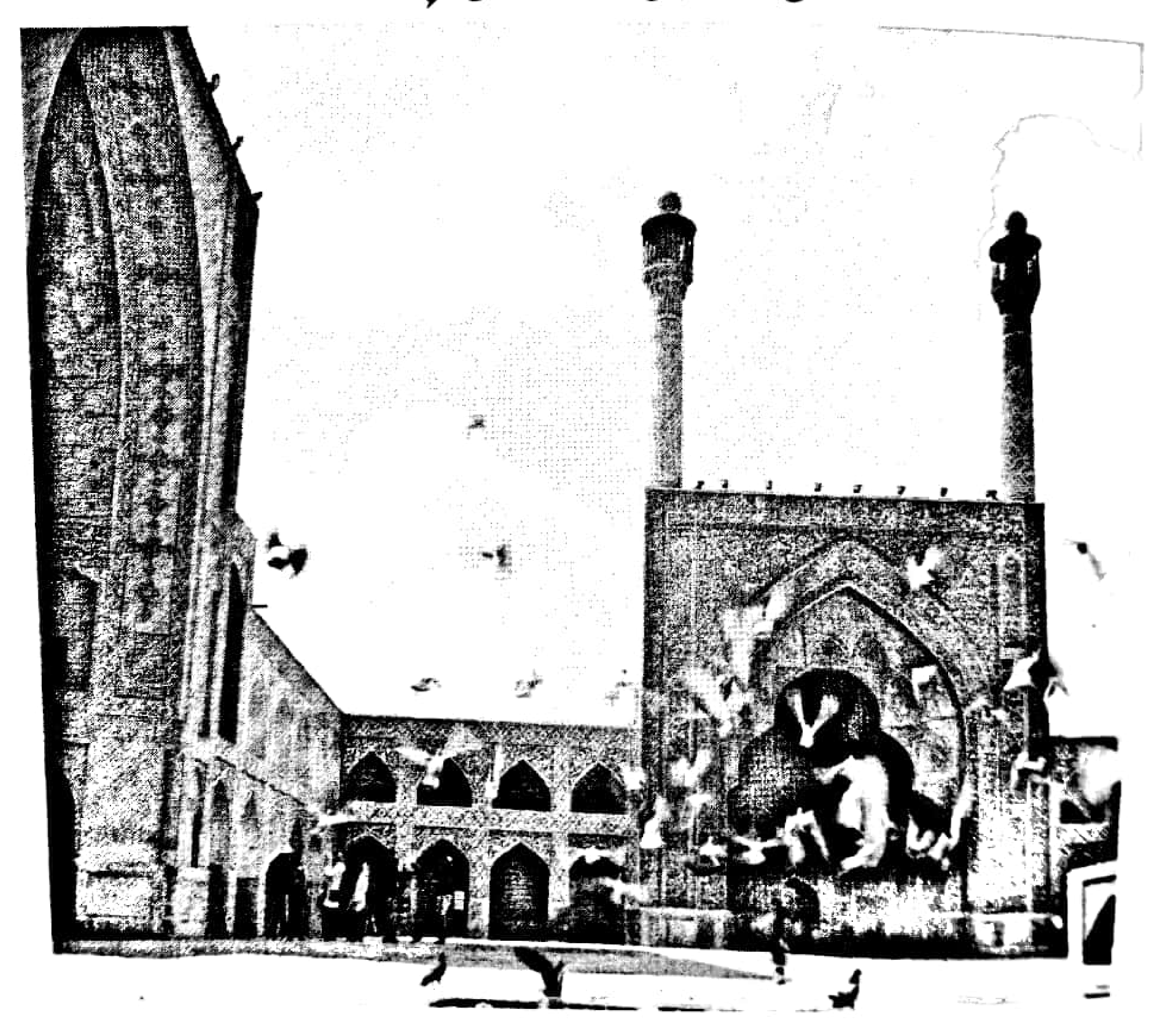
الاعتراض على النظام الحاكم والوضع الراهن، والرفض المطلق لهما. وجدير بالذكر أن كتب الأدعية الشيعية تتضمن دعاءين هما: دعاء الندبة ودعاء الفرج، وفي الدعاءين إشارات عن المهدي المنتظر، وجُمل يُظهرون فيها شوقهم إلى رجوعه وظهوره، وفقرات يخاطبونه فيها، ويصفونه بأوصاف عدة، ويعددون فضائله. والأدعية الشيعية تُقرأ في المناسبات، وتُستخدم في التعبئة والاستنفار والتحريض وتفجير الأحزان المكبوتة، وقد استُخدمت أثناء الحرب العراقية – الإيرانية، للاستنفار واستنهاض الهمم.

ومن أسماء المهدي وألقابه عند الشيعة: المهدي المنتظر – المهدي الموعود – المُخلص الموعود – الإمام المنتظر – إمام الزمان – إمام آخر الزمان – ولي العصر – صاحب الزمان – صاحب الأمر – قائم آل محمد – مُنجي آخر الزمان – حجة الحق – حجة الله – بقية الله – القطب – بقية الله الأعظم – مُنجى العالم – الإمام المعصوم. وهم يُقْسمون به، فيقولون: قسماً بإمام الزمان، بحق إمام الزمان. ويطلبون منه العون والغوث، فيقولون: يا إمام الزمان أدركني. وكلما يُذكر اسم المهدي، تُذكر عبارة: عجل الله تعالى فرجه الشريف. ويعد يوم النصف من شعبان (اليوم الذي وُلد فيه الإمام المهدي) عيد انتظار الفرج الكبير، وهو عطلة رسمية في

إيران. ويُذكر أن آية الله خامنئي (المرشد الحالي) قال في خطبة الجمعة التي ألقاها في طهران في (2009/6/3م) مخاطباً الإمام المهدي: سيدنا، مولانا، لا تحرمنا من دعائك، فأنت صاحبنا، وصاحب هذه الدولة (إيران)، وصاحب هذه الثورة، أنت نصيرنا، ونحن سوف نستمر في هذا الطريق بقوة، انصرنا وقونا في هذا الطريق بدعائك ومساندتك واهتمامك.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

قراءة في صلاة الجمعة في إيران بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً على إقامتها



المسجد العتيق، أصفهان، إيران. تصوير زهراء خليل.

Https: //Unsplash.com

قراءة في صلاة الجمعة في إيران بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً

على إقامتها

مما لا شك فيه أن إحياء شعيرة صلاة الجمعة بصفة رسمية بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران في 2/11/ 1979، وإعلان الجمهورية الإسلامية الإيرانية في 1979/4/1م، كان من الأحداث الملفتة للنظر التي حظيت باهتمام زائد في تلك الأزمنة، لهذا كان من الضروري طرح هذه المسألة على بساط البحث لمعرفة المغزى الحقيقي لإعادة هذه الشعيرة في ظل أول حكومة إسلامية في إيران، وللوقوف على الدور الذي لعبته ـ وما زالت تلعبه ـ صلاة الجمعة في نجاح هذه الثورة واستمرارها.

وكانت صلاة الجمعة تقام في بعض المساجد الإيرانية، والبعض الآخر لم تكن تقام فيه هذه الصلاة التي كانت فرضاً واجباً لدى شيعة إيران في حياة الأئمة الاثني عشر. إلى أن غاب الإمام الثاني عشر في عام 260هـ، فأفتى بعض فقهاء الشيعة بعدم وجوب صلاة الجمعة في زمان غيبته، ومال الفقه في إيران إلى الخيار بين صلاة الجمعة أو صلاة الظهر. وكان بعض الفقهاء يفتون بالجمع بين

صلاة الظهر وصلاة الجمعة، ويسمونه احتياطاً مستحباً، وظل هذا الاحتياط عند البعض بعد الثورة.

وترجع أهمية اتخاذ قرار إعادة إقامة هذه الصلاة الأسبوعية إلى أن صلاة الجمعة في إيران كانت متروكة منذ فترة طويلة. فمنذ غيبة محمد المهدي ـ الإمام الثاني عشر ـ رأى بعض فقهاء الشيعة الإيرانيين أن صلاة الجمعة واجب تخييري. كما أفتى البعض بأنها ساقطة وليست واجبة طالما أن الإمام غائب. وأخذ البعض بالتخيير، وأخذ البعض الآخر بعدم الوجوب. إلى أن قامت الثورة الإسلامية، وتمكن علماء الدين في إيران وعلى رأسهم الخميني (توفي في الرابع من شهر يونيو عام 1989م) من التوصل إلى صيغة اجتهادية جديدة ترى أنه من الممكن أن يكون للإمام الغائب نواب من الفقهاء العدول، ويكون من حق هؤلاء النواب القيام بجميع الأعمال التي كان الإمام الثاني عشر يقوم بها، وذلك حتى يظهر الإمام.

وقام الإمام الخميني ـ بوصفة نائباً للإمام الغائب ـ بتعيين أول إمام للجمعة في طهران بعد قيام الثورة. كما أنه أصدر أوامره بتعيين أئمة للجمعة في المدن والقرى الإيرانية، وبتشكيل أمانة عامة تشرف على مراسم صلاة الجمعة، وتحدد الموضوعات التي يجب

على أئمة الجمعة في جميع أنحاء إيران أن يطرقوها، والتي يجب أن تشتمل عليها خطبهم.

ولصلاة الجمعة في جمهورية إيران الإسلامية مراسم وقواعد، وتقوم الأمانة العامة لأئمة الجمعة بوضع برنامج هذه المراسم في كل المدن الإيرانية، ويتوجه المصلون في التاسعة والنصف من صباح يوم الجمعة إلى المسجد الجامع في المدينة للإنصات إلى المحاضرات التي تلقى قبل خطب صلاة الجمعة.

وإلقاء هذه المحاضرات يتم طبقاً للبرنامج الذي كانت قد وضعته الأمانة، وتختار الأمانة كل أسبوع محاضراً من فقهاء مجلس الرقباء على الدستور (شوراى نكهبان)، أو من أعضاء مجلس الشورى الإسلامي (مجلس شوراى الإسلامي)، أو مجلس الخبراء (مجلس خبركان)، أو من فقهاء مجلس خبراء القيادة (مجلس خبر كان رهبرى)، أو أحد مدرسي الحوزة العلمية بقم، أو من ممثلي الإمام في اللجان المختلفة، أو من الوزراء المسئولين، وذلك حتى يلقى محاضرة في أحد الموضوعات المهمة والحيوية من وجهة نظر النظام الجديد.

وأهم الموضوعات التي تبحث في هذه المحاضرات هي: المناسبات الدينية والمذهبية والسياسية، والمسائل الدينية وسيرة الرسول (عليه الصلاة والسلام) وأئمة الشيعة، والقضايا المعاصرة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية.

وفي نهاية المحاضرة، تبدأ شعائر صلاة الجمعة، ويجب أن يكون خطيب الجمعة واقفاً أثناء الخطبة، ويجب أن يجلس قليلاً بين الخطبتين، ثم يلقي خطبة ثالثة باللغة العربية. وتدور الخطبة العربية في العادة. حول أحداث منطقة الخليج والدول العربية والإسلامية. وبعد الفراغ من الخطب الثلاث، يصلي الناس ركعتين خلف الإمام، وتنتهي شعائر صلاة الجمعة ثم يتفرق المصلون.

مكانة إمام الجمعة في إيران بعد الثورة الإسلامية:

أقيمت أول صلاة جمعة رسمية بعد قيام الثورة الإسلامية بأمر من الإمام الخميني وإمامة آية الله الطالقاني في فناء جامعة طهران، وكان ذلك في الأسبوع الأول من شهر رمضان المبارك عام 1399هـ ق الموافق 1979/7/27م، وكان سبب اختيار الإمام الخميني لآية الله الطالقاني لكي يؤم أول صلاة تعبدية سياسية للمرة الأولى في إيران أنه كان من علماء الدين البارزين، وكان له تاريخ نضالي طويل

ومعروف. لكنه توفي في (1979/9/10م) بعد أن أم المصلين وخطب الجمعة ست مرات فقط. وعين الخميني آية الله منتظري خلفاً له في منصب إمام الجمعة الرسمي في طهران، ثم عين آية الله خامنئي بدلاً منه، ولا يزال آية الله خامنئي - المرشد الأعلى - إمام الجمعة الرسمي في طهران ويساعده أئمة مؤقتون.

وكانت إقامة أول صلاة جمعة في إيران بعد قيام الثورة الإسلامية حدثاً مهماً في ذلك الوقت، ودليلنا على ذلك أن عناوين الصحف الإيرانية التي صدرت قبل يوم الجمعة كانت على هذا النحو: آية الله الطالقاني يؤم صلاة الجمعة في جامعة طهران.

ولأئمة الجمعة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية منزلة عالية ومكانة بارزة، وذلك بسبب الدور المهم والموجه الذي لعبوه في المجتمع الإيراني في السنوات الأولى للثورة، فقد أصبحوا قناة من قنوات الاتصال التي لجأ إليها النظام الإيراني الجديد، لتوصيل مفاهيم السياسة الجديدة للدولة إلى أفراد الشعب، ولتهيئة أذهان المواطنين للثورة الإسلامية الوليدة ولنظام الحكم في الإسلام، ولحشد الجماهير للوقوف خلف هذه الثورة ومساندتها، ولشرح مسألة (ولاية الفقيه) التي تعد القاعدة الرئيسية لدستور الجمهورية

الإسلامية الإيرانية. هذا فضلاً عن تناول الموضوعات الفقهية المعتادة وقضايا الساعة في المجتمع الإيراني.

وبمرور الأيام وتعاقب السنوات زاد حجم الدور الذي يلعبه إمام الجمعة في الإبقاء على الثورة الإسلامية وعلى النظام الجديد في إيران، فالخطب الثلاث والموضوعات التي تشتمل عليها لا تسمح للفتور بأن يتسلل إلى نفوس المواطنين، فيقل حماسهم للثورة وللنظام.

ولقد أدرك زعماء الثورة الإسلامية أهمية دور خطباء الجمعة منذ البداية، فاهتموا بهم وأسدوا إليهم النصح كلما سنحت الفرصة بذلك.

أهمية صلاة الجمعة ودورها من وجهة نظر الإيرانيين بعد قيام الدورة الإسلامية:

أصبحت لصلاة الجمعة أهمية خاصة بعد الثورة الإسلامية في إيران، كما أصبحت هذه الصلاة ضمن السياسة الرئيسية للدولة، وتم تطوير وتطويع شعائرها لتصبح صلاة تعبدية سياسية، ولكي تخدم أغراض النظام الجديد، واستحدثت لها أسماء جديدة، مثل: الجهاد

الأسبوعي ـ الصلاة السياسية ـ الصلاة التعبدية السياسية ـ صلاة الجمعة القوية المحطمة للعدو.

وأصبحوا ينظرون إلى صلاة الجمعة على أنها صف جهاد إلى جانب العبادة، بل أنهم يعدونها تأييداً ومساندة للإسلام في مواجهة الكفر. ولهذا لعبت خطب صلاة الجمعة دوراً بارزاً في دعم جبهات القتال في سنوات الحرب الإيرانية العراقية (1980 –1988م).

ونظراً لأهمية صلاة الجمعة، ولعظم الدور المنوط بها اختاروا إماماً دائماً وأربعة أئمة مؤقتين لكي يؤموا صلاة الجمعة التي تقام في مسجد جامعة طهران بالتناوب، ويتناول خطباء الجمعة في خطبهم قضايا الساعة وسياسة الدول، بالإضافة إلى الاجتهادات الفقهية والإرشادات الدينية.

وصلاة الجمعة تعد ـ من وجهة نظر الإيرانيين بعد قيام الثورة الإسلامية ـ نموذجاً مصغراً وواقعيا وحياً من الثورة الإسلامية، ومكسباً من مكاسب هذه الثورة كما أنهم يعدونها تظاهرة سياسية عظيمة تقام كل أسبوع في جميع المدن والقرى الإيرانية، ولها فوائد ورموز وقواعد وآداب اجتماعية عديدة.

أما عن الدور الذي تلعبه صلاة الجمعة فيمكن ملاحظته من خلال ما يكتبه الإيرانيون أنفسهم، فهم يرون أن صلاة الجمعة . بكل مراسمها . حلقة لقاء أسبوعي بين القائد وأفراد شعبه، ودرس أسبوعي يعطيه الجيل الذي عاصر الثورة إلى الأجيال اللاحقة، وأن تعاقب رؤساء السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية على إمامة صلاة الجمعة في طهران، أوجد تقارباً روحياً في المفاهيم السياسية بين المصلين والمسئولين في الدولة، وأن هذه الصلاة الأسبوعية أتاحت الفرصة الكاملة للحاكم الإسلامي لكي يصل إلى أفراد الشعب وطبقاته، لكي يعظهم وينصحهم ويتحدث إليهم عن مشكلات المسلمين محلياً ودولياً، وأن هذه الصلاة . على الرغم من أنها من الأمور التعبدية . إلا أنها تعد مجالاً من مجالات الإعلام التي تربط القيادة بالقاعدة الشعبية، وأن العدد الكبير الذي يشارك في صلاة الجمعة يوضح القاعدة الشعبية للنظام الجديد، وأن المشاركة المستمرة في هذه الصلاة يقوى الأواصر الاجتماعية بين أفراد الأمة الإيرانية.

وبعد أن أدرك زعماء الثورة الإسلامية الدور المهم الذي يمكن أن تلعبه صلاة الجمعة وخطبها المستمرة في الإبقاء على الثورة الإسلامية في إيران، وبالتالي على النظام الجديد، طلب مركز إقامة

صلاة الجمعة من علماء الدين البارزين في إيران أن يصنفوا الكتب وأن تناولا فيها فرضية صلاة الجمعة وأهميتها وآدابها.

ومظاهر الاهتمام بشعائر صلاة الجمعة في إيران بعد قيام الثورة الإسلامية كثيرة، منها: قيام العلاقات العامة التابعة لمركز إقامة صلاة الجمعة بنشر إعلان في مكان بارز بالجرائد اليومية التي تصدر في طهران العاصمة، وذلك يوم الأربعاء ويم الخميس من كل أسبوع، تشير فيه إلى اسم المحاضر ومنصبه والموضوع الذي سيتحدث فيه وموعد بداية المراسم ونهايتها.

ومن هذه المظاهر أيضاً: إذاعة خطب صلاة الجمعة الرئيسية التي أقيمت في العاصمة طهران في وسائل الإعلام المرئية منها والمسموعة في نفس اليوم، وإدراج ملخص لهذه الخطب في النشرات الإخبارية، ونشر هذه الخطب في الصحف والمجلات في اليوم التالي أو الأيام التالية. كم ينشر ملخص لخطب صلاة الجمعة التي أقيمت في سائر المدن الإيرانية في الجرائد اليومية ـ عامة ـ وجريدة: جمهوري إسلامي ـ خاصة ـ وإن كانت خطب طهران تحظى باهتمام أكثر.

ومنها أيضاً: تخصيص أمانة عامة لتنظيم مسألة خطب الجمعة، وتحديد موضوعاتها في جميع المحافظات، ولعقد المؤتمرات الدولية

لأئمة الجمعة في العالم أجمع، وقد عقدت هذه الأمانة أول مؤتمر لها في طهران في عام 1982م كما أعلن الإمام الخميني يوم القدس في (20 رمضان عام 1399هـ)، وجعله يوماً عالمياً، واختار له آخر جمعة في شهر رمضان من كل عام. وبعد أن اتضح أن صلاة الجمعة كانت ظهيراً للثورة، نستطيع أن نقول: لقد كان المغزى من إعادة هذه الصلاة، وإحياء هذه الشعيرة بعد اندلاع الثورة الإسلامية في إيران هو إثبات أن الشعب الإيراني يقف بصفة مستمرة على أهبة الاستعداد في ساحة الثورة، وأنه يساند النظام الجديد ويبايعه بمشاركته الفعالة وهتافاته كل أسبوع، بل أن هذا المشاركة تعد بمثابة الرد القاطع والمفحم على أعداء الثورة سواء في الداخل أو الخارج.

وكان من أهداف زعماء الثورة تجميع الجماهير وحشدها للوقوف خلف الثورة الإسلامية، لكي يبرهنوا على أن الشعب يلتف حول قائده ويستمع إليه ويؤازره، وأن النظام الجديد يرتكز على قاعدة شعبية راسخة، وهذا له دلالاته السياسية المهمة.

وإلى جانب هذه الأهداف، لا يمكن إغفال أهداف أخرى، مثل: إذكاء الروح الثورية بين الجماهير التي تشارك في هذه الصلاة الأسبوعية وتستمع إلى خطب إمام الجمعة، وإلى المحاضرات التي تلقى في الفترة الصباحية، ومثل: هدف تصدير الثورة الإسلامية

خارج الحدود الإيرانية، وقد أشار أئمة الجمعة في خطبهم إلى هذا الهدف غير مرة، ومثل: ترهيب الأعداء، وبث روح الأمل في نفوس الأصدقاء، فهم يؤمنون بأن الكثرة العددية وصفوف المصلين لمرصوصة القوية والهتافات المدوية تخيف الأعداء وتطمئن الأصدقاء.

والآن وبعد مرور ما يقرب من ثلاثة عقود على إقامة أول صلاة جمعة رسمية في إيران بعد الثورة الإسلامية. وبعد أن انتهت مرحلة الفوران الثوري، وانتقلت إيران من مرحلة الثورة إلى مرحلة الدولة، هل فتر حماس المواطنين وقلت نسبة مشاركتهم في هذه الصلاة التي يعدونها في إيران مولوداً من مواليد نظام الجمهورية الإسلامية. والتي تحافظ إقامتها على مكاسب هذه الثورة. والتي تعد أكثر المنابر تأثيراً في المواطنين. حيث تجيب على أسئلتهم الدينية والسياسية؟

الحقيقة أن من يقرأ الصحف الإيرانية، ويتصفح شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) يكتشف أن البعض في إيران يوجه انتقادات إلى كيفية إقامة صلاة الجمعة في إيران في الوقت الحالي، ويتقدم في الوقت نفسه بمقترحات يمكن أن تفيد في مجال إقامة صلاة الجمعة بالشكل المطلوب والمأمول.

ويتعجب البعض عن عدم الانتهاء من بناء مسجد جامع في العاصمة طهران لإقامة صلاة الجمعة الرسمية فيه، كما يتعجبون من أن العولمة بدأت العمل في هذا المسجد منذ سنوات عديدة، لكن نظام التدفئة والتبريد لم يتم بعد، ويذكرون أن صلاة الجمعة الرسمية أقيمت في فناء جامعة طهران بشكل مؤقت، ولا زالت تقام في المكان نفسه حتى الآن، وأنه ربما تكون طهران هي العاصمة الإسلامية الوحيدة في العالم الإسلامي التي لا تقام صلاة تجمعاتها الرسمية في مكان تتوفر فيه مواصفات المسجد الجامع المتعارف عليها.

لذا يطالب البعض بتطوير وتحديث مراسم صلاة الجمعة، وحل المشكلات. وإزالة العقبات التي تحول دون إقامة هذه المراسم بالشكل المنشود، والتي تتسبب في عزوف البعض عن المشاركة في هذه المراسم. ويقود هؤلاء وهؤلاء مقترحات تتلخص في:

- تشييد مسجد جامع فخم مشرف، تراعى فيه أحدث فنون العمارة الإسلامية، وتتوافر فيه السجاجيد، ونظام التدفئة والتبريد (التكييف الساخن والبارد) والإضاءة الجيدة، والشروط الصحية، وشروط السلامة، وساحة انتظار سيارات، وحافلات، وحديقة، ومكان مناسب لرعاية

الأطفال أثناء مشاركة أمهاتهم في مراسم الصلاة التي قد تستمر ساعتين أو ثلاث ساعات، ونظام صوتي وسماعات جيدة. ذلك أن تشييد مسجد جامع تتوافر فيه جميع الإمكانيات سيضاعف عدد المصلين الذين يجلسون بضعة ساعات في الشتاء والصيف فوق الأسفلت في العديد من المدن ومنها طهران العاصمة.

- الاهتمام بموضوعات الخطب ومحتواها، وبحسن اختيار الخطباء، وضرورة تحلي أئمة الجمعة بالقدرة العلمية والمعنوية والتنفيذية وبالأخلاق الكريمة والسلوك القويم وبحسن البيان والاستدلال.
- مشاركة الوزراء ونواب البرلمان والمحافظين ورؤساء مجالس المدن وغيرهم من المسؤولين في مراسم صلاة الجمعة بصفة مستمرة، لبحث مشكلات المواطنين المادية والمعنوية، فهذه المشاركة تزيد من إقبال المواطنين على المشاركة في مراسم صلاة الجمعة على أنه مكان يتلاحم فيه المواطنون بالمسئولين.
- على الأئمة مراعاة ظروف الزمان والمكان، وهذا يعني عدم إطالة خطب الجمعة سواء في الشتاء أو الصيف، وبخاصة في ظل ضعف إمكانيات التدفئة والتبريد، وعدم وجود

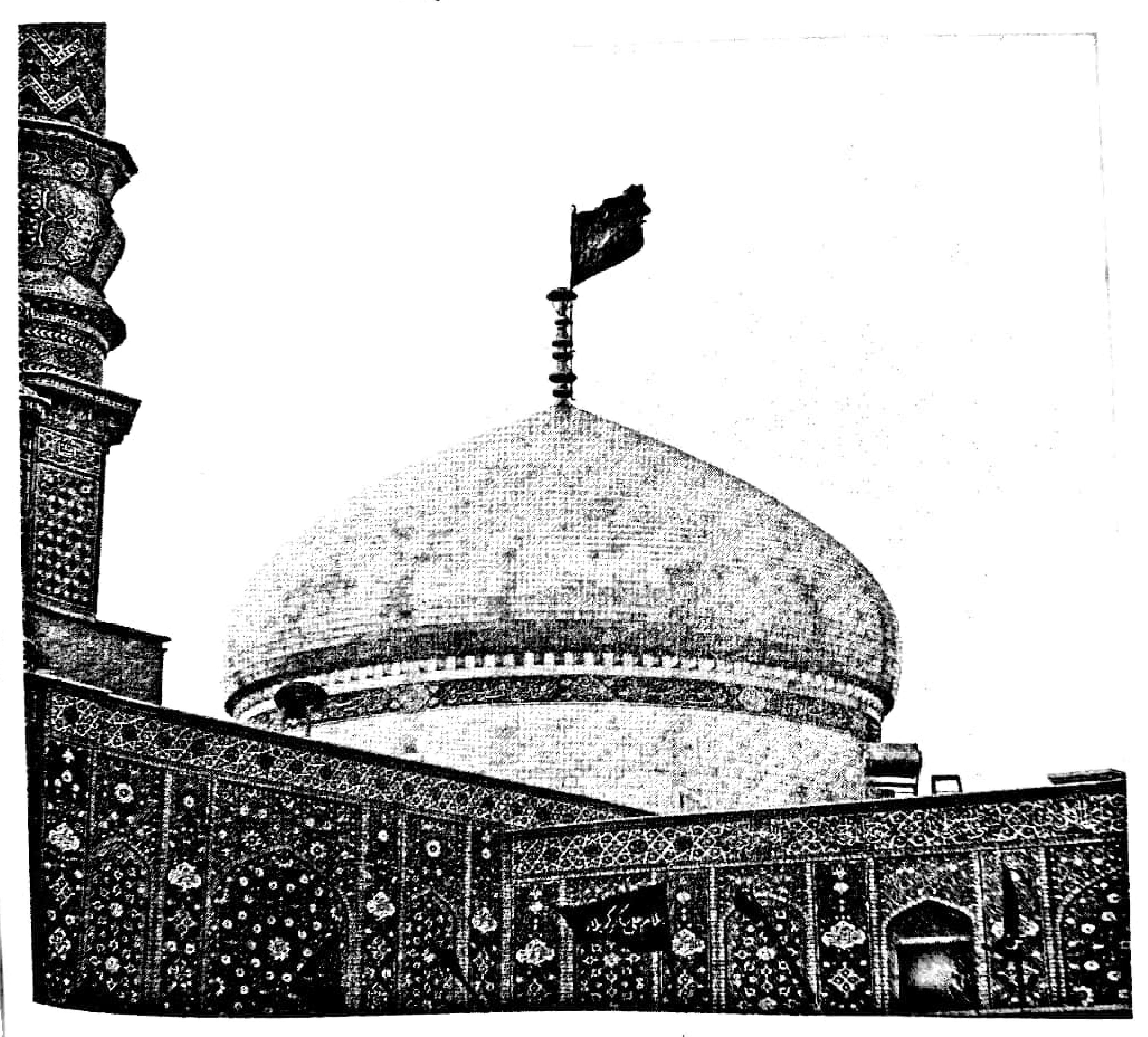
سجاجيد للجلوس عليها، وعدم وجود أسقف تحمي المصلين من الشمس والبرد والأمطار، وحضور مسنين ومرضى.

- زيادة عدد الخدم التابعين للجان صلاة الجمعة والذين يساعدون المصلين خلال مدة مشاركتهم في مراسم صلاة الجمعة، فبعض المصلين يقطعون بضعة كيلو مترات. وبعضهم يجيئون من القرى البعيدة ويجدون صعوبة في الانتقال، ويرغبون في توصيلهم إلى منازلهم بعد انتهاء مراسم صلاة الجمعة مجاناً.
- توفير الإمكانيات المادية للجان صلاة الجمعة التي تعاني من ضعف الإمكانيات المادة، وحل المشكلات التنفيذية التي تواجه هذه اللجان لتشجيع المواطنين على الحضور والمشاركة.
- توفير أئمة الجمعة للمساجد التي لا يوجد بها إمام جمعة في المدن الإيرانية، حيث توجد إحصائية تؤكد أن (63) ألف مسجد في إيران. منها (40) ألف مسجد لا يوجد بها إمام جماعة (إمام مسجد). ومن المعروف أن إيران كلها تقام فيها حوالي ستمائة صلاة جمعة، بالإضافة إلى صلاة الجمعة التي يقيمها أهل السنة في إيران.

هذا ويلتمس البعض العذر لبعض المواطنين الذين يتقاعسون عن المشاركة في مراسم الجمعة، ويقولون إن هذا التقاعس ناتج عن أن صلاة الجمعة صلاة مستحبة، وإن المشاركة فيها ليست واجبة، كما يرى آخرون أن عدم اكتراث الكثيرين من المواطنين بالمشاركة في هذه المراسم ليس بسبب ضعف العقيدة، ولكن بسبب تحول هذه المراسم الدينية إلى منبر يخدم المصالح السياسية الخاصة بتيار خاص داخل إيران، ويطالب هؤلاء بضرورة أن يتم اختيار إمام الجمعة على أساس المعايير العامة، لا على أساس الارتباط بتيار خاص أو أي فكر سياسي خاص، ويفصل هيئة لجان صلاة الجمعة عن التيارات السياسية الداخلية لحماية هذه المراسم من أية شوائب محتملة.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

المساجد والأضرحة الإيرانية (ضريح السيدة المعصومة نموذجاً)



ضريح السيدة فاطمة المعصومة، قم، إيران.

Https: // commons.wikimedia.org

المساجد والأضرحة الإيرانية

(ضريح السيدة المعصومة نموذجاً)

أولى الإيرانيون عناية كبيرة بالمساجد ومراقد أئمة آل البيت وأبنائهم وأحفادهم ومراقد علماء الدين الإسلامي بعد الفتح الإسلامي لإيران وخلال العصور الإسلامية المختلفة. وقد أبدع الفنان الإيراني وابتكر في أسلوب بناء وتزيين مساجد وأضرحة ومراقد آل البيت، وجعلها مظهراً من مظاهر النبوغ المعماري الإيراني ومن روائع فن العمارة التي ما زالت ماثلة للعيان حتى الآن، وذلك بعد أن أقام عليها القباب الفخمة والمآذن العالية. وقد اهتم الحكام على مر الزمان بفن عمارة المساجد والأضرحة وتزيينها وترميمها والزيادة فيها راجين من الله – سبحانه وتعالى – حسن المثوبة. وأصبحت هذه المساجد وهذه الأضرحة تلعب دوراً في الاستقطاب السياحي، وتلعب دوراً محورياً يستقطب حوله جميع الأنشطة الاقتصادية والتجارية والخدمية، حيث يفد سكان المناطق القريبة في عطلات نهاية الأسبوع إلى هذه المراقد والأضرحة في إيران بقصد الزيارة والتبرك والتنزه. ولم يقتصر الاهتمام بالمساجد والأضرحة والمراقد في إيران على الشيعة، فلأهل السنة مساجدهم وأضرحتهم، مثل:

المسجد الجامع في"سنندج" ومقبرة الشيخ جام في "خراسان". كما أن للزرادشت معابدهم الأثرية، وللأرمن المسيحيين كنائسهم في "أصفهان" وأذربيجان الشرقية، ولليهود أضرحتهم في "همدان" "وخوزستان".

ويطلق على المباني التي تشيد على مر العصور حول مراقد ومزارات الأئمة والأولياء اسم: المجموعة، وتتألف المجموعة من: الأضرحة والمساجد والمدارس والمكتبات والإيوانات والصحون والأروقة والقباب والمآذن والمتاحف وخزانات المياه ولهذه المجموعات أهمية كبري نظراً لاحتوائها على قيمة فنية من الناحية المعمارية، لكونها تنتمي إلى عصور إسلامية مختلفة، كما أنها كانت السبب الرئيسي وراء تكوين المدن وتنميتها وازدهارها، بعد أن أصبحت هذه المجموعات نواة للنشاط الديني والاجتماعي والاقتصادي. ونظراً لأهمية المسجد ومكانته الخاصة في نفوس المسلمين، فقد أهتم الحكام والمتدينون من الأغنياء والفقراء بإقامة المساجد والأضرحة، ونظراً لأن لكل دولة طابعها الخاص والمميز، ولأن الخصائص الإقليمية والموروثات الفنية تلقي بظلالها على الفنون والآداب، كان من الضروري وجود فروق واضحة في أسلوب بناء المساجد وتزيينها في دول مثل: إيران ومصر وتركيا. وقد استثمر المهندسون

المعماريون الإيرانيون موروثاتهم وتجاربهم السابقة في مجال التصميم والتخطيط والنقش على الجص وتزيين الأسقف والجدران بأشكال هندسية وآيات قرآنية وأعمال الخزف والقيشاني ونحت الأحجار بصفة خاصة وهندسة البناء بصفة عامة في بناء المساجد وتزيينها. وفي الوقت الذي استلهم فيه المهندسون المعماريون الإيرانيون فنون عصور ما قبل الإسلام وبخاصة العصر الساساني (224 – 654 م)، لم يغفلوا عن الأخذ بالأساليب الحديثة في بناء مساجدهم وترميمها وتزيينها، واستلهموا الروح الإسلامية الجديدة؛ مما منح فن المعمار الإيراني روحاً جديدة ورونقاً إضافياً.

وجدير بالذكر أنه في السنوات الأولى التي دخل فيها الإسلام إيران، استهجن العرب الفاتحون وكذلك الإيرانيون حديثو العهد بالإسلام عادة إضاءة معابد النار، فأقيم عدد كبير من المساجد على أنقاض هذه المعابد في جميع أنحاء إيران بعد إجراء تغييرات طفيفة عليها. وقد قيل إن جامع "مرند" الموجود في أذربيجان الشرقية كان في أول الأمر أحد معابد النار في العصر الساساني، وبعد هجرة الطائفة الأرمنية إلى هذا المكان تحول المعبد إلى كنيسة، وبعد فتح العرب المسلمين لإيران في القرن الثالث الهجري، وتحول سكان أذربيجان إلى الإسلام، تحولت الكنيسة إلى مسجد. وكانت

المساجد هي أول الأبنية التي شيدت داخل الإطار الجغرافي الإيراني بعد انتهاء الفتوحات الإسلامية، وكان لأسلوب بناء القصور الساسانية، والحرص على التأنق في تزيينها تأثير ملموس على التصميم والتخطيط والبناء والتزيين الخاص بالمساجد في إيران.

وقد استخدم الإيرانيون أسلوب بناء الإيوانات (إيوان كلمة فارسية) والقباب الذي كان مستخدماً في القصور الساسانية قبل الإسلام. وانتقل أسلوب تشييد المساجد المتعددة الإيوانات الذي ابتكره المهندس المعماري الإيراني والأسلوب الزخرفي الإيراني إلى سائر الدول الإسلامية. وعلى الرغم أن مساجد مهمة أخرى مثل الجامع الأزهر في "مصر" ومسجد القرويين في " المغرب "، ومسجد الزيتونة في " تونس " لعبت دور العبادة ودور المدرسة المحلية التي كانت تعلم القرآن والحديث في الوقت نفسه، إلا أن الإيرانيين هم الذين أقاموا المدرسة لأول مرة في مكان مستقل بذاته داخل مجموعة المسجد. وقد بذل الإيرانيون جهوداً كبيرة، وأحرزوا تقدماً مبهراً في إقامة المساجد والمباني الملحقة بها. وكان الأسلوب المعماري الإيراني رائداً في الاهتمام بالعناصر المعمارية المختلفة مثل: الإيوانات – المحاريب – الأقواس (الطاقات) – المآذن – القباب وحتى المقرنصات بوصفها نوعاً من التزيين المجسم أو الثلاثي

الأبعاد. ونجح هذا الأسلوب في نقل هذا التقدم إلى سائر دول العالم الإسلامي بصفة عامة، والدول المجاورة لإيران بصفة خاصة. وكان الإيرانيون سباقين في مجال التزيين بالآجر والقيشاني المزخرف، وبالإضافة إلى المدرسة التي هي في الأصل ابتكار إيراني – طبقاً لما يؤكده الإيرانيون – انتشر شكل المعمار الإيراني في أبنية بلاد الشام وتركيا ومصر وشمال أفريقيا وحتى إسبانيا في مجال بناء المدارس وشكل الإيوانات والبوابات والأقواس.

وقد كان للموقع الإقليمي والجغرافي لإيران تأثير إيجابي على المهندس المعماري الإيراني، فأبدع وابتكر في بناء المساجد وترميمها وتزيينها على مر العصور والمراحل، واستفاد من النقوش والألوان ومواد البناء المختلفة والمتعددة، ومن تقسيم المساحات والأماكن، ومن التصميمات المبتكرة والأفكار المختلفة. وقد جُبل الإيرانيون على الولوع بالرسم والتصوير والتمثيل والتخييل، والفن الفارسي زخرفي في أساسه. وقد برز الفنان الفارسي في رسم الزخارف الهندسية المعروفة في الغرب بالأرابيسك **Arabesques**، كما ولد الفرس الزخارف من الخط العربي، وأتقنوا ذلك أيما إتقان، وتفنن الفرس في الرسم على الخزف والخشب والمعادن (الذهب – الفضة – الحديد – البرونز)، وفي استخدام الآجر المصقول

ومربعات الفسيفساء المحلاة بالزخارف وفي الحفر على الخشب والنقش في الخشب والعاج، كما تفننوا في عمل زخارف نباتية تتشكل من وحدات زهرية، وفي عمل الزخارف الجصية، وفي فن تكسية الجدران وتزيينها، والأسلوب الزخرفي الفارسي مشهور في العالم الإسلامي نظراً لتميزه بطابع خاص.

ومما لا شك فيه أن الاهتمام ببناء المساجد، والحرص على ترميمها وتزينيها ونظافتها كان نابعاً من أهمية الدور السياسي والقضائي والإداري والاجتماعي والتعليمي والتربوي الذي لعبته المساجد منذ صدر الإسلام وفي العصور التالية، فقد كان المسجد عبارة عن قاعة يجتمع فيها المسلمون في أيام الأعياد وفي مناسبات العزاء، وكان المسجد يهتم بشئون الفقراء والمساكين، وكان المسافرون يقيمون فيه للاستراحة بعض الوقت، وكانت تُقرأ فيه أوامر السلاطين والحكام، وكان يتم فيه إعلان الحرب والجهاد وتجهيز الجيوش، وتحصيل الضرائب، وحل المشكلات. هذا وقد بدأ الدور التعليمي والتربوي للمسجد منذ بداية إنشاء المساجد في البلاد المفتوحة، نظراً لأن الفاتحين كانوا حريصين على نشر تعاليم الدين الإسلامي ومبادئه.

وقد انتشر " الكُتّاب " (بضم الكاف وتشديد التاء) في أروقة وصحون وإيوانات المساجد وفي المنازل؛ لتعليم اللغة العربية وأصول الدين الإسلامي وأصول الفقه وقراءة القرآن وحفظه، ثم تطورت الكتاتيب، وأصبحت مدارس دينية بمرور الوقت، وكانت إيران من الدول التي انتشر فيها الكتاب (مكتب – مكتب خانه) في المساجد في البداية، كما انتشرت فيها المدارس الدينية عندما زادت أعداد الطلاب، إلى أن تم تأسيس وزارة العلوم في عام 1893م، فقل عدد الكتاتيب، وأصبح التعليم إجبارياً ومجانياً طبقاً لدستور 1911م بالنسبة لأي طفل يبلغ عمره سبع سنوات.

العتبات المقدسة الكبرى في إيران هي:

- مرقد الإمام علي بن موسى الرضا الإمام الثامن للشيعة بمدينة "مشهد" بخراسان، ويسمى: الحرم الرضوي، ومن يزور الحرم يطلق عليه لقب: مشهدي.
- مرقد الشاه عبد العظيم الحسني بمدينة الري (ضاحية من ضواحي طهران)، وهو من أحفاد الإمام الحسن بن علي. وهو مشهور بـ: السيد الكريم، ويسمى مرقده: الحرم العظيمي.

- مرقد أحمد بن موسى الكاظم "شاهچراغ" في مدينة شيراز، وهو شقيق الإمام علي الرضا، وراجت عنه روايات كثيرة عن أن له كرامات في مجال شفاء المرضى. ويقال إنه لجأ إلى شيراز في إيران إبان حكم العباسيين.
- مسجد جمكران في مدينة "قم ".
- مرقد السيدة فاطمة المعصومة في مدينة "قم ، و هو موضوع الفصل.

والسيدة المعصومة التي تسمي في إيران: "#حضرت_معصومه"، هي سليلة العترة النبوية المطهرة، فهي فاطمة ابنة موسي الكاظم بن جعفر الصادق (سابع أئمة الشيعة الاثني عشرية)، وشقيقة على بن موسي الرضا (الإمام الثامن)، وعمة الإمام محمد التقي (جواد الأئمة الإمام التاسع)، ولهذا يسمونها: عمة السادات، ولدت في المدينة المنورة في أول ذي القعدة عام 173 هـ.ق، وتوفيت في عام 201 هـ.ق وهي في طريقها لزيارة شقيقها الإمام على الرضا الذي كان الخليفة المأمون العباسي قد أبعده إلى مدينة " مرو " بخراسان، لكنها مرضت في الطريق، فطلبت أن تُحمل إلى

"قم" وكانت وفاتها بعد (17) يوماً من مرضها دون أن تحظي برؤية أخيها ودون أن تتزوج. وقد تحول قبرها إلى مزار ضريح، لكونها من

سلالة آل البيت، ثم أصبح يُشار إليه بكلمة " الحرم ". وبمرو السنوات تحول المرقد إلى تحفة معمارية تُعد من روائع الفن والمعمار الفارسي، وأجريت له العديد من عمليات الترميم والتجديد والإضافة والتوسعات على مر العصور على يد الوجهاء والأمراء والملوك، وصار الحرم مقصداً للشيعة ومحبي آل البيت من كل مكان. وهو يعد حجر الزاوية – في مدينة " قم ".

ومن الأسماء التي تطلق على هذا المكان: المرقد الطاهر للسيدة المعصومة – الروضة المقدسة للسيدة فاطمة المعصومة – الحرم المطهر – المضجع الشريف – المرقد الفاطمي. ومن الأسماء والألقاب والصفات التي أطلقت على السيدة فاطمة: المعصومة، وهو أشهر ألقابها، كريمة أهل البيت – أخت الرضا – أخت شاه خراسان فاطمة الثانية – معصومة قم – فاطمة المعصومة – الشفيعة – الطاهرة – الحميدة – البرة – الرشيدة – التقية – الرضية – المرضية – السيدة الطاهرة – السيدة الصديقة – سيدة نساء العالمين.

وتشتمل كتب الأدعية والزيارات الشيعية على دعاء خاص بالسيدة المعصومة، ونظم فيها بعض الشعراء أشعاراً باللغة الفارسية منها ما ترجمته:

- أخذت لقبك من حجه الله، عندما اختضنك الإمام الرضا، وقال إنها المعصومة.
- ونظم شاعر آخر رباعية أشار فيها إلى يوم ميلادها ويوم ميلاد شقيقها الإمام الرضا، فيقول:

عندما هل هلال شهر ذي القعدة وهلال ربيع إيران

ظهر في "مشهد" "وقم" كنزان كانا مخفيين

فقد وُلدت في اليوم الأول من هذا الشهر كريمة آل رسول الله (صلي الله عليه وسلم) السيدة المعصومة

وولد في اليوم الحادي عشر منه ملك خراسان (الإمام على الرضا)

- وفي رباعية أخرى مليئة بالصلوات، يقول أحد الشعراء:

الصلاة على مرآة جمال الخالق (سبحانه وتعالي)

وعلى ضياء عين النبي (صلي الله عليه وسلم).

الصلاة على السيدة المعصومة صاحبة الضياء السرمدي

وعلى موسي بن جعفر باقة الورد.

- كما توجد أشعار باللغة العربية في مدح السيدة المعصومة ورثائها.

وقبل حلول ذكرى دخول السيدة المعصومة مدينة " قم " (23 من ربيع الأول)، يتم تنظيف الحرم وإزالة الغبار العالق به استعداداً لاستقبال محبي المعصومة، وتتحرك قافلة رمزية يشارك فيها الآلاف من محبي آل البيت من ميدان المعصومية في " قم "، ويتجمعون جميعاً في صحن الإمام الرضا (148 – 203 هـ.ق) الموجود في مجموعة حرم السيدة المعصومة، ثم يتوجهون إلى ضريح السيدة المعصومة، وذلك تعبيراً عن الترحيب بالسيدة المعصومة وعن حبهم لها. ثم تقام مراسم: مولودي خواني (تواشيح وأناشيد الولادة) الذي ينشد فيها مداحو أهل البيت أناشيد دينية وتواشيح خاصة بميلاد السيدة المعصومة. ثم تقام مراسم يشارك فيها متولي شئون الحرم وسائر المسئولين عن إدارة شئون الحرم وعدد من المسئولين الحكوميين والعسكريين في مدينة " قم "، وتُقرأ في هذه المراسم أدعية الزيارة الخاصة بالسيدة المعصومة (باللغة العربية) وتنشد فيها

التواشيح (بالفارسية والعربية). وفي نهاية المراسم يقوم المشاركون بتوزيع الأشربة والحلوي، وبنثر الورود على قبر السيدة المعصومة.

وجدير بالذكر أن الأيام التي تقع بين موعد وصول السيدة المعصومة إلى مدينة " قم " وموعد وفاتها، تقام فيها المسابقات والحفلات الخاصة التي تقام بمناسبة وصول الفتيات إلى سن التكليف وتسمي هذه الحفلات بالفارسية: " جشن تكليف ". حيث ترتدي الفتاة التي بلغ عمرها تسع سنوات الحجاب والزي الإسلامي، وتقدم لها الجوائز والنصائح، وتتلي بعض آيات القرآن الكريم، وتُنشد بعض الأناشيد الدينية. كما تقام فيها ندوات يتحدثون فيها عن الفضل الذي نالته مدينة قم ببركة السيدة المعصومية. وهذه الأيام عبارة عن سبعة عشر يوماً، وتسمى: الأيام المعصومة. كما أنه من الملفت للنظر أن اسم المعصومة منتشر بشكل واضح في جميع أنحاء إيران، وتوجد جامعة باسم السيدة المعصومة، كما توجد مستشفيات ومدارس للبنات تحمل اسمها.

وتتألف مجموعة الحرم من عدد من المآذن والقباب المتنوعة وثلاثة صحون وأربعة أروقة وإيوانان (إيوان الذهب وإيوان المرايا)، وعدد من المساجد وأشهرها: المسجد الأعظم الذي تم إلحاقه بالحرم، وأصبح تابعاً له بعد الثورة الإسلامية التي قامت في عام 1979م،

وبعد تزايد الأقبال على زيارة قبر السيدة فاطمة المعصومة، والحاجة الماسة إلى مكان أرحب وأوسع، لكي يستوعب عدد الزوار المتزايد. ويلقي فيه أغلب مراجع التقليد دورسهم الفقهية والتفسيرية والأصولية خلال أيام الدراسة، كما تقام فيه صلاة الجماعة والمراسم المذهبية الأخرى. وللحرم مدير مسئول يتم

تعيينه بأمر كتابي من المرشد العام، ولهذا المدير مكتب يدير منه شئون الحرم، ويسمى هذا المسئول: متولي الروضة أو سادن الروضة المقدسة. وبالحرم مكتب تسلم فيه النذور والهدايا، ومكتب خاص بالمفقودين من الرجال، وآخر خاص بالمفقودات من السيدات، ومكتب خاص بمتعلقات الحرم وأوقافه، ومكاتب للأمانات، ومكتبة، وأماكن للرد على أسئلة المراجعين التي تدور حول المسائل الشرعية، ومطعم يقدم الوجبات مجاناً. وللحرم أبواب متعددة، وموقع على الإنترنت، ومدفون في أروقته وصحونه شخصيات دينية (علماء ومراجع) عديدة، وتشيع منه جنازات العلماء والمراجع.

ويلعب حرم السيدة المعصومة دوراً مذهبياً وسياحياً، حيث يتم تدريس العلوم الدينية في الحرم، ويتم تدبير نفقات الدارسين والمدرسين من أوقاف الحرم، ويفد إليه سكان المناطق القريبة

والمسلمون الشيعة من خارج إيران، بقصد الزيارة والتبرك والتنزه والمشاركة في المناسبات والمراسم الدينية والمذهبية المختلفة.

وتحظى مدينة "قم" (بضم القاف) بأهمية تاريخية كبري نظراً لوجود مرقد السيدة فاطمة المعصومة بها، وهو المرقد الذي يعد من أهم المعالم السياحية في هذه المدينة، والذي كان له الفضل في إعمار المدينة وتوسعتها. ومع بداية الثورة الإسلامية (1979م) أصبحت المدينة من المراكز المهمة للثورة الإسلامية، وأصبحت منطقة جذب بشري، وتضاعف عدد سكانها، وبالمدينة التي تبعد عن العاصمة طهران بحوالي (130كم) عدد كبير من المساجد، وأشهرها مسجد " جمكران " وهو أحد المساجد الكبيرة والمهمة في إيران، ومسجد الإمام الحسن العسكري (توفي عام 260هـ.ق)، كما يوجد بها عدد كبير من المقابر، وأشهرها مقبرة السيدة المعصومة، وعدد كبير من الجامعات والمؤسسات العلمية والمراكز الثقافية مثل: مؤسسة آل البيت وجامعة المصطفي العالمية التي يلتحق بها طلاب العلوم الدينية القادمين من الدول الأخرى، وجمعية مدرسي الحوزة العلمية. كما توجد بها متحف يسمي متحف الروضة المقدسة، وهو المتحف الوحيد الموجود في مدينة " قم "، ويشتمل على نسخ خطية نفيسة من القرآن الكريم، وعدد كبير من العملات المعدنية القديمة

ولوحات الرسم والأواني الخزفية والفخارية والزجاجية وأحجار الزينة والسجاجيد الثمينة والأقمشة اليدوية، وقطع من القيشاني المزخرف، وبه قسم لترميم المخطوطات.

كما يوجد بالمدينة عدد من المدارس الدينية وأشهرها: المدرسة الفيضية - مدرسة السيدة المعصومة - مدرسة دار الشفاء - المدرسة الجحتية، وعدد من مكاتب العلماء ومراجع التقليد، وعدد من أضرحة الأولياء وأبناء وأحفاد أئمة آل البيت الذين دُفنوا في هذه المدينة. كما توجد بالمدينة أشهر مكتبة دينية في إيران، ويعتبرها البعض ثالث مكتبة في العالم الإسلامي، وهي مكتبة آية الله المرعشي النجفي، وهي تضم عدداً كبيراً من الكتب والمخطوطات باللغتين العربية والفارسية واللغات الأجنبية الأخرى، ويتم تطبيق التقنية الحديثة في إدارتها.

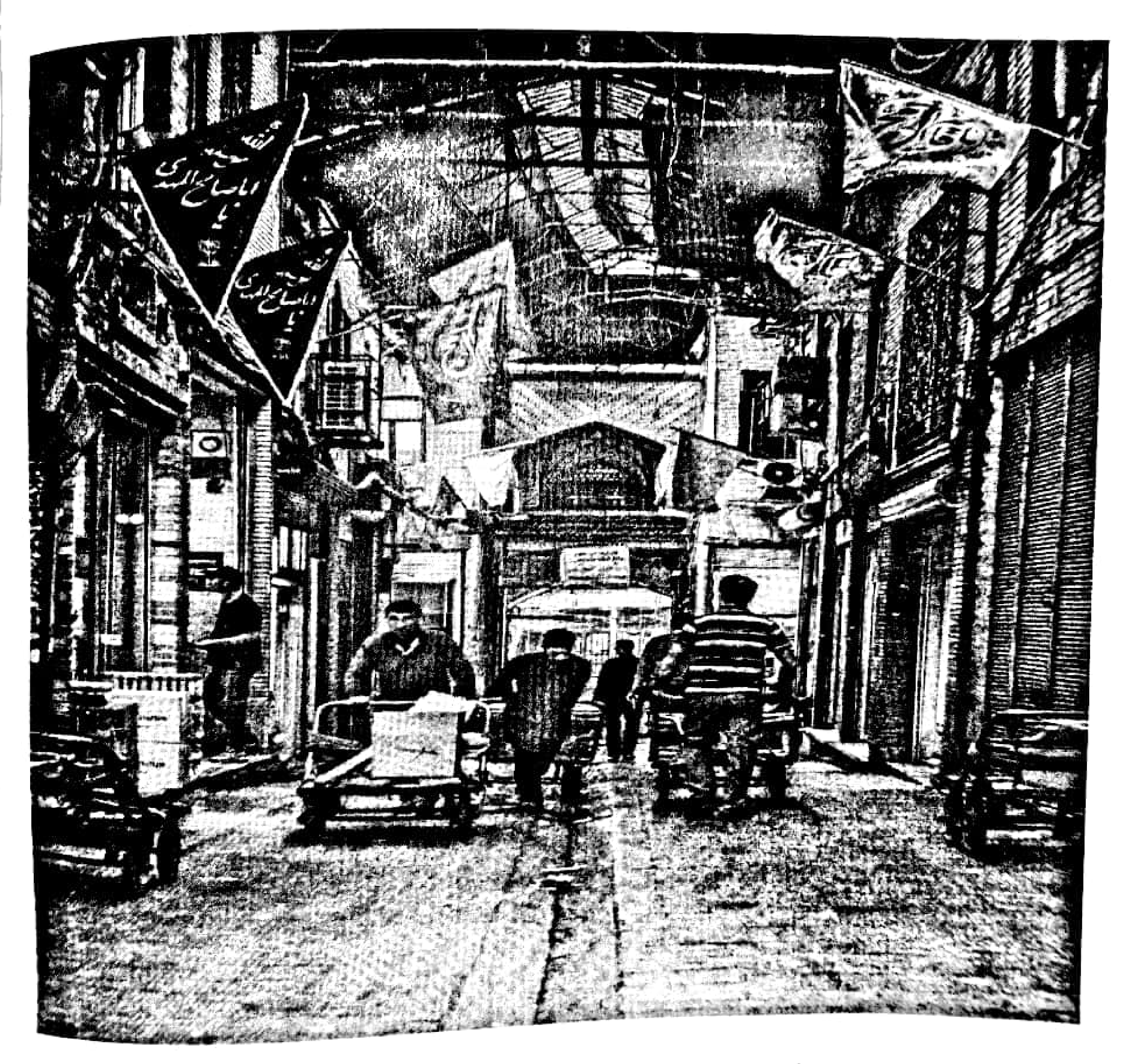
وتتميز مدينة " قم " بالطابع العلمي الديني / إذ يقصدها عدد كبير من الطلبة الإيرانيين من مختلف المدن والقري الإيرانية، والطلبة الشيعة من غير الإيرانيين من دول إسلامية أخرى وخاصة باكستان والهند ودول الخليج العربية، وذلك بغرض التحصيل الحوزوي الديني، وبعضهم يفد إلى المدينة في المناسبات الدينية للتبرك والتعزية. وتُعد " قم " أقدس ثاني مدينة دينية بعد مدينة " مشهد

" في إيران، كما يعد وجود الحوزة العلمية الدينية فيها من أهم خصائصها، ويُعد مزار المعصومة أحد أسباب ازدهار الحوزة العلمية في قم. وهم يطلقون عليها في إيران أسماء منها:

- المدينة المقدسة
- مدينة العلوم الإسلامية
- قلب الثورة الإسلامية النابض
- مقر المرجعية الدينية.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

بماذا يُقسِم الإيرانيون؟



جراند بازار أو السوق العظيم و هو واحد من أقدم أسواق العالم.

تصوير أوميد أرمين

Https: //Unsplash.com

بماذا يُقسِم الإيرانيون؟

القَسَم من التقاليد الإنسانية القديمة التي استخدمها البشر لحل مشكلاتهم، واهتموا بها في بعض الأحيان للحيلولة دون بروز الأخطار والمشكلات، ويستخدمها الأطباء (قسم أبقراط القديم) والقضاة والمحامون في المحاكمات في الوقت الحالي. والقَسَم لغةً هو: اليمين والحلِف، والجمع أقسام، والأيمان جمع يمين. وقد أمر الله عباده بأن يحفظوا أيمانهم، فلا يستعملونها إلا عند الموجب لها، فقال: "وَاحْفَظُواْ أَيْمَانَكُمْ" (جزء من الآية 89 – سورة المائدة)، وقال أيضاً: "وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ" (جزء من الآية 10 – سورة القلم). والقَسَم من وسائل التوكيد وأدواته وأساليبه التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد أقسَم الله في كتابه العزيز بذاته أو بصفاته أو بشيء من مخلوقاته ومصنوعاته، وذلك بغرض التأكيد والتنبيه على عظيم قدرته وجلال عظمته. وكان أكثر حلف النبي بقوله: والذي نفسي بيده. وقد أقسم اليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل، وعبدة الأوثان من العرب كانوا يحلفون بأوثانهم (اللات والعزى مثلاً). وأقسم كل معترف لله بالربوبية من أهل الديانات بالله، وكان أصحاب كل ديانة يقسمون بآلهتهم ومقدساتهم.

وقد أقسَم المسلمون بأسماء الله وبصفاته، وتمتلئ كتب الفقه والتفسير بأنواع القَسَم وأحكامه وشروطه. ولله أن يُقْسِم بأي شيء، ولا يحق للمخلوق أن يقسَم إلا بالله، بشرط أن يكون صادقاً، كما نهي النبي عن كثرة الحلف بعامة، وعن الحلف الكاذب بخاصة، وعن الحلف بغير الله. لكن الناس اخترعوا أيماناً كثيرة بغير الله، وأقساماً عديدة مبتدعة، مثل: الحلف برأس الأب وقبر الأم وبالشارب واللحية وبالعين والرقبة والابن والابنة. وأول من حلف هو: إبليس، قال الله تعالى: وقاسمها (أي أقْسَم إبليس لآدم وحواء بالله) إني لكما لمن الناصحين (آية 21 – سورة الأعراف). وقد أقَسَم الشعراء العرب بعد الإسلام بأسماء الله وبصفاته وبغير الله (الحبيب والممدوح وبحقهما وعمرهما وبالبيت الحرام).

القَسَم عند الفرس قبل الإسلام:

كان المتنازعان (المُدعِي والمدَّعَى عليه) يلجآن في الأزمنة الغابرة إلى طرق متعددة لحل الخلافات، والفصل في الدعاوي، ومن هذه الطرق: المبارزة أو المحاكمة بالتعذيب، وهي وسيلة بدائية كانت تصطنع لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئاً أو مذنباً، وذلك بإخضاعه لضروب من الامتحان الخطر أو المؤلم، كان الناس يحسبونها خاضعة لسيطرة قوي خارقة للطبيعة. كان لكل قوم أسلوبهم في محاكماتهم،

وكان الإيرانيون في العصر الساساني (224 – 652م) يستخدمون قسمين من الاختبارات للتبرئة من تهمة ارتكاب الجرم من خلالهما: القَسَم الأول: ورگرم (القَسَم أو الاختبار الساخن) والثاني: ور سرد (القَسَم أو الاختبار البارد).

ومن وسائل التبرئة بالأقسام الساخنة: أن يضع المُقسِم يده في النار أو ومن وسائل التبرئة بالأقْسَام الساخنة. أن يضع المُقسِم يده في النار أو يضع أصابعه في ماء أو زيت مغلي، أو يضعون على صدوره زيتاً مغلياً أو رصاصاً منصهراً أو نحاساً مذاباً. وقد سجل لنا الفردوسي في الشاهنامة (كتاب الملوك) أقدم وأبرز مثال على القَسَم الساخن، وهو: قَسَم سياوش الذي أتهمته سودابه – زوجة أبيه كيكاوس – بخيانة أبيه وعشقه لها، فطلب الأب من أبنه أن يمر من جبل النار، وهو أصعب أنواع القَسَم الساخن، لإثبات براءته وطهارة ذيله، ففعل ما أمره به أبوه، وخرج من النار أبيض الوجه مبتسماً، فضمه أبوه إلى صدره واعتذر له. ويرى الإيرانيون أنه ليس من المستبعد أن تكون قصة نبي الله إبراهيم الذي ألقي في النار، وصارت النار برداً وسلاماً عليه، نوعاً من أنواع القَسَم الساخن.

ومن الأقْسَام الباردة: إلقاء المُدعيِ والمُدعَي عليه في الماء (البارد)، ومن ضاق نفسه أسرع من الآخر وأخرج رأسه من الماء، يعد مقصراً ومداناً. أو يقيدون يد المتهم اليسرى بقدمه اليمنى، ويلفون حبلاً حول وسطه حتى يمكنهم إخراجه من الماء عند الضرورة، ثم يلقون به في الماء، فإذا غاص في الماء تثبت براءته، وإذا لم يغص وظل طافياً على سطح الماء، يكون مقصراً ومذنباً، وكان تفسيرهم أن الماء الطاهر لم يقبله.

هذا ويشتمل الكتاب المقدس (سفر العدد – الإصحاح الخامس) على نوع من الاختبارات والأقْسَام يشبه الأنواع التي كانت سائدة عند الإيرانيين القدماء، فقد جاء في الفقرات (من **11** إلى **29**) من هذا الإصحاح أن المرأة الخائنة لزوجها في بني إسرائيل كان الكاهن يسقيها ماء اللعنة المر، ويستحلفها بحلف اللعنة، فإذا ما علت بطنها وضعفت قدماها، تكون هذه المرأة مذنبة، وإذا لم يحدث لها أي شيء من هذا، تكون بريئة. كما كانت أوروبا تستخدم مثل هذه الاختبارات في العصور القديمة، وهي التي يعبر عنها بكلمة: (**ordeal**) في الإنجليزية الحديثة، و(**urteil**) في الألمانية الحديثة. وجدير بالذكر أن البدو سكان الصحراء وبخاصة أبناء شمال سيناء مازالوا يطبقون ما يسمي بالقضاء العرفي، ومازالوا

يستخدمون تجارب القَسَم القديمة وأساليب البراءة القديمة من باب التمسك بالتقاليد والأعراف، فهم يستخدمون ما يعرف بـ "البشعة" وهي طاسة من حديد تسخن على النار فترة طويلة حتى تحمر، ويمضمض المُدعَي عليه فمه بالماء ثم يلحس هذه الطاسة المحماة بلسانه ثلاث مرات، ثم يمضمض فمه بالماء مرة أخرى، ويكشف لسانه أمام الناس الحضور، فإذا حرق لسانه عُد مداناً، وإذا لم يظهر أي أثر للنار على لسانه عُد بريئاً.

وقد أفتي الدكتور على جمعة مفتي الجمهورية الأسبق بأن استخدام "البشعة"حرام شرعاً، وقال المفتي في فتواه: أنه يجب على المسلمين الالتزام بالعمل بقول رسول الله: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. (الأهرام – 2006/7/5م)

أما كلمة "سوگند" بمعنى قَسَم ويمين، فقد ظهرت مرادفة لكلمة " ور" التي كانت مستخدمة في إيران القديمة في الكتابات البهلوية، وفي شاهنامة الفردوسي ومنظومة " ويس ورامين " لفخر الدين الجرجاني، ويرى البعض أن "سوگند" كان معناها في الأصل: الحارق، وأنها كانت تطلق على محلول الكبريت الذي كان يقدم للمتنازعين من أجل إظهار براءة أحدهما عن طريق بقاء هذا المشروب في بطن الشارب، أو عدم بقائه، وأن هذا التقليد نسخ ونسي تماماً بمرور

الوقت، لكن لفظ "سوگند" بقي مع نفس المساعد: خوردن (يأكل أو يشرب)، وأصبح معناه: النتيجة والغرض من ذلك العمل وهو: القَسَم. وهذه هي معاني تركيبات كلمة "سوگند" الموجودة في المعاجم الفارسية، وفي الأدب الفارسي: شعره ونثره:

- سوگند خوردن، سوگند ياد كردن: أن يُقسَم – أن يحلف، ومترادفاتهما: قَسَم خوردن، يمين خوردن، قَسَم يادكردن.
- سوگند دادن، قَسَم دادن: تحليف، استحلاف – إحلاف.
- سوگند شكستن: نقض العهد والقَسَم.
- سوگند خور (قَسَم خورنده): المُقسِم – الحلّاف.
- سوگند دهنده = المُحلِّف.
- سوگند قانوني: اليمين الدستورية.
- سوگندنامه (قسمنامه): الورقة التي تشرح فيها كيفية القَسَم. أو كتاب القَسَم. أو شعر يشتمل على أقْسَام عديدة. ولكلمة سوگند جمعان هما: سوگندان وسوگندها.

القَسَم في الشاهنامة وقصة ويس ورامين:

الشاهنامة منظومة حماسية طويلة زاخرة بالأحداث والملوك والأبطال، ويمكن تقسيمها إلى مرحلتين متمايزتين: المرحلة

الأسطورية والمرحلة التاريخية، ونظراً لطول الشاهنامة وتعدد مراحلها، فقد تعددت فيها الأقْسَام، وتنوعت فيها الموضوعات، فقد وردت على لسان أبطالها أقْسَام دينية (بالله الخالق الأعظم – بروح الملك ورأسه)، وأقْسَام بطولية (الأبطال وأدوات القتال مثل: الدبوس والسيف والوهق، وبساحة القتال وبجيش إيران)، وأقْسَام بالكواكب والأجرام السماوية، وأقْسَام بالليل والنهار وفصول السنة وشهورها. وقد أجري الفردوسي على لسان الإسكندر أقْسَاماً مسيحية، مثل: قسَماً بدين المسيح – قسَماً بروح القدس والزنار والشماس وروح المسيح وبحزن الصليب. هذا وقد ذكرت كلمة " سوگند " في الشاهنامة (52 مرة)، كما أن الفردوسي جعل من مقدسات الدين الزرادشتي موضوعاً لقسم ملوك إيران. وقصة ويس ورامين المنظومة التي نقلها الشاعر فخر الدين الجرجاني من اللغة البهلوية إلى اللغة الفارسية، ونظمها شعراً في منتصف القرن الخامس البحري، واستخدم فيها كلمة "سوگند" بمعنى "ور" التي كانت مستخدمة في إيران القديمة، هذه القصة فيها إشارة إلى "المرور من النار" كوسيلة للبراءة. ويتضح ذلك حين يسئ "شاه موبد" الظن في زوجته " ويس"، ويعتقد أنها تعشق أخاه "رامين"، لهذا طلب منها أن تُقسَم، وأن تمر من النار، لكي تمحو سوء الظن فيها.

والتشابه الموجود بين الأقْسَام الموجودة في الشاهنامة وقصة ويس ورامين راجع إلى أن كليهما يشرب من بئر واحدة، وإلى أن المنظومتين تمتلئان بالقصص القديمة المكتوبة باللغة البهلوية واللغات التي سبقتها، ففضلاً عن المرور من النار، تدور أغلب الأقْسَام حول: الله – الشمس والقمر– روح الملك – ضياء النار– إشراق الشمس – ضياء القمر – الخبز والملح – الروح – روح الأجداد المضيئة – الماء الطاهر – النار – الريح – الوفاء – العلم والعدل والحق والصدق – خالق العالم – العرش والتاج.

أحكام القَسَم في الفقه الشيعي الاثني عشري:

الأقْسَام والأيمان في الفقه الشيعي الاثني عشري على ثلاثة أقْسَام:

الأول: ما يقع تأكيداً وتحقيقاً للإخبار بوقوع شيء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

والثاني: يمين المناشدة، وهو ما يقرن به الطلب والسؤال، ويقصد به حث المسئول على إنجاح المقصود، كقول السائل: أسألك بالله أن تفعل كذا.

والثالث: يمين العقد، وهي ما يقع تأكيداً وتحقيقاً لما بني عليه وألتزم به من إيقاع أمر أو تركه في المستقبل. والقَسَم الأول لا ينعقد، ولا يترتب عليه سوى الإثم فيما كان كاذباً في إخباره عن عمد، ولا ينعقد القَسَم الثاني، ولا يترتب عليه إثم أو كفارة، لا على الحالف ولا على المحلوف عليه في حنثه وعدم إنجاح مسئوله، أما القَسَم الثالث فهو الذي ينعقد بشروط، ويجب الوفاء به، ويحرم حنثه. ويترتب على حنثه الكفارة. وهذه الشروط تتلخص في الآتي: لا تنعقد اليمين إلا إذا كان القَسَم به هو الله. وباسم من أسمائه أو صفاته أو أفعاله – لا تنعقد اليمين بالحلف بالنبي وآله والأئمة وسائر الأشخاص المعظمين المقدسين، ولا بالقرآن الكريم ولا بالكعبة وسائر الأماكن المقدسة – لا تنعقد اليمين بالطلاق ونحوه وكذا اليمين بالبراءة من الله – – أو من رسوله أو من دينه أو من الأئمة بأن يقول مثلاً: برأت من الله أو من دين الإسلام إن فعلت كذا، أو لم أفعل كذا – يعتبر في الحالف البلوغ والعقل والاختيار والقصد وانتفاء الحجر في متعلقة، فلا تنعقد يمين الصغير والمجنون ولا المكره ولا السكران ولا الغضبان في شدة الغضب ولا المحجور عليه – كفارة اليمين: عتق رقبه أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم. فإن لم يقدر فصيام ثلاثة أيام – الأيمان الصادقة كلها مكروهة، سواء كانت في الماضي أو المستقبل، وتجوز بلا كراهة ولو

كذباً، لو قصد بها دفع مظلمة عن نفسه أو غيره من إخوانه – الأقوى جواز الحلف بغير الله في الماضي والمستقبل، وإن لم يترتب على مخالفته إثم ولا كفارة، كما أنه ليس قَسَماً فاصلاً في الدعاوي والمرافعات.

أغراض القَسَم وأدواته وأنواعه في إيران:

كان القَسَم في إيران القديمة يستخدم لإثبات البراءة، وتشخيص المذنب من البريء، ولكن أغراض القسم تعددت بعد ذلك، وأصبحت تدور حول: التأكيد – الطلب – تحقيق رغبة – طلب المغفرة – إثبات البراءة – الإقناع – إثبات الادعاء – بث الطمأنينة – التحذير والتهديد – إثارة والتشجيع – التسليم – التأديب – التعظيم والتكريم والتبجيل – التفاخر – التقرب النقي – الشكوى وشرح الأحداث – الدعاء والاستغاثة – الإرضاء – التأييد – الإصرار والإبرام – التنبيه والإخبار.

والصفات التي استخدمت في اللغة الفارسية في القَسَم والحلف واليمين هي: صعب – شديد – أشد – ثقيل – ثقيل جداً – مغلظ – مغلظة – غلاظ شداد – عظيم – أعظم – كاذب – كبير وشديد – خطأ – قوي – طاهر، فيقال: قَسَم صعب أو قَسَم عظيم ... إلخ.

أما أدوات القَسَم أي الحروف والكلمات التي تستخدم في القَسَم، فهي: حروف الباء والتاء والواو (بالله – تالله – والله)، وهي من حروف القَسَم في اللغة العربية. وقد يأتي حرف الباء مقترناً بالهاء، مثل: به خدا (قَسَماً بالله). وقد استخدم بعض الشعراء والكتاب أسلوب القَسَم بدون أداة، مثل: جان تو (قسماً بروحك). كما أن بعض هؤلاء الشعراء والكتاب استخدموا أسلوب القَسَم على هذا النحو: ترا به خدا (أستحلفك بالله)، لتأكيد القَسَم ورغبة في شدة تأثيره.

وقد تطور القسم بمرور الزمان وبتأثير التغيرات والتطورات التاريخية، وبسبب تطور اللغة الفارسية والأدب الفارسي، وخرج القَسَم من صورته البدائية، وظهر في صور وأنواع مختلفة. وتعد الأقَسَام الدينية، والأقسام المقترنة بالمناجاة (مثل مناجاة عبد الله الأنصاري) التي ظهرت اعتباراً من العصر السلجوقي (429 – 582 هـ) فصاعداً، نموذجاً بارزاً للتطور الذي طرأ على القَسَم. ومن أنواع القَسَم – من حيث الموضوع – الأقسام التاريخية المتناثرة في كتب التاريخ الفارسية، والأقَسَام التي تبرز الحالات النفسية والمشاعر الإنسانية في أشعار الشعراء وكتابات الكتاب، والأقَسَام الهجائية

والهزلية التي وردت في هجويات وهزليات الشعراء الفرس. وينقسم القَسَم من حيث الشكل إلى قسمين متمايزن:

- الأقْسَام المنفردة والمنفصلة والمتناثرة
- الأقَسَام المركبة والجماعية التي تسمي: سوگندنامه (كتاب القَسَم) أو قَسَم نامه (رسالة القَسَم).

وتستخدم سوگند نامه بمعنيين:

الأول: الورقة التي يكتب فيها القَسَم.

الثاني: الشعر والنثر اللذان يستخدم فيهما الشاعر أو الكاتب أنواعاً متعددة ومتنوعة من الأقسام. وكان غرض الشعراء الذين نظموا "سوگندنامه" بالمعني الثاني من ذكر أقَسَام متنوعة في أشعارهم هو إثبات براءتهم من التهم التي نسبها إليهم المعارضون والمنافسون، وأشهر هؤلاء الشعراء: خاقاني الشرواني ونظامي الكنجوي وكمال الدين إسماعيل وظهير الدين الفاريابي وخواجوي الكرماني وغيرهم. وقد لجأ بعض الشعراء، مثل: سوزني السمرقندي وخاقاني وكمال الدين إسماعيل، إلى الهجاء والهزل. كما نظم بعض شعراء البلاط أشعاراً اعتذارية، لحث المعتذر إليه (الممدوح) على

قبول عذرهم، وإقناعه ببراءتهم، ولجأوا إلى أقْسَام مغلظة ومتواترة، وهي أشعار تقترن غالباً بأشعار الشكوى، أو تأتي في إثرها.

أقْسَام العامة:

في أواخر العصر القاجاري (1779 – 1925م)، وفي مرحلة الحياة النيابية، وبسبب التغيرات التي طرأت على المجتمع الإيراني، جرت بعض الأقْسَام على ألسنة العامة، واستخدمها الشعراء والكتاب في أشعارهم وكتاباتهم. وأول من استخدم قَسَم: استحلفك بالإمام علي، واستحلفك بالإمام الحسين، مخاطباً أحد أصدقائه. هو شاعر العصر القاجاري: يغما الجندقي. أما الشاعر إيرج ميرزا (1874 – 1924م) فقد أستخدم في أشعاره قَسَم: قَسَماً بالعباس (أبو الفضل العباس بن علي الذي قتل في موقعة كربلاء عام 61هـ.ق)، وقَسَم: قَسَماً بشاربي وشاربك، واستخدم عارف القزويني (1300 / 1352م) عبارة "أقَسَم بجرأة" في أشعاره، وأقَسَم ملك الشعراء بهار(1951/1866م) بالنبي وبالقرآن، وبرأس جده. ونحن نصادف مثل هذه الأنواع من الأقْسَام والأيمان في أشعار الشعراء المعاصرين أيضاً. وقد جمع الكاتب والأديب صادق هدايت (1902 /1951م) نماذج من هذه الأقْسَام التي يتلفظ بها العامة في كتابه: نيرنگستان (موطن السحر) ومنها: قَسَماً بشعاع الشمس

- قَسَماً بالمصباح - قَسَماً بسلمان (الفارسي) - قَسَماً بموقد أبيك - قَسَماً بشاه چراغ (أحمد بن موسي بن جعفر الصادق - له مرقد في شيراز) - قَسَماً بحبات الأرز التي لا حصر لها.

ومع أن القَسَم والحلف بغير الله غير جائز في الإسلام، إلا أن الإيرانيين - شأنهم شأن سائر الشعوب الإسلامية - يقسمون ويحلفون بالله أو بصفة من صفاته وبنبي الإسلام وبالقرآن والأئمة والعظماء والأعزاء، ويقولون: قَسَماً بأمل الحق - قَسَماً بالله - والله - لا والله - قَسَماً بالقرآن - قَسَماً بالقرآن المجيد، كما يقسمون بحق آل الكساء الخمسة (النبي - على - الحسن - الحسين - فاطمة). قَسَماً بإمام الزمان " المهدي الموعود " - بحق إمام الزمان - قَسَماً بالإمام الحسين - قَسَماً بالعباس - الله وكيلي - استحلفك بالله - قَسَماً بألوهية الله - قَسَماً بالله الواحد الأحد - والله - بالله - تالله - استحلفك بالله الذي تعبده - قَسَماً بالله الذي خلقنا جميعاً - ربي شاهد على - استحلفك بالقرآن - قَسَماً بكلام الله - قَسَماً بالقرآن الذي تؤمن به - قَسَماً بالقرآن الذي نزل على صدر محمد - - قَسَماً بجميع المقدسات - استحلفك بجميع مقدسات العالم - قَسَماً بشاربك - قَسَماً بشاربك الرجولي - قَسَماً بهذه الشعيرات - قَسَماً بشرفي - قَسَماً بالرأس المبارك

- قَسَماً بشرف جميع الأموات - قسماً بموتك - قَسَماً بموتي - قَسَماً بروحك - قَسَماً بروحي - أكفن أطفالي إذا كنت كاذباً - قَسَماً بموت أطفالي - قَسَماً بموت أبي (أمي) - قَسَماً برأس جدك - استحلفك بجدك - قَسَماً ببركة على المرتضي - قَسَماً بهذه الملح - قَسَماً - بالخبز والملح الذي أكلناه سوياً - قَسَماً بهذه النار - قَسَماً بشاه چراغ - قَسَماً بالنور المحمدي - قَسَماً بالقبلة المحمدية - قَسَماً بالنبي - قَسَماً بأجدادي الطاهرين - بحق علي - قَسَماً بقلب السيدة زينب المحترق - قسماً بيدي أبي الفضل العباس المقطوعتين - قَسَماً بضلع فاطمة الزهراء المكسور - قَسَماً بمفرق مولي المتقين المشقوق - قَسَماً بمفرق على الأكبر "الأصغر" المشقوق - قَسَماً بشفتي شهيد كربلاء العطشى - قَسَماً بشهداء صحراء كربلاء الاثنين والسبعين - قَسَماً بقمر بني هاشم (أبو الفضل العباس) - قَسَماً بنارجيلتك الرجولية - أماتني الله إذا كنت كاذباً - أصاب بالصمم " بالعمي" إذا كنت كاذباً.

وقد ذكر جيمس موريه - الذي كان يعمل سكرتيراً في السفارة البريطانية بطهران - في كتابه المعنون: مغامرات حاجي بابا الأصفهاني، الأقسام التي يُقسَم بها الإيرانيون، وقد جاءت هذه الأقسام على لسان رجل مسن من الأكراد الذين دخلوا إيراني في

عهد نادر شاه (1148 – 1160هـ). وقد نشر موريه الكتاب في لندن عام1824م / 1239هـ بعد عودته من إيران بعشر سنوات. وكان قد أقام في إيران ست سنوات، والكتاب على شكل قصة بطلها "حاجي بابا الأصفهاني"، ولا يحمل أي طابع تاريخي. وقد أراد الكاتب أن يعرف القارئ البريطاني آداب وأخلاق وأسلوب حياة الإيرانيين الاجتماعية والسياسية ومعتقداتهم القومية وتعبيراتهم اللسانية والمجاملات السائدة بينهم. والكتاب مترجم عن الإنجليزية إلى الفرنسية ومنها إلى الفارسية، ونشرة الكاتب المعروف محمد علي جمالزاده، وكتب له مقدمه في جنيف في (عام 1966م) وأكد في مقدمته أن مترجم الكتاب هو ميرزا حبيب الأصفهاني المتخلص بـ " دستان"، كما أكد أن الكتاب يصف الأوضاع الاجتماعية في إيران في قرن ونصف مضت، وكيف كانت إيران تعيش بعد الثورة الصناعية في أوروبا. ويشك علي أكبر دهخدا في موسوعته لغتنامه دهخدا في وجود حاجي بابا الأصفهاني تاريخياً، ويقول إن المؤلف لم يكن منصفاً وكان مغرضاً، وسيطرت عليه روح الاستهزاء والطعن والانتقاد اللاذع وتضخيم العيوب، وإنه عدد الآداب التي كان يعتقد أنها قبيحة، ويقول دهخدا إن هذا الكتاب أساء إلى إيران في الخارج، ولم يشر إلى محاسن الإيرانيين وفضائلهم قط.

أما ما جاء في هذا الكتاب عن الإيرانيين وأقَسَامهم، وذكره جمالراده في كتابه الشهير: يكي بودويكي نبود (كان ياما كان) فترجمته: "أيها الأصدقاء... لا تعلقوا قلوبكم بالإيرانيين... فالكذب مرض وطني وعيب فطري فيهم، والأقسام التي يقسمون بها دائماً شاهدة على صدق هذه المقولة، أنظر إلى أقَسَامهم، فالكلام الصادق لا يحتاج إلى القَسَم: قَسَماً بروحك – قَسَماً بروحي – قَسَماً بموت أولادي – قَسَماً بروح أبي وأمي – قَسَماً برأس الشاه – قَسَماً بموتك – قَسَماً بشاربك – قَسَماً بالسلام عليكم – قَسَماً بالخبز والملح – قَسَماً بالرسول – قَسَماً بأجداد الرسول الطاهرين – قَسَماً بالقبلة – قَسَماً بالقرآن – قَسَماً بالحسن (بن على بن أبي طالب) – قَسَماً بالحسين – قَسَماً بالأئمة الاثني عشر – قَسَماً بالأربعة عشر المعصومين (الأئمة الاثني عشر بالإضافة إلى النبي وابنته فاطمة). وهذا كله من اصطلاحات أقَسَامهم المعتادة. والخلاصة أنهم يتكبدون مشقة القَسَم بروح ونفس الأموات والأحياء وبالرأس والعين المقدسة واللحية والشارب المبارك وبالأسنان المكسورة والأيدي المقطوعة والنار والمصباح وماء الحمام؛ حتى يظهرون أن كذبهم صدق (ويقنعون محدثهم). لا يجب أن تصدقوا هذه الأكاذيب".

القسم في الشعر الفارسي بعد الإسلام:

كانت الأقَسَام بسيطة وصريحة في البداية، ثم تفنن البشر في ابتكار أقسام جديدة بمضامين جديدة بمرور الزمان، وتطور العقل البشري، وقد أقَسَم الشعراء بعامة وشعراء الغزل بخاصة أقَسَاماً متنوعة بالله وصفاته وبالنبي وبالمعشوق وبالممدوح (الملك) وبما هو مقدس لديهم. وقد أقسم الشعراء أقَسَاماً دينية ومذهبية مثل القسم بالله وبالقرآن والكعبة ومن بناها وزمزم وعرفات والمصحف وكلام الله وبرب المشارق والمغارب وبالرسول وبحق القرآن وبحق المصطفي وبحق آل محمد وبنور على الطاهر وبعزة الله وبالأنبياء والأولياء وبذات الحق وبمدينة مكة وبحق نوح والكليم (موسي عليه السلام) وبحق الزهراء (فاطمة) وأولادها الكرام، وبالتين والزيتون، وبالأئمة الأطهار وبحق مشهد الحسين وبأهل بيت النبي وبحق آل علي.

أما شعراء الغزل فأقسموا بالمعشوق وروحه وعيونه وجماله وذؤابته وفمه ووصاله وقلبه ورأسه ووفائه وعشقه وقده وأهدابه وقوامه وشفتيه وعمره، كما أقسموا بعهد المحبة وبتراب قدم المعشوق وبحق غمزته الجريئة، وبحق الدموع الساخنة والآهات الباردة. وأقسم شعراء المديح بروح الملك ورأسه، وبتراب نعل حصانه وبتراب قدمه، وبتاجه وعرشه، وبحق كرمه وعطائه ونعمته، وبجاهه وجلاله،

وبحق الصحبة القديمة، وبكأس الخمر. أما الشعراء الوطنيون فأقسموا بإيران والوطن والحرية وبالرجولة والشهامة.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

المكانة الدينية والسياسية لبعض الشهور في إيران قبل الثورة وبعدها



استطلاع هلال الشهور القمرية، مدينة قم، إيران. تصوير مصطفى مراجي. Https: //Unsplash.com

المكانة الدينية والسياسية لبعض الشهور في إيران قبل الثورة و بعدها

فضل الله – عز وجل – الشهور والأيام والليالي والساعات بعضها على بعض. وتحتل بعض الشهور العربية والفارسية مكانة مميزة في قلوب الشعب الإيراني، ومعروف أن السنة العربية سنة هجرية قمرية، وهي الفترة الزمنية التي يستغرقها دوران القمر حول الأرض اثنتي عشرة مرة، لذلك فهي تتألف من اثني عشر شهراً، وهي تبدأ منذ هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم).

أما السنة الفارسية التي بدأ العمل بها في إيران منذ عام 1925، فهي سنة هجرية شمسية، وهي الفترة الزمنية التي تستغرقها حركة الأرض حول الشمس لمرة واحدة، وهي تتألف من اثني عشر شهراً تبدأ من الاعتدال الربيعي في 3-21 من كل عام، وعدد أيام كل شهر من الأشهر الستة الأولى 31 يوماً، وعدد أيام كل شهر من الشهور الخمسة التالية 30 يوماً، ويكون الشهر الأخير 29 يوماً إذا كانت السنة بسيطة، و30 يوماً إذا كانت السنة كبيسة، ويظل هذا الشهر 29 يوماً مدة ثلاث سنوات متتالية، ثم يكون 30 يوماً بعد ذلك، كما يحدث في التقويم الميلادي.

والسنة البحرية الشمسية التي تبدأ من أول الهجرة النبوية، هي المعتمدة في التاريخ الرسمي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، ويسمى هذا التقويم بالتقويم الجلالي نسبة إلى الملك جلال الدين ملكشاه السلجوقي الذي اتخذه في عام 472 هـ (1079). وتستخدم السنة الهجرية القمرية في المناسبات الدينية، نظراً لأن جميع هذه المناسبات محسوبة طبقاً للسنة القمرية، كما يتم استخدام السنة الميلادية عند التعامل مع الرعايا الأجانب، وخلال الاتفاقيات الدولية. وكانت حكومة الشاه محمد رضا بهلوي (1941 – 1979) قد أعلنت في نهاية عام 1354 هـ. ش (1975) أن تغيير التقويم الإيراني من الهجري الشمسي إلى الشاهنشاهي (الإمبراطوري) سيبدأ من بداية عام 1355 هـ. ش (1976). وجعلوا بداية قيام الحكم الإمبراطوري في إيران منذ 2500 سنة بداية للتقويم الإيراني الحديث، وذلك بحجة أن التقويم الهجري الشمسي مرتبط بثقافة غير إيرانية. واعتبرت سنة 2500 هي السنة الأولى من حكم الشاه، ولما كان الشاه قد بدأ حكمه في عام 1320 هـ.ش (1941)، وأن التغيير سوف يبدأ في عام 1355 هـ.ش (1976) يكون فرق السنوات 35 سنة.. وهكذا أصبحت سنة 1355 هـ.ش التي ألغيت تقابل سنة 2535 شاهنشاهي (إمبراطوري). وهذا التغيير كلف خزينة الدولة نفقات

باهظة، كما أحدث خللاً في تواريخ المستندات، وحتم استبدال كافة مطبوعات الدولة بغيرها. واعتبر هذا الإجراء، الذي لعب حزب رستاخيز (النهضة) دوراً كبيراً في تنفيذه، محاربة الإسلام، مما أثار حفيظة أفراد الشعب بصفة عامة وعلماء الدين بصفة خاصة ضد الشاه، واعتبر البعض هذا الإجراء بمثابة الانتحار السياسى للشاه.

وتحتل الشهور العربية: المحرم وصفر وشعبان ورمضان مكانة خاصة في نفوس الإيرانيين. وشهر المحرم شهر حزن عند الشيعة، ففي اليوم العاشر منه قتل الإمام الحسيني سبط الرسول (صلى الله عليه وسلم)، بعد أن حوصر مع عدد من أنصاره وآل بيته في بقعة "ألطف" بكربلاء في التاسع من شهر المحرم عام 61 هجرية.

وشهر المحرم من الأشهر الحرم الأربعة في الإسلام، وقد سمي اليوم العاشر منه بـ "عاشوراء"، وقيل إن عاشوراء تعني العاشر في اللغة العربية، أو اليوم الواقع في العاشر من شهر المحرم، وهو يوم عطلة رسمية في إيران، وجاء في أحاديث الشيعة أن ثورة المهدى المنتظر ستقوم في هذا اليوم، حتى ينتقم من الذين ظلموا الأئمة. ويستمر الحزن والحداد وارتداء الملابس السوداء نحو خمسين يوماً (من أول المحرم وحتى اليوم العشرين من شهر صفر)، وتبلغ أيام العزاء قمتها

وحرارتها في العاشر من المحرم، ويمتنع الشيعة عن إقامة الأفراح والاحتفالات السارة في تلك الفترة، على الرغم من أن الإسلام لا يحظر ذلك. ومنذ الليلة الأولى من شهر المحرم يتغير وجه الحياة في القرى والمدن في إيران، وترفع الرايات السوداء تعبيراً عن الحزب، وتغطى الجداريات التي كتبت عليها مراثي شهداء عاشوراء والعزاء الخاص بهم الأبواب والجدران، وتقام مجالس العزاء في المساجد والمنازل ومزارات الأئمة وأبناء الأئمة (أما فراده ها)، وفى الأسواق الصغيرة والكبيرة، وفى السرادقات والمحلات التجارية الكبرى، وتزين أبواب الحسينيات (قاعات أو صالات عامة استمدت اسمها من اسم الحسين بن على) والتكايا وجدرانها بالرايات والشمايل (صور مذهبية) والأشعار الخاصة بحادثة كربلاء. وتغلق الحوزات العلمية الدينية أبوابها في هذين الشهرين (المحرم وصفر) عادة، ويتوجه طلاب هذه الحوزات إلى القرى والمدن للمشاركة في مجالس العزاء.

ومن الأعمال التي يقوم بها الإيرانيون في شهر المحرم: إظهار الحزن والتفجع وإضاءة الشموع ولطم الصدور بالأكف وترك بعض الملذات في المأكل والملبس، والفطور في اليوم العاشر من تربة الحسين (التراب الذي يؤخذ من أطراف قبر الإمام الحسين بن على

في كربلاء)، وقراءة الزيارات الخاصة بالإمام الحسين، ومنها زيادة عاشوراء، وزيارة الوارث في كل يوم من أيام شهر المحرم، ولاسيما في العشرة الأوائل، وإقامة المجالس في البيوت والمساجد والحسينيات، وهي المجالس التي يدور فيها الحديث حول فضائل أهل البيت، والتذكير بأهمية الثورة الحسينية في تقويم اعوجاج الفرد والمجتمع. وقد تحول عاشوراء إلى يوم تاريخي خالد يرمز عند الشيعة إلى نضال الإنسان من أجل حريته وإرادته، كما يرمز إلى انتصار الدم على السيف، وانتصار المقتول على قاتله. ويقوم البعض بتمثيل الواقعة وما جرى بها من أحداث أدت إلى مقتل الإمام الحسين.

وتعرف ليلة الحادي عشر من شهر المحرم بليلة الغرباء أو ليلة الغربة (شام غريبان)، وهي أول ليلة باتت فيها عائلات الإمام الحسين وأصحابه بدون رجالها وشبابها. وفى شهر المحرم أيضاً توفى الإمام زين العابدين على بن الحسين (يوم 25 من شهر المحرم عام 95 هجرية)، وفدن بالبقيع بالمدينة المنورة، وفى يوم 26 من شهر المحرم عام 146 هـ. توفى على بن الحسن المثلث بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن المجتبى في سجن المنصور العباسي.

ولما كانت الدولة الصفوية (1502 - 1736م) هي التي أعلنت المذهب الشيعي مذهباً رسمياً لإيران في عام (908هـ/1503م)، فقد نهى ملوكها الشعراء والكتاب عن مدح الملوك والعظماء، وأمروهم بمدح الأئمة وذكر مناقبهم والإشادة ببطولاتهم، وهكذا راج الفن المذهبي أو اللون المذهبي في الأدب الفارسي في العصر الصفوي، وقد تميز هذا اللون بطابع خاص وهو الطابع الحزين، لأن معظم الأئمة ماتوا قتلى، إلا أن الحزن كله انصب على الإمام الحسين الذي عد "سيد الشهداء" بالنسبة للشيعة، وتحول الحزن من شعور عاطفي إلى واجب ديني، ولذلك ظفر الإمام الحسين وأعماله ومراحل حياته ثم مصرعه في اليوم العاشر من شهر المحرم بأهمية كبيرة وتسجيل دقيق في الأدب الصفوي. وأفرزت التعزية أدباء مميزاً، ونظم شعراء كثيرون أشعاراً ومراثي حزينة عدة. وحظيت كربلاء باهتمام شديد، كما حظي شهر المحرم بمكانة لا تدانيها مكانة، وأصبح شهراً يختلف عن غيره من الشهور.

وخلق الفكر الشيعي من مصرع الحسين ملحمة، وصور خروجه على أنه ثورة. ويرى الإيرانيون الشيعة الإمام الحسين رمز الثورة والاستشهاد في سبيل المبدأ والحق ومكافحة الظلم والظالمين، وهم يرون أن كل عدد لهم إنما هو عدو للحسين، وأن كل ثورة أو

انتفاضة عندهم هي على طريق الحسين ونهجه، كما يرون في عاشوراء الرمز الزماني الدائم للحزن والفجيعة، وفى كربلاء الرمز المكاني لوقوع المأساة، وهي لديهم أرض ترفع فيها رايات الجهاد ضد ما يعتقدون أنه ظلم، ولهذا تتردد فيما بينهم العبارة الأثيرة ": كل يوم عاشوراء، وكل أرض كربلاء، وكل شهر المحرم"، وذلك عند استنفار العامة والخاصة لاستنهاض الهمم، والتذكير بالأحزان وإيثار الفداء والتضحية، وقد تردد هذا الشعار خلال مسيرات الثورة الإسلامية عام 1979، وكتب على جدران المدن والقرى، كما أذيع خلال سنوات الحرب العراقية الإيرانية (1980 – 1988) من خلال الإذاعة والتليفزيون، وكان يطبع على البوسترات، وعلى طوابع البريد الإيرانية.

وكان نظام الشاه محمد رضا بهلوي في الفترة من 1962 إلى 1978 يشعر بالوحشة والخوف من مراسم العزاء، خاصة في شهر المحرم، وكان يضاعف ترتيباته الأمنية وأساليب القمع البوليسية في هذا الشهر، وكان يستدعى ويعتقل وينفى علماء الدين الذين كانوا يدعون الناس إلى النضال في مجالس العزاء، وهي المجالس التي ساهمت في استمرار الإضرابات وإقامة المسيرات والمظاهرات في عهد الشاه. وقد استفاد الإمام الخميني من هذه المجالس وهذه

المراسم، خاصة تلك التي تقام في يومي تاسوعاء وعاشوراء، وكان يمزج الشعائر المذهبية بالشعارات السياسية، وكان يطلق على شهر المحرم اسم: شهر الحماسة والشجاعة والفداء، ويقول إنه الشهر الذي انتصر فيه الدم على السيف.

أما شهر صفر، فبالإضافة إلى أنه يشتمل على عشرين يوماً من الأربعين الحسيني، فقد مات في اليوم السابع منه الإمام الثاني عند الشيعة الحسن بن على، وفى اليوم الثامن والعشرين منه ذكرى وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) طبقاً للروايات الشيعية. ويعد شهر شعبان شهراً للفرح والسرور لدى أفراد الشعب الإيراني لما فيه من مناسبات وأعياد ميلاد العديد من أئمة الشيعة. وفى هذه المناسبات وهذه الأعياد تزين المباني السكنية والتجارية في المدن والقرى بالأنوار وأنواع الزينة المختلفة، وينتهز البعض الفرصة ويقدم على الخطبة والزواج في هذه المناسبات السعيدة، وفى الأسبوع الأخير من هذا الشهر يتم إعداد المساجد لاستقبال شهر رمضان واستقبال المصلين، كما يتم تنظيف وتجديد وتزيين المساجد.

أما شهر رمضان، شهر الصوم ونزول القرآن الكريم، وفيه ليلة خير من ألف شهر هي ليلة القدر، فقد قتل الإمام على بن أبى طالب في التاسع عشر منه: وفى هذا الشهر المبارك تنظم المسابقات

القرآنية، وتقام جلسات تحفيظ وتجويد وختم القرآن الكريم، وتعقد الأمسيات الدينية والأدبية التي يحاضر فيها كبار علماء الدين وغيرهم من الشخصيات الثقافية، كما تقام المعارض التي تباع فيها الكتب الدينية العربية والفارسية والمصاحف. كما تقام بعد صلاتي الظهر والعصر وبعد الإفطار مجالس وعظ في المساجد تذكر فيها مصيبة أهل البيت، خاصة في ليالي التاسع عشر حتى ليلة القدر، وذلك بمناسبة وفاة الإمام على بن أبي طالب وليلة القدر، ويرتدى الناس ملابس الحداد السوداء في هذه الأيام، ويختم كل مجلس عزاء بذكر الإمام الحسين، ولا تقام الأفراد ولا الاحتفالات في هذا الشهر أيضاً، فهو شهر حزن وحداد، ولقد سار الفرس على سنة العرب في استعمال الشهور العربية أعلاماً، ففيهم من يتسمى بـ "صفر"، و"رجب"، و"شعبان"، و"رمضان" أو "رجبي"، و"شعباني"، و"رمضاني" (باستخدام ياء النسبة)، وقد تركب هذه الأعلام مع اسم "علي"، فتصبح كأنها كلمة واحدة، ترسم على النحو التالي: رجبعلي، رمضانعلي، صفرعلي.

وفيما يتعلق بالسنة الفارسية، فقد كان الإيرانيون القدماء يحتفلون في كل شهر من شهور هذه السنة احتفالاً خاصاً، وكانوا يقيمون المآدب التي يقدمون فيها مأكولات تراثية وشعبية. ويحتل الشهر

الحادي عشر من هذه السنة، وهو شهر "بهمن" مكانة متميزة في نفوس الإيرانيين، وعدد أيامه 30 يوماً، وهو يبدأ من 21 يناير، وينتهي في 19 فبراير في التقويم الميلادي، وهو ثاني شهور الشتاء، وكان الفرس القدماء يحتفلون في العاشر من هذا الشهر بعيد يسمى عيد السدق (جشن سده). ومعنى "بهمن" في اللغة البهلوية: صاحب الطبع الحسن وصاحب الأصل الطيب، وهو اسم ملاك في الديانة الزرادشتية. ونظراً لأنه يقع في منتصف فصل الشتاء نجد في اللغة الفارسية مصطلحات: سحاب بهمن، ثلوج بهمن، والإيرانيون يطلقون على شهر بهمن اسم: شهر الثلج. ومن معانيه في المعجم الفارسي: جليد، وثلج، وكتلة ثلجية تتجمع نتيجة لهبوب الرياح أعلى قمة الجبل، وتنحدر فجأة، فتدمر كل ما يقف في طريقها من منازل وأفراد.

وقد انتصرت الثورة الإسلامية في اليوم الثاني والعشرين من شهر بهمن عام 1357. ش الموافق (11 – 2 – 1979)، بعد أن تمت الإطاحة بالحكم البهلوي (1979 – 1925). ولما كان انتصار الثورة في هذا الشهر، فإنهم يطلقون اسم "بهمن الخير" على هذا الشهر، ويسمون الثورة الإسلامية "ثورة بهمن 57"، ويطلقون على المسيرات الحاشدة التي تنظم في يوم 22 من شهر بهمن من كل عام

إحياءً لذكرى نجاح الثورة اسم مسيرات بهمن الخير. ونظراً لأن بهمن اسم ملاك، يطلقه الإيرانيون على الأشخاص والنوادي والمراكز الثقافية والاجتماعية والمستشفيات في إيران.

ولمكانة شهر بهمن عند الإيرانيين بعد الثورة، أدخلوه في نسيج نشيدهم الوطني، حيث قالوا: بهمن فرايمان ماست (بهمن شموخ إيماننا). كما تحدث عنه الشعراء الإيرانيون في أشعارهم بكل حب واعتزاز، ووصفوه بأنه رسول الفتح والنصر وأسطورة الإيثار والتضحية. يقول الشاعر محمد حسين بهجتي (شفق) في مثنوية يصل عدد أبياتها إلى 22 بيتاً، وتحمل عنوان:

22 بهمن

أصبح شهر بهمن شهر العشق والأمل، وظهر ربيع الخلق في شهر بهمن

وهذا إعجاز وفضل من الله، إنه ربيع بديع في فصل الشتاء

ربيع ينثر الورود في الشتاء، ربيع ليس له مثيل في العالم أجمع

في شهر بهمن، شهر النور والبشرى، انتصرت ثورتنا

وخلال ليالي عشر من شهر بهمن، طلع مائة ألف فجر مختلف

في شهر بهمن كان الفضاء مملوءاً بالسحب والغيوم، وكانت الجبال غارقة في السواد حتى قممها

وفجأة طلعت الشمس (الإمام الخميني) من المغرب (باريس)، وجاء وقت الجزاء ويوم الحساب

ويقول الشاعر "رضا إسماعيلي" في قصيدة له بعنوان "بهمن"، مخاطباً شهر بهمن، بعد أن يصفه بأنه رسول الفتح والنصر، وأنه جاء وبرفقته قافلة من شهداء الثورة:

لقد جلبت معك نعمة الحرية والإيمان والنور من الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم.

وجلبت لنا الوحدة واليقظة والعشق وأمل اللطف والرحمة.

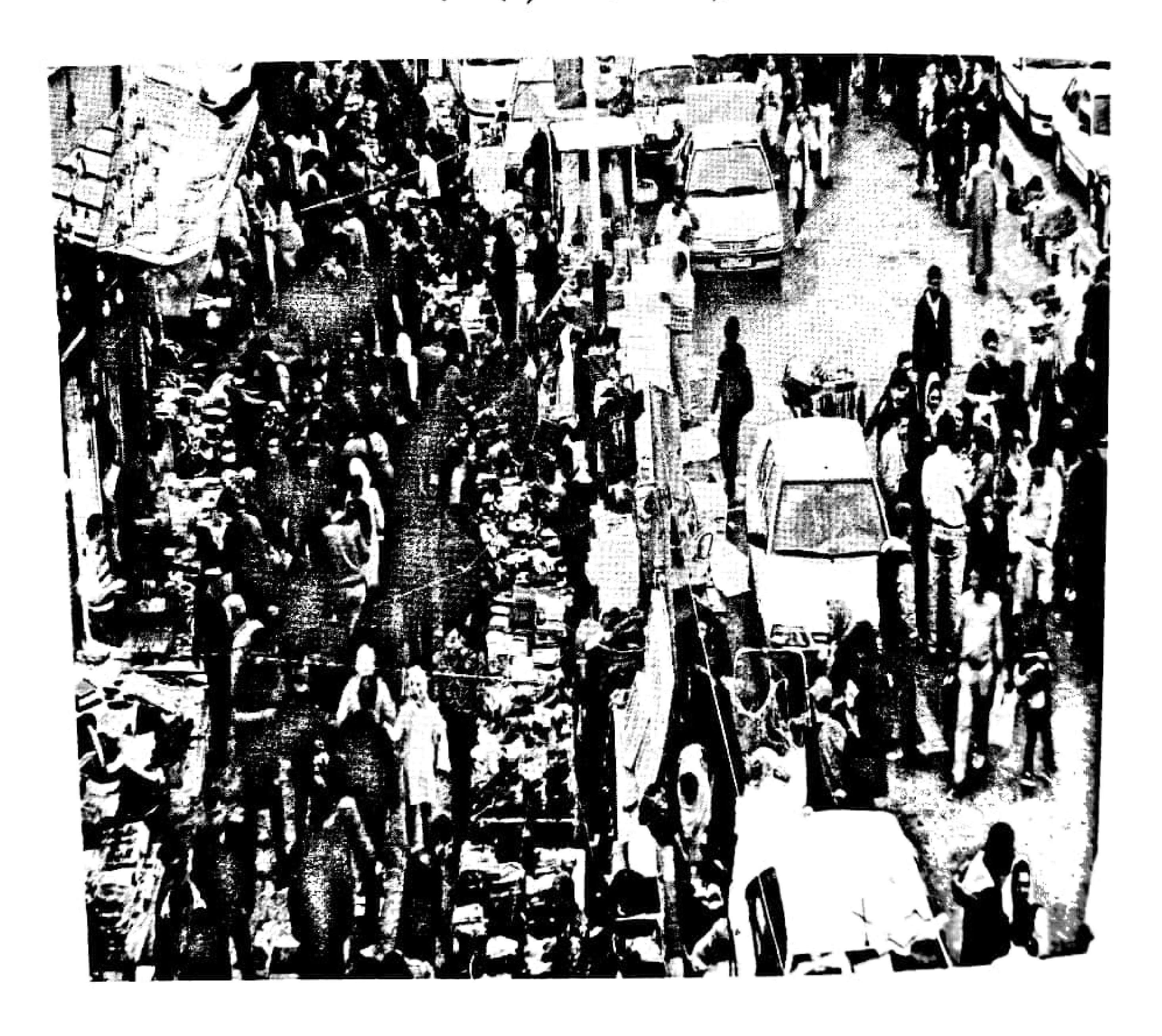
وجلبت لنا نور الله، بعد ليالي الظلم الحالكة السواد.

وجلبت لناب بشارة نصر المستضعفين من الله.

يا بهمن، يا أسطورة الإيثار والتضحية، لقد جلبت معك شذا الروح من كربلاء.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً في الجمهورية الإسلامية الإيرانية



سوق تجريش، طهران، إيران. تصوير فرزاد محسنقاد

Https: //Unsplash.com

الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً

في الجمهورية الإسلامية الإيرانية

حظيت أربع أقليات دينية برعاية الحكومة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية في الوقت الحاضر، وتؤكد الحكومة الإيرانية أنها مكلفة بالحفاظ على حقوق هذه الأقليات، وعلى حريتها الدينية، وعلى توفير الأمن لها. وهذه الأقليات تتمتع. في إطار القوانين الإسلامية . بحريات ثقافية واجتماعية وسياسية شأنها في ذلك جميع أفراد وطبقات الشعب الإيراني، وهذه الأقليات هي: الأقلية اليهودية، الأقلية المسيحية (أرمن وآشوريون)، والأقلية الزرادشتية.

وفي الدستور الإيراني الحالي مادة كاملة (المادة الثالثة عشرة) عن هذه الأقليات نصها: "الإيرانيون الزرادشت، واليهود، والمسيحيون هم وحدهم الأقليات الدينية المعترف بها، وتتمتع بالحرية في أداء مراسمها الدينية ضمن نطاق القانون، ولها أن نعمل وفق قواعدها في الأحوال الشخصية والتعاليم الدينية."

وطبقاً للمادة (67) من الدستور فإن نواب الأقليات الدينية يؤدون اليمين الدستورية، مع ذكر كتابهم السماوي الخاص بهم. كما وافق مجلس الشورى الإسلامي مؤخراً على أن تكون فدية الأقليات هي

نفس فدية المسلمين. هذا فضلا عن أن المادة التاسعة عشرة من الدستور الحالي تنص على تمتع أفراد الشعب الإيراني. من أية قومية أو قبيلة. بالمساواة في الحقوق، وعلى أن اللون أو العنصر أو اللغة أو ما شابه ذلك لا تعتبر سبباً للتفاضل والتمايز.

ولهذه الأقليات دور للعبادة خاصة بها، ومدارس ومعارض ونقابات ومؤسسات خيرية وكتب ومطبوعات (صحف ومجلات)، ودور لنشر وتوزيع الكتب الدينية.

أولاً: اليهود:

علاقات إيران باليهود قديمة، فالإمبراطور كوروش (550 . 529ق.م) مؤسس الإمبراطورية الأكمينية (الهخامنشية) (550 . 330 ق.م)، قام بتحرير بني إسرائيل من السبي البابلي، وبنى لهم مدينة خاصة بهم في غرب إيران، واستفاد مهم في بناء حضارة دولته. انصرفوا هم إلى التجارة والصناعات الأساسية وتحقيق الثراء عن طريقهما.

ويقول البعض ومنهم مؤرخو الفرس إن كورويش سمح لهم بالعودة إلى فلسطين مرة أخرى، وإنه أعاد اثنان وأربعون ألفا من بني إسرائيل، ومعهم سبعة آلاف من الغلمان والحواري، وسمح لهم ببناء

معبد في بيت المقدس، كما أمر بإعادة الأواني الذهبية والفضية إلى بيت المقدس، وكان "بختصر" قد أحضرها معه.

إلا أن البعض الآخر ومنهم الدكتور "محمد خليفة حسن" يذكر أن اليهود لم يستجيبوا لدعوة كوروش لهم بالعودة، لأن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والدينية كانت قد استقرت تماماً في بلاد ما بين النهرين.

وقد أتاح لهم الحكم الفارسي الجديد التخلص من الحكم البابلي، وأصبحوا خاضعين مباشرة للفرس الذين انتهجوا سياسة متسامحة مع اليهود.

كما يذكر الدكتور خليفة أن العصر الفارسي من أهم عصور الازدهار في الحياة اليهودية، وأن الحياة اليهودية زاد استقرارها في بلاد الإمبراطورية الفارسية، وبخاصة في منطقة ما بين النهرين وفي فارس ذاتها. وقد حقق اليهود مكانة اقتصادية كبيرة، وتقلدوا بعض المناصب الكبيرة وبخاصة في البلاط الفارسي.

وقد اكتسب الملك كوروش محبة اليهود الذين نظروا إليه على أنه "مسيح مخلص". وقد سار معظم ملوك فارس على سياسة كوروش في تعاملهم مع اليهود في بلاد الإمبراطورية. ومع ظهور الإسلام وانتشاره في بلاد المشرق ومن بينها إيران واصلت الجماعة اليهودية حياتها المستقرة، وحقق اليهود في إيران نجاحاً كبيراً. ووصل أحدهم إلى منصب الوزارة في عهد الإيلخانيين (الأسرة المغولية التي أسسها هولاكو خان في إيران وظلت تحكم من عام 654هـ إلى عام 754هـ) وهو "سعد الدولة اليهودي" طبيب ووزير أرغون (682. 690هـ) الذي تميز حكمه بمحاباة اليهود. وقد شهدت الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر اعتناق أعداد كبيرة من يهود إيران للإسلام، وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية. كما شهدت الطائفة اليهودية في إيران بداية من منتصف القرن التاسع عشر ظاهرة اعتناق بعض اليهود للبهائية.

ومع تزايد قوة الحركة الليبرالية في إيران مع بدايات القرن العشرين طرأت تحولات عديدة على أوضاع اليهود في إيران، فقد تحسن الوضع الثقافي لليهود، وتنوعت أنشطة اليهود الاقتصادية، واشتغلت أعداد منهم بالجيش وفي كافة الأجهزة الحكومية، واحتل بعضهم مكانة اقتصادية هائلة في الدولة. وقد شارك اليهود بقوة

في الحياة الاقتصادية في عهد "محمد رضا بهلوي" مع ازدهار الاقتصاد الإيراني على أثر ظهور البترول. واشتغل كثير من اليهود في مجالات: السياحة والفندقة والطب والصيدلة والمحاماة والتدريس بالجامعات.

ومن العوامل التي ساعدت اليهود على الاندماج في المجتمع الإيراني اعتناق كثير من اليهود للبهائية من منتصف القرن التاسع عشر، وحرص الغالبية اليهودية على إخفاء انتماءاتهم الدينية من خلال تغيير الأسماء، أو اعتناق الإسلام، أو قطع الصلة بالطائفة اليهودية، وكان الهدف من إنكار الهُوية الدينية تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

وقد أنتج اليهود الإيرانيون أدباً باللغة الفارسية شأنهم شأن اليهود في كل بلاد العالم الإسلامي، وذلك بعد أن تأثروا بالبيئة الثقافية الفارسية، وانعكس هذا التأثر في أدبهم سواء كان منظوماً أو منثوراً وتعد الأعمال الأدبية ليهود إيران وما وراء النهر والتي كتبت باللغة الفارسية والخط العبري وتسمى بالآداب الفارسية اليهودية فرعاً من فروع الأدب الفارسي، ويشكل الشعر لب الأدب الفارسي اليهودي، لكنه لم يكن مرتبطاً بالبلاط الفارسي. وقد تمت الاستفادة من النثر في ترجمة الكتاب المقدس وتفسيره ورواية

الحكاية والقصص، والموضوعات العلمية والحكمية والمواعظ الدينية.

وقد ترجم سفر إستر ومزامير داود والتوراة إلى الفارسية اليهودية، ومن المعروف أن الشاه عباس الأول (996- 1038هـ) هو الذي أمر بترجمة مزامير داود، وأن نادر شاه الأفشاري (1734. 1747م) هو الذي أمر بترجمة التوراة ومزامير داود والإنجيل والقرآن إلى اللغة الفارسية، وقد تمت ترجمة التوراة ومزامير داود على يد اليهود بالخط العبري واللغة الفارسية، ثم حولها أحد الخطاطين الإيرانيين إلى الخط الفارسي.

كما ألفت معاجم عبرية بالفارسية اليهودية وكتب طبية وأغاني شعبية، ونظمت أشعار بالفارسية اليهودية في موضوعات تدور حول تاريخ اليهود وديانتهم، كما نظمت أشعار صوفية، ومن أشهر شعراء إيران اليهود: شاهين الذي يعد أو شاعر يهودي نظم الشعر الفارسية اليهودية، وإنتاجه الشعري ينحصر في موسى نامه ـ أردشير نامه ـ مزرا نامه قصة يوسف وزليجا المعروفة بأحسن القصص.

والشاعر عمراني وهو ثاني شاعر سطع في سماء الأدب الفارسي اليهودي بعد شاهين، ومن أعماله الأدبية: فتح نامه، كتاب الفتح،

وهو عبارة عن منظومة يتجاوز عدد أبياها الخمسة عشر ألف بيت، ومنظومة ساقي نامه، وهي منظومة غنائية صوفية تأثر فيها بحافظ الشيرازي وسعدي الشيرازي وعمر الخيام، ومنظومة كنج نامه، كتاب الكنز، التي سجل فيها عمراني أقوال عظماء اليهود ونصائحهم في كل مكان بلغته هو، والمنظومة تحتوي على أكثر من خمسة آلاف بيت.

كما أغرم يهود إيران وما وراء النهر بأشعار الشعراء اليهود في إسرائيل والدول الأخرى، وأحياناً توضع ترجمة منظومة بالفارسية تحت كل بيت شعر عبري، كما أنشد بعض يهود إيران شعرا بالعبرية. كما أغرموا بقراءة أشعار شعراء إيران الكبار مثل: الفردوس . سعدي . صائب التبريزي . عرفي، وغيرهم، ويتضح من المخططات أنهم نقلوا إنتاج هؤلاء الشعراء إلى الخط، العبري منذ زمن بعيد والتعاون بين الشاه محمد رضا بهلوي (1941– 1979م) واليهود معروف وثابت، فقد أبرم الشاه اتفاقيات اقتصادية وثقافية وإعلامية مع إسرائيل، وكان هناك تعاون بين جهاز المخابرات الإسرائيلي (الموساد) وجهاز السافاك الإيراني، وكانت إيران أول دولة في المنطقة تؤسس فيها منظمات صهيونية مؤثرة وفاعلة، أصبحت فيما بعد نواة للحركة الصهيونية في المنطقة، وقد توترت

العلاقات بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران (1979/2/11م)، وقطعت إيران علاقاتها مع الكيان الصهيوني في إسرائيل، واستدارت الثورة على قيادات اليهود ممن كانت لهم علاقات مشبوهة مع الإسرائيليين، وتم اعتقال بعض اليهود بتهمة التجسس لحساب إسرائيل.

لكن بعد أن اتضح الخط العام للثورة، فرقوا في إيران بين اليهودية والصهيونية، ويمارس اليهود الآن نشاطهم بحرية في المجتمع الإيراني، ويتجلى هذا في احتفالاتهم وأعيادهم وفي مدارسهم التي يتم فيها تعليم الخط واللغة والتاريخ والفن والموسيقى اليهودية.

ولليهود في إيران حوالي (43) كنيسة، ولهم مقابر خاصة بهم، وتوجد في إيران بعض مقابر أنبياء بني إسرائيل وحاخامات الدين اليهودي منها: مقبرة النبي دانيال في شوش، ومقبرة النبي حبقوق في مدينة تويسركان، ومقبرة إستر ومردخادي في مدينة أصفهان، ومزار صارح ابنه أشر بالقرب من مدينة أصفهان.

ويقيم يهود إيران في عدة مدن إيرانية هي: همدان . أصفهان . شيراز . شوش . شوشتر . نهاوند . كاشان . طهران، ولهم في هذه المدن روابط ينتخب أعضاؤها انتخاباً مباشراً، وجمعيات ومؤسسات خيرية

تلعب دوراً بارزاً في حل المشكلات الاجتماعية والصحية والاقتصادية لليهود منذ فترة طويلة.

ويحصل يهود إيران على عطلات رسمية في أعيادهم ومناسباتهم، وعطلة عيد الفصح تصل إلى أسبوع كامل.

ولقد شارك اليهود ـ مثل سائر أفراد الشعب الإيراني ـ في الحرب الإيرانية ـ العراقية، وقتل منهم عدد من الأفراد أثناء المعارك.

وجدير بالذكر أن اليهود يملكون داراً للنشر تسهم بدور كبير في نشر الكتب والأبحاث بجميع اللغات في إيران، وهي دار "بروخيم".

ومن المعروف أن الرئيس الإسرائيلي الأسبق (موشيه كاشاف) من يهود إيران، وقد قال في تصريح نشرته له جريدة الأهرام في (2006/5/3م) إنه يكن كل مشاعر الاحترام والتقدير لتاريخ إيران وثقافتها، وقال أيضاً، قد ولدت بإيران، وعاشت عائلتي هناك لأكثر من 2500 عام.

وطبقاً لآخر إحصائيات أجريت، بلغ عدد اليهود الإيرانيين حوالي خمسين آلف نسمة، يمثلهم في مجلس الشورى الإسلامي عضو واحد.

ثانياً: الأرمن:

الأرمن من الأقليات المسيحية التي استوطنت إيران منذ أمد بعيد، فقد انتشرت المسيحية في إيران في عصر الأشكانيين (250ق.م/ 226م)، وكان للدين المسيحي أتباع منذ القرن الأول الميلادي فيما بين النهرين وغرب إيران، وزاد عدد المسيحيين في إيران في العصر الساساني (652/224م) نتيجة للحروب التي دارت بين الفرس والرومان، ونتيجة لعمليات الأسر الجماعي وتمركز الأسرى المسيحيين في مناطق معينة، كما أن انتشار المسيحية في أرمينيا كان من أسباب انتشارها في إيران وعندما طرد النسطوريون من روما في القرن الخامس الميلادي استوطنوا ما بين النهرين وإيران، وأنشأوا مدارس خاصة بالمسيحيين في عهد أنوشروان (579/531م)، واشتهرت هذه المدارس بتدريس العلوم الطبية.

وبعد الفتح الإسلامي لإيران، وبعد انتشار الدين الإسلامي فيها، ساعد المسيحيون العرب في إدارة شئون إيران، وكان منهم الأطباء والمستشارون والمترجمون وكتاب الدواوين والمؤدبون ولم يمنع الإسلام قيام علاقات اجتماعية واقتصادية بين المسلمين وأهل الكتاب أو أهل الذمة، والذمة هي "العهد" عهد الله ورسوله وجماعة المسلمين، وقرر الإسلام لأهل الكتاب حرية التعبد وإقامة الشعائر

في بيعهم وكنائسهم، كما قرر أن تصان حرماتهم، وتؤدى الأمانات لهم، وأن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، ولهم ما يسمى حديثا بحقوق المواطنة.

ومن عوامل زيادة عدد المسيحيين في إيران تغير الأوضاع السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي في روسيا وتركيا، فهاجر عدد كبير من مسيحيي هاتين الدولتين إلى إيران بسبب سوء المعاملة.

وقد مرت بالأرمن فترات عصيبة في العصر الصفوي (1148/906هـ) فقد أمر الشاه عباس (996. 1038هـ) الذي كان في حالة حرب مع السردار العثماني سنان باشا في أذربيجان وأرمنستان . بتدمير جميع المدن والقرى التي يقيم فيها الأرمن، وبتهجير السكان عنوة إلى مدن أخرى، وقد تعرضت هذه المدن وهذه القرى للسلب والنهب، وذلك لأن هذه المدن وهذه القرى تقع في طريق الجيش العثماني، وكان الشاه عباس يهدف من ذلك إلى حرمان الجيش العثماني من الطعام والماء والعلف. وتم تهجير عائلات أرمنية كثيرة إلى مختلف المناطق في إيران وبخاصة: أصفهان وجيلان، واستقر ما يقرب من ثلاثة ألاف أسرة على ضفاف نهر "زاينده رود" في أصفهان، وتفرقت مجموعات أخرى من الأرض في

البلاد، وسكنوا القرى والقصبات الواقعة بين أصفهان وشيراز، واعتنقت مجموعة منهم الإسلام بعد جيلين، وذابوا في السكان الذين عاشوا معهم، إلا أن الشاه عباس تعاطف مع الأرمن المسيحيين في وقت لاحق، وبنى لهم مدينة "جلفا" على ساحل نهر زاينده رود، وهي المدينة المعروفة بـ: "جلفا أصفهان". إحياء لذكرى جلفا، كما ساعدهم في بناء العديد من الكنائس في أصفهان، وشاركهم في أعيادهم ومناسباتهم، وفي ظل تعاطفه مع المسيحيين فتح الباب على مصراعيه أمام القساوسة والمبشرين الأوروبيين لنشر الدين المسيحي في إيران ويرى البعض أن الشاه عباس كان يخطب ود الأوروبيين لاستمالتهم إليه ضد العثمانيين.

ومعظم الأرمن الإيرانيين يعتنقون المذهب الجريجوري، وهو فرع من فروع الدين المسيحي، ولهم مطلق الحرية في إقامة احتفالاتهم ومراسمهم التي تقام في مناسبات مختلفة، وتقوم الإذاعة وكذلك التليفزيون في إيران بنقل أجزاء ومشاهد من هذه المراسم.

وللأرمن في إيران عشرات الكنائس والمدارس، ولهم صحفهم الخاصة بهم والتي تصدر باللغة الأرمنية. ولهم عطلاتهم الرسمية ونواديهم الرياضية المجهزة بأحدث الأجهزة الرياضية، ولهم جمعياتهم

الخورية ومراكزهم الثقافة، ومعظم كنائسهم مسجلة في فهرس الآثار الإيراني الوطني.

وللأرمن الإيرانيين عضوان في مجلس الشورى الإسلامي، أحدهما عن أرمن طهران والشمال، والآخر عن أرمن أصفهان وجنوب إيران والأرمن تجار أغنياء، ولهم دور بارز في تطوير الصناعات الفنية الدقيقة الخاصة بالمجوهرات والآلات الدقيقة، ويساهمون في الصناعات البترولية.

وقد شارك الأرمن في الحرب الإيرانية–العراقية، كما شارك صناعهم في إعادة بناء المناطق المنكوبة، وعدد الأرمن في إيران طبقاً لأخر إحصائية ت يتراوح بين 200 و250 ألف أرمني، ينتشرون في أصفهان وطهران وتبريز ورضائية ورشت وهم قوم مسالمون لا يحبون إثارة أية مشكلات مع أي نظام يحكم إيران، على الرغم من كونهم من أكبر الأقليات الدينية في إيران.

وقيل إن الأرمن أسسوا أول مطبعة في إيران في عام 1938م، ولهم متحفان شهيران: الأول: المتحف الموجود داخل كنيسة "وانك" الشهيرة في أصفهان، والذي تم بناؤه عام 1905م، وبه أكثر من 700 مخطوطة، وأول كتاب تم طبعه في إيران من قبل الطائفة

الأرمنية، وأول مصحف شريف تمت طباعته في إيران، والثاني: المتحف الموجود داخل كنيسة مريم المقدسة في تبريز، ويحتفظ في هذا المتحف بمخطوطات نفيسة باللغة العربية والفارسية والأرمنية، وعملات وفصوص خواتم وأوان مختلفة.

ثالثاً: الآشوريون:

الأشوريون من أقدم الطوائف التي استوطنت إيران، فقد أغار شابور الثاني الساساني (379/310م) على مدينة أورها (الرها) التي كانت تحت سيطرة الرومان، واحتلها وجلب عدداً كبير من الآشوريين إلى إيران، وهذه المجموعة من الآشوريين هم الذين أنشأوا مدارس عديدة في جندي شابور وهرات وطوس. وعكفوا على نشر العلم، إلى أن حظي الأشوريون بحريات واسعة في عهد يزدجرد الثاني (399 420م)، وأسس الآشوريون العديد من الأديره والصوامع في مختلف بقاع إيران، وواصل أثرياء الآشوريين نشر العلم وتأسيس المدارس، وفي عهد أنوشروان، وجهت الدعوة إلى الأساتذة الأشوريين المقيمين في نصيبين وأورها (الرها)، لكي يتوجهوا إلى "جندي شابور" للتدريس في جامعتها. وكان هؤلاء الأساتذة يقومون بتدريس علوم: الطب والنجوم، والرياضيات وقواعد اللغة. وفي القرن السادس الميلادي أسست إيران جامعة

في نصيبين وعهدت إلى الأساتذة الآشوريين بالتدريس فيها، ولم يقتصر دور الآشوريين على تقديم الخدمات العلمية، بل شاركوا الإيرانيين في الصراعات العسكرية، كما أنشأ الآشوريون مدارس في أرومية ومغان وضواحي خراسان وهرات وخوزستان وطوس ونيشابور في ظل الحكم الإسلامي.

ولقد حظي الآشوريون في عصر الشاه عباس الصفوي (996-1038هـ) الذي وطد صلته بالمسيحيين الأوروبيين، وتعاطف مع جميع المسيحيين في إيران، وكان يشاركهم مناسباتهم الدينية. واختار فتحعليشاه القاجاري (1212- 1260هـ) فتاة آشورية زوجة له، وكون من الآشوريين فرقتين من المتطوعين لشهرتهم في القتال والصمود.

وفي عهده قدمت إلى إيران عدة إرساليات مسيحية، مما كان سبباً في تقسيم الآشوريين إلى أربعة مذاهب لكل مذهب منها كنيسة مستقلة.

وللآشوريين مدراسهم وجمعياتهم الخيرية وروابطهم ونواديهم الرياضية الخاصة بهم في طهران العاصمة وأرومية وعدة مدن أخرى، وللآشوريين نشاطهم السياسي في إيران التي توجد بها مندوباً واحداً

يمثلهم في مجلس الشورى الإسلامي ويقدر عددهم في إيران بحوالي خمسين ألف آشوري.

رابعاً: الزرادشتيون:

الزرادشتيون هم الإيرانيون الذين يعتنقون الديانة الزرادشتية التي كانت الديانة الرسمية في إيران قبل الإسلام، وهي الديانة التي أسسها زرادشت في إيران في القرن السادس أو السابع قبل الميلاد، وهي ذات ملامح ثقافية فقد جعل زرادشت أساس ديانته وجود إلهين متنازعين أحدهما إله للخير وهو: أهورامزدا، والأخر إله للشر هو: أهريمن، وقد دعا زرادشت الناس إلى حب الخير وفعله، وإلى العمل على التغلب على الشر، واعتبر النور خيراً والظلمة شراً، وقسم جميع الأشياء إلى نوعين متضادين أحدهما للخير والآخر للشر، وكان زرادشت مؤمناً بالبعث والجزء في الآخرة.

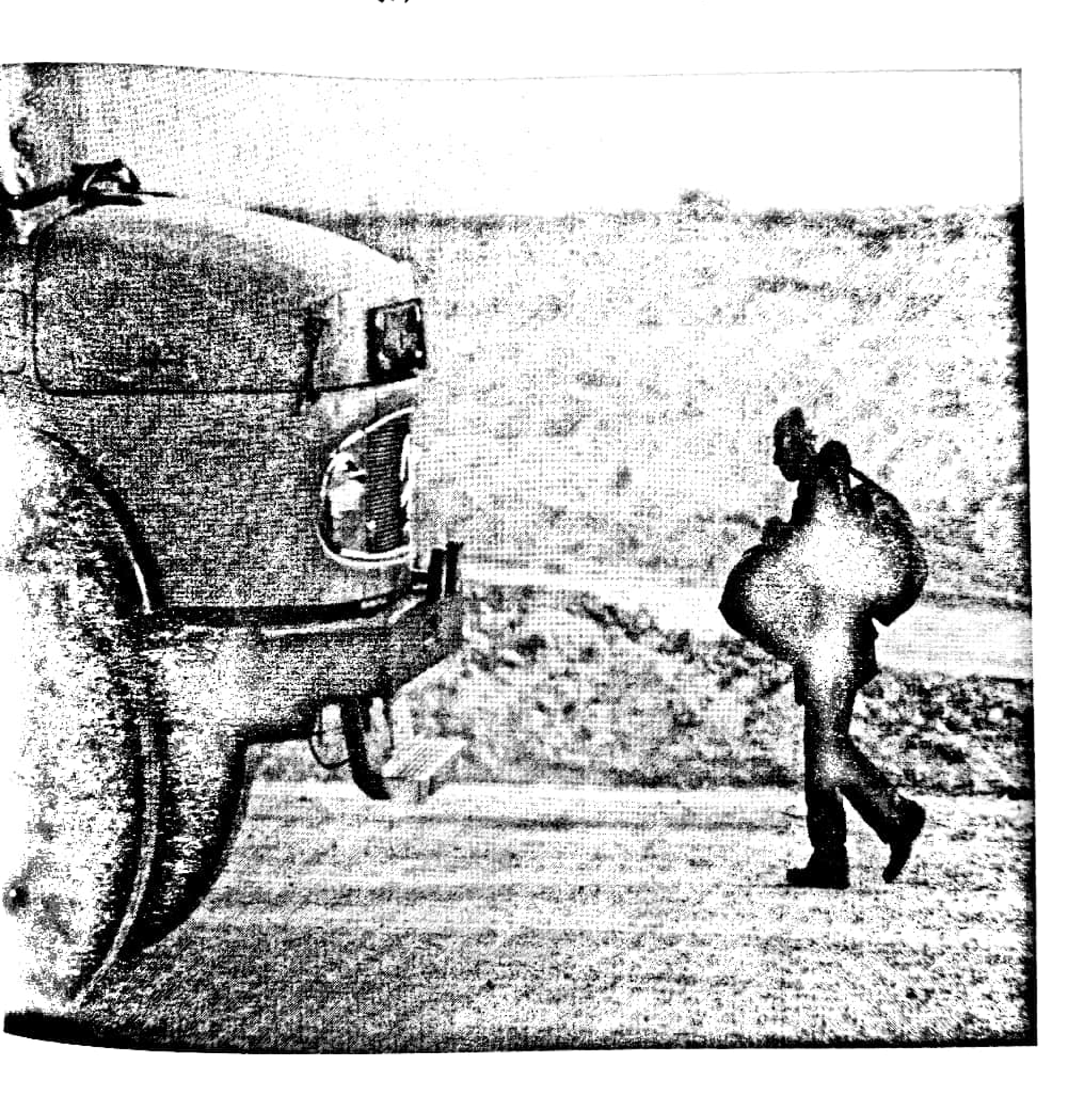
وقد بقيت هذه الديانة منتشرة في إيران من القرن السادس قبل الميلاد إلى ما بعد ظهور الإسلام، ثم أخذت تتلاشى تدريجياً وحل محلها الإسلام، لكن لا يزال لها أتباع في إيران والهند، ومن تقاليدهم الغريبة أنهم لا يدفنون موتاهم، بل يتركونهم في أبراج مكشوفة معرضة جثثهم للطيور الجارحة التي سرعان ما تلتهمها.

والزرادشتيون الذين اعتنق بعضهم الدين المسيحي في العصر الساساني (652/224م) أحرار في إقامة مراسمهم الدينية في قاعات خاصة، ولهم معابد نار أثرية يمتد تاريخها إلى ما قبل الإسلام، ولهم جمعياتهم الخاصة بهم في طهران العاصمة وفي سائر المدن التي يقيمون فيها، مثل: خراسان . كرمان . بزد . زاهدان، ولهم مدارسهم الخاصة التي يتعلم فيها أبناؤهم تعاليم الدين الزرادشتي.

والزرادشتيون يشاركون في الأنشطة السياسية شأنهم شأن بقية أفراد المجتمع الإيراني، ولهم ممثل في مجلس الشورى الإسلامي، لإبلاغ طلباتهم ورغباتهم ووجهات نظرهم إلى أعضاء المجلس، وطبقاً لأخر الإحصائيات، فإن عدد الزرادشتيين بلغ في إيران في الوقت الحاضر حوالي خمسون ألف زرادشتي معظمهم من التجار وأصحاب البساتين. وجدير بالذكر أنه عقد في طهران مؤخراً مؤتمر دولي للزرادشتيين حضره معتنقو الديانة الزرادشتية من أرجاء العالم كافة.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

هجرة الإيرانيين داخل إيران وخارجها



طهران، إيران. تصوير مصطفى ميراجي

Https: //Unsplash.com

هجرة الإيرانيين داخل إيران وخارجها

قضية الهجرة من أهم القضايا التي تحظى باهتمام الباحثين في العلوم الاجتماعية والاقتصادية، والهجرة دليل على دأب الإنسان الواعي وسعيه، وقد تتم الهجرة بشكل قانوني، أو بشكل غير قانوني في إطار عمليات التهريب المنظمة. وعندما تكون عوامل الجذب في دولة المقصد، مثل العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، أكثر من عوامل الجذب في دولة المنشأ، تتم الهجرة.

وللهجرة نتائج إيجابية وأخرى سلبية على الصعيدين الاقتصادي والثقافي، وللخلفية الثقافية للفرد المهاجر أثر كبير على اختيار دولة المهجر، وعلى كيفية إنفاقه للدخل المتحصل من عملية الهجرة.

وقد شهدت إيران في العصر الحديث نوعين من الهجرة منذ بداية عصر الشاه محمد رضا بهلوي :(1979 – 1941) الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية، والمقصود من الهجرة الداخلية: الهجرة من القرى إلى المدن، والهجرة من مدينة صغيرة إلى مدينة أخرى كبيرة.

وكانت الهجرة الداخلية قد بدأت منذ عام 1941، وتضاعفت في السنوات العشر الأخيرة من حكم الشاه محمد رضا بهلوي، ووصل معدل الإقامة في المدن الصغيرة والكبيرة إلى نحو 50% في عام

1976، وتوافد المهاجرون على مدينتي طهران ومشهد، وحصلت طهران (العاصمة) وضواحيها على المركز الأول في الهجرة الداخلية منذ عام 1967، ويرجع السبب الرئيسي في ذلك إلى وجود وظائف الخدمات وأعمالها في هذه المنطقة، كما أن طهران توجد بها إمكانات ثقافية واقتصادية وصناعية هائلة ومتعددة الجوانب، وهكذا ينطبق قانون هيمنة المدينة الواحدة في النظام المدني على مدينة طهران، وهذا يحدث في دول كثيرة.

وقد تكون أسباب هجرة سكان القرى إلى المدن –سواء من ناحية الكم أو من ناحية الكيف– أسباباً اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو ثقافية أو بيئية، وقد تكون مزيجاً من هذه الأسباب مجتمعة. وطبقاً للبحوث التي أجريت في إيران في عام 1972، أعلن أن أسباب الهجرة من القرى إلى المدن أو المراكز الحضارية عبارة عن:

- البحث عن وظائف أفضل براتب أعلى
- البحث عن فرص عمل نظراً لارتفاع معدلات البطالة
- النقل الوظيفي من مكان إلى مكان آخر
- الزواج
- مرافقة الأسرة

- الاستفادة من خدمات التعليم والإمكانات المتطورة
- تحسين مستوى المعيشة

وذلك لأن أغلب المناطق القروية في إيران كان محرومة –طبقاً لإحصائيات عام 1976– من أبسط إمكانات الرفاهية والخدمات الاجتماعية والبنية الأساسية، ولم تستوعب هذه المناطق الزيادة المطردة لعدد السكان نظراً لظروفها الإقليمية والجغرافية ونقص الإمكانات، كما أن عملية تبعثر وتفرق السكان بسبب الظروف الإقليمية وقلة المياه والأراضي، كان لها آثار حالت دون التوسع الريفي، وكانت من أسباب هجرة الشباب القرويين إلى المدن. ويضيف البعض أسباباً أخرى شجعت على الهجرة، مثل: ركود النشاط الزراعي في بعض فصول السنة، عدم توافر وظائف إضافية للمزارعين، عدم اقتصادية المنتجات، انخفاض الدخول ونقص الإمكانات والتسهيلات التعليمية في القرى. وخير مثال على ذلك: الأفراد الذين هاجروا من سيستان وبلوشستان (جنوب إيران) ثم توجهوا إلى محافظات أخرى، مثل: مازندران وجرجان، وإلى سهول منطقة جنبد قابوس في شمال إيران، وذلك نظراً لتوافر عوامل ازدهار الأنشطة الزراعية والتجارية في هذه المنطقة.

وليس من شك في أنه لا يمكن إرجاع أسباب الهجرة الداخلية في إيران إلى المشكلات وأوجه النقص الموجودة في القرى فقط، بل إن برجوازية المجتمع المتمثلة في ظهور صناعات ووظائف خدمية جديدة، والنمو المتزايد للبيروقراطية، وتطوير المدن الكبرى، كل هذا كان له تأثير كبير على المراكز الجاذبة للأنشطة الاقتصادية. وكان للتمركز العشوائي والتوسع غير المتوازن والاهتمام الزائد بالمدن دون القرى في عهد الشاه محمد رضا بهلوي نتائج سلبية، وأدى إلى بروز مشكلات اقتصادية واجتماعية عدة، لدرجة أن بعض مناطق إيران خلت من السكان تقريباً، ووقع عبء النفقات الاجتماعية على كاهل عدد قليل من السكان المتبقين، وأخذت المناطق المستقبلة للمهاجرين توفر آليات العمل ووسائل الحياة للقادمين إليها.

وجدير بالذكر أن ظاهرتي التكدس والتبعثر السكاني في إيران – شأنها شأن الدول المشابهة لها– ناجمتان عن عوامل طبيعية واقتصادية وصناعية، وأهمها نتيجة لوجود أو عدم وجود موارد وثروات تحت سطع الأرض، أو معايير ومعتقدات دينية. ويرجع البعض ظاهرة تزايد سكان المدن الإيرانية المتوسطة والكبيرة اعتباراً

من عام 1966 فصاعداً إلى تدفق أموال البترول الإيراني، وتمركز الصناعات والثروات في أطراف بعض المدن الإيرانية.

أما الهجرة الخارجية، فهي نوعان:

- هجرة القوى العاملة البسيطة والعادية
- وهجرة النخب المتخصصة

وقد تفاقمت ظاهرة الهجرة الخارجية خلال السنوات الماضية، فقد هاجر عدد كبير من الإيرانيين، خاصة سكان جنوب إيران (سيستان وبلوشستان) بسبب الزيادة في عدد السكان وفقر التربة ومصادر المياه ومواسم الجفاف، إلى دول الخليج العربية، وتركوا العديد من المناطق من خلفهم خالية من السكان، وذلك من أجل الحصول على وظائف ملائمة وتحسين مستوى معيشتهم، وهي هجرة دائمة أو مؤقتة. وهكذا سافر عدد كبير من العمالة الإيرانية إلى السعودية والكويت والبحرين وعمان وقطر والإمارات، وذلك لتمتع هذه الدول بدخول نفطية مرتفعة واقتصاد مزدهر وأسواق رائجة. وتتراوح أعمار المتوجهين إلى دول الخليج العربية من الإيرانيين بين 15، 35 عاماً، وهم من الحرفيين والعمال الذين تتوافر لديهم القدرة على القيام بالأعمال اليدوية والبدنية الشاقة.

ولم تقدم الحكومات الإيرانية المتعاقبة في مجال إيجاد وظائف في المناطق التي تقع جنوب إيران على أي إجراء من شأنه أن يحول دون هجرة هؤلاء الأفراد من إيران.

وإلى جانب هجرة القوى العاملة العادية، عرفت إيران هجرة النخب المتخصصة إلى الدول المتقدمة، وهذا النوع من الهجرة ليس جديداً، بل إن الدول النامية تعاني منه منذ أكثر من نصف قرن. وقد أطلقت اصطلاحات عدة على خروج المتخصصين من إيران، ومن هذه الاصطلاحات الشائعة اصطلاح: "فرار العقول"، واصطلاح: "هجرة القوى المتخصصة"، والاصطلاح الأخير يطلق على عملية خروج أو دخول المهاجرين المتخصصين، في حين أن اصطلاح "فرار العقول" يدل فقط على خروج القوى المتخصصة. وظاهرة فرار العقول تتم من جانب واحد دائماً، أي أن الفرار يكون من الدول النامية إلى الدول الصناعية الغنية.

ويمكن تقسيم المعدل التاريخي للهجرة في إيران المعاصرة إلى ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، أي قبل الثورة الإسلامية.

والثانية: تمت بعد الثورة الإسلامية (11 – 2 – 1979م) خلال الثورة الثقافية التي بدأت في منتصف عام 1980م، والتي أعقبها قرار إغلاق الجامعات والمعاهد العليا لمدة عامين من أجل ما سمي بـ "تطهير الجامعات من الشيوعيين والليبراليين"، ثم مرحلة الحرب العراقية الإيرانية (1980 – 1988م) التي هاجرت خلالها بعض الأسر خوفاً من التجنيد الإجباري لشبابها والمشاركة في المعارك، وكانت هجرتهم إلى دول مثل: الولايات المتحدة الأمريكية ولندن وباريس وتركيا وباكستان، كما هاجرت بعض الأسر بصفة مؤقتة إلى مدن وقرى بعيدة عن المناطق التي كانت تتعرض للقصف العراقي.

والثالثة: مرحلة الهجرة التي بدأت عام 1988، واشتد عودها اعتباراً من عام 1998، وهي المرحلة التي شارك فيها الرئيس الإيراني أحمدي نجاد، عندما أصدر قراراً بتطهير الجامعات من الليبراليين والعلمانيين في عام 2006، وعين آخرين بدلاً منهم، واضطر عدد كبير من هؤلاء الأساتذة إلى الهجرة إلى الغرب. وقد تأثرت كل مرحلة من هذه المراحل بالظروف الاقتصادية والعوامل السياسية والاجتماعية المختلفة التي كانت بمثابة الدافع الرئيسي للمهاجرين على الهجرة. والعقول الإيرانية التي هاجرت من إيران

إلى الخارج موجودة الآن في الدول التالية على الترتيب: الولايات المتحدة – ألمانيا – بريطانيا – كندا – نيوزيلندا – أستراليا – فرنسا – تركيا – اليابان.

وتأتي الولايات المتحدة الأمريكية على رأس الدول التي يقيم فيها عدد كبير من الحاصلين على درجات الماجستير والدكتوراه من الإيرانيين، ويوجد بها عدد كبير من المهندسين والأطباء والمتخصصين في العلوم البحثية والتطبيقية، وقد ولد بها عدد كبير من الإيرانيين. وكانت الموجة الأولى من الدارسين الإيرانيين الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قد وصلت إليها عام 1960، وطلب من عدد كبير منهم الإقامة الدائمة بمجرد وصولهم.

وعلى الرغم من عدم وجود إحصائيات دقيقة ومعلومات موثقة عن عدد المهاجرين الإيرانيين في الخارج، إلا أن إجراءات عدة قد اتخذت في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي لجلب واجتذاب القوى المتخصصة إلى إيران، لكن هذه المحاولات لم تنجح لعدم تمتعها بالدعم المالي من جانب الحكومة الإيرانية، ولعدم المعرفة الدقيقة بالاحتياجات البشرية، وحاولت الحكومة الإيرانية بالتعاون مع مراكز ومؤسسات مختلفة في هذين العقدين الحيلولة دون "فرار العقول"، ودرست أسباب عدم رغبة الإيرانيين في العودة إلى بلادهم

بعد إتمام دراستهم، وتم تشغيل عدد كبير من الدارسين العائدين من دول أجنبية في الفروع العلمية المختلفة، وقدمت تسهيلات لجذب القوى المتخصصة، إلا أن هذه المحاولات واجهت مشكلات أعاقت عملية عودة هذه القوى المؤهلة والمتخصصة، كما واجه بعض العائدين مشكلات مالية وإدارية، وعانوا من عدم وجود ضوابط توظيف موحدة ومنضبطة، ومن عدم تناسب الفروع الدراسية مع الوظائف، مما أدى إلى فتور حماسهم، وعودة معظمهم إلى الدول التي درسوا فيها.

أما العوامل المؤثرة في الهجرة من إيران إلى الدول القريبة منها والبعيدة عنها، فهي عبارة عن:

- الرواتب المنخفضة: حيث لا يتناسب مستوى دخول خريجي الجامعات الإيرانية إطلاقاً مع مكانتهم في المجتمع الإيراني، لذلك فهم يلجأون إلى الهجرة لرفع مستوى معيشتهم، وتوفير مستوى تعليمي أفضل لأبنائهم.
- الأسباب الاقتصادية: نظراً لعدم امتلاك إيران للتكنولوجيا المتطورة والتمويل الكافي، ونظراً لوجود معوقات تحول دون التنمية الاقتصادية والصناعية، عجزت إيران عن توفير وظائف لجميع المتخصصين المدربين، والذين درسوا في مراكز التعليم

العليا، لهذا عجز الخريجون عن العثور على وظائف مناسبة لهم، فهاجروا إلى الدول المتقدمة، للبحث عن وظائف، هذا فضلاً عن سهولة مقررات الهجرة إلى معظم هذه الدول.

- القضايا السياسية: كانت القضايا السياسية ومعارضة نظام الشاه محمد رضا بهلوي سبباً في هجرة الشباب خارج إيران، وفي عدم عودة الإيرانيين، خاصة الذين أتموا دراستهم في الخارج إلى إيران. ومع الأخذ في الاعتبار الحريات المدنية المتاحة في الدول الصناعية المتقدمة، كان الدارسون في الخارج يتوقعون التمتع بالحريات السياسية والمدنية المدرجة في الدستور حين عودتهم إلى بلادهم، لكن تكميم الأفواه والقمع والقهر السياسي السائد في إيران كان سبباً في تصاعد رغبة القوى المتخصصة في مغادرة البلاد. وفي المقابل، لم يبد الخريجون الذين أتموا دراستهم في الخارج رغبة في العودة إلى إيران، وذلك بسبب الخوف من الاعتقال غداة وصولهم إلى إيران، ومن احتمال التعرض لمضايقات وضغوط من أي نوع.

وظاهرة تزايد هجرة القوى العاملة العادية أو المتخصصة خلال السنوات الماضية من أجل الحصول على حياة أفضل وعمل ملائم ودخل أكبر، تعد وجهاً من وجوه تأثير العولمة في البعد الاقتصادي،

فبعد تبادل ونقل وانتقال السلع المهمة في التجارة العالمية، نشأت سوق عالمية للقوى العاملة، وفي كل يوم يغادر عدد كبير من الأفراد بلادهم بحثاً عن فرصة عمل. وقد تسارعت وتيرة الهجرة في العصر الحاضر بسبب سهولة انتقال الأفراد، وتطور الاتصالات، ووقوف الأفراد على أوضاع سائر نقاط العالم، ويطلق البعض اسم عصر الهجرة على العصر الحاضر بسبب زيادة عدد المهاجرين في العالم كله. ومن الطبيعي أن يكون الحجم الرئيسي لمعدلات الهجرة في العصر الحاضر موجهاً صوب الدول المتقدمة صناعياً أو الدول الغنية مثل الدول المنتجة للبترول. وإذا كانت زيادة عدد المهاجرين على المستوى العالمي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعولمة، فإن هذه الزيادة تدل على استعداد الحدود السياسية الاقتصادية الوطنية للاختراق، لأن هذه الزيادة تحد من قدرة هذه الحدود على مقاومة ضغط العولمة، فالعولمة حولت الاقتصاد من اقتصاد يتمحور حول السلع إلى اقتصاد يتمحور حول العلم والمعرفة، وفي هذا النوع من الاقتصاد حظي العلم والمعلومات - شأنهما شأن أي سلعة اقتصادية - بأهمية فائقة في عملية الإنتاج والتوزيع والاستهلاك، وتبوأ المتخصصون والمفكرون الذين هم بمثابة القوى المنتجة لهذه السلع القيمة مكانة متميزة.

أكثر من ذي قبل، فحاجة الاقتصاد الرأسمالي، خاصة في مجال التكنولوجيا المتطورة أدت إلى حرص الدول المتقدمة (دول المقصد) على جذب النخب والمتخصصين الموجودين في الدول النامية (دول المنشأ).

وتشير الإحصائيات إلى الزيادة المتصاعدة لمعدلات هجرة النخب والدارسين الإيرانيين من إيران إلى الدول الصناعية المتقدمة، بالتزامن مع ظاهرة العولمة التي اشتدت وتيرتها بسبب أدوات الاتصال الحديثة مثل: شبكة الإنترنت، وإمكانية الحصول على المعلومات، والأساليب اللازمة للهجرة. ولزيادة معدلات هجرة النخب والمثقفين أسباب منها، أسباب متأثرة بالعولمة مثل: رخاوة الحدود الجغرافية – تطور التكنولوجيا – علو قيم المعرفة البشرية، وقيم أصحابها، خاصة في الدول المتقدمة – الإمكانات العلمية للبحوث – الدخل – الوظائف وإمكانات الرخاء والرفاهية المناسبة – المشكلات التي تعانى منها دول العالم الثالث، مثل الدخول المنخفضة للمتخصصين والباحثين والتقليل من مكانتهم الاجتماعية – الإمكانات المحدودة للبحث والتحقيق – عدم الثقة في الوظائف، وفى مستقبل العمل – الإشكاليات الموجودة في الحقوق الأساسية والمدنية – الاعتداءات غير المبررة على الحقوق

الفردية والاجتماعية للأفراد. كما أن الظروف السياسية والاجتماعية الخاصة في إيران في السنوات الأخيرة، مثل: الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت ثماني سنوات – المقاطعة الاقتصادية الأمريكية – التوترات السياسية والاجتماعية الداخلية، كان لها جميعها تأثيرها في تشجيع الدارسين المثقفين على الهجرة. هذا بالإضافة إلى أن النمو غير المناسب للهيكل الاقتصادي الإيراني خلال السنوات الماضية أدى إلى زيادة معدلات البطالة حتى في أوساط الخريجين. وعلى الرغم من أنه تمت – منذ عام 1986 وحتى الآن – محاولات كثيرة من أجل زيادة عدد الوظائف وخفض معدلات البطالة في إيران، إلا أن هذه المحاولات كانت لها تأثيرات سلبية، وأن بقاء العوامل المختلفة التي أدت إلى تقليل جاذبية العمل في إيران، وزيادة جاذبية العمل في الدول الصناعية المتقدمة، خاصة فيما يتعلق بالمتخصصين والمثقفين، أسفر عن استمرار هجرة المتخصصين إلى هذه الدول.

وعلى الرغم من أن تقرير صندوق النقد الدولي الصادر في عام 2003 وضع إيران على رأس دول العالم في ظاهرة فرار العقول، وأكد أن إيران حصلت على المركز الأول من بين إحدى وتسعين دولة نامية وغير نامية في العالم في ظاهرة فرار العقول، وعلى الرغم

من أن إيران تأتي على قائمة الدول الأكثر طرداً للعقول العلمية في العالم، فإن فريقا يرى أن مسألة فرار العقول من إيران لها إيجابياتها، ويرى فريق آخر أن لها سلبياتها. أما الإيجابيات، فتنحصر في الاستفادة القصوى من هذه العقول المهاجرة ومن تخصصاتها في تقدم إيران وتطورها، وذلك بعد العمل على ارتباطهم ببلادهم، وأن وجود طلاب وأساتذة إيرانيين في جامعات أوروبا يعد قيمة حد ذاته. أما السلبيات، فيرى أنصارها أن إيران تعاني من هذه الظاهرة، ويعتبرون هجرة النخب كارثة قومية، كما يعتبرون خروج العقول إهداراً للثروة، فخروج آلاف الإيرانيين الذين تلقوا تعليمهم في إيران، وحصلوا على دراسات عليا من إيران يعادل خروج (50) مليار دولار سنوياً، كما يعد إهداراً للثروة البشرية، وله تأثيره السلبي على تقدم إيران وتطورها، خاصة في حالة عدم عودة هذه النخب إلى إيران، وله تأثيره السلبي أيضاً على عمليات التنمية الاقتصادية.

هذا ويرفض بعض المسئولين الإيرانيين في الوقت الراهن التسليم بمسألة تأثير هجرة العقول سلبيا على إيران، وعلى التنمية، ويرون أن هذه العقول تخدم المجتمعات البشرية جمعاء، وتعلي من شأن إيران، وترفع اسمها عالياً بين الأمم. وقد صرح بعض المسئولين بأنه

يجب على إيران أن تغتنم هذه الفرصة (يقصد هجرة العقول) وتشجيعها، وأن تستفيد من هذه العقول في الداخل، كما يرفض البعض اصطلاح "فرار العقول"، ويقولون إنه خال من العلم والمنطق، وهم يفضلون اصطلاح (دوران العقول) واصطلاح "دوران العلم"، ويقولون إن إيران ترسل آلاف البعثات الدراسية إلى الخارج، ولا يتخلف إلا بضع مئات، وهذا ليس فرارا. وقد صرح "رامين مهما نبرست" الناطق بلسان وزارة الخارجية الإيرانية في 18 – 9 – 2009 بأن معدل هجرة النخب من إيران طبيعي نظراً لتزايد عدد السكان، وأن إحصائية فرار العقول من إيران حرب نفسية، فتركيا لديها في ألمانيا بضعة ملايين من المواطنين الأتراك، لكنهم لا يسمون هذا: فرار عقول، لكن إذا قامت دولة غير إيران بتصدير الخدمات الفنية والهندسية سيعدون ذلك وجوداً للمتخصصين في المجتمعات المتقدمة، وإذا اتخذ هذا الإجراء من جانب إيران، وسيطلقون عليه اسم: فرار العقول.

وفى 1 –7–2010 صرح "اسفنديار رحيم مشائي مدير مكتب الرئيس أحمدي نجاد قائلا: ليس لدينا في إيران" فرار عقول، بلد لدينا هجرة، وهي عادة إيرانية قديمة. ووصف مشائي الإيرانيين في الخارج بأنهم أفضل الأقوام المهاجرين في العالم. وعلى الرغم من أن

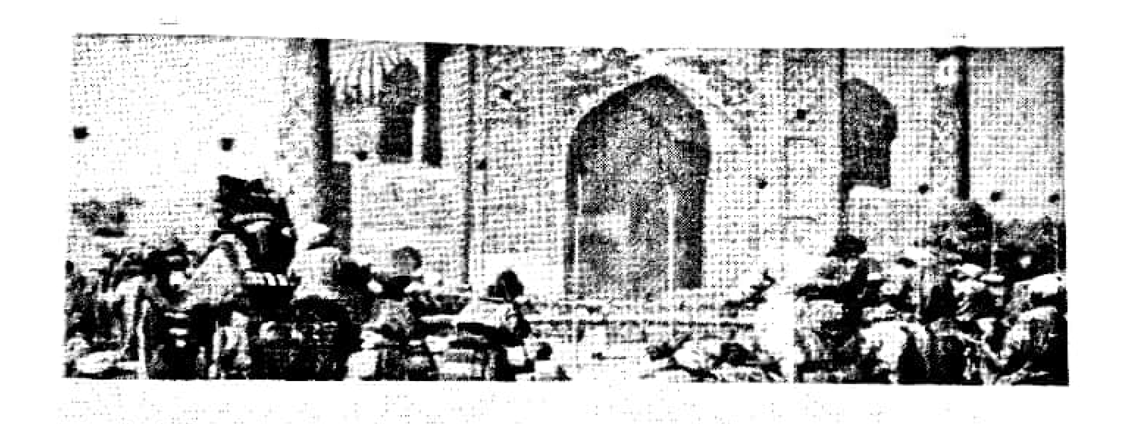
سياسات الحكومات المتعاقبة كانت من أسباب تزايد ظاهرة فرار العقول الإيرانية، وأن خروج القوى المتخصصة من إيران في صعود مستمر، ولم تحقق سياسات الدولة في جذب المتخصصين نجاحا يذكر، إلا أن البرلمان الإيراني شكل مؤخرا لجنة لبحث مسألة الهجرة العقول، واتخاذا الإجراءات اللازمة من أجل الحد من تفاقم هذه الظاهرة، مثل زيادة فرص العمل – إصلاح نظم الإدارة – إصلاح نظم التعليم، وزيادة مخصصات الإنفاق على التعليم – التواصل مع النخب المهاجرة وتوفير الدعم المادي والاجتماعي والمعنوي والسياسي لهم. وكانت بعض الدراسات التي أجريت في هذا الصدد قد خلصت إلى حقيقيتين: الأولى أن عملية انتقال التخصص والمتخصصين لها فائدة مزدوجة، فهي مفيدة للدولة المستقبلة (دول المقصد) وللدولة المرسلة (دولة المنشأ) في آن واحد، ويجب ألا تتدخل الدولة في موضوع الهجرة، والثانية ضرورة الاهتمام بالثروة البشرية بوصفها مؤشراً من مؤشرات تنمية الدول اقتصاديا، ذلك لأن عدم وجود القوى المتخصصة يعرض برامج التنمية للخطر.

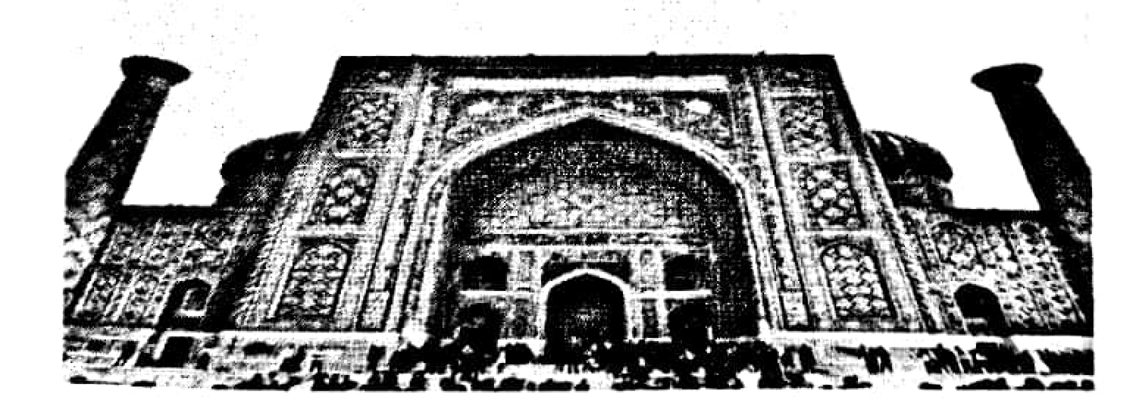
وفى النهاية نقول إنه من المؤكد أن الغرب يولى سياسة جذب النخب اهتماماً ملحوظا، وأنه يقوم بخطف الكوادر النادرة، واصطياد أفضل الكفاءات والعقول في مختلف دول العالم، وإغرائها

بالبقاء، وهكذا تحرم هذه الدول من أبنائها المميزين، وهذا يطلق عليه البعض اصطلاح "صيد العقول" أو سرقة الكفاءات.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

صلات إيران القديمة بمدن آسيا الوسطى (سمرقند نموذجاً)





مدرسة شيردار، ريجستان، سمرقند، أوزباكستان

Photo by Sultonbek Ikromov on Https://Unsplash.com

صلات إيران القديمة بمدن آسيا الوسطى

(سمرقند نموذجاً)

أكد المشتغلون بدراسة منطقة آسيا الوسطى أن المعلومات المتعلقة بهذه المنطقة – قبل العهد الإسلامي – قليلة، لكن من الثابت أن الديانة الشامانية وصلت إلى المنطقة من الصين، وأن الديانة الزرادشتية وصلت من إيران، وأن الديانة البوذية وصلت من الهند، وأن التبشير المسيحي قد سبق الإسلام إلى هناك. وكانت هذه المنطقة تضم قبل الفتح الإسلامي إمارات تركية مستقلة متحاربة باستمرار. ويرجع الفضل في كشف النقاب عن تاريخ آسيا الوسطى إلى الرحالة والجغرافيين والمؤرخين العرب والفرس (ياقوت الحموي – زكريا القزويني – ابن حوقل – الثعالبي – النسفي – الجرديزي – النرشخي – الاصطخري – المقدسي – ابن بطوطة – صاحب كتاب حدود العالم – ابن عربشاه، والرحالة الأوربيين مثل: الرحالة الإيطالى ماركوبولو والرحالة الإسباني كلاويخو، والرحالة الصينيين مثل: هيوان – تسانج الذي جاب أواسط آسيا في عام 630هـ) ولا يمكننا إغفال دور المستشرقين، وأبرزهم: المستشرق المجرى: "آرمينيوس فامبري" صاحب كتاب: تاريخ بخارى وكتاب: رحلات في آسيا الوسطى، والمستشرق الروسي "بارتولد" صاحب كتاب:

تاريخ الترك في آسيا الوسطى، وكتاب: تركستان، وكتاب: تاريخ الحضارة الإسلامية، وقد تُرجمت كتبه هذه إلى اللغة العربية. كما لعبت البعثات العلمية الأوروبية التي زارت هذه المنطقة دوراً ملموساً في هذا المضمار، وبخاصة عندما اكتشفت "نقوش أورخون" التي حل رموزها العالم الدنماركي "طومسون" في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

ولقد ظهر اصطلاح آسيا الوسطى في عام 1924م في ظل روسيا الشيوعية، ليحل محل اصطلاح: تركستان الروسية، واصطلاح: ما وراء النهر الإسلامي الجغرافي والتاريخي، وأطلق على دول: تركمنستان وأوزبكستان وتاجيكستان وقيرغيزستان وقزاقستان. ودول آسيا الوسطى تحدها روسيا من الشمال، والصين من الشرق، وأفغانستان وإيران من الجنوب، وبحر الخزر من الغرب. وتعد إيران حلقه اتصال بين آسيا الوسطى بشعوبها ولغاتها وبين عالم البحر الأبيض المتوسط بشعوبه ولغاته ومقوماته، وكان الأتراك من الأقوام الذين تأثروا بالحضارة الإيرانية، وتأثرت آسيا الوسطى بما صدر عن إيران من تيارات ثقافية وفكرية. ويذكر بارتولد –المستشرق الروسي – أن تأثير المدنية الإيرانية قد بدأ يحل محل المدنية الهندية في آسيا الوسطى منذ العهد الساساني (224 – 652 م)، وأن إيران

الساسانية كانت تؤثر بفضل مدنيتها وأهميتها الاقتصادية على جيرانها، دون أن تنتصر عليهم عسكرياً، فرسخت أقدام المدنية الزرادشتية في "الصغد" بعد اضمحلال الديانة البوذية هناك، وانتقلت التجارة بالتدريج من أيدى الهنود إلى أيدى الإيرانيين. وقدر لإيران بعد فتحها أن تكون الجسر الذي عبره العرب إلى ما وراء النهر، والطريق الذي سلكه الإسلام في سبيله إلى الانتشار في بلاد تركستان، وقد أسهم الإيرانيون في الحضارة الإسلامية في تركستان، فمن مدنهم انطلقت الثقافة الإسلامية، وظلت المدارس الإيرانية تغذي المدارس الإسلامية في تركستان حتى قيام الدولة السامانية (261 – 389هـ). وفى ظل السامانيين اتحد الأتراك الإيرانيون في إيران مع الأتراك في آسيا الوسطى في دولة واحدة، ربما للمرة الأولى في تاريخ المنطقة، ونزح كثير من الإيرانيين واستقروا في تركستان، وبدأت اللغة الفارسية الجديدة – لغة عصر الإحياء – تكسب عالم الأتراك إلى جانب اللغة العربية. وكانت الفارسية هي اللغة السائدة في بخارى وفرغانة وخوارزم حتى زمن الغزو المغولي، حيث حلت التركية محلها من بعد ذلك وكانت قد ظهرت لغة أدبية فارسية واحدة لإيرانيي إيران وإيرانيي تركستان، بعد أن انقرضت لغات إيرانيي تركستان القديمة، وظهرت مكانها اللغة

المسماة الآن (تازيك أو تاجيك)، وليس بينها وبين الفارسية إلا فروق يسيرة.

وكما حلت الفارسية محل اللهجات المحلية في آسيا الوسطى تغلغلت نظم الحكم الساسانية، وبعد الفتح الإسلامي لإيران حلت الثقافة الفارسية الإسلامية محل الثقافة الفارسية القديمة في إيران وبلاد ما وراء النهر. وقد انقطعت العلاقات بين إيران وتركستان عدة قرون بعد انهيار الدولة السامانية في نهاية القرن الرابع الهجري، إلى أن وفق السلطان محمد خوارزمشاه في جمعهما في إدارة موحدة، إلا أن دولته كانت قصيرة العمر. وفى عهد خلفاء جنگيزخان نشأ في تركستان أدب تركي متأثر بالأدب الفارسي، وقد تحولت تركستان وإيران إلى دولة واحدة من جديد في عهد تيمورلنگ وأسرته. وكانت دولة تيمور تركية في جوهرها، لكن الحضارة الإيرانية لعبت الدور الموجه فيها. وهكذا تأثرت دول آسيا الوسطى بإيران قبل الإسلام وبعده حضارياً ودينياً وتجارياً ولغوياً، وكان التأثير الذي أحدثته اللغة الفارسية والحضارة الفارسية كبيراً على آسيا الوسطى، سواء حكمتها أسر إيرانية (الطاهريون والسامانيون)، أو أسر تركية

(الغزنويون والقراخطائيون والسلاجقة والخوارزميون ثم المغول والتيموريون ثم الأوزبك) (قبائل تركية مغولية).

أما سمرقند، فهي إحدى مدن جمهورية أوزبكستان التي تقع في قلب آسيا الوسطى، وتعد أكبر جمهوريات آسيا الوسطى من حيث المساحة، وعاصمتها هي "طشقند". وتشتمل أوزبكستان على المراكز الثقافية والسياسية القديمة في منطقة ما وراء النهر التي هي جزء مهم من مناطق الحضارة الإيرانية الإسلامية، بل الحضارة الإسلامية بصفة عامة، وهي: سمرقند وبخارى وترمذ وفرغانة. وكانت سمرقند عاصمة لجمهورية أوزبكستان حتى عام 1930م، ثم نقل الروس العاصمة إلى مدينة "طشقند"، وذلك بسبب مقاومة السمرقنديين لمحاولة السوفيت تغيير الطابع الإسلامي لمدينتهم. وقد أعلنت أوزبكستان استقلالها عن الاتحاد السوفيتي في 1991/9/5م، وهي بذلك أول دولة إسلامية تعلن خروجها من منظومة الاتحاد السوفيتي، وقد احتفلت في سبتمبر الماضي بمرور ربع قرن على استقلالها عن الاتحاد السوفيتي، وهي تعد – كما كانت في الماضي – معقلاً من معاقل الإسلام في آسيا الوسطى، لتاريخها الحافل ومدنها الأثرية ذات التاريخ الإسلامي المجيد، فقد

انتشرت فيها طرق: النقشبندية، القادرية، القلندرية، الكبروية والياسوية الصوفية.

وقد اختلفت الروايات في أصل تسمية سمرقند، كما اختلف المؤرخون والجغرافيون حول نشأة وبناء مدينة سمرقند، ومعظم هذه الروايات أساطير تاريخية من ذلك النوع الذي يُحاك دائماً حول بناء المدن، وهي أساطير مختلطة بالحقائق التاريخية، لكن هذه الروايات لم تختلف حول قدم هذه المدينة وعراقتها. وكانت آسيا الوسطى قبل الفتح الإسلامي تضم إمارات تركية مستقلة أو خانيات صغيرة مثل: خانية بخارى وخانية سمرقند، وكان أمير سمرقند يتخذ لقب: أخشيد أو طرخان أو ترخان أو خان أو خاقان، ومعناها: الملك أو الأمير أو الحاكم، وكان هذا الأمير أقوى أمراء الإمارات الصغيرة العديدة المتحاربة بصفة مستمرة، وكان أبعدهم نفوذاً. وقد فتح المسلمون سمرقند ثلاث مرات في الأعوام: 56هـ، 62هـ، 92هـ، وكانت الأخيرة على يد "قتيبة بن مسلم الباهلي" الذي قام بتوطين القبائل العربية فيها. وقد انطلق الإسلام من سمرقند وبخارى إلى سائر المناطق، ومكن الأمويون (40 – 132هـ) ومن بعدهم العباسيون (132 – 656هـ) للسيادة العربية والنفوذ الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، ولعب الطاهريون – أول أسرة إسلامية من

أصل فارسي منذ عام 206 إلى عام 259هـ – دوراً مهماً في التمكين للإسلام فيما وراء النهر، وشجعوا الحركة العلمية فيها، وبدأت مدارس بخارى وسمرقند تذيع شهرتها في الآفاق، وبلغت سمرقند أعلى مدارج الإعمار والازدهار في عصر السامانيين الذين أعطتهم الخلافة العباسية الحق الكامل في حكم بلاد ما وراء النهر حكماً وراثياً. وفي العصر الساماني كان التجار السمرقنديون والخوارزميون يبيعون معظم الغلمان الصقالبة والخزريين وغيرهما من الطوائف التركية، وكانت تربية الرقيق متداولة في تلك المناطق. وكانت سمرقند داراً للإمارة حتى بداية عهد إسماعيل بن أحمد الساماني، ومن الموانئ التجارية المشهورة في بلاد ما وراء النهر في هذا العهد، كانت مع بخارى وبلخ مثابة أهل السُنة، وفي عهد السامانيين دخلت الصوفية ميدان الدعوة إلى الإسلام في هذه المنطقة. ثم استولى القراخانيون الأتراك على سمرقند في نهاية القرن الرابع الهجري، واستولى السلاجقة الأتراك (429 – 700هـ) على سمرقند وبخارى، وبعد أن بسطت الدولة القراخطائية نفوذها على إقليم ما وراء النهر، قضت على نفوذ السلاجقة في سمرقند وبخارى، إلى أن تمكن الخوارزميون (521 – 628هـ) من القضاء على القراخطائيين في عام 607هـ. وقد حافظت سمرقند على ازدهارها ومكانتها في العصر السلجوقي وكانت أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها في عصر الخوارزميين.

وفي العصر المغولي (أوائل القرن السابع الهجري وحتى عام 736هـ) فقدت مدينة سمرقند أهميتها بعد الاستيلاء على قلعتها، وبعد تخريبها وإباحة القتل العام في سكانها في عام 617هـ، وظلت سمرقند فاقدة لأهميتها إلى أن تولى تيمورلنگ الحكم، فاختار سمرقند عاصمة لحكمه، فازدهرت من جديد نظراً لاهتمامه الخاص بها، ودبت فيها الروح بعد أن أمر بإعمارها وشق طرق اتصالها بفارس والهند، وبدأ عصرها الذهبي وزادت رقعتها، وزاد عدد سكانها، وانتقل اهتمام تيمور بسمرقند إلى خلفائه بصفة عامة، وحفيده: " ألغ بيك " بصفة خاصة، إلى أن سقطت سمرقند في يد شيباني محمد خان الأوزبكي عام 906هـ/1500م، وسقط معها التيموريون، فأخذ نجم سمرقند في الأفول، لتصبح بخارى من بعد ذلك العاصمة الرسمية من جديد. وظلت سمرقند في حوزة الشيبانيين وحكامهم، إلى أن قام الشاه عباس الصفوي بالقضاء على الشيبانيين في عام 1006هـ/1597م. وفي بداية القرن الثاني عشر الهجري استولى الصينيون على التركستان، وحكم سمرقند أمراء صينيون، وظلت تحت سيطرة وحكم أمراء بخارى من الأشترخانيين والمنغيتيين، حتى وقعت تحت سيطرة الروس النصارى في (1868/5/14م)، وبسقوطها انتقل أفضل أجزاء بلاد ما وراء النهر من أيدي أسرة المنغيتيين الأوزبكية إلى بيت روما نوف الروسي. والواقع أن أسباب

سقوط التركستان في أيدي الصينيين ثم الروس ترجع إلى انعدام الوحدة السياسية بين الأوزبك، والصراع الدامي الدائم بين الأقوام التركية في آسيا الوسطى. وعلى الرغم من أن الروس أبقوا على حكام وأمراء المناطق التي احتلوها في منطقة ما وراء النهر، وأن هؤلاء الحكام كانوا تابعين لروسيا، إلا أن الروس بدأوا حركة استيطان روسية واسعة في هذه المناطق، وقاموا بعملية هدم منظمة للثقافة الإسلامية فيها، وأغلقوا المدارس الوطنية، وفتحوا المدارس الروسية، وفرضوا التدريس باللغة الروسية، وبشروا بالديانة المسيحية الأرثوذكسية. وكان العهد القيصري (1480 – 1917م) متسماً بالقتل واستباحة الدماء وحروب الإبادة ضد المسلمين، وخاصة في عهد " إيفان الرابع " الملقب بـ: الرهيب، واستمرت هذه السياسة في عهد خلفائه وخاصة من أسرة رومانوف (1613 – 1917م)، ونهب الروس خيرات المنطقة وثرواتها الاقتصادية، وسيطروا على المراكز التجارية في سمرقند وطشقند. وأنشأوا الكنائس والنوادي، وقتلوا الآلاف من السكان الذين هاجر عدد كبير منهم إلى مختلف الأقطار الإسلامية. إلا أن شعلة الإسلام لم تنطفئ في هذه المناطق رغم ممارسات الروس.

وفي عام 1917م قامت الثورة الشيوعية في روسيا، وقسمت تركستان الغربية إدارياً وعلى أساس عرقي إلى خمس جمهوريات اشتراكية في عام 1924م، وضموها إلى اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية في أواخر هذا العام، وطُبق النظام الاشتراكي في هذه الجمهوريات بصرامة، وتم إلغاء اسم: تركستان. وفي العهد الشيوعي (1917 - 1991م) بذل الشيوعيون السوفييت محاولات جادة لطمس الهُوية الإسلامية لهذه المناطق، ومنها: مصادرة جميع أراضي الأوقاف الإسلامية – نشر الكتب والنشرات المعادية للإسلام – تحويل المساجد إلى نوادٍ ومواخير واسطبلات – وضع قيود على أداء فريضة الحج – إحلال الروس واليهود والسلاف والأوكران محل المسلمين – خطف أبناء المسلمين وطردهم من أراضيهم، مما أدى إلى خفض عدد المسلمين بدرجة كبيرة. كما استعمل الحرف اللاتيني عن عام 1930م إلى عام 1940م، ثم حل الحرف الروسي (سبريليك) محل الحرف اللاتيني، إلا أن الاتحاد السوفيتي انهار وانتهى رسمياً كدولة، بعد أن أعلن رؤساء ثلاث جمهوريات سوفيتية (روسيا الاتحادية – روسيا البيضاء وأوكرانيا، إنشاء كومنولث جديد في الثامن من ديسمبر عام 1991م.

وقد وصف الجغرافيون والمؤرخون والشعراء والكتاب سمرقند قديماً بأنها: جنة الدنيا والبقعة المضيئة في الكرة الأرضية، وبأنها دُرة العالم الإسلامي المكنونة، وبأنها روما الشرق، وبلاد الأقاصيص، ويرجع المستشرق الروسي "بارتولد" سبب أهمية سمرقند إلى موقعها الجغرافي، حيث إنها كانت تقع في ملتقى طرق التجارة الرئيسية التي كانت ممتدة من الهند (عن طريق بلخ) وإيران (عن طريق مرو) ومناطق نفوذ الأتراك. كما أن أرضها خصبة ورقعتها متسعة وعدد سكانها كبير. وكانوا يحملون منها الورق إلى العالم كله، وكان بها مجمع رقيق منطقة ما وراء النهر، وكان بها خير رقيق هذه المنطقة، وكانت ملتقى طريق الحرير الذي ربط الصين بأوروبا يوماً ما، والذى كان شرياناً للاتصال بين الحضارات والأديان المختلفة، مما جعل منظمة اليونسكو تدعو إلى إعادة إحيائه في عام 1985م. وأهل سمرقند مشهورون بالمروءة والوسامة والنظافة والتواضع والكرم، والأغلبية من السُنة على المذهب الحنفي، وتوجد بها أقلية شيعية، واللغة السائدة فيها هي الأوزبكية المتعددة اللهجات، وأكثر من50% من مواطني جمهورية أوزبكستان يعدون اللغة الروسية لغة ثانية.

وقد أسهمت سمرقند كغيرها من مدن آسيا الوسطى في بناء صرح الحضارة الإسلامية، وأثرت التجربة الإسلامية، وأكسبت الفكر الإسلامي دماً جديداً ساعد على انطلاقه وتنوعه. واستوعب علماء هذه المنطقة الحضارة الإسلامية، وأسهموا بنصيب وافر فيها، وكانت موطناً من مواطن اللغتين: العربية والفارسية ومهداً للعلماء والمحدثين والحُفّاظ واللغويين والنحاة والفقهاء والمفسرين والشعراء والأدباء ورجال التصوف والكُتاب والمؤرخين، نذكر منهم على سبيل المثال من العلماء والفقهاء والمفسرين واللغويين ورجال التصوف:

- أبو منصور الماتريدي صاحب مذهب الماتريدية في علم الكلام
- الفقيه أبو الليث السمرقندي
- نجم الدين النسفي السمرقندي: الفقيه الحنفي والمتكلم والمتحدث والمفسر المعروف الذي تزيد مؤلفاته عن مائة كتاب معظمها في الفقه والتفسير
- العياشي: من فقهاء الشيعة الإمامية
- الإسكافي: صاحب المؤلفات العديدة، وكان ماهراً في فن إيراد المثل

- الفقيه الشافعي: حميد الدين السمرقندي
- نجيب الدين السمرقندي: وهو من الأطباء العلماء
- الإدريسي حافظ، وكان من أشهر رواة الحديث في سمرقند
- سيد مرتضى: من المحدثين المشهورين
- أبو القاسم الخزاعي: من رواه الحديث
- أبو القاسم حكيم السمرقندي، وهو من المتصوفة المشهورين
- خواجة عبيد الله أحرار: المتصوف والعالم الذي سميت باسمه بعض المساجد والمدارس في سمرقند وطشقند، وله في سمرقند ضريح باسمه.

ومن الشعراء، أبو حفص السغدي السمرقندي: الشاعر والموسيقى المعروف – الرودكي السمرقندي: أقدم الشعراء الفرس، ويسمونه: أبو الشعراء الفرس، لأن الشعر الفارسي بلغ كماله على يديه، وكان حسن الصوت يعزف على آلة (البربط)، وكانوا يطلقون عليه اسم: أستاذ سمرقند، وأستاذ الشعراء وزعيمهم – الرشيدي السمرقندي – سوزني السمرقندي: شاعر الهَجّاء الشهير الذي هجا أغلب شعراء عصره والذى وصف سمرقند في أشعاره بأنها: دار الملك وجنة الله على الأرض، وبأنها ليس على وجه الأرض

أفضل منها – الشاعر على الشطرنجي السمرقندي: تلميذ سوزني السمرقندي.

ومن الكتاب والمؤرخين: النظامي العروضي السمرقندي: صاحب كتاب: چهار مقاله (المقالات الأربع)، وهو من أقدم الكتب التي عالجت موضوع الحياة الأدبية في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي، ويشتمل على موضوعات تاريخية وعلى تراجم لمشاهير الأعلام، والكتاب من أهم المؤلفات الفارسية المنثورة – دولتشاه السمرقندي: صاحب كتاب تذكرة الشعراء، وهو من أهم كتب التراجم، ويشتمل على شرح حال حوالى مائة وخمسة من الشعراء الفرس منذ البداية وحتى أواخر القرن التاسع الهجري – كمال الدين عبد الرازق السمرقندي: العالم والمؤرخ وصاحب كتاب: مطلع السعدين ومجمع البحرين (مجلدان) في التاريخ.

والعصر التيموري – كما ذكرنا – كان من أزهى العصور التي مرت بسمرقند، فقد كانت الآثار الخالدة التي تزخر بها سمرقند حالياً من نتاج هذا العصر. ومن المعروف أن سمرقند وصلت إلى درجة كبيرة من الازدهار المعماري والتجاري والاقتصادي والصناعي في عهد تيمورلنگ الذي كان نشاطه في الإصلاح والتعمير ملحوظاً مثل نشاطه في التخريب، وذلك بعد أن اتخذها تيمور عاصمة له،

وجلب إليها ثمرات كل شيء، وإليها كانت تُحمل الأسلاب العظيمة والأموال الطائلة التي سقطت بأيديه في بلاد آسيا المختلفة العديدة، وكانت سمرقند في عهده سوقاً مهمة للتجارة، ومركزاً من أهم مراكز الاتصال بين الأمم والشعوب. وكانت مركزاً هاماً لصناعة النسيج وصناعات الآلات الحربية والزجاج والصيني والخزف. وجلب تيمور إليها أمهر الحرفيين من الهند وشيراز وأصفهان ودمشق، وأمرهم بتشييد الآثار المعمارية الخالدة في آسيا الوسطى، وببناء المدارس، وبناء مكتبة كبرى في سمرقند. ونهج خلفاؤه نهجه، فبنوا المدارس والمساجد والمستشفيات والقصور والخانقاوات، واتخذ حفيده " ألغ بيك " من سمرقند حاضرة له، وأصبحت سمرقند في عهده أكبر مركز علمي وثقافي في آسيا، وأنشئت فيها منشآت تاريخية وآثار معمارية عديدة ومرصد وأضرحة ومدارس، مما كان سبباً في إطلاق وصف " المدينة المتحف " عليها، وتشهد هذه المنشآت على ما بلغه الفن الإسلامي من تقدم وازدهار في سمرقند.

وجدير بالذكر أن سمرقند وبخارى كانتا مدينتين متنافستين على مدار تاريخ بلاد ما وراء النهر، والمسافة بينهما سبعة وثلاثون أو تسعة وثلاثون فرسخاً، وقد تنقلت عاصمة ما وراء النهر ما بين سمرقند

وبخارى على مر الزمن، ولشهرة هاتين المدينتين وجمالهما وأهميتهما، ذكرهما الشاعر الإيراني الشهير: حافظ الشيرازي (726– 791م) في إحدى غزلياته، فقال:

اگرآن ترك شيرازى بدست آرد دل مارا

بخال هندويش بَخْشَم سمرقند وبخارا را

الترجمة: لو أن ذلك المعشوق الشيرازي يأسر قلوبنا، فإنني من أجل خاله الأسود أهبه سمرقند وبخارا.

كما أشار حافظ إلى جمال نساء سمرقند وحسنهن، فقال:

شعر حافظ شيرازى مى رقصند ومى نازند

سيه چشمان كشميرى وتُركان سمرقندى

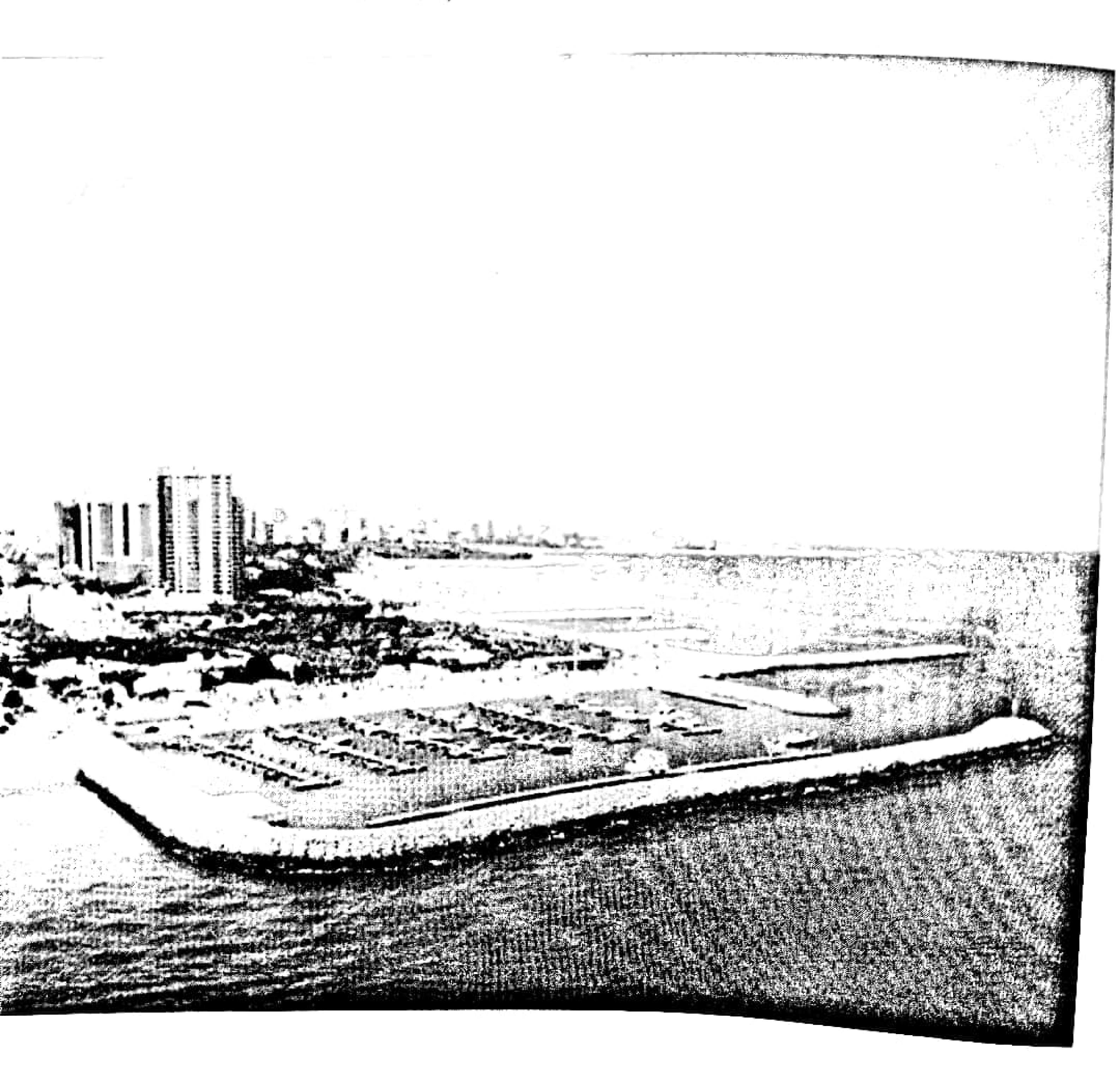
الترجمة: إن صاحبات العيون السوداء الكشميريات والحسناوات السمرقنديات يرقصن ويتمايلن على أشعار حافظ الشيرازي.

وفي نهاية الفصل نقول إن الشعوب غير العربية التي اعتنقت الإسلام وتثقفت بثقافته، لم تقتصر لغة العلم والآدب فيها على ما أنشأته بلسانها القومي، وإنما تجاوزته إلى منشآت أخرى بلسان أو

أكثر من ألسنة الشعوب الإسلامية الأخرى كالعربية والفارسية، وهكذا أضيف النتاج الفكري الذي صاغته عقول غير عربية بالعربية إلى العربية، وأضيف النتاج الفكري الذي صاغته عقول غير فارسية بالفارسية إلى الفارسية. ومن حق الشعوب التي اتخذت من العربية أو الفارسية لساناً ووسيلة للكتابة أن تُدخل هذا النتاج العربي أو الفارسي في عداد تراثها القومي، ومن حق العرب والفرس أن يفخروا بهذا النتاج الذي كتب بلغتهم.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

جزيرة كيش الإيرانية



مارينا في أحد شواطئ جزيرة كيش

Photo from Trip advisor

جزيرة كيش الإيرانية

الجزيرة كلمة عربية، وهي عبارة عن قطعة أرض تحيط بها المياه من كل جانب، والكلمة مستخدمة في الفارسية إلى جانب كلمة أخرى وهي: آبخوست، وجمعها بالفارسية: جزاير أو جزيره ها. وتمتلك إيران عدة جزر إلى جانب جزيرة كيش (**Kish**) أهمها: قِشم (أكبر الجزر الإيرانية في الخليج وبها منطقة تجارية حرة) – جزيرة هندورابى – جزيرة لاوان – جزيرة لارك – جزيرة هنجام – جزر أبو موسي وطنب الكبرى وطنب الصغرى (وهي الجزر الثلاثة المتنازع عليها بين إيران والإمارات العربية المتحدة) – جزيرة سيرى – جزيرة فارور الكبرى – جزيرة فارور الصغرى. والمسافة من جزيرة كيش إلى الأراضي الإيرانية حوالي 17كم، والمسافة من جزيرة كيش إلى طهران العاصمة حوالي 1600كم برياً (1052كم جوياً). وهي تابعة لمدينة لنجة التابعة لمحافظة هرمزجان الساحلية التي تقع جنوب إيران وعلى شواطئ الخليج وبحر عمان وعلى مضيق هرمز. وهي جزيرة بيضاوية الشكل، يبلغ طولها من الساحل الغربي إلى الساحل الشرقي حوالي 15.5كم، وعرضها من الساحل الجنوبي إلى الساحل الشمالي حوالي 7.5 كيلو مترات، وترتفع أعلى نقطة فيها حوالي(45) متراً عن سطح البحر.

وجزيرة كيش من أجمل جزر الخليج على الرغم من صغر مساحتها (حوالي 92كم2)، ويطلقون عليها أسم: لؤلؤة البحار، وقد عرفت على مر التاريخ بـ: لؤلؤة الخليج، كما يطلقون عليها اسم: "دبي" إيران، ربما لأن الجو فيها مثل جو" دبي"، فهي حارة وجافة في فصل الصيف، ومعتدلة في فصل الشتاء شأنها شأن منطقة الخليج ولا يتجمد فيها الجليد نظراً لوقوعها في منطقة صحراوية جافة. وهي أكبر منافس لدبي في الخليج.

كان الخليج وجزره محل تلاقى الطرق البحرية بين الشرق والغرب على مر الزمن، وذلك من خلال أقدم طريق تجاري في العالم وهو: طريق الحرير، وبعد زلزال ميناء سيراف الذي وقع في عام 365 هـ.ق بدأ الاهتمام بجزيرة كيش، وتم الاهتمام بتعميرها. وكتب ابن خرداد (مؤرخ القرن الرابع الهجري) عن الجزيرة، وزارها وكتب عنها ابن بطوطة وياقوت الحموي والرحالة الإيطالي ماركوبولو الذي قُدمت له قطعا من اللؤلؤ كهدية أثناء زيارته لها. وتحدث عنها الشاعر والأديب الشهير سعدى الشيرازي (606 – 691هـ) في كتابه المعروف الذي يحمل عنوان: گلستان (روضة الورد)، وقال إنه التقي في جزيرة كيش بتاجر يشارك أحد التجار في تركستان، وإنه يرسل بالسلع إلى الهند، وإنه يود تصدير الكبريت الفارسي إلى

الصين، ويجلب الأقداح الصينية من الصين، ويُصَدرها إلى روما، ويحمل الديباج الرومي إلى الهند، والفولاذ الهندي إلى حلب، والأكواب الحلبية إلى اليمن، والبُرد اليماني إلى فارس. وهكذا يتضح أن هذه الجزيرة كانت منطقة عامرة منذ زمن طويل، وإنها كانت مركزاً تجارياً بين الصين وأوروبا وشمال أفريقيا، كما يتضح من التلال التاريخية الموجودة على الشاطئ الشمالي للجزيرة وجود مدينة كبيرة وعامرة بالسكان في الماضي تُعرف اليوم باسم: مدينة "حريرة" التاريخية، وأن سكانها كانوا يشتغلون بالتجارة مع الهند والصين والحجاز وزنجبار، وقد تبقي من هذه المدينة أطلال بعض المنازل التي تم بناؤها بالطين ومسجد وحمام وميناء وخزانات مياه مستطيلة تحت الأرض وقنوات. ومنذ أوائل القرن الخامس الهجري حتى منتصف القرن العاشر الهجري اشتهرت جزيرة كيش بأنها خزانة أتابكة فارس (في القرنين السادس والسابع الهجريين)، الذين أصبحت الجزيرة في عهدهم وفي عهد إيلخانى المغول (654 - 736هـ) والتيموريين (771 - 903هـ)، أهم مركز تجاري في منطقة الخليج، حيث لعبت الجزيرة دوراً في إقامة علاقات بين الشعوب والأمم المختلفة، وكانت السفن التجارية التابعة للشرق والغرب ترسو على شواطئها، وتسدد مبالغ كبيرة في مقابل هذا الرسو، مما ساعد على ازدياد ثروات وتجارة جزيرة كيش وإلى ازدهار العمران

فيها، إلى أن قام تيمورلنك بإلغاء التجارة الحرة في إيران، مما جعل الأوروبيين يفكرون في طرق بحرية أخرى، الأمر الذي أدى إلى فقدان منطقة الخليج أهميتها التجارية بالتدريج، لكن منطقة الخليج كانت محل اهتمام من الناحيتين السياسية والاستراتيجية، مما أدى إلى سيطرة الاستعمار (البرتغال – إسبانيا – هولندا – إنجلترا – فرنسا – روسيا) على منطقة الخليج. وقد أدى وجود المستعمرين فترة طويلة في جزيرة كيش وتعبئة (تجييش) الجيوش والقتل والغارات المتكررة إلى زوال كيش وإلى تخريبها.

وعلى الرغم من أن علماء الآثار المحليين والأجانب اكتشفوا بعض آثار جزيرة كيش قبل الثورة الإيرانية التي قامت في1979/2/11م، إلا أن دراساتهم كانت سطحية، إلى أن قام علماء الآثار بعد الثورة وبالتحديد في عام 1991م باكتشاف جزء من الآثار المعمارية المدفونة في التلال التاريخية.

ويزيد عدد سكان الجزيرة عن (25) ألف شخص طبقاً لآخر الإحصائيات، هاجر منهم حوالي 82% إلى الجزيرة في السنوات الأخيرة بحثاً عن فرصة عمل، ويرتدي رجالهم "الدشداشة" و"الغُترة"، وترتدي نساؤهم "المُلَفع"، ويضعن "البطولة" أو "البرقع" على وجوههن. وهم يعملون في صيد الأسماك وصيد الحيوانات وفي

الملاحة والتجارة، وكانوا يصيدون اللؤلؤ في الماضي. وبالجزيرة ثلاث مساجد للشيعة ومسجد واحد للسنة، ويقول عرب الأهواز إن اسم الجزيرة الأصلي هو "قيس"، وإن إيران احتلتها عام 1978م، وأطلقت عليها اسم كيش، وإن سكانها كانوا كلهم من العرب السُنة، وإن العرب لازالوا يسكنون الجزيرة التي يتكلم سكانها العربية على الطريقة العراقية.

وقد اتُخذت خلال السنوات الأخيرة خطوات كبيرة في سبيل إعادة بناء وإعمار المجمع السياحي الترفيهي في الجزيرة، وتم تشييد عدد كبير من الفنادق والأسواق والمراكز الترفيهية، وتم الاهتمام بالبنية التحتية لمياه الشرب والكهرباء وشبكات الاتصال وخدمات النقل البري والجوي والبحري، وتقوم كبري المصارف بتقديم الخدمات المصرفية من خلال فروعها التي أسستها في الجزيرة، وذلك من أجل تنمية صناعة السياحة في هذه الجزيرة التي تعد واحدة من المناطق البكر في إيران، ومن أهم المناطق الجاذبة للسائحين في منطقة الشرق الأوسط.

السياحة والاستثمار في الجزيرة:

طبقاً للدراسات الدولية، تعد السياحة من أهم أعمدة الاقتصاد القومي، وتعد جزيرة كيش من أهم المناطق والمعالم السياحية في إيران، وهي تحتل المركز الأول كأفضل جزيرة سياحية في سواحل إيران الجنوبية نظراً لتمتعها بإمكانيات سياحية هائلة تلبي رغبات السائحين على مختلف أذواقهم، ويعدها البعض ثالث أكبر المناطق ذات الطراز الغربي من حيث عدد الزوار في الشرق الأوسط بعد شرم بالشيخ في مصر ودبي في الإمارات العربية المتحدة. ومن أهم عناصر الجذب السياحي والاستثماري في هذه الجزيرة:

1. عناصر الجذب الطبيعية: حيث تحيط بالجزيرة الرمال البيضاء الفضية والمياه الزرقاء المتلالئة وأمواج المياه الصافية والشعاب المرجانية الملونة وأسراب السمك ذات الألوان الزاهية التي تسبح على عمق قليل بالقرب من السواحل الرملية الناعمة. هذا بالإضافة إلى المتنزهات والحدائق الجميلة التي تعيش فيها الغزلان الجميلة بحرية تامة، والتي تشاهد فيها الأشجار الخضراء الجميلة والنادرة والطيور الساحلية وغير الساحلية النادرة التي يصل عددها إلى (117) نوعاً، هذا فضلاً عن المناطق الأثرية التي تم ترميم العديد منها بالتعاون مع منظمة التراث الثقافي الإيراني، وعن وجود شاطئين

الأول خاص بالرجال والثاني خاص بالنساء، وعن وجود عدد كبير من الفنادق الفخمة التي يقع بعضها على ساحل البحر والشقق الفندقية وفنادق الاستجمام والشاليهات الفخمة، والمطاعم التي تتناسب وأعداد زوّار الجزيرة، والتي تقدم المأكولات الإيرانية والأوروبية، والمقاهي التقليدية والحديثة، وحدائق الدلافين المدربة والحدائق المائية، والسفينة اليونانية الضخمة التي رست غرب الجزيرة، ولم تبارح مكانها منذ صيف عام 1966م، وأصبحت مزاراً سياحياً لزوار الجزيرة، ويقال إن سبب جنوح وشحوط هذه السفينة في هذا المكان هو سوء الأحوال الجوية، وعدم وجود فنار بحري على سواحل جزيرة كيش آنذاك، وإن وجود أكسيد الحديد في هذه المنطقة أدى إلى احمرار لون الرمال المحيطة بالسفينة، هذا ويتم الآن العمل في مشروع إنشاء حديقة ساحلية حول هذه السفينة.

2. عناصر الجذب الرياضي والترفيهي: ويتمثل ذلك في مضمار الخيول للاستمتاع برياضة ركوب الخيل، وفي نادي الدراجات الهوائية حيث يوجد مضمار خاص بالدراجات يدور حول الجزيرة كلها، وفي رياضة الغوص والألعاب المائية، هذا بالإضافة إلى رياضة صيد الأسماك في القسمين الجنوبي والغربي من الساحل. وتقوم شركة كيش للصيد بصيد الأسماك وبيعها. كما يوجد بالجزيرة رصيف

(لسان) ترفيهي طوله (437) متراً وعرضه (18) متراً ومساحته عشرة آلاف متر مربع، يستخدم في الألعاب المائية والتزحلق على الماء، وتنطلق منه الزوارق التي بها "دواسات" وزوارق الصيد وزوارق التجديف والدراجات المائية والزوارق ذات الأرضيات الزجاجية التي تُستخدم في مشاهدة الأحياء المائية الجميلة الموجودة في مياه الخليج، كما يُستخدم الرصيف لممارسة رياضة الغوص وفي التنزه للاستمتاع بالمناظر الطبيعية ومشاهدة الأسماك الملونة والشعاب المرجانية، والاستمتاع بلحظة بزوغ الشمس الدافئة في الشتاء، كما يمكن ممارسة رياضات: الأسكواش والتنس الأرضي وتنس الطاولة وكرة اليد والكرة الخماسية والرماية بالقوس.

3. عناصر الجذب التجاري والاستثماري: يوجد بالجزيرة عدد كبير من الأسواق والمراكز التجارية ومراكز التسوق والبازارات التقليدية والحديثة ذات الطابع المعماري الخاص، وفي عام 1982م أعلنت السلطات الإيرانية أن الجزيرة منطقة حرة اقتصادياً وتجارياً، وأُنشئت منظمة منطقة كيش الحرة في عام 1992م، وبتأسيس هذه المنظمة استعادت الجزيرة روحها وبدأت مرحلة تنميتها. ولا يشترط الحصول تأشيرات دخول حتى بالنسبة للأوروبيين والأمريكيين، ولا توجد ضرائب ولا تعريفة جمركية. وتُعد كيش جسراً بين الإيرانيين

والمستثمرين الأجانب، حيث تحاول إيران جعلها قبلة للاستثمار الأجنبي في البلاد، ويوجد بالجزيرة عدد من رجال الأعمال والتجار المحليين والأجانب. وفي مواجهة العقوبات الاقتصادية الدولية المفروضة على إيران، أقامت إيران بورصة دولية للنفط في جزيرة كيش، وهي محاولة لإنعاش قطاع النفط، والتغلب على المشاكل التقنية التي يعاني منها هذا القطاع جراء غياب أهم شركات الاستثمار الأجنبية. وتنفيذاً لسياسة مواجهة هذه العقوبات، لجأت إيران إلى الاقتصاد والاستثمار، فضخت الدولارات في شرايين جزيرة كيش، وشجعت الأجانب على الاستثمار في كيش التي تتمتع بجو هادئ وآمن ونظيف ومناسب للاستثمار، هذا وقد عُقد في جزيرة كيش المؤتمر الدولي الرابع لتقنية "النانو" في مارس 2012م.

ويوجد بالجزيرة مطار دولي، ويمكن الوصول إليها جواً عن طريق شيراز وعن طريق مطار "الشارقة" أو مطار "دبي"، وتوجد رحلات يومية من الإمارات إلى الجزيرة، وتستغرق رحلة الطيران من دبي إلى كيش (15) دقيقة، ولا تحتاج شركة طيران كيش إلى تأشيرة دخول، وقد سقطت منذ أكثر من عامين طائرة تابعة لشركة طيران كيش فوق أراضي الشارقة أثناء رحلتها الروتينية من جزيرة كيش الإيرانية

إلى الإمارات العربية المتحدة. ويوجد خط بحري منتظم عن طريق رأس الخيمة، والمسافة بين كيش ودبي حوالي 200 كم عن طريق البحر. هذا ويوجد في جزيرة كيش حرية أكثر من باقي المناطق الإيرانية، وذلك فيما يتعلق بالحجاب والبرامج الترفيهية والتجارة الحرة، وتصور في الجزيرة مسلسلات وأفلام تليفزيونية، وذلك نظراً لأن الجزيرة تُعد دُرة من دُرر الخليج التي تتمتع بالمناظر الطبيعية الخلابة.

وتقوم الحكومة الإيرانية بالتشجيع على حل المشاكل والأزمات السياحية، وتسهيل الإجراءات بالنسبة للمستثمرين، والارتفاع بمستوي الخدمات السياحية، وتنمية الوعي السياسي المجتمعي، والاهتمام بالمناطق السياحية الواعدة، ودراسة التهديدات والتحديات التي تواجه النشاط السياحي، والتوعية بأهمية السياحة في دعم الاقتصاد القومي، والعمل على تنمية المواد السياحية، وتوفير خدمات البنية التحتية في المناطق السياحية، وتوفير المناخ الاستثماري السياحي الآمن والشامل لجذب المزيد من الاستثمارات المحلية والأجنبية، والارتقاء بجودة الخدمات السياحية بما يتوافق مع المواصفات الدولية، وتطوير القدرة التنافسية بما يكفل زيادة عدد السائحين، وإيجاد إعلام سياحي فعّال يتمتع

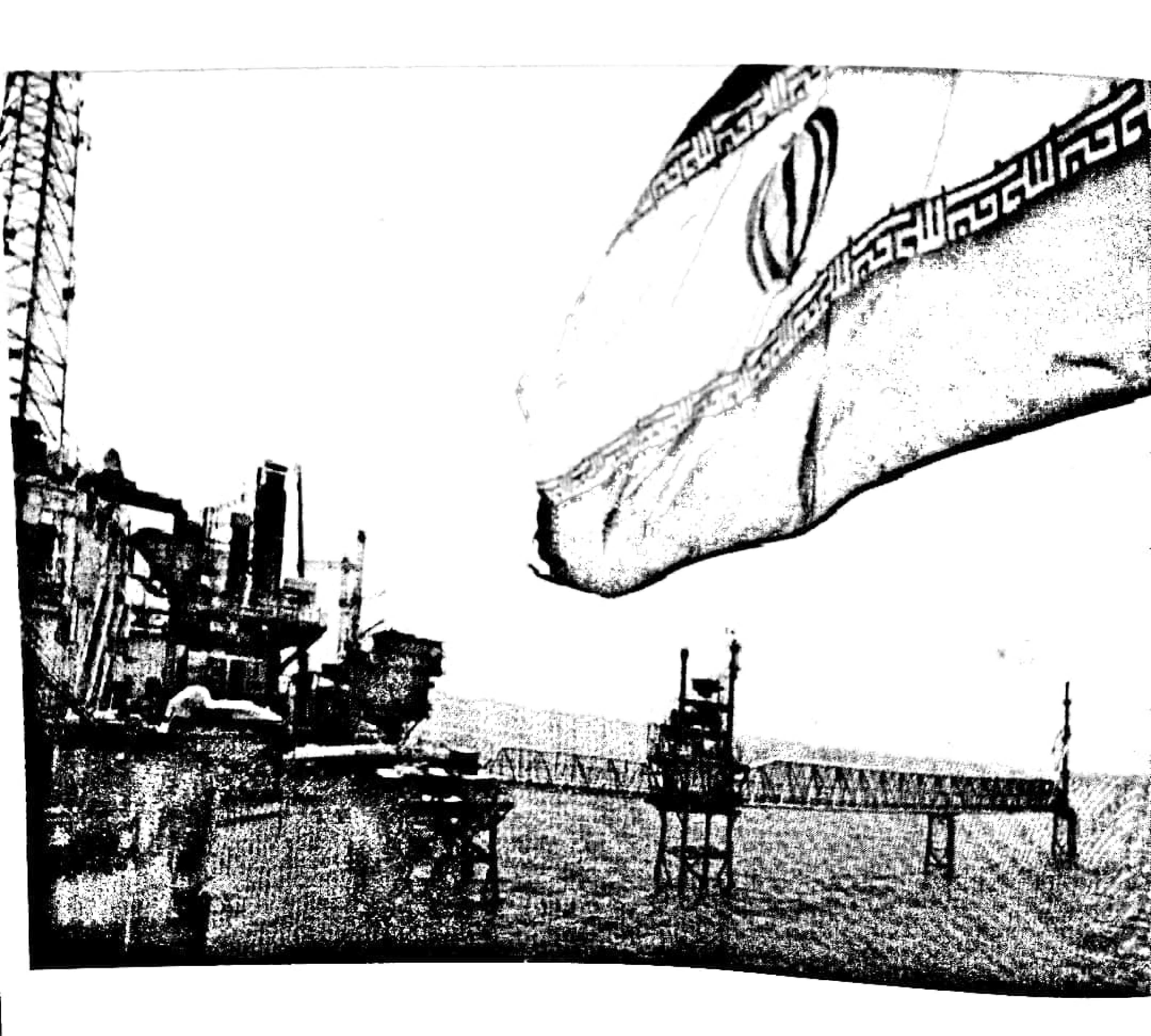
بالمهنية ويقدم رسائل إعلامية توعوية ومعرفية، ويساهم في نشر الثقافة السياحية مع تطوير التسويق والترويج السياحي، ودراسة الأسواق السياحية، ومتطلبات الأسواق المصدرة للسياحة والترويج لها بما يكفل زيادة عدد السائحين. هذا بالإضافة إلى التنسيق مع الجهات التي يتعلق عملها بالنشاط السياحي، وتطوير المنتج السياحي وتهيئة المناطق السياحية الجديدة لمواكبة متطلبات الأنماط المختلفة للنشاط السياحي، والاستغلال الأمثل للمواد السياحية الحضارية والتاريخية.

وبالجزيرة مركز للمعارض الدولية يحتوي على جناح دائم خاص بالجزيرة، وتصدر عن الجزيرة مجلة عائلية وسياحية شهرياً تحمل عنوان: " الجزيرة الذهبية "، وتهتم المجلة بنشر أخبار الجزيرة وبنشر إعلانات تجارية واستثمارية وإعلانات عن مشروعات عمرانية (أبراج ساحلية سكنية) وإعلانات تسويق عقاري وعن متاجر ومطاعم وملابس ومراكز الشراء، وإعلانات عن السياحة في الجزيرة وعن أماكن التجول والتنزه وعن أدوات الرياضة المائية ولوازم الصيد وأحواض الأحياء المائية، وإعلانات عن شركات طيران وعن خدمات السفر والإقامة في الجزيرة، وبالجزيرة معارض لبيع السيارات الحديثة، ولها موقع إعلامي وإخباري على الإنترنت.

هذا وقد أطلق البعض اسم "كيش" على جزيرة "قِشم" نظراً لأن شكل هذه الجزيرة يشبه جعبة السهام (الكنانة)، وأن "كيش" من معانيها في الفارسية: جعبة السهام.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

البترول في إيران



صورة من مقال نشر بموقع أخبار الطاقة

www.taqanews.com

البترول في إيران

أصبح العالم الإسلامي في بداية القرن التاسع عشر في مقدمة الأهداف التي صوبت إليها حملات الغرب الثلاث، وهي حملات التبشير والاستغلال والاستعمار، وكانت منطقة الشرق الأوسط قد بدت في النصف الأول من القرن العشرين كأكبر مستودع ومصدر للطاقة التي قامت عليها الثورة الصناعية الثانية، وكان بترولها الرخيص في البداية أهم دعم اقتصادي حصت عليه أوروبا الغربية، ذلك لأن البترول يحتل مركز الصدارة في تطوير الصناعات الحديثة وحركتها، إذ إنه الطاقة الرئيسية لتدوير عجلات الصناعة، والمادة الأساسية لإنتاج المنتجات البتروكيماوية.

ولم تكن إيران تملك من حقوق التصرف في سياساتها الداخلية أو الخارجية ما تملكه الدول المستقلة. وتسابقت بريطانيا وروسيا على كسب الامتيازات والرخص من الحكومة الإيرانية، وتمادى حلول الدولة القاجارية (1795 – 1925م) في سياسة الاقتراض ومنح الرخص ورهن الموارد لبريطانيا وروسيا، وإيران غنية بثرواتها البترولية، ولقد أثبتت الأبحاث العلمية والاكتشافات البترولية أن ثلثي كمية البترول في العالم مخزونة في منطقة الخليج، وإيران إحدى

دول الخليج، وتلعب دوراً بارزاً ومهماً في منظمة الدول المنتجة للبترول (أوبك).

وتحتفل الجمهورية الإسلامية الإيرانية باليوم الوطني للبترول في ذكرى تأميمه (1951/3/20م)، وترى أن حركة تأميم صناعة البترول التي تزعمها الدكتور محمد مصدق تمثل أحد مفاخر الشعب الإيراني خلال تاريخ نضاله الوطني.

والاقتصاد الإيراني مرتبط إلى حد بعيد بالبترول، وإذا انخفض سعر البترول يواجه هذا الاقتصاد مشكلات عديدة وتشكل عائدات البترول المورد الرئيسي للدخل القومي الإيراني، والمصدر الأساسي للعملة الصعبة، حيث تعتمد إيران على البترول في صادراتها بشكل كبير، وقد اعتمدت الميزانية العامة في إيران على عوائد البترول والغاز الطبيعي بشكل أساسي في الخمسين عاماً الأخيرة، ذلك لأن إيران رابع دولة منتجة للبترول في العالم وثاني دولة مصدرة له كما أنها تمتلك احتياطياً ضخماً من الغاز الطبيعي يجعلها تأتي في المرتبة الثانية في العالم بعد روسيا الاتحادية.

وتاريخ البترول في إيران - بوصفها دولة مهمة من دول منطقة الشرق الأوسط الحساسة - مليء بالأحداث والتطورات الاقتصادية

والسياسية، وزاخر بالنضال والكفاح وبالدسائس والمؤامرات والصعود والهبوط والاغتيالات والانقلابات والثورات. وقد مر البترول الإيراني عبر تاريخه بمراحل أربع:

المرحلة الأولى: منذ بداية ظهور البترول في إيران وحتى مرحلة ما قبل التأميم في 1951/3/20:

تذكر بعض المراجع أن ينابيع البترول كانت تنساب خلال الصخور في إيران منذ أن ظهر الإنسان الأول على سطح الهضبة الإيرانية، ومن المحتمل أن تدفقات هذا البترول أو الغاز المنساب من القيعان المحملة بالزيت قد اشتعلت بفعل البرق، وأن أول بئر بترول حفر بأمر من دار يوش الكبير (552 – 486 ق.م)، وأن هذا البئر يقع في منطقة شوش الواقعة في خوزستان الغنية بالبترول. وكان القدماء يستفيدون من البترول في تكوين التماثيل وفي العلاج عن طريق تبخير المريض بحرق الأسفلت، كما استخدم الأسفلت في بناء الجدران والأعمدة والحجرات وفي دهان الأبواب، وكان القار الأسود يشفي الدمامل، كما كانت بعض مشتقات البترول تعالج بعض الأمراض الجلدية وآلم الأسنان وغيرها من الأمراض. كما استخدم القار في عمليات البناء واستخدم البترول في الحروب وفي التدفئة والإضاءة.

وفي العصر الحديث أعطى أول امتياز للتنقيب عن البترول عام 1872 للبارون جوليوس رويتر البريطاني الجنسية في عهد ناصر الدين مشاه القاجاري (1848 - 1896)، لكن المعارضة الشعبية أدت إلى إلغاء هذا الامتياز نظراً لضآلة حصة إيران من عائدات البترول. ومنذ أن اكتشف احتياطي البترول الهائل في نهاية القرن التاسع عشر في جنوب إيران سال لعاب دول الغرب، وتمكن المهندس "لويم نوكس دارس" البريطاني الجنسية من الحصول على امتياز التنقيب عن البترول في جميع أنحاء إيران ما عدا المقاطعات الشمالية الواقعة تحت النفوذ الروسي وهي: (آذربيجان. جيلان . مازندران . جرجان . خراسان)، وذلك في عام 1901 في عهد مظفر الدين مشاه القاجاري (1896 – 1906) مقابل تسديد نسبة تساوي 16% من صافي الأرباح إلى الحكومية الإيرانية، بالإضافة إلى رسوم امتياز وحصة من أسهم الشركة. وكانت مدة الامتياز ستين عاماً، وهي مدة طويلة، ولم يقتصر الأمر على التنقيب بل تعداه إلى الاستخراج والتكرير والبيع والتصدير.

وبعد أن ظفر "دارس" بهذا الامتياز فوض الحكومة البريطانية في جميع الحقوق المترتبة عليه. وفي عام 1907 أبرمت بين روسيا القيصرية وبريطانيا معاهدة تم الاتفاق فيها على تقسيم إيران إلى

ثلاث مناطق: منطقة نفوذ روسية كبيرة في الشمال، ومنطقة نفوذ بريطانية صغيرة في الجنوب (حيث يوجد البترول)، ومنطقة عازلة محايدة تشمل طهران بينهما، مع التأكيد على حرص الدولتين على استقلال إيران وسيادتها في البنود الأخيرة من المعاهدة!

وفي عام 1908م بدأ تدفق البترول بغزارة في أول بئر حفر في منطقة "مسجد سليمان" في جنوبي البلاد وهي منطقة النفوذ البريطانية. وفي عام 1909م أنشئت شركة البترول البريطانية الإيرانية في لندن لمباشرة تنفيذ بنود الامتياز، وهي الشركة . التي أصبحت بعد وقت قصير من أكثر شركات البترول نفوذاً في العالم، وتم إنشاء فرع لهذه الشركة في إيران، لم يكن لإيران الحق في التدخل في شئون الشركة، وكان العمال البسطاء من إيران، وكان سائر العاملين والموظفين من جنسيات أخرى يختارها صاحب الامتياز، وكانت البحرية البريطانية هي المساهمة الرئيسية في هذه الشركة التي كانت تزود الأسطول البريطاني بالبترول بكميات كبيرة وأسعار زهيدة تقل عن السعر العالمي، كما كانت الشركة تقدم نسبة (3%) من الأرباح لزعماء القبائل والعشائر لحراسة المنشآت البترولية وضمان الأمن والهدوء في المنطقة.

واستمر إنتاج البترول وتصديره وفق بنود امتياز دارس حتى تم إلغاء هذا الامتياز عام 1932م من جانب الحكومة الإيرانية والبرلمان الإيراني اللذين شعرا بالغبن الذي لحق باقتصاد البلاد وبالدخل القومي بسبب هذه الاتفاقية الجائرة المجحفة. وتفاوضت الحكومة على عقد اتفاق آخر في أواخر إبريل عام 1933م مع شركة البترول البريطانية ـ الإيرانية بشروط جديدة تحافظ على حقوق إيران ومصالحها الوطنية. وقد قلصت هذه الشروط مساحة المناطق التي يشملها الامتياز إلى مائة ألف ميل مربع، وزادت عائدات إيران من نفطها، فأصبحت حوالي 20%، إلا أن مدة الامتياز مددت حتى عام 1993م. وتم الاتفاق بين الطرفين على استبدال العمال الإيرانيين ـ بالتدريج ـ بالعمال الأجانب، وعلى تدريب الجيل الشاب من الإيرانيين على العمل في مجالات صناعة البترول، وبعد أن كنت إيران تحصل في امتياز دارس على (0.17) من الدولار على كل برميل مصدر، أصبحت تحصل على (0.23) في الامتياز الجديد. وارتفعت كمية البترول المستخرج من عام 1933م وحتى عام 1951م، وزادت المبيعات وزاد التصدير، ووصلت أرباح الشركة إلى أرقام فلكية، لكن إيران لم تستفد كثيراً من هذه الأرباح، وكان المستفيد الحقيقي هم المساهمون البريطانيون والخزانة البريطانية، ولم تنفذ بريطانيا معظم بنود الاتفاقية، وبخاصة البنود

المتعلقة بتدريب الخبراء الفنيين الإيرانيين، وخفض أعداد العمال الأجانب، وتوفير السكن للعمال الإيرانيين، ومنحهم مرتبات مجزية مثلهم مثل الأجانب، وكان جزء كبير من العائدات والأرباح الناتجة عن الاستفادة من البترول الإيراني يستثمر من جانب البريطانيين في سائر دول العالم لاكتشاف واستخراج البترول. وكانت الشركة تحرق الغاز الطبيعي المتدفق مع الزيت، ولم تكن إيران تستفيد من هذا الغاز لأنه كان يهدر دون جدوى. بالإضافة إلى أن نسبة الأرباح التي كانت الشرك البريطانية الإيرانية تقدمها إلى الكويت والعراق وغيرها من الدول تفوق ما كنت تقدمها لإيران بمراحل. وفي الوقت الذي كانت شركات البترول الأمريكية قد عقدت فيه اتفاقية مع السعودية على أساس تنصيف عائدات البترول، كانت شركة البترول البريطانية الإيرانية تسدد لإيران أقل من (30%)، ولما طالب الإيرانيون بزيادة العائدات إلى مستوى مماثل رفضت الشركة هذا المطلب. هذا بالإضافة إلى أن الشركة كانت تحول دون دخول أية دولة أو شركة بترولية أخرى إلى المناطق التي يشملها الامتياز.

وفي الحرب العالمية الثانية (1945 - 1939) كان موقع إيران الجغرافي الاستراتيجي وتعاظم أهمية البترول في الحر سبباً دفع الحلفاء إلى توريط إيران في نشاطاتهم العسكرية أثناء الحرب، رغم

إعلان إيران أنها تقف مرقفاً "محايداً"، وبعد احتلال اليابان لإندونيسيا، "أصبح البترول الإيراني الاحتياطي الوحيد للحفاء في الشرق، ولجأت بريطانيا والاتحاد السوفيتي إلى احتلال إيران في الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام 1941م، ودخلت بريطانيا من الجنوب، ودخل الاتحاد السوفيتي السابق من الشمال، للدفاع عن خطوط الإمداد، وبحجة وضع حد لنشاطات عملاء الألمان. وكانت إيران معبراً تموينياً للبلدين أثناء الحرب، وأجبر الحلفاء رضا شاه (1925 - 1941م) على التنازل عن العرش لولي عهده (محمد رضا)، وغادر رضا شاه البلاد منفياً إلى جنوب أفريقيا، حيث قضى هناك بقية حياته، وتوفي في يونيو عام 1944م، ورفضت القوات البريطانية والروسية التي كانت تحتل البلاد ـ آنذاك ـ دفنه في إيران، فنقل جثمانه إلى القاهرة حيث دفن في مسجد الإمام الرفاعي، قبل نقله إلى طهران في مايو عام 1950م، وتشييد ضريح له في مدينة الري (جنوب طهران). ومن المفارقات أن يدفن ابنه الشاه محمد رضا بهلوي أيضاً في مسجد الإمام الرفاعي بالقاهرة في عام 1980م.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها، وتبين الدور المهم الذي لعبه البترول الإيراني خلالها، تسابقت الدول الكبرى وعلى

رأسها، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على الحصول على امتيازات بترولية في إيران، إلا أن الحكومة الإيرانية أعلنت رفضها لجميع العروض التي تقدمت بها هذه الدول، وطالبت إيران الشركة البريطانية الإيرانية بإجراء تعديلات على الاتفاقية المبرمة بين البلدين، وتقدمت الشركة باتفاقية إضافية أو مكملة تضمن بنوداً لصالح إيران. إلى حد ما. إلا أن الاتفاقية لم تفي بالغرض المطلوب، ولم تضمن كامل حقوق إيران في ثروتها البترولية، ولذلك رفضها البرلمان الإيراني. وأقر. في وقت لاحق. قانون تأميم صناعة البترول.

المرحلة الثانية: (من تأميم صناعة البترول في 1951/3/20م إلى الإطاحة بالدكتور مصدق):

أدى عدم التزام شركة البترول البريطانية الإيرانية ببنود اتفاق عام 1933م، وتدخل الشركة في الشئون الداخلية والسياسية لإيران بصفة دائمة إلى التفكير في إلغاء الاتفاق، وأصبح إلغاء هذا الاتفاق مطلباً وطنياً. وتفاقم سخط الجماهير على بريطانيا وعلى استغلالها للبترول الإيراني، وتدخلها في الشئون الإيرانية. وتزعمت الجبهة الوطنية تحت قيادة الدكتور محمد مصدق هذه الجماهير، وهي الجبهة التي كانت قد تكونت في أعقاب الحرب العالمية الثانية من عدد من المثقفين والتقدميين الإيرانيين، وكان تأميم صناعة البترول

أهم أهداف الجبهة السياسية، وكانت هذه الجبهة تشكل أكبر حزب معارض داخل البرلمان الإيراني، ومصدق هو مؤسس هذه الجبهة، كما أنه كان يرأس لجنة البترول في البرلمان. وعندما تقدمت بريطانيا باتفاقية إضافية بشروط أفضل بالنسبة لإيران، عرضت الحكومة الإيرانية الاتفاقية على أعضاء البرلمان الذين قرروا تشكيل لجنة خاصة لبحث ودراسة الاتفاقية وتفصيلاتها، وتقديم تقرير مفصل عنها، واجتمعت اللجنة وأعدت تقريراً رفضت فيه الاتفاقية الإضافية، وتقدم مصدق بطلب تأميم صناعة البترول. لكن البرلمان رفض هذا الطلب، وشكل لجنة لرسم الخطوط العريضة لسياسة البلاد البترولية، وتقدمت اللجنة بمشروع تأميم البترول إلى البرلمان في وقت لاحق، وصدق مجلس النواب والشيوخ على المشروع، وانتخب مصدق رئيساً للوزراء، ووضع قرار التأميم موضع التنفيذ في جميع أنحاء إيران، وتم تأسيس شركة البترول الوطنية.

والحقيقة أن حركة التأميم كانت ورائها دوافع كثيرة تتمثل في أن شركة البترول البريطانية الإيرانية كانت دولة داخل دولة، وكانت تعين الوزراء وتقيل الوزارات وتسبغ عضوية المجلس النيابي على من تشاء، وكانت تسيطر تماماً على رؤساء القبائل في جنوب إيران، ومن أهم هذه القبائل في جنوب إيران، ومن أهم هذه القبائل:

النجتيارية والقشقائية وقبيلة بني كعب العربية، وكان زعماء هذه القبائل يحصلون على نسبة من أرباح الشركة لحراسة الأنابيب الممتدة عبر الصحاري والآبار والحقول والمنشآت البترولية بالإضافة إلى سوء معاملة موظفي الشركة للإيرانيين وموظفي الحكومة، وكذلك الرغبة في تحسين الأحوال الاقتصادية، والقضاء على النفوذ الأجنبي وعملاء الأجانب في البلاد، والحصول على الحرية والاستقلال في الشئون الداخلية والخارجية.

وغضبت بريطانيا، واعتبرت أن التأميم فسخ للعقد من جانب واحد، ودخلت إيران مرحلة جديدة من تاريخها شكلت مواجهة صريحة مع الاستعمار، وتقدمت بريطانيا بعدة اقتراحات رفضها مصدق، وعرض النزاع على مجلس الأمن وعلى محكمة العدل الدولية، وسافر الدكتور مصدق إلى نيويورك ولاهاي على رأس وفد إيراني لتوضيح موقف إيران، والدفاع عن حق بلاده في التأميم، ونصح مجلس الأمن طرفي النزاع بالتباحث والتفاوض لحل النزاع، وأعلنت محكمة العدل الدولية عدم صلاحيتها لبحث شكوى بريطانيا ضد إيران، وقطعت العلاقات بين بريطانيا وإيران في أكتوبر 1952م، وارتأت بريطانيا اللجوء إلى القوة العسكرية لإرغام إيران على العدول عن التأميم، لكنها لمست معارضة ن حليفتها

الولايات المتحدة، وتحركاً من جانب الاتحاد السوفيتي للوقوف إلى جانب إيران، فأحجمت عن الإقدام على القيام بعمل عسكري. وجمدت بريطانيا الودائع والأرصدة الإيرانية المودعة في البنوك البريطانية، ولم تتمكن إيران من تصريف بترولها بسبب ضغوط الإدارة البريطانية على الأسواق العالمية، وحدث نقص شديد في العملة الصعبة واشتدت الأزمة الاقتصادية نتيجة للحصار الاقتصادي الذي فرض على إيران، وطلبت بريطانيا تعويضات من إيران لكن الدكتور مصدق رفض تسديد المبلغ الذي طلبته بريطانيا، واقترح أن تقتصر التعويضات على ما تملكه الشركة من أصول مادية في مدينة آبادان (عبدان) التي أنشئت فيها مصفاة بترول عملاقة.

أما شركة البترول البريطانية الإيرانية فقد غادرها العاملون الأجانب، وتولى الإيرانيون الأمور الفنية والإدارية فيها، وانحصر نشاطها في توفير الوقود والمواد البترولية التي تستهلك داخل البلاد فقط، وانخفض معدل الإنتاج نتيجة لعدم إمكانية تصريفه وتصديره إلى الخارج.

وطلب الدكتور مصدق معونة مالية من الولايات المتحدة لسد العجز في ميزانية الدولة، لكن الولايات المتحدة رفضت بإيعاز من

بريطانيا، كما رفضت مساعدة إيران في تسويق المخزون من بترولها. وانشق الكثيرون ممن أغرتهم الأموال والمناصب على الدكتور مصدق، ودبت الخلافات الأيديولوجية في الجبهة الوطنية، وتخلى عنه رجال الدين وعلى رأسهم آية الله كاشاني، وتدخلت الولايات المتحدة وبريطانيا بالتمويل والتحريض للمحافظة على مصالحها في الخليج، وخوفاً من تداعيات تأميم البترول الإيراني وتأثيره على بلدان الشرق الأوسط المنتجة للبترول. وفي 1953/8/19م ظهرت وحدات من الجيش الإيراني (كان مصدق قد قام بعمليات تطهير للجيش وخفض الميزانية لصالح المشروعات الصحية والزراعية والصناعية، وقلص صلاحيات بعض قادة هذا الجيش وفصل عدداً من ضباطه الفاسدين) في شوارع العاصمة طهران ومعها جماعات من المتظاهرين تنادي بسقوط مصدق، وتهتف للشاه محمد رضا بهلوي، وتطالب بإقصاء الدكتور مصدق وحكومته عن الحكم. وهكذا نجح الانقلاب المضاد الذي دبرته المخابرات البريطانية والأمريكية، وأداره كرميت روزفلت ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في طهران، وأطلق على خطة الانقلاب اسم: آجاكس.

وعاد الشاه محمد رضا بهلوي الذي كان قد اضطر إلى مغادرة البلاد عندما تصاعد الخلاف بينه وبين الدكتور مصدق من روما إلى إيران،

وذلك بعد أن اطمأن إلى نجاح الانقلاب المضاد، وسلم مصدق نفسه بعد أن أمطروا منزله بوابل من قذائف الدبابات والرشاشات، وحوكم مصدق أمام محكمة عسكرية ووجهت إليه تهمة الخيانة، وأصدرت المحكمة عليه حكماً بالسجن لمدة ثلاث سنوات، وتمت ملاحقة واعتقال مؤيديه وأنصاره، وتم إعدام الكثيرين منهم، وعلى رأسهم الدكتور حسين فاطمي وزير خارجية مصدق.

وقد لعبت الصحافة وبخاصة الصحف الموالية للجبهة الوطنية دوراً بارزاً في مسألة تأميم صناعة البترول، وفي تصديق مجلس النواب على قانون التأميم، وفي إلغاء معاهدة 1933، حيث حولت القضية من قضية اقتصادية إلى قضية استقلال اقتصادي وسياسي، وهو نفس الاتجاه الذي سار فيه الدكتور مصدق.

وبالإطاحة بمصدق وبحكومته الوطنية التي تبنت تأميم صناعة البترول الإيراني، بدأت صفحة جديدة من صفحات تاريخ إيران السياسي، حيث كان التأميم منطقاً لسلسلة من الإجراءات التي حققت آمال الشعب الإيراني في النهاية، كما أنه كان - آنذاك - نقطة تحول في تاريخ العلاقات البترولية في العالم كله. وكان له رد فعل دولي كبير، وكان لتجربة مصدق في التأميم أثر إيجابي في الحركات التحررية المناهضة للاستعمار في الشرق الأوسط وشمال

أفريقيا، بعد أن ضرب مصدق المثل في الوطنية، المطالبة بالحقوق ومواجهة التحديات، وفي التضحية والصمود من أجل الحصول على الاستقلال الوطني.

المرحلة الثالثة: (منذ الإطاحة بمصدق وحكومته في 1953/8/19م وحتى عام 1973م):

تم تعيين الجنرال فضل الله زاهدي رئيساً للوزراء بعد الإطاحة بمصدق، وانهالت المعونات والمساعدات الأمريكية على إيران وكانت قد توقفت في الفترة التي رأس فيها الدكتور مصدق رئاسة الوزراء، وقام احتكار غربي جديد للبترول الإيراني وزعت فيه الأنصبة الأجنبية بطريقة جديدة بحيث لا يكون للبريطانيين السيطرة القديمة نفسها على منابع البترول الإيراني. واستؤنفت العلاقات الدبلوماسية بين إيران وبريطانيا في ديسمبر 1953م، وفي أغسطس 1954م أبرم اتفاق بين الحكومة الإيرانية والشركات الأجنبية ينص على تشكيل كنسرسيوم (اتحاد شركات بترولية عالمية)، وهي ثماني شركات أمريكية وفرنسية وهولندية إلى جانب شركة البترول البريطانية الإيرانية. وذلك من أجل استغلال البترول الإيراني وتسويقه. وكانت أسهم هذه الشركات مقسمة على النحو التالي:

شركة البترول البريطانية الإيرانية 40% . الشركات الأمريكية 40% . الشركات الهولندية 14% . الشركات الفرنسية 6%. وبذلك أصبحت الولايات المتحدة شريكاً له وزنه في صناعة البترول الإيراني. وتم الاتفاق على سريان مفعول الاتفاق لمدة خمسة وعشرين عاماً تجدد ـ بإخطار سابق ـ ثلاث دورات أخرى، مدة كل دورة خمس سنوات. ووافقت الحكومة الإيرانية الجديدة على دفع تعويضات لبريطانيا عن سنوات التأميم، وهي فترة حكومة الدكتور مصدق.

وهكذا تم ـ عملياً ـ تجاهل قانون تأميم صناعة البترول الإيراني الذي كان من الأحداث المهمة والعلامات البارزة في النصف الثاني من القرن العشرين. وقد ذكر الشاه محمد رضا بهلوي أنه كان من الصعب أن يعقد اتفاق ـ آنذاك ـ أفضل من ذلك. وقال رئيس الوزراء عباس هويدا أثناء تقديمه للائحة اتفاقية الكونسرسيوم إلى البرلمان: إن الاتفاق المذكور لم يكن الشيء الذي نصبوا إليه.

وأحكمت الولايات المتحدة قبضتها على إيران بعد أن حلت محل بريطانيا، وسيطرت على الجيش والمخابرات والمؤسسات الاقتصادية، وصارت إيران أهم وأضمن قاعدة سياسية وعسكرية للولايات المتحدة في العالم أجمع طوال خمس وعشرين سنة.

وانهمرت أرباح البترول التي كانت قد توقفت خلال فترة مصدق وحكومته الوطنية على اتحاد الشركات البترولية التابعة للدول الغربية. وزاد عدد الخبراء العسكريين الذي تقتضي صفقات السلاح وجودهم على أراضي إيران.

وفي عام 1957م عقدت إيران معاهدة مع شركة "آجيب" الإيطالية، وتم إنشاء شركة إيرانية إيطالية مشتركة، وكانت إيران تمتلك 50% من أسهم هذه الشركة وقد أغضبت هذه المعاهدة شركات الكونسرسيوم التي كانت تريد احتكار بترول إيران. وبعد فترة قصيرة عقدت إيران اتفاقية لاستخراج البترول في إيران مع شركة "بان أمريكان"، وامتلكت شركة البترول الوطنية الإيرانية 50% من أسهم هذه الشركة أيضاً.

المرحلة الرابعة: (من 31 يوليو 1973م وحتى الآن):

في 19973/7/31 قام الشاه محمد رضا بهلوي (1941 - 1979م) بإلغاء اتفاقية الكونسرسيوم ومن ثم إنهاء سيطرة الشركات العالمية الثمانية على استخراج وبيع وتسويق البترول والغاز الإيرانيين. وقد أعاد هذا القرار لإيران سيطرتها الكاملة على مصادر ثروتها القومية، وأتاح لإيران إيرادات أوفر مكنتها من تقوية

وبناء مشروعاته الاقتصادية في جميع المجالات، ولم تهيمن إيران على الإدارة الكاملة لجميع منشآتها البترولية فقط، بل أصبحت لها الحرية الكاملة في تحديد شروط بيع بترولها. ولقد اعتبر إلغاء معاهدة 1954م نجاحاً كبيراً حققته إيران، وانتصاراً كبيراً صب في مصلحة الشعب الإيراني.

وفي حرب أكتوبر (1973م) فرضت الدول العربية حظراً بترولياً على الدول الداعمة لإسرائيل، واستخدمت البترول كسلاح سياسي، لكن إيران رأت أن الأمر لا يخصها، واستفادت كثيراً من نظرية ملء الفراغ.

على الرغم من أن الشاه محمد رضا بهلوي استجاب لطلب الرئيس السادات أثناء حرب أكتوبر، وأمده بكميات من البترول لتموين الطائرات وتشغيل الفرق الآلية، وذلك بعد أن أصدر أوامره لإحدى ناقلات البترول الإيرانية بأن تغير اتجاهها وأن تفرغ حمولتها في مصر.

وقفز الدخل القومي الإيراني قفزة هائلة بعد ارتفاع أسعار البترول أثناء حرب أكتوبر، وفي ديسمبر عام 1973م طلب الشاه من دول منظمة الأوبك زيادة أسعار البترول الخام، وتقرر بالفعل زيادة سعر

برميل البترول من (5.032) إلى (11.651) دولار، وشنت وسائل الإعلام الغربية هجوماً على الشاه اتهمته بتخريب الاقتصاد الغربي، بل اقتصاد العالم كله، وصرح الشاه في مؤتمر صحفي بأن السعر الجديد ليس كافياً وأنه معتدل ومعقول، لأن البترول مادة مهمة ويشتق منها ـ آنذاك ـ حوالي سبعين ألف منتج مختلف، وأن سياسة البترول الرخيص سياسة قصيرة النظر، ستؤدي إلى إتلاف مصادر البترول الموجودة، وستجعل العالم يواجه كارثة اقتصادية.

ولم تقف الشركات البترولية الكبرى مكتوفة الأيدي، وسقطت طائرة رئيس شركة "أجيب" البترولية الإيطالية التي عقدت مع إيران معاهدة بترولية ثورية، وأثبتت التحقيقات وجود قنبلة في الطائرة، على الرغم من أن التقرير الرسمي ذكر أن سبب سقوط الطائرة هو: فقدان الرؤية الكافية. وبدأت وسائل الإعلام الدولية هجوماً واسع النطاق ضد إيران والشاه، وشجعت المنظمات الطلابية في الخارج في نشاطها المضاد لإيران والشاه.

وكانت المرحلة الرابعة بداية التحول العميق الذي طرأ على العلاقات الإيرانية الأمريكية في عهد الشاه محمد رضا بهلوي، وبدأت الولايات المتحدة تضيق ذرعاً بسياسة منظمة الأوبك، ووصفت الشاه بأنه أحد صقورها البارزين الذين يمارسون ضغوطهم

على المنظمة لزيادة أسعار البترول، وشجعت مؤسسة حقوق الإنسان العالمية على التنديد بأسلوب تعامل الشاه مع معارضيه السياسيين في الداخل والتصفية الجدية للرموز الوطنية المعارضة في الخارج.

وتواصل الانتقال من الشاه خاصة أنه بدأ صفحة جديدة مع العرب بعد أكتوبر 1973م، وأخذ يدين مواقف إسرائيل وسياستها، ويدافع عن وجهة نظر العرب ومواقفهم. ولهذا السبب كانت إسرائيل أول من عمل على الإطاحة بالشاه، وكان اليهود الإيرانيون أول من استعدوا لذلك بتهريب أموالهم خارج إيران.

وأعلنت شركة الكونسرسيوم تخفيض مشترياتها من البترول الإيراني في عام 1977م بحجة ارتفاع أسعاره، فانخفضت مبيعات إيران البترولية، وأدى انخفاض الدخل المرتقب من البترول في هذا العام إلى توقف موجة رهيبة من الغلاء والتضخم الاقتصادي. وقامت الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية بتحريك المعارضة الإيرانية والطلبة الإيرانيين المقيمين في هذه الدول ضد نظام حكم الشاه. كما اتهمته الولايات المتحدة الأمريكية بتجاهل حقوق الإنسان في إيران.

أما بريطانيا فقد شنت حملة ضد الشاه بإعادة نشر كتاب عن النخبة في إيران للكاتب "مارفن زونيس" الذي ألقى فيه الضوء على حجم المؤسسة الدينية الإيرانية، وعلى الإمام الخميني على وجه الخصوص. كما أتاحت هيئة الإذاعة البريطانية فرصة نادرة لنشر أفكار الخميني، بإذاعة بياناته باللغة الفارسية على الشعب الإيراني من محطتها الموجهة من لندن إلى إيران أثناء وجوده في المنفى في باريس، مما أوحى لرجال الدين الإيراني بأن بريطانيا تؤيد نضالهم ضد الشاه. بالإضافة إلى نشاط أعضاء الجهاز السري البريطاني في الدولة الإيرانية بغرض الإطاحة بنظام الشاه محمد رضا، انتقاماً منه لإلغائه اتفاقية مع الكونسرسيوم.

أما فرنسا التي كانت قد رحبت بالخميني ضيفاً في أراضيها ومنحته حق الإقامة فيها، ليمارس نشاطه ضد الشاه محمد رضا بهلوي، فقد كان الخميني يرسل منها أشرطة (الكاسيت) التي كان يملأها بصوته وبدعوته إلى التمرد والعصيان. كما أن صحيفة "لوموند" الفرنسية نشرت في 1978/5/6م حديثاً أجراه مندوبها مع الخميني عن الديكتاتورية وحرية الصحافة المخنوقة والأحزاب الممنوعة والانتخابات المزورة والدستور المنتهك وموقفه من إسرائيل والعرب

ومن القوى الكبرى في العالم، وعن تبديد الثورة البترولية في تخزين السلاح بغير طائل.

وفيما يتعلق بالاتحاد السوفيتي الذي يشارك إيران في حدود تمتد لمسافة 1500 ميل في شمال البلاد والذي كان يطمع دائماً في الحصول على امتياز بترولي أسوة بالدول الغربية الأخرى، فقد قام بتشجيع الحركات الانفصالية والسياسية المناهضة للحكومة المركزية في طهران، كما عمل على إسقاط بعض الحكومات الإيرانية التي كانت تقف ضد أطماعه. وكان حزب توده الشيوعي عميلاً للسوفييت، وعندما أقدم الدكتور مصدق على تأميم البترول عارض الحزب مشروع التأميم، وقاطع شراء سندات القرض الوطني، كما قاطع الاتحاد السوفيتي شراء بترول إيران وقت الحصار الاقتصادي الذي فرض على إيران آنذاك، على الحصار الاقتصادي الذي فرض على إيران آنذاك، على الرغم من أن الدكتور مصدق عرض بيع البترول الإيراني على الاتحاد السوفيتي بتخفيض مقداره (50%)، وطلب السوفييت الحصول على امتياز للتنقيب عن البترول في شمال إيران. وهكذا وبعد أن كان حلم القياصرة القديم هو الوصول إلى مياه الخليج الدافئة، أصبح حلم الماركسية السيطرة على منابع البترول.

ويشير الشاه محمد رضا بهلوي في مذكراته التي كتبها في المنفى إلى البترول الإيراني وإلى موقف الغرب منه، فيقول: بعد إلغاء اتفاق الكونسرسيوم في 1973/7/31 لم تقبل شركات البترول الكبرى أن تبيع لها الشركة الوطنية الإيرانية البترول بتخفيض يصل إلى 50% بعد أن تقوم هذه الشركات بالتنقيب عن البترول والعثور عليه، ولم تقبل هذه الشركات أن تكبر الشركة الوطنية الإيرانية، وأن تقوم بإنشاء معامل تكرير في آسيا وأفريقيا، وأن تشارك شركة البترول البريطانية في الاستفادة من بترول وغاز بحر الشمال، وأن تنافس الشركات الكبرى مثل: شركة شل وشركة أكسون موبيل.

ويضيف الشاه قائلاً في موضع آخر من مذكراته: لقد كنت أريد أن أبني إيران قبل أن ينتهي الاحتياطي البترولي فيها لكن كان لي معارضون كثيرون حاولوا إفشالي في هذا المجال، وفي مقدمة هؤلاء يمكن ذكر أسماء مجموعة شركات البترول الكبرى التي لم تكن ترغب في أن تخرج سياسة بيع البترول بالسعر العادل من دائرة هيمنتهم. كما أن هذه الشركات لم تكن ترغب في التسليم بضرورة الإقدام على التضحيات اللازمة من أجل توزيع الثروات من جديد بين الدول الصناعية والمجتمعات النامية. لهذا كله اختاروا التضحية بإيران كنموذج يعتبر به، وهبوا لتخريبها، ولم يختاروا بلداً مثل ليبيا.

كما يذكر الشاه في موضع آخر أن شخصيتين أمريكيتين مهمتين تعملان في مجال البترول الأمريكي قالتا في عام 1976م:

إن أمر الشاه سوف ينتهي تماماً بعد عامين.

وعن نفاد الاحتياطي البترولي الإيراني قال الشاه في مذكراته: لقد قلت غير مرة إن مستقبل إيران يجب ألا يكون مرهوناً بالبترول، فبعد حوالي ثلاثين عاماً أخرى (كان يتحدث عن عائدات البترول عام 1977م) حيث سيبلغ عدد سكان إيران (65) مليون نسمة.

سوف تنضب مصادرنا البترولية، لذلك يجب أن نفكر من الآن في هذا الأمر، فالسياسة ليست إلا فن التوقع، لذلك فكرنا في إنشاء محطة كبرى لإنتاج الكهرباء الذرية بالتعاون مع ألمانيا وفرنسا، إن جريمتي إنني أردت أن أخرج إيران من عصر البترول وأدخلها في عصر الذرة في الوقت المناسب، وقبل أن يفوت الأوان.

وذكر الشاه في كتابه، بسوى تمدن بزرك (نحو حضارة عظيمة): أن مصادر بترولنا ومصادر البترول في العالم كله ستنضب في المستقبل القريب، وسواء أردنا أم أبينا، سنصل إلى مرحلة الاستفادة من مصادر الطاقة الأخرى، ولهذا السبب بدأنا في تنفيذ برنامج طموح

من أجل الاستفادة من الطاقة النووية بالإضافة إلى الطاقة الشمسية والطاقة الهيدروجينية.

وإذا كان البترول قد لعب دوراً في الإطاحة بالشاه بعد أن تضافرت جهود القوى الأجنبية ضده لأسباب لعل البترول يكون أهمها وأولها، فإن له دوراً في قيام الثورة في 1979/2/11م بعد أن أدرك الشعب أن الشاه يبدد الثورة البترولية من أجل شراء السلاح وبخاصة بعد الزيادة الكبيرة في أسعار البترول بعد حرب أكتوبر عام 1973م، وهي الزيادة التي مكنت الشاه من شراء أسلحة متنوعة ومتطورة. وكانت قد حدثت اعتصامات واضطرابات في قطاع البترول وغيره من القطاعات والمؤسسات. وقال أحد عمال تكرير البترول لمراسل أمريكي: إننا لن نصدر البترول إلا بعد أن نصدر الشاه شخصياً. وكانت اضطرابات عمال البترول على رأس هذه الاضطرابات وأكثرها تاثيراً، لأن هؤلاء العمال امتنعوا عن تصدير البترول خارج إيران، وحرموا النظام من المصدر الوحيد للدخل. وشكل شاهبور بختيار آخر حكومة قبل نجاح الثورة، وقدم بعض الوعود للمواطنين ومنها: وقف تصدير البترول إلى إسرائيل، إلا أن نطاق معارضة الشاه اتسع.

ولعب البترول دوره في استمرار الثورة الإسلامية، وفي استقرار النظام الجديد، وفي دعم النظام السياسي خلال الحرب العراقية . الإيرانية (1980 – 1988م) على الرغم من أن هذه الحرب استنزفت قدرات وطاقات ظاهرة وكامنة لبلدين من أهم البلدان المنتجة للبترول في المنطقة، وأن منشآت البترول ومعامل التكرير وشبكات الأنابيب تعرضت للقصف خلال فترة الحرب، وكانت تتم إعادة بناء هذه المنشآت وهذه المعامل وهذه الشبكات التي لحقت بها الأضرار نتيجة لعمليات القصف. كما كان البترول وسيلة لخروج إيران من عزلتها السياسية التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية عليها، وكسر الحصار الاقتصادي الذي قادته الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك على الرغم من أن قطاع البترول الإيراني شهد انخفاضاً حاداً في مجالات الاستثمار الأجنبية في بداية الثورة وخلال الحرب العراقية الإيرانية، بسبب زيادة معدل مخاطر الاستثمارات، وتغيير الدستور الإيراني، وما تبعه من تغيير قانون قطاع البترول. كما كان للبترول دور بارز في مرحلة إعادة البناء والتعمير.

أهمية بترول إيران وموقعها:

البترول مادة عالمية حيوية يحتاج إليها الجميع بلا استثناء، وتعد إيران، التي تفاخر بأنها أول دولة أنتجت البترول في الشرق الأوسط، دولة بترولية رئيسية في العالم. وقد أنشئ قطاع البترول في إيران منذ أكثر من مائة عام، ويعد هذا القطاع من أهم وأضخم القطاعات الصناعية في إيران، كما أنه يعد المصدر الرئيسي للعملة الصعبة، والمصدر الذي يغطي نفقات المشروعات المتعلقة بالبنية التحتية والعمران. وصار البترول أحد العوامل المرتبطة بالأزمات والمشكلات التي تعاني منها إيران في الوقت الراهن، ذلك لأن إيران تمتلك ثاني احتياطي بترولي في العالم بعد السعودية (137.5 مليار برميل في نهاية عام 2005م)، كما أنها رابع دولة منتجة للبترول بعد السعودية وروسيا الاتحادية والولايات المتحدة، وهي ثاني أكبر الأعضاء في منظمة الأوبك بعد السعودية. وذكر التقرير السنوي الصادر عن شركة "بريتش بيتروليوم" أن مصادر البترول الإيرانية ستبقى (93) سنة أخرى في حالة المحافظة على معدل الإنتاج الحالي (متوسط إنتاج إيران من البترول الخام في عام 2005م (4) مليون و(49) ألف برميل يومياً)، وان إيران تمتلك 14.9%من احتياطي الغاز العالمي، وهذا يجعلها تحتل المرتبة الثانية بعد روسيا الاتحادية.

وإيران تمتلك مخزوناً هائلاً من الغاز يبلغ (27) تريليون لتر مكعب. والغاز هو المحرك الثاني للاقتصاد الإيراني، وقد أبرمت إيران اتفاقيات لبيع الغاز الطبيعي مع تركيا في عام 1996م، ومع الهند وكوريا وبعض الأسواق الأوروبية. ومن المعروف أن إيران تشجع الآن على استهلاك الغاز داخل البلاد، لأن نفقات إنتاج الغاز أقل بكثير من نفقات إنتاج البترول، وأن استبدال أنواع الوقود الموجودة بالغاز يحافظ على احتياطي البلاد من البترول، ويخفض نسبة التلوث.

والزيادة المضطردة في أسعار البترول سمحت بزيادة عائدات إيران من البترول، مما جعلها قادرة على تمويل طموحها النووي في ظل سباق تسلح نووي في منطقة تعج بالمشكلات السياسية وتحفل بالتهديدات، وفي إطار سعيها الواضح لتعزيز دورها الإقليمي في منطقة الشرق الأوسط، على الرغم من حرص المسئولين الإيرانيين دائماً على التأكيد على ضرورة امتلاك التكنولوجيا النووية وتخصيب اليورانيوم للأغراض السلمية. كما تقوم إيران الآن بتشجيع الاستثمارات الأجنبية في مجال البترول دون أن تفقد حصتها الكبرى، كما تقوم بتنمية وتطوير حقولها البترولية وحقول الغاز الطبيعي. وتخصص جزءاً كبيراً من الغاز الطبيعي المستخرج

من حقل بارس الجنوبي (حقل بترول وغاز مشترك بين إيران وقطر) للاستهلاك المحلي المتزايد، وجزءاً آخر للضخ في الحقول البترولية التي وصلت إلى منتصف عمرها الافتراضي، لأنه من المعروف أن حقن الغاز من الحقول البترولية في فصل الشتاء يحافظ على غزارة إنتاج هذه الحقول.

كما استغلت إيران مشروع "طريق الحرير"، وهو الخط الذي يصل الصين بأوروبا، ويصل الشرق الأوسط والخليج العربي بالمحيط الهندي عبر إيران، ويربط إيران بدول آسيا الوسطى، في كسر الحظر التجاري الذي فرضته الولايات المتحدة عليها.

وكان قد تم افتتاح خط سكك حديدية دولي جديد بين إيران وتركمنستان، وهو خط: مشهد ـ سرخس ـ تجن في **1996/5/14**، وهو الخط الذي سيربط الصين ودول آسيا الوسطى بأوروبا عن طريق إيران، وسوف يحيي طريق الحرير القديم من جديد. كما تم إنشاء خط حديدي آخر، وهو خط: بانق ـ بندر عباس.

كما استطاعت إيران تأمين أسواق آسيوية تصدر إليها بترولها، وتحركت صوب روسيا لإنشاء شركات مشتركة في مجال التنقي عن البترول وإنتاجه.

أما عن أهمية موقع إيران، فإن إيران تعد بمثابة "القلب" في منطقة العبور بين قارات العالم الثلاث (آسيا . أوروبا . أفريقيا)، أي أنها تعد طريق مواصلات رئيسي وطريق لتجارة الترانزيت بين الشمال والجنوب. وبعد تفكك الاتحاد السوفيتي واستقلال دول آسيا الوسطى والقوقاز صارت إيران بمثابة جسر اتصال رابط، واهم وأنسب معبر مائي لكل دول آسيا الوسطى والقوقاز، وذلك بسبب تجاورها الجغرافي لهذه المنطقة. وهذا أعطى ميزة جيوبوليتيكية وجيواستراتيجية لإيران.

وللجزر أبي موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى (الجزر الإماراتية التي تحتلها إيران) أهمية كبرى بالنسبة لإيران من الناحية الجيوبوليتيكية، فهي منافذ بحرية لها أهميتها بالنسبة لإيران. وتعد إيران أرخص وأقصر وأنسب طريق لنقل مصادر الطاقة، ومن هنا تأتي أهمية موقع إيران، وتتمتع إيران بعدد كبير من الموانئ في الخليج وبحر عمان، وموانئ الخليج تعد أقرب مكان لنقل البترول إلى أسواق جنوب شرق آسيا التي تتمتع بأعلى معدلات تنمية في العالم، وتستفيد الدول الحبيسة الواقعة في منطقة بحر قزوين (الخزر) وآسيا الوسطى من هذه الموانئ لنقل بترولها وغازها الطبيعي إلى الأسواق العالمية.

ويعد مضيق هرمز أهم نقاط الخليج، وأي خطر يهدد هذا المضيق، سيكون بمثابة الأزمة المؤثرة في العالم كله، وليس من مصلحة إيران زعزعة استقرار أمن الخليج لأنها تعد من أهم الدول المصدرة للبترول، ولديها أكبر أساطيل للنقل البحري في مجال البترول في العالم، واستقرار الأمن في الخليج يصب في مصلحة إيران وبقية دول المنطقة. ومضيق هرمز .كما هو معلوم. ممر مائي ضيق يصفونه بأنه "عنق زجاجة"، يصل الخليج العربي ببحر عمان، يبلغ طوله 270كم2، وعرضه 47 كم2، ويعد هذا المضيق من أهم المحطات في شبكة نقل البترول في العالم، إذ يمر منه أكثر من 15 مليون برميل بترول يومياً، بالإضافة إلى البضائع الأخرى والغاز السائل والمنتجات البتروكيماوية. وهو بوابة العبور لما يقرب من 40% من البترول الخام المصدر للعالم. وكانت أهمية هذا المضيق سبباً في المحاولات المستمرة من جانب القوى العظمى (الإقليمية والدولية) للسيطرة عليه بدعوى توفير الحماية اللازمة لخطوط البترول.

وسواء ألمحت إيران غير مرة إلى غلق هذا المضيق، مما قد يؤدي إلى عرقلة وتعطيل حركة الملاحة ومرور ناقلات البترول في الخليج، وقطع شرب الطاقة الغربية، إذا تعرضت صادراتها البترولية لأية تهديدات، وألمحت إلى استخدام سلاح البترول ووقف تصديرها له

.كرد فعل انتقامي. إذا هوجمت مصالحها بسبب برنامجها النووي، أو قامت بضرب ناقلات البترول في مياه الخليج على غرار ما حدث في الحرب العراقية ـ الإيرانية، فإنها إذا نفذت هذه التهديدات وأقدمت على هذه الإجراءات، تكون قد "هدمت المعبد على من فيه"، وطبقت مبدأ: "عليَّ وعلى أعدائي"، وسوف تكون هي أو الخاسرين، بالإضافة إلى زعزعة أمن واستقرار واقتصاد واستثمارات دول الخليج وصناعة البترول العالمية، إذ ستضطرب الأسواق وسترتفع الأسعار. وفي المقابل، إذا فرضت المجموعة الدولية عقوبات على القطاع البترولي في إيران، أو إذا تم فرض حصار على المشتقات البترولية، وبخاصة البنزين الذي تستورد إيران حوالي 48% من استهلاكها الإجمالي منه، لتعويض النقص الحاصل لها، أو إذا تم منع تطوير وتنمية حقول البترول، أو إذا أحجمت الشركات البترولية الدولية عن الاستثمار في إيران أو إذا فرض حصار بحري على نقل البترول إلى الخارج، فإن هذا كله سيؤدي إلى رفع الأسعار، وهذا يتعارض مع مصالح دول كبرى لها شركات تتفاوض على عقود مهمة في مجال البترول والغاز.

القسم الثاني (جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة)

الغرب واستراتيجيات التغريب "من وجهة نظر إيرانية"



طهران، إيران. تصوير كيث زهو.

From Https: //Unsplash.com

الغرب واستراتيجيات التغريب

"من وجهة نظر إيرانية"

هذه قراءة متأنية في استراتيجيات الغرب في التغريب بصفة عامة وسياساته تجاه إيران بصفة خاصة، ويذكر حميد رضا يوسفي مؤلف كتاب: شرح سياسات الغرب تجاه إيران في الفصل الأول أن كلمة الغرب المستخدمة في كتابه المقصود بها محور: الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا، وهو المحور الذي يتمتع بسلطات سياسية واقتصادية وعسكرية كبيرة، كما يتمتع بنفوذ كبير في الدول الأوروبية وغير الأوروبية، وهو المحور الذي يتخذ من دول مثل: ألمانيا – إيطاليا – هولندا – كندا – إسرائيل– المملكة العربية السعودية – مصر – الأردن، حلفاءً وجسوراً سياسية، وهو المحور الذي يتصدر المشهد السياسي تحت عنوان: المجتمع الدولي.

ويؤكد المؤلف على أن الغرب يعلن في صراحة أنه من أجل الإطاحة بالحكومات المعارضة له، يخصص ميزانيات، ويصنع المعارضات، ويساند معارضي الدول المعارضة في الداخل ضد النظام الحاكم، ويطلق على حكام هذه الدول في أدبياته السياسية وفي أجهزته الإعلامية والدبلوماسية اسم: "الديكتاتور" و"المستبد"، حتى تكون

هذه الدول خطراً على السلام العالمي، وقامت هذه الدول الثلاث بتشكيل منظمات وآليات ضخمة تديرها بنفسها، من أجل تنفيذ أيديولوجياتها التي تهدف إلى تغريب وتبعية الدول غير الأوروبية تبعية مطلقة. وهذه المنظمات وهذه الآليات هي: منظمة الأمم المتحدة – منظمة التجارة العالمية – صندوق النقد الدولي – البنك الدولي ومجلس الأمن مع حق الفيتو (الاعتراض)، وهي وسائل الضغط التي تسيء هذه الدول الثلاث استخدامها للسيطرة والهيمنة المباشرة وغير المباشرة على العالم. أما الذراع العسكري لهذه المنظمات فهو: حلف شمال الأطلنطي (الناتو)، الذي أسسته وتديره هذه الدول. وعلى سبيل المثال، فإن القوات الأمريكية حاصرت إيران حصاراً كاملاً بإقامة أكثر من ثلاث عشرة قاعدة عسكرية في الدول المجاورة لإيران، ففضلاً عن أوزبكستان – كازاخستان – تاجيكستان – قيرغيزيا، والأساطيل الأمريكية الموجودة في الخليج (الفارسي)، يمكن ذكر أسماء دول مثل: أفغانستان – باكستان – أذربيجان – أرمينيا – جورجيا – تركمنستان – المملكة العربية السعودية – العراق – تركيا. ونظراً لأن الغرب يحكم سيطرته على المنظمات سالفة الذكر، فإنه لا يهتم بالبروتوكولات الدولية التي يضعها بنفسه، وذلك من أجل تحقيق أهدافه وخططه السياسية، ونظراً لأن مقر منظمة الأمم المتحدة

موجود في أمريكا، فإن هذه الدولة مكلفة بإصدار تأشيرات دخول رؤساء دول العالم ومرافقيهم بسرعة وبدون أي تقصير أو تذرع. لكن المسئولين الأمريكيين يمنحون التأشيرات لرؤساء الدول التي تعارض سياساتهم في اللحظات الأخيرة، وبعد ضغوط شتى لأسباب واهية ومختلفة.

ثم يتحدث المؤلف عن أن تبعية وتغريب الدول غير الغربية هي أحد استراتيجيات الغرب التي لها جذور استعمارية عميقة. ويقول إن اصطلاح " التغريب " يضم تحت جناحيه سياسات دول أوروبا الوسطى والولايات المتحدة الأمريكية، وإن دول هذا المحور تهدف إلى أمركة وأوربة العالم كله. فالغرب يرى في نفسه أنه نقطة ارتكاز العلاقات الدولية، وأن معاييره هي الأصل بوصفها المعايير الدولية، وأن تغريب الدول غير الغربية هو أحد أهم أهدافه، وأن عملية التغريب تشتمل على العديد من أبعاد الحياة الجماعية والتنظيمات السياسية والاقتصادية والعلمية التي توجد على رأسها الأفكار والمقاييس الغربية، ففي المجالات السياسية يحدد الغرب "ألفباء".

العلاقات، وفي المجالات الاقتصادية تقول مجموعات الشركات والدول الغربية الكلمة الأخيرة، وفي مجالات التكنولوجيا الغرب هو

الذي ينتج، والدول غير الغربية هي التي تستهلك، وهي التي تصدر المواد الخام بثمن زهيد، وتستورد السلع النفطية بثمن مرتفع.

ثم يتحدث المؤلف عن إيران، ويقول إن إيران واحدة من الدول التي حررت نفسها في السنوات الثلاثين الماضية من التبعية للغرب، وتحملت صدمات شديدة طوال مسيرة استقلالها، وذلك لأنها لم تكن بعد الثورة الإسلامية على استعداد للانصياع لأهداف الغرب وتوصياته المطلقة، وذلك على الرغم من إنه يجب الاعتراف بحقيقة أن ظلال الأفكار الغربية في مجتمعنا غير قابلة للإنكار. وعلى الرغم من ذلك، فإن الضربة التي وجهها الغرب مستخدماً جماعات الضغط في المائة عام الماضية إلى عملية صياغة الأحداث التقدمية في إيران ضربة موجعة للغاية، وكانت اللعبة السياسية التي لعبتها بريطانيا وروسيا لمواجهة الثورة الدستورية (1906- 1909م)، والقضاء على بدايات الفكر ومضامين الديمقراطية في إيران، جزءاً من ملف السياسة المزدوجة للغرب وروسيا تجاه إيران. والغرب اليوم يتحرك في اتجاه نفس السياسة المُفرقة المُخربة، وعزلت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا محمد مصدق بعد تأميم صناعة النفط في إيران بمساعدتهما نظام الشاه الغربي، وهكذا تمت التضحية – للمرة الثانية – بعملية الديمقراطية في إيران في خمسينيات القرن

الماضي. وبعد أن استيقظ الشعب الإيراني مرة أخرى أثناء تيار الثورة الإسلامية والإطاحة بنظام الشاه التابع للغرب، دخلت الظروف الإقليمية وعلاقات الغرب بإيران مرحلة جديدة، وثار الشعب ضد التبعية المطلقة، ولخص شعاره المحوري في عبارة: (لا شرقية ولا غربية، جمهورية إسلامية). ونظراً لأن الإمام الخميني (1979 – 1989م) لم يكن مستعداً لارتداء عباءة التبعية والإذعان للسياسات المهيمنة على العالم، اتخذ الغرب استراتيجية جديدة لتركيع إيران وشعبها، وفرض على إيران في عام (1980م) حرباً استمرت ثماني سنوات، بدأها عميلها صدام حسين – الذي قُتل على أيديهم فيما بعد – تحت شعار: " عدو عدوي صديقي "، مما كبد إيران خسائر قُدرت بالمليارات، وحوالي مليون قتيل ومعوق، وهي الحرب التي حصل أحد مهندسيها وهو الرئيس الأمريكي "جيمي كارتر" على جائزة نوبل للسلام، ومن استراتيجيات الغرب المثيرة للأزمات الأخرى: إيجاد قلاقل وإضرابات عن طريق أجهزة إعلامه، وإيجاد اختلافات بين الأحزاب المختلفة، وتسييس البرنامج النووي الإيراني، فالبرنامج النووي الإيراني ولعبة القط والفار التي يلعبها الغرب وروسيا يثبتان أن سياسة هذين القطبين تجاه إيران ليست ثابتة، ولم تكن ثابتة في أي وقت من الأوقات. ولا نكن مبالغين إذا قلنا إن صداقة الروس لإيران كانت دائماً صداقة

الجاهل أو صداقة ضارة، وإن سياسة الغرب المزدوجة كانت دائماً تجلب لإيران مشكلات عديدة، فالغرب وروسيا استفادا لسنوات طويلة من ورقة إيران في اللعب مع بعضهما البعض، وبعد حصولهما على الحد الأقصى من الامتيازات من بعضهما البعض كانا يصوتان ضد إيران. وقد أثبتت روسيا بتأخرها في تشغيل مفاعل "بوشهر" أنها لم ولن تكن حليفاً يمكن أن تعتمد عليه إيران وتثق به. ومن الممكن أن تكون سياسة روسيا تجاه إيران بعد التشغيل الوشيك لمفاعل "بوشهر" سياسة قابلة للتوقع ومطمئنة، وبناء على هذا يجب ألا نضع بيضنا كله في سله واحدة.

هذا ويوجد طريقان للنجاة وتجاوز هذه الأزمة الخطيرة والشديدة: إما الانصياع لرغبات الغرب والألاعيب والصراعات السياسية الروسية، أو التحرك صوب الاكتفاء الذاتي. ومن البديهي أن إيران اختارت الطريق الثاني، وهو طريق مشروع ومنطقي.

الآلية التي يستخدمها الغرب لتكريس تبعية الدول غير الغربية له، وتأثير هذه الدول ثقافياً بالغرب:

يتبع الغرب سياسة الإحلال الثقافي، ولعل أوضح مثال على ذلك: ما فعلته بريطانيا في الهند عندما أرسلت سفينة محملة بمؤلفات كتاب

الغرب البارزين وبخاصة الكُتَّاب البريطانيين إلى الهند، ونقلت المخطوطات الهندية القديمة إلى إنجلترا، وذلك لتفريغ الثقافة الهندية القديمة من الداخل، وكذلك قام المستشرقون في الغرب بترجمة ونقد المؤلفات المتعلقة بالتاريخ الإيراني القديم، وقاموا بعمل أبحاث ودراسات عن الآثار الإيرانية، وعرضوا علينا تاريخ إيران في مؤلفاتهم بالشكل الذي يريدونه هم، ولهذا السبب لم يرد أي ذكر للمؤرخين الإيرانيين في مؤلفاتهم، ولم ولن يهتموا بنتائج أبحاث هؤلاء المؤرخين ودراساتهم.

ويمكن تقسيم استراتيجية التغريب إلى خمس استراتيجيات متشابكة:

(1) الاستراتيجية السياسية: وهدفها جمع وتنظيم الهيئات السياسية المختلفة من أجل التدخل السافر في السياسات الداخلية والخارجية للدول. والهدف الأساسي لهذه الاستراتيجيات هو: نشر الأفكار والمعايير الثقافية الغربية عن طريق روافد مختلفة.

(2) الاستراتيجية الاجتماعية: حيث يحاول الغرب الترغيب في نوع الملابس وفي تغريب السلوك الاجتماعي وأسلوب التحدث، مع استخدام الاصطلاحات الغربية عن طريق القنوات المختلفة

(الإذاعة والتليفزيون والإنترنت) ، فقنوات الإنترنت وأجهزة الإعلام تستخدم الآن في تلويث السمعة وإيجاد الفوضى في الدول غير الغربية. وتوجد الآن أكثر من (65) قناة فضائية ناطقة بالفارسية في الغرب تهاجم إيران ثقافياً وإعلامياً من زوايا مختلفة.

(3) الاستراتيجية العلمية: فالغرب ينشر بذور معاييره وأفكاره في هيئات المجتمع ومؤسساته المختلفة عن طريق نشر العلوم الإنسانية، وذلك لتطبيق سياساته وممارسة نفوذه على نطاق واسع. ويعمق الغرب ركائز نفوذه في المجتمعات غير الغربية بالترويج للعلوم الإنسانية والإيحاء بأن الإنسان الغربي والفكر الغربي هو الأعلى والأفضل.

(4) الاستراتيجية الاقتصادية: حيث إن التبعية التي تمثل الاستراتيجية الاقتصادية إحدى ركائزها الرئيسية هي استهلاكية المجتمع. ويمكن مشاهدة القبض والبسط الاقتصادي بصورة ملموسة في جميع الدول الإسلامية التي تمتلك حقول نفط وغاز.

(5) الاستراتيجية العسكرية: حيث يفرض الغرب أجهزته العسكرية مستخدماً قنوات مختلفة على الدول التي وقعت في حبائل الاستراتيجيات السياسية والاجتماعية والعلمية

والاقتصادية، وهو يضمن نفوذه وهيمنته لمدة طويلة، وهذا ينطبق على دول إسلامية وأفريقية وعلى أمريكا اللاتينية، وهي الدول التي تقبل نهج "التغريب" وتودع الفكر عملياً، وقد شاهدنا في عام 2009م أن جورج دبليو بوش – الرئيس الأمريكي السابق – باع أسلحة للحكومات العميلة لأمريكا في منطقة الشرق الأوسط بما تزيد قيمته عن (30) مليار دولار بذريعة خطورة البرنامج النووي الإيراني على الشرق الأوسط والعالم كله، كما أن الغرب يفرض عقوبات جماعية على الدول المعارضة له، وتعد إيران مثالاً بارزاً على هذه العقوبات، فنظراً لأن إيران لم تكن مستعدة لمواصلة سياسة التبعية للغرب بعد قيام الثورة الإسلامية في عام 1979م، فقد وصفها الغرب بأنها دولة مارقة، وقرر إجبارها على الانصياع والإذعان لسياساته عن طريق المقاطعة وفرض العقوبات الشديدة عليها، وهي مقاطعة سياسية واقتصادية وعسكرية وعلمية، أما المقاطعة السياسية فتتمثل في قطع العلاقات الدبلوماسية الغربية عن طريق حث الدول العميلة للغرب لكي تكون محاور ضغط جانبي على الدول المعارضة. والهدف من هذه الاستراتيجية هو تهميش وعزل المعارضين على المستوى الدولي، وهذا ملموس في علاقات الغرب مع العديد من الدول الأفريقية والآسيوية والشرقية وأمريكا اللاتينية.

وقد صور الغرب الرئيس أحمدي نجاد على أنه ينكر وجود إسرائيل ويكره اليهود، وأن إيران تصنع القنبلة الذرية للقضاء على إسرائيل، وقالوا إن هذا هو سبب الضغط على إيران وفرض العقوبات الجماعية عليها. ويستفيد الغرب من الصحفيين لضخ أفكاره ونظرياته في الرأي العام وفي إظهار خطورة الدول المعارضة. والصحف الغربية تصور الرئيس نجاد على أنه ديكتاتور وظالم، وأن المجتمع الإيراني تسيطر عليه أفكار القرون الوسطى. كما أن الغرب يستفيد من عملائه في داخل إيران للضغط على إيران، وهو يبث برامج إذاعية وتليفزيونية ويعقد ندوات يشارك فيها منظروه وخبراؤه أو يجري أحاديث مختلفة مع الإيرانيين المقيمين والمهاجرين المرتبطين بالمنادين بعودة الملكية وبمنظمة مجاهدي خلق والعمال والأقليات والأغلبية وجماعات سياسية أخرى، وكل جماعة من هذه الجماعات تعتبر نفسها هي الجماعة الوحيدة التي تسير في طريق الحق، ويتسابق أفراد هذه الجماعات في استخدام أجهزة الإعلام الغربية في معارضتهم لإيران ولأهداف الحكومة السياسية.

وقامت الجماعات سالفة الذكر بتقديم وثائق ومستندات إلى الدول الغربية لسنوات طويلة تفيد أن إيران تنتج أسلحة كيماوية، وتصنع قنبلة ذرية تمثل خطراً على العالم وعلى الشرق الأوسط، ووصفت

الجيش وقوات البسيج (التعبئة) في العشرين عاماً الماضية بأنهما من المنظمات الإرهابية الإجرامية، وأنهما يشعلان النيران، ويقطعان رقاب المعارضين، ويسرقان وينهبان، وقد أقتفي السياسيون والصحفيون في الغرب أثر هذه الجماعات، وقدما هذه الادعاءات إلى الرأي العام العالمي بروح عدائية، وذلك على الرغم من أنه لولا الجيش وقوات البسيج لاحتل صدام حسين إيران مثلما أحتل الكويت، ولحدث لإيران مثلما حدث للعراق وأفغانستان، حيث قام الجنود الأمريكان بتعيين الحكومة ووضعوا القانون.

الخلاصة أن جميع الصحف الغربية وأجهزة الإعلام الإيرانية الفعالة سياسياً خارج إيران تردد في صوت واحد أن السياسيين الإيرانيين كذابون، وأن أفراد الجيش وقوات البسيج مجرمون، والأجهزة القانونية والتنفيذية والقضائية في إيران فاسدة، وعلماء الدين كذابون ولا يهتمون إلا بملء جيوبهم، والنظام يسقط وينهار، فلا تستمعوا إلى الحقيقة إلا منا. والغرب يُظهر أن تغيير النظام في إيران ضرورة ملحة، وهو يستند في ذلك إلى الوثائق التي تقدمها هذه الجماعات، وهذا الأسلوب المُحرف وتلويث السمعة هذا تقوم به الفضائيات ومواقع الإنترنت الكبرى عن طريق إعداد وتركيب الصور والشعارات المحورية ويمكن مشاهدة ذلك في الإذاعات

الناطقة بالفارسية مثل: الـ بي بي سي وصوت ألمانيا وصوت أمريكا وإذاعة إسرائيل، وفي جريدة نيمروز (منتصف النهار)، وجريدة كيهان التي تطبع في لندن وغيرها من الإصدارات التي تعتبر نفسها مرجع الشعب الإيراني، وهذه الإصدارات تطبع على نفقة الدول سالفة الذكر. ومن سياسات أجهزة الإعلام هذه: اختلاق الأخبار السلبية وإظهار عدم مشروعية الحكومة، واستبداد السياسيين وديكتاتوريتهم. وهذه الإصدارات الفارسية التي تصدر خارج إيران لا تزال تمتدح سياسات وأفكار وأعمال الغرب تجاه الدول غير الغربية وبخاصة دول إيران. ومشكلة أجهزة الإعلام هذه أنها تفرض على القارئ صورة ذات بُعد واحد، وأنها تضلله، فالغرب طوال الثلاثين عاماً الماضية صور النظام الإيراني بأنه في حالة سقوط، وأن النخبة في هذا النظام في حالة انهيار وفرار، وأن النظام الحاكم يتعقب الأقليات الدينية ويعدمها.

ومن تصاريف القدر أن إيران – على الرغم من مقاطعات الغرب التي استمرت ثلاثين عاماً ومساعدات " عابدي إيران " المستمرة – وصلت إلى أعلى درجات التكنولوجيا في مجالات: إقامة الجسور والأنفاق وصناعة السيارات وبناء السفن وإنتاج الأفلام، والصناعات الخفيفة والثقيلة، والميكروإلكترونيك، والفضاء الجوي،

والأنظمة الدفاعية والنانوتكنولوجي، والطاقة الحديثة، وصناعة الأدوية، والخلايا الأساسية، وهي نجاحات تكتمها أجهزة الإعلام، ويكتمها السياسيون في الغرب، وهم على دراية تامة بها.

كما أن الغرب الذي يمارس ضغوطه من كل جانب وبصفة مستمرة على إيران من الخارج إلى داخل المجتمع، يحاول جذب النخبة التي بوسعها أن تمارس الضغط من الداخل، ومن الممكن أن يكون هؤلاء الأفراد شخصيات سياسية أو علماء أو منظمات حقوق الإنسان. وعلى سبيل المثال: تقوم الصحف وأنظمة الدعاية الغربية بوصف منظرين من أمثال: عبد الكريم سروش – محمد مجتهد الشبستري – محسن كديور – حسن يوسفي أشكوري بأنهم معارضون أشداء للنظام في إيران، وبأنهم يرغبون في إسلام آخر. والواقع أن هؤلاء المفكرين الأربعة وكثير غيرهم من المفكرين في إيران يهدفون إلى الإصلاح، وعلى هؤلاء العلماء أن يعلنوا عن مواقفهم بشكل صريح، وأن يتبرؤوا من وجهات نظر الغرب ومن دعمه لهم.

ثم يتحدث المؤلف عن جائزة نوبل، وعن أن الغرب يشتري في العديد من المواقف الشخصيات السياسية وشبه السياسية بشكل مباشر أو غير مباشر بإهدائهم جائزة نوبل، ويقول إنه بعد دراسة تاريخ هذه الجائزة، يتضح أنه كان لها ولا يزال طابع سياسي في كثير

من المواقف، لأن هذه الجائزة تُمنح للباحثين والأدباء والسياسيين الأوروبيين والأمريكيين أو إلى الأفراد غير الغربيين الذين ينفذون بدقة سياسات الغرب في دولهم. وفي إيران يحول الغرب عن طريق أداة حقوق الإنسان أن يخلق المجال المناسب لممارسة الضغط على إيران، كما أنه يقوم بجذب نخب الدول المعارضة، وذلك بأن يقترح عليهم منحهم البطاقة الخضراء (في الولايات المتحدة الأمريكية) أو البطاقة الزرقاء في أوروبا (مؤخراً)، كما أنه يستقبل المعارضة الخاصة بالدول غير الغربية في بلاده، ويقف إلى جانبهم باسم حقوق الإنسان وحرية الرأي. ونحن نري أن العديد من النخب الإيرانية والصينية والفيتنامية والأفريقية ونخبة أمريكا اللاتينية يتقلدون وظائف في مراكز الدراسات والبحوث الأمريكية والأوروبية. وتسمي هذه السياسة سياسة "خطف النخبة"، وهي تثبت عدم حسن النية في سلوك وأفعال وظنون الغرب تجاه دول مثل إيران.

ولقد رأينا ماذا فعلت الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان، وكيف ديست حقوق الإنسان بالأقدام بعد احتلالهما بحجة دمقرطة هذين البلدين، ورأينا الجرائم العسكرية التي ارتكبت فيهما، ورأينا السجون المتعددة الموجودة في هذين البلدين، ورأينا معتقل "جوانتانامو" في أراضي كوبا المحتلة، وهو المعتقل التي تطبق

فيه قوانين العصر الحجري، ورأينا أن الغرب يعتقد أن تواجده في أفغانستان والعراق ضروري من أجل صيانة الحريات والحيلولة دون ارتكاب عمليات إرهابية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

إن المقاطعة الاقتصادية تهدف إلى إيجاد تضخم وبطالة وفقر مدقع، وإلى ثورة المواطنين في النهاية ضد الحكومات التي تتصدي لأيديولوجية الغرب. وهدف الغرب من هذه المقاطعة الجماعية التي تمارس ضد إيران هو اندلاع ثورة وتغيير النظام الحاكم، والجدير بالتأمل هنا أن الغرب يشن هجوماً على الدولة التي تتعامل اقتصادياً أو في أي مجال آخر مع دول فُرضت عليها عقوبات مثل إيران بدون الحصول على موافقة الغرب الذي يعتبر نفسه البوليس الدولي.

الجميع يعلم اليوم أن الغرب يتبع سياسة الكيل بمكيالين تجاه الدول المعارضة له، وأنه يقوم بأي عمل لكي ينزع خطورة أعدائه، من الخداع بالوعود المبالغ فيها، وحتى المقاطعة الجماعية والهجوم العسكري ونشر الشائعات والأخبار التي تسبب أزمات. ومما لا شك فيه أن سياسة الكيل بمكيالين التي يتبعها الغرب توجه ضربات ساحقة إلى حوار الحضارات وإلى العلاقات الدولية.

والجميع يعلم أن الغرب يطبق باستمرار سياسة العصا والجزرة من أجل إيقاف البرنامج النووي الإيراني، وأنه يعتبر إيران أحد الموانع الرئيسية التي تواجه تنفيذ أهداف سياساته في الشرق الأوسط، ولهذا السبب، فإن أي عمل تقوم به إيران، يعتبره الغرب عملاً استفزازياً وغير صحيح. والغرب يعتبر ادعاء صنع قنبلة ذرية في إيران دليلاً كافياً لممارسة الضغط الشديد على إيران، ومن هذا المنطلق يعترض بشدة على أي تقنية تكون خارجة عن نطاق سيطرة الغرب، ولهذا السبب سيس الغرب البرنامج النووي الإيراني، في حين أن المؤسسة الوحيدة المنوط بها بحث الملف النووي الإيراني هي: الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وهذه الوكالة أداة من أدوات منظمة الأمم المتحدة التي هي – في الأساس – تحت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكية والقوي العظمي، ووجود أفراد مثل محمد البرادعي الذي حصل على جائزة نوبل للسلام في ليلة وضحاها نظراً لتنفيذه أوامر الغرب، دليل على أن الغرب بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية يملي تقارير هذه الوكالة. ولو أن إيران اليوم انصاعت وأذعنت لإرادة الغرب، وسلمت مفاتيح البلاد وسياستها الداخلية والخارجية للغرب مثلما فعل الشاه محمد رضا بهلوي (1941 – 1979م) لحُلت جميع مشكلات إيران في ليلة وضحاها، ونظراً لأن إيران لن تنصاع لهذه السياسة، سيواصل

الغرب سياسة الإطاحة بها، مستخدماً أيديولوجية الضغوط السياسية والاجتماعية والصحفية والعلمية والاقتصادية والعسكرية، متذرعاً بحصول إيران على الأسلحة الذرية، وبمقولة محو إسرائيل، وذريعة مساندة الإرهاب الدولي.

إذا تحملت الدول المعاقبة المقاطعة، وقامت بتطوير نفسها علمياً وتكنولوجياً من أجل تقدم مجتمعها واستقلاله، يضع الغرب العراقيل في طريقها، ويعرقل جميع مشروعاتها يؤجلها، عن طريق إيجاد الحيل وتجميد أرصدتها في البنوك.

ويقول المؤلف في خاتمة الكتاب إن الغرب ليس بوسعه أن يمد يده بخضوع نحو إيران، وأن يسمي ذلك حواراً، وتشكل أيديولوجية العصا والجزرة القاعدة الأساسية لهذه السياسة، وهي سياسة مرفوضة تماماً. لكن إذا طرحنا هذا السؤال في النهاية: لماذا لا تفتح إيران أبواب المجتمع الإيراني في وجه الغرب؟ فإننا نقول: إن الدولة التي تحاصرها أكثر من (13) قاعدة عسكرية أمريكية. وقوطعت مقاطعة اقتصادية وسياسية وعسكرية وعلمية من جانب الغرب أكثر من ثلاثين عاماً، لا يمكن ولا يجب أن تفتح أبوابها ونوافذها في وجه ضيوف غير مرغوب فيهم، فهذا العمل يحتاج إلى بناء ثقة جديد. وبناء على هذا، فإن علاقة الغرب مع إيران من الممكن أن

تستأنف، إذا أعاد الغرب النظر في سلوكه وأفعاله وأفكاره تجاه إيران، وأن يغير سياساته بشكل جذري. اليوم يسير كل شيء في اتجاه العولمة، لذا فإن اللجوء إلى مباحثات متكافئة يعد مبدأ لا يمكن تجاهله، وهذا هو الطريق الوحيد الذي يمكن الوصول عن طريقة إلى قواعد وفرص جديدة في اللعبة الدولية، واتخاذ أساليب حل بناءة وناجحة.

المراجع

مراجع الفصل الأول:

- گفتارهايي درباره جامعه شناسى هويت درايران (مقالات عن علم اجتماع الهُوية في إيران) – به كوشش حسين گودرزى – تهران – 1384 هـ.ش (2005م) (مقدمه الكتاب والفصلين الأول والثامن).

مراجع الفصل الثاني:

- مباني هُويَّت ايراني: دكتر قدير نصرى – تهران – 1387هـ.ش (2008م).

مراجع الفصل الثالث:

- مباني هويت إيراني: دكتور / قدير نصرى – تهران – 1387 هـ.ش.
- النوروز وأثره في الأدب العربي: دكتور / فؤاد الصياد – بيروت 1972م.

مراجع الفصل الرابع:

- علي شريعتي: چاپ أول – تهران – 1361 هـ.ش.
- گفتارهايي درباره جامعه شناسى هويت در إيران – به كوشش حسين گودرزى – تهران – 1384 هـ. ش.
- مبانى هويت ايرانى: قدير نصرى – تهران – 1387 هـ. ش.

مراجع الفصل الخامس:

- درآمدي برفرهنگ وهويت ايراني: به كوشش مريم صنيع إجلال – چاپ اول – 1384 هـ.ش – تهران.
- فرهنگ معين: محمد معين – 1363 هـ. ش – تهران.
- گفتارهايي در باره هويت ملي در إيران: گردآوري وتدوين: داود مير محمدي – چاپ اول – 1383هـ. ش – تهران.

مراجع الفصل السادس:

- درآمدي برفرهنگ وهويت ايراني: به كوشش: مريم صنيع اجلال چاپ اول – تهران – 1384 هـ.ش.
- گفتارهايي درباره هويت ملي در ايران: گردآوري وتدوين داود مير محمدي – چاپ أول – تهران – 1383 هـ.ش.

• مباني هويت ايراني: دكتر / قدير نصري – چاپ أول – تهران – 1387 هـ.ش.

مراجع الفصل السابع:

• درآمدى برفرهنگ وهويت ايرانى: به كوشش مريم صنيع اجلال – چاپ اول – تهران – 1384 هـ.ش.
• اللغة الفارسية والتحديات المستقبلية: أسامة فتح الباب – العدد 41 – يناير 2007م – مجلة كلية اللغات والترجمة.
• قضايا عصرية: رؤية معلوماتية: نبيل على – القاهرة – 2006م.
• گفتارهايي درباره هويت ملى درايران: داود مير محمدى – تهران – چاپ اول – 1383 هـ.ش.
• مباني هويت ايرانى – دكتر/ قدير نصرى – چاپ اول – تهران – 1387 هـ.ش

مراجع الفصل الثامن:

• تيارات ثقافية بين العرب والفرس: أحمد محمد الحوفي – ط 3 – القاهرة – 1978م.
• السماع عند العرب والفرس: إسعاد عبد الهادي قنديل – ط 1 – القاهرة – 1980م.

- شناخت فرهنگ اقوام ایران زمین: پژوهش ونگارش: حمید عامریان – چاپ چهارم – تهران – 1392 هـ. ش.
- مبانی هویت ایرانی: دکتر قدیر نصری – چاپ اول – تهران – 1387 هـ. ش.

مراجع الفصل التاسع:

- إيران الحائرة بين الشمولية والديمقراطية: يوسف عزيزي – الطبعة الأولى – بيروت – 2001م.
- إيران ماضيها وحاضرها: دكتور عبدالمنعم حسنين – القاهرة – 1958م.
- جريدة الأهرام – 2010/11/21م.
- جوانب من الثقافة الإيرانية: دكتور محمد نورالدين عبد النعيم – القاهرة – 2007م.
- كتاب إيران: الطبيعة تعانق التاريخ – نشر: منظمة التراث الثقافي والسياحي – بدون تاريخ.
- مبانی هویت ایرانی: قدیر نصری – تهران – 1387 ش.
- مجلة تماشا – 11 شهريور – 1357 ش.
- مجلة مختارات إيرانية – السنة العاشرة – العدد 135 – أكتوبر 2011م.

مراجع الفصل العاشر:

- درآمدی برفرهنگ وهویت ایرانی: به کوشش: مریم صنیع اجلال – چاپ اول – تهران – 1384هـ. ش.
- گفتارهایی درباره هویت ملی ایران: گردآوری وتدوین: داود میر محمدي – تهران – 1383هـ. ش.
- مباني هويت ايراني: تأليف: قدير نصيرى – تهران – 1387 هـ. ش.

مراجع فصل تاريخ الجمهورية في إيران:

- أبو الحسن بني صدر (أحاديث وخطب الخميني قبيل وبعيد الثورة).
- انقلاب إسلامي إيران در دائرة المعارف هاي جهان، تهران، 1379هـ.ش.
- بين التاج والعمامة: أحمد مهابة، ط1، القاهرة، 1989م.
- باسخ به تاريخ (الرد على التاريخ): محمد رضا بهلوي (مذكرات الشاه).
- تاريخ بيست سالة إيران، جلد دوم، مقدمات تغيير سلطنت، تأليف: حسين مكي، تهران، 1359هـ.ش.

- تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (**1906 – 1979**): د/ آمال السبكي، الكويت، **1999**م.
- تاريخ معاصر إيران، تهران، **1364**هـ.ش.
- رضا شاه بهلوي: أحمد محمود الساداتي، القاهرة، **1939**م.
- خاطرات وتأملات مصدق بقلم دكتور محمد مصدق، تهران، **1365**هـ.ش.
- مجلة مختارات إيرانية: الأعداد **26 – 27**.
- النظرية السياسية المعاصرة للشيعة الإمامية الاثنا عشرية، محمد عبد الكريم عتوم، ط**1**، الأردن، **1988**م.

مراجع فصل المؤسسة الدينية في إيران:

- إبراهيم الدسوقي شتا: الثورة الإسلامية ـ الجذور الأيديولوجية ـ ط2 ـ القاهرة ـ **1988**م.
- حميد عنايت: الفكر السياسي الإسلامي المعاصر ـ ترجمه من الفارسية الدكتور/ إبراهيم الدسوقي شتا ـ القاهرة ـ **1988**م.
- محمد السعيد عبد المؤمن (دكتور): إيران وآفاق المستقبل ـ القاهرة ـ **1996**م.
- فهمي هويدي: إيران من الداخل ـ ط3 ـ القاهرة ـ **1988**م.

- كمال مظهر أحمد: دراسات في تاريخ إيران المعاصر . بغداد . 1985م.
- محمد عبد الكريم عتوم: النظرية السياسية المعاصرة للشيعة الإمامية الاثني عشرية . ط1 . الأردن . 1988م.
- تاريخ معاصر إيران: تهران 1364هـ. ش/ 1985م.
- كتب الإمام الخميني: كشف الأسرار . جهاد النفس أو الجهاد الأكبر . الحكومة الإسلامية.
- غلا معلى حداد عادل: دانشي اجتماعي . تهران 1366هـ، ش.
- عقيقي بخشايشي: مجلة درسهائي أز مكتب اسلام . شماره 12 – 1359هـ،ش. وشماره 1 – 1360 هـ،ش (1981م).
- الصحف الإيرانية: اطلاعات . كيهان . جمهوري إسلامي . الصادرة في الأعوام: 1994/ 1995/ 1996م.
- قضايا إيرانية (المستجدات السياسية والعلاقات الخارجية) . العدد . 2006م . مقال رسالة النظام الإيراني إلى العالم . إعداد أ.د. محمد السعيد عبد المؤمن . ص93.

مراجع فصل الجمهورية الإسلامية الإيرانية والمهدوية:

- بصيرت وانتظار فرج، للكاتب الإيراني: أصغر طاهر زاده – چاپ دوم – 1391هـ. ش 2012)م) – أصفهان.

- مراجع فصل تأثير ثقافة المهدوية على القوات المسلحة
- قيام مهدي منتظر ما ست: دكتور سيد حسن فيروزآبادي – چاپ دوم – آبان 1388هـ. ش (2009م) – تهران.

مراجع فصل قراءة في صلاة الجمعة في إيران بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً على إقامتها:

- إيران من الداخل: فهمي هويدي. ط3. القاهرة. 1988م.
- جمعة وغاز يا جهادهفتكي: آيت الله سيد عبد الحسين (ستغيب. شيراز. جاب دوم 1363هـ.ق)
- الرسائل الفقهية للفقهاء الإيرانيين قبل الثورة وبعدها.
- الفقه السياسي في إيران وأبعاده: محمد السعيد عبد المؤمن. ط1. القاهرة. 1989م

مراجع فصل المساجد والأضرحة الإيرانية (ضريح السيدة المعصومة نموذجاً):

- إيران من الداخل: فهمي هويدي – ط3 / 1988م – القاهرة.
- شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).
- مباني هويت ايراني: دكتر قدير نصري – تهران – 1387هـ. ش.
- مجلة هنر ومردم – شمارة 135 – ديماه – 1352 هـ.ش.

مراجع فصل بماذا يُقْسِم الإيرانيون؟:

- تاريخ زبان فارسي: پرويز ناتل خانلري – جلد اول – چاپ ششم – تهران – 1354 هـ.ش
- تحرير الوسيلة – آية الله الخميني – الجزء الثاني – بدون تاريخ.
- سوگند در زبان وادب فارسي: دكتر/ حسين كياني – تهران– 1371 هـ.ش.
- الكتاب المقدس – سفر العدد – الإصحاح الخامس.
- مزد يسنا وتأثير آن در ادبيات پارسي – محمد معين – تهران 1326هـ.ش.
- هنر ومردم – شماره 83 – 1348 هـ.ش.
- يكي بود ويكي نبود: محمد على جمالزاده – تهران.

مراجع فصل المكانة الدينية والسياسية لبعض الشهور في إيران قبل الثورة وبعدها:

- أحزان عاشورا: د/ إبراهيم المغازي – القاهرة – 1990م.
- انقلاب إسلامي إيران در دائرة المعارف هاى جهان – زير نظر: دكتور محسن مدير شانه جى – تهران – 1379 هـ.ش.

- تاريخ معاصر إيران – كروه تاريخ دفتر تحقيقات وبرنامه ريزى وتأليف كتب درسى – 1364 هـ.ش.
- جوانب من الثقافة الإيرانية: دكتور/ محمد نور الدين عبدالمنعم – القاهرة – 2007م.
- دانش اجتماعي: غلا معلى حداد عادل – وزارت آموزش وبرورش – 1366 هـ.ش.
- روزنامه اطلاعات: 13 بهمن 1379 هـ.ش (1 – 2 – 2001م).

مراجع فصل الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً في الجمهورية الإسلامية الإيرانية:

- الأدب الفارسي عند يهود إيران ت جمع وتحقيق: أمنون نتضر ترجمة: د/ محمد نور الدين عبد المنعم القاهرة. 2000م.
- الدستور الإيراني.
- اقليتهاي مذهبي وجمهوري إسلامي إيران: يحيى داود عباس. 1990م.
- القوميات والأقليات الدينية في إيران (دراسة تاريخية) د/ إبراهيم المغازي. القاهرة. 1992م.

- إيران: حسن محمد جوهر . محمد مرسي أبو الليل، القاهرة 1969م.
- سرزمين ومردم إيران: عبد الحسين سعيديان . 1378هـ. ش . طهران.

مراجع الفصل صلات إيران القديمة بمدن آسيا الوسطى (سمرقند نموذجاً):

- تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها: الدكتور/ أحمد محمود الساداتي – القاهرة – 1979م.
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى: ترجمه عن التركية: الدكتور/ أحمد السعيد سليمان – القاهرة – 1958م.
- الإسلام في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي: دكتور/ حسن أحمد محمود – القاهرة – 1972م.
- أضواء على تاريخ توران (تركستان): – السيد عبد المؤمن السيد أكرم – مكة المكرمة – 1399هـ.
- تاريخ بخارى: آرمينيوس فامبرى – ترجمة الدكتور / أحمد محمود الساداتي – القاهرة – 1965م
- حافظ شيرازي (ديوان): باهتمام محمد قزويني ودكتور / قاسم غنى تهران – 1320هـ. ش.

- مقالات وبررسيها: دفتر 25، 26 / 1396هـ - 1976 - تهران - مقالة دكتور / أحمد رنجبر.

مراجع فصل جزيرة كيش الإيرانية:

- تنگهء هرمز (مضيق هرمز): غلامرضا زعيمى - سلسلة: ماذا أعرف عن إيران؟ / 23 - چاپ دوم - 1383 هـ.ش.
- جزيرهء قِشم: على بلوكباشى - سلسلة: ماذا أعرف عن إيران؟/ 2 - چاپ دوم - 1385 هـ.ش.
- شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) - موقع: روسيا اليوم.
- عدد من كتيبات الدعاية الخاصة بجزيرة كيش.
- گلستان: سعدى الشيرازى - بكوشش: دكتر/ خليل خطيب رهبر - تهران - 1348 هـ.ش.

مصادر ومراجع فصل البترول في إيران:

- إيران بين التاج والعمامة. أحمد مهابة. القاهرة. 1989م.
- إسلام أون لاين. 2006/2/9. قطب العربي: هل تصمد إيران أمام الحصار المتوقع؟ أ.د/محمد السعيد عبد المؤمن. 2002/4/11: النفط والإصلاح السياسي في إيران.
- جريدة الأهرام: صفحة الوجه الآخر. الأحد 28 يناير 2007م.

- باسخ به تاريخ: الرد على التاريخ (مذكرات الشاه محمد رضا بهلوي في المنفى).
- تاريخ إيران السياسي بين ثورتين . د/آمال السبكي . الكويت 1999م.
- تاريخ إيران السياسي في القرن العشرين . د/عبد السلام فهمي . القاهرة 1973م.
- خاطرات وتأملات مصدق . الدكتور/محمد مصدق . الطبعة الثانية . 1986م.
- مجلة مختارات إيرانية . الأعداد: (77 – 73 – 44 – 30 – 1).

ملحوظة:

هذا الكتاب نشر من قبل على هيئة مقالات مطولة بمجلة مختارات إيرانية الصادرة عن مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية.

الفهرس

- الفصل العاشر: إشكاليات الهُوية الوطنية في إيران

➢ القسم الثاني: جوانب من أبعاد الدولة الإيرانية الحديثة:

- تاريخ الجمهورية في إيران
- المؤسسة الدينية في إيران
- الجمهورية الإسلامية الإيرانية والمهدوية
- تأثير ثقافة المهدوية على القوات المسلحة
- قراءة في صلاة الجمعة في إيران بعد مرور ما يقرب من ثلاثين عاماً على إقامتها
- المساجد والأضرحة الإيرانية (ضريح السيدة المعصومة نموذجاً)
- بماذا يُقْسِم الإيرانيون؟
- المكانة الدينية والسياسية لبعض الشهور في إيران قبل الثورة وبعدها
- الأقليات الدينية المعترف بها رسمياً في الجمهورية الإسلامية الإيرانية
- هجرة الإيرانيين داخل إيران وخارجها
- صلات إيران القديمة بمدن آسيا الوسطى (سمرقند نموذجاً)

- جزيرة كيش الإيرانية
- البترول في إيران
- الغرب واستراتيجيات التغريب "من وجهة نظر إيرانية"

➢ المراجع